تاريخ اليمن الفكري

في العصر العباسي

(٢)

المجلس الهدي الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ اليمن الفكري

في العصر العبّاسي

١٣٢ - ٦٥٦ هـ

٧٥٠ - ١٢٥٩م

السِّفر الثّاني

تأليف

أحمد بن محمّد الشامي

منشورات العصر الحديث

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

طبع وتوزيع :

دار النفائس بيروت - ص.ب : ١٤/٥١٥٢ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقيا : دانفايسكو

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين ، وصحابته الراشدين ، والتابعين باحسان الى يوم الدين .

وبعد فهذا هو السفر الثاني من كتاب « تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي » وقد اعتنى بالحديث عن الشعر والشعراء في الحقبة الثالثة التي سميناها « العهد الصليحي » ؛ وبه ستكمل دراستنا للحياة الفكرية والأدبية في اليمن من عام ١٣٢هـ وحتى أواخر القرن السادس الهجري ؛ ولم يبق أمامنا إلّا الحقبة الرابعة والأخيرة منذ بداية « العهد الأيوبي » سنة ٥٦٩هـ وحتى أواخر القرن السابع وهو ما سيعتني به السفر الثالث من هذا الكتاب إن شاء الله .

جمادى الأولى سنة ١٤٠٦هـ
يناير سنة ١٩٨٦ م

أحمد بن محمد الشامي

الشعر والشعراء

إزدهر الشعر في هذه الفترة المضطربة ، وقد يستغرب ذلك من لا يفهم المعنى الدقيق لكلمة « شعر » ، والسرّ المخبأ فيها ، ولا سيما في المدلول العربي الأصيلِ الذي يسمو بذكاء الانسان فيكون بصيرة ، ثم يزداد سمواً فيكون روحاً ؛ يستنطق أسرار الأشياء التي يراها أو يتخيّلها الشاعر ، فيصبغها بألوان نفسِه أوّلاً ؛ ثم يبدعها في أوزان تهتزّ ، وقواف ترقص ؛ فيهتز القارىء ويلذّ ويطرب .

وإذا كان المعاصرون قد جعلوا « الشعر » من الفنون الجميلة التي منها الموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والرقص ، والغناء . . فلا بد أن نلاحظ بأن هذه الفنون التي يسمونها جميلة The Fine Arts تزدهر بازدهار المجتمعات رخاءً وأمناً ، وحضارة وعمراناً ؛ وتتأثر بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية بل والسياسية ، إبداعاً وحسْناً ، أو رداءةً وانحطاطاً ، إلّا « الشعر » فإنّه لا يتأثر ـ وأقصد من ناحية الإبداع في التصوير والتعبير البياني ـ جودةً أو رداءةً ، وسمواً أو انحطاطاً ؛ لأنك تظفر بالجيّد البديع منه في المجتمعات المتأخّرة عمرانا ، وفي التي ازدهرت حضاريا ؛ في الكوخ أو في القصر ، وتحت أنقاض الخراب ، أو في حدائق النعيم . وفي ظلال خيمة الصحراء ، أو في قاعات العروش ، وفي حانات الشهوات ، أو في المساجد وحلقات الذكر ، منذ أيام أمرىء القيس وحتى قال حكيمٌ عن حافظ ابراهيم : « اللهمّ زِدْهُ بؤساً ليزدْنا أدبا » !

وهذا وحده دليل كاف على أن « الشعر » فنّ بالمعنى اللغوي العربي الأصيل ، وهو هذا الكلام المطرب « الموزون المقفّى » ؛ وفي لغة العرب لكلّ شيء إسمٌ مفرد يدل عليه ؛ وهو ما لا يوجد في كل اللّغات ؛ كأن الله سبحانه لما خلق الكون ومسمّيات أشيائه ؛ ثم « علّم آدم الأسماء كلها » . .

قد علّمها إياه بأسمائها العربية التي سيُنزل بها قرآنه ، ويُرسل محمداً نبيّه وخاتم رسله ﷺ بلُغتِها ، وهو أفصح من يَنطق بضادها ؛ ولعل الأثر الذي يشير الى أن العربية لغة أهل الجنة يدل على ذلك والله أعلم .

وإذن فليس من المستغرب أن يزدهر الشعر في تلك الحقبة المضطربة وأن يكثر شعراؤها ـ وليس لما تعرّضنا لذكره استطراداً ـ بل ولأن معظم ملوكها وسلاطينها وأئمتها ووزراءهم كانوا كما أوضحنا فرسان بيان ، وأرباب أقلام ، يحبون الأدب ، ويكرّمون الشعر ، بل ويتعاطاه البعض منهم ، ويمارسه بقدرة الشاعر المطبوع ، والناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ولقد سبق أن ذكرنا أن الملك علي بن محمد الصليحي والامام أحمد بن سليمان والسلطانان الخطّاب وسليمان والسلطان حاتم اليامي والداعي سبأ بن أحمد والملك جيّاش بن نجاح والملك علي بن مهدي وأولاده ، والأمير عبد الله بن يعلي وأضرابهم كانوا من الشعراء المجيدين .

وسوف نتعرف بين شعراء الفترة القادمة على أئمة وسلاطين كانوا من الشعراء المكثرين والمجيدين ، ومنهم على سبيل المثال الامام عبد الله بن حمزة ، والامام يحيى بن المحسِّن ، والأمراء من بني حاتم ، والأمراء أولاد عبد الله بن حمزة وابن بدر الدين وغيرهم .

تأثر الأدب اليمني بالتيارات الوافدة :

ولا شك أن الأدب اليمني ـ والشعر أهم فنونه ـ قد تأثر بتيّارات وعواملٍ جدّت على المجتمع اليمني ؛ فأوّلاً الأفكار والمبادىء الاسماعيلية ، وثانياً التعاليم الزيدية ، والآراء « الاعتزالية » التي ورّد كتبها إلى اليمن القاضي جعفر بن عبد السلام ـ كما سبق ـ وثالثاً ما نتج عن توثّق العلاقات بين مصر واليمن في هذه الفترة وفي التي تليها ؛ فقد كان « الصليحيون » دعاةً لخلفاءِ وأفكار ، وتعاليم « الفاطميّين » بالقاهرة ، وتعدّدت الرحلات السياسية والعلمية والتجارية بين البلدين ، وزار اليمن الكثير من علماء وشعراء مصر ، كما ارتحل إليها أو زارها بعض أدباء وعلماء وشعراء اليمن ، وكان لذلك كله الأثر الذي يجده الدارس في الأساليب الكتابية ، واللّيونة والرقّة الحضارية في رسائل وقصائد أدباء وشعراء هذه الحقبة .

أعلام شعراء الحقبة الثالثة

[٤٣٩ ـ ٥٦٩هـ / ١٠٤٨ ـ ١١٧٤ م]

لن نستطيع الوقوف مع كلِّ أدباء وشعراء اليمن في هذه الحقبة التي استغرقت حوالي مائة وثلاثين عاماً قمريّاً ، ولن نتمكن من الاحاطة بأسمائهم لكثرتهم ، وحسبنا أن المؤرّخ الشاعر عمارة اليمني قد ذكر منهم في كتابه « المفيد » أكثر من خمسة وثلاثين شاعراً جلّهم من الفحول . كما أن العماد الأصفهاني في « الخريدة » قد ترجم لبعض من ذكرهم عمارة نقلاً عنه وكان من معاصريه [ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١ م] وترجم لعمارة ولثلاثة آخرين ؛ وترجم القفطي في كتابه « المحمدون من الشعراء » لأحد عشر محمداً من شعراء هذه الفترة [توفي القفطي سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٩ م] .

وهناك من لا تزال أسماؤهم مغمورة ، وأشعارهم مطمورة ، ولا ذكر لهم إلّا في كتب الطبقات والسِّيرَ والتراجم التي لم تطبع بعد ، ولم يتسنّ لي الاطّلاع عليها .

وكما قد تحدّثت في السفر الأوّل عن أعلام « المفسرين » و « المحدثين » و « المؤرّخين » و « الفقهاء » و « علماء الكلام » وترجمت لبعضهم ، وأجّلت الوقوف مع « الشعراء » إلى هذا السّفر ، فسأعرّف بمن تمكنت من معرفته ولن أعيد ذكر أسماء من سبق أن ذكرتهم من شعراء الأئمة والأمراء والسلاطين والفقهاء الذين عرفوا بقرض الشعر ، إذ قد ترجمت للأفذاذ منهم وأوردت البعض من أشعارهم وهم بضعة عشر شاعراً .

تعدّد المواهب

وقد سبق القول : إن هناك بين أعلام رجالات اليمن عبر العصور من تعـدّدت جوانب نبـوغهم ومـواهبهم وملكـاتهم فاشتهـروا علمياً وسياسيّاً وأدبيّاً ، وأجادوا قول الشعر ؛ وليس ذلك مما اختص به أهل اليمن بل هو مشهور معروف في كل زمان ومكان ، ومن ألطف وأطرف ما قرأته في هذا الباب ما ذكره العلامة أحمد بن محمد بن خلّكان في كتابه وفيات الأعيان ، وهو يتحدث عن إسحاق الموصلي المغني المشهور ؛ فبعد أن قال إنه كان من ندماء الخلفاء وله الظرف والخلاعة والغناء ، وإنه كان أيضاً من العلماء باللغة والأشعار وأخبار وأيام الناس ، وكان له يد طولى في الحديث والفقه وعلم الكلام قال :

« قال محمد بن عطية العطوي الشاعر : كنت في مجلس القاضـي يحيى بن أكثم ، فوافى إسحـاق بن ابراهيم الموصلي ، وأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم ، ثم تكلّم في الفقه فأحسن وقاس واحتجّ ، وتكلّم في الشعر واللغة ، ففاق من حضر ، ثم أقبل على القاضـي يحيى فقال له : أعزّ الله القاضـي ! أفي شيءٍ مما ناظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن ؟ قال : لا ، قال : فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وأُنسَبُ إلى فنّ واحد قد أقتصر الناس عليه ؟ يعني الغناء . قال العطوي : فالتفت إليّ القاضـي يحيى وقال لي : الجواب في هذا عليك ، وكان العطوي من أهل الجدل ، فقال للقاضـي يحيى : نعم ، أعز الله القاضـي ! الجواب عليّ . ثم أقبل على إسحاق فقال : يا أبا محمد ، أنت كالفرّاء والأخفش في النحو؟ فقال : لا ، فقال : فأنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعي وأبي عُبيدة ؟ قال : لا ، قال : فأنت في الفقه كالقاضـي ؟ وأشار إلى القاضـي يحيى ، قال : لا ، قال : فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية ، وأبي نواس ؟ قال : لا ، قال : فمن هنا نُسِبْت إلى ما نُسبْت إليه لأنه لا نظير لك فيه ، وأنت في غيره دون رؤسـاء أهله ، فضحـك وقـام وانصرف . فقـال القـاضي يحيى للعطوي : لقد وفيت الحجّة حقها ، وفيها ظلمٌ قليل لاسحاق ، وإنه ممن يقلّ في الزمان نظيره » [ص : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ وفيات جـ : ـ١ ـ] .

وتلك طريقتنا : فبعد أن ذكرنا من قال شعراً من ملوك وأئمة وفقهاء هذه

الحقبة ، سنفرد هذا الفصل للأعلام من شعرائها ونتحدث حتى عن من سبق أن ذكرناه بين الفقهاء واللغويين والمؤرخين لكنه اشتهر أكثر ما اشتهر كشاعر ، وكان من المجيدين ، ولأن معظم ما ظفرت به من تراجم أو أخبار شعراء هذه الحقبة لا تحدّد سنوات الميلاد أو الوفاة لِمن سأذكرهم ، وأسجل بعض أشعارهم وأخبارهم ، فقد رأيت أن أرتّب تراجمهم ترتيباً أبجدياً .

١ ـ ابن مكرمان
[٤٤٥ ـ ٥٤٦هـ]

هذا شاعر فحلٌ كان له في قومه منزلة كبيرة وجاه عريض ، وكان أهل اليمن يتهادون أشعاره ، وحفظه الناس ، وسار في الأفواه ؛ ومع ذلك فهو مثل « ابن الهُبَيْني » شاعر الملك « ابن مهدي » ، ومثل غيره من شعراء وعلماء وفقهاء تلك الحقبة ؛ مجهول الاسم والنسب والولادة والوفاة ، وديوان شعره لا يزال بين الموؤدات ، ولولا أن الشاعر المؤرّخ عمارة اليمني كان يحفظ إحدى قصائده فسجّلها في كتابه ونقلها عنه العماد الأصفهاني في « الخريدة » لما عرفنا عنه شيئا .

يقول عمارة في كتابه « المفيد في أخبار صنعاء وزبيد » ما يلي :

« وممّن رأيته شيخاً ، قد ناهز المائة الشاعر المعروف بابن مكرمان ، وهو من أهل جبال « برع » ، ورأيت أهل تهامة يكرمونه ويعظمونه ، ويعتمدون عليه ، ولست أحفظ له إلّا قصيدة مدح بها الشريف الأمير غانم بن يحيى بن حمزة السليماني فأثابه عنها بألف دينار ، ولست أعرف من شعر أهل اليمن ما سار مسيرها في أفواه العامة وأولها :

ما عسى أن يريد مني العذولُ ... وفؤادي متيمٌ متبول ؟
همه الهجر للغواني ، وقلبي ... سلبته خريدة عطبول
وجهها أبلج ، ومبسمها درٌ ... ولكن الطرف منها كحيل !
كيف صبري وقد بدا لي من السـ ... ـجف أثيث جعد وخد أسيل
ولها ناهد وخصر لطيف ، ... وقوام شخْتٌ ، وردف ثقيل
تطلب العاذل المكلف يثني ... من هوى القلب وهو لا يستحيل
يا خليلي من ذؤابة قحطا ... ن بن هود ؛ الآن جد الرحيل

إن « بالساعد » الخصيبة ملكا ... طالبيا من زاره لا يعيل
علويا متوجا هاشميا ... حسنيا نواله مبذول
أنتم يا بني البطين ليوث ... وغيوث ، وأبحر ، وقيول
ما رنا طالب إلى مجدكم بالطر ... ف إلا ثناه وهو كليل
ومتى هم أن يساويكم أعوزه ... السؤدد العريض الطويل
يا سليل البطين والحرة الزهرا ... هيَ الطهر والحصَانَ البتول
خمسة خصهم بتخصيصه الخالق ... ربي وهو اللطيف الجليل
ما لهم سادس عداه الذي مدّ ... عليهم كساؤه جبريل
ما ترى في الملوك كالغانم الملك ... ابن يحيى هيهات أين المثيل ؟
أنت يا ابن الوهّاس بدر معال ... ماله مذ أضا علينا أفول
لك خلق كأنه المسك عرفا ... دونه في مذاقه السلسبيل
حيث ما كنت أو حللت من ... الأرض حليف العلا وأنت أهيل
لم أجالس إلا الملوك ولم أمد ... ح سواهم ولم يجزني السبيل
إن تجوهرت في المديح فاني ... أجد المدح واسعاً فأقولُ
منكم يحسن الصنيع ، وأنتم ... خير من يُسأل العطا فينيل

***

هذا هو كل ما نعلمه عن « ابن مكرمان » إستناداً إلى ما بين أيدينا من كتب التاريخ والأدب ؛ فهو « بُرَعي » أي من جبل « برع » المشهور الذي أنجب العديد من شعراء اليمن وأدبائها عبر العصور ، وقصيدته اللامية : ما عسى أن يريد منّي العذول وفؤادي متيمٌ متبول ؟ والتي لا يزال اليمنيون يترنمون بها حتى يوم الناس هذا . . قد اشتهرت في عهد عمارة ، ولم يسر شعرٌ يمني مسيرها في أفواه أبناء اليمن بما فيهم الشاعر الكبير عمارة الذي ظل يحفظها حتى بعد هجرته إلى « مصر » ، وتغنّى بها وسجلّها بعد أن جاوز الخمسين في كتابه عن أخبار « صنعاء وزبيد » .

والقصيدة سلْسَة الألفاظ ، بديعة المعاني ، جيّدة السبك تنبض بحرارة الصدق ، وعمق الولاء ، وتذكّر بروائع « الهَبَل » و« إبن هُتَيمل » ولا يستطيع الناقد أن ينسى أنه يجاري بها قصيدة أكبر شعراء الاسلام أحمد بن الحسين المتنبي :

ما لنـــا كلّنـــا جوٍ يا رســـول ؟ أنـــا أهـــوى وقـــلبـــك المتبـــول

والتي منها البيتان المشهوران :

نحـن أدرى وقـد سألنـا بنجـد أقـصـير طريـقـهـا أم يطول ؟
وكـثـير من الـسـؤال اشتيـاقٌ وكـثـيرٌ من ردّه تعـليـل

***

ولا يفكّر في أن يطاول أو يجاري « المتنبي » ثم يجيد هذه الاجادة إلا شاعر خنذيذ صال في دولة الشعر وجال بباع طويل .

وعمارة ـ وهو الوحيد الذي حدثنا عن « ابن مكرمان » ـ لم يحدّد العام الذي ولد فيه ؛ ولكننا نستطيع أن نستنتج من قوله : « رأيته شيخاً قد ناهز المائة » أنّه قد ولد حوالي عام ٤٤٥هـ وذلك لأننا نعلم أن عمارة قد هاجر إلى زبيد لطلب العلم وهو في حوالي السابعة عشرة ، سنة ٥٣١هـ فإذا افترضنا أنـه قد شاهـد « ابن مكـرمان » وحفظ بعض أشعاره حوالي عام ٥٤٠هـ والشيخ قد ناهز المائة أي في الخامسة أو السادسة والتسعين من عمره فتكون سنة ولادته سنة ٤٤٥ أو ٤٤٤هـ أو قبل ذلك بعام أو عامين .

وإذن فقد نشأ في مطلع العهد الصليحي ، ثم عايش كل الأحداث التي سبق تفصيل أخبارها وصراعاتها ، وفئات دولها وطوائفها في السفر الأول ، فهـو بحق ابن هذه الحقبة وشاهدها ، ولو ظفرنا بديوان شعره لعرفنا منه ما لا يزال خفيّاً من أسرار أخبارها .

ويظهـر من نفس وروح قصيدتـه اللامية أنه قد انقطع لمدح الأشراف السليمانيين وأن الأمير غانم بن يحيى بن حمزة الذي كان من صانعي أحداث النصف الأول من القرن السادس الهجري مع أئمة الزيدية والصليحيين ، والحجوريين ، والنجاحيين ، كان يكرمه ويقدّمه على غيره من الشعراء ، ولا نظن أن الشـاعـر قد رأى مصرع ممدوحـه على يد الطاغية عبد النبي بن مهدي سنة ٥٦٠هـ إلّا إذا كان قد عاش حتى جاوز الخامسة والعشرين بعد المائة وذلك بعيد الحدوث .

و « بُرع » التي ينتمي إليها « ابن مكرمان » ـ بضم الباء وفتح الراء المهملة ثم عين مهملة ـ ناحية وجبل معروف من الجبال المشرفة على تهامة في الجهة الغربية عن صنعاء على مسافة خمس مراحل منها للرّاجل ، وجبل برع واسع فيه جملة قرى وحصون وهو مرتفع على مسافة يوم من أسفله إلى أعلاه ، والقرى في رأسه وفي سفوحه ، وأكثر مزروعاته القات والبن ، وفيه من الطعام ما يكفي أهله ، ويصلح فيه الزنجبيل والموز والكثير من الفواكه ، والطرق إلى رأسه وعرة جداً . وممن ينسب إليه الشاعر عبد الرحيم البُرعي صاحب الديوان المشهور في الآلهيات ومدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . .

وأنظر « بلدان اليمن ج ـ ١ ـ ص : ١١٥ ـ ١١٦ »

٢ ـ ابن الهُبَيْني

[ت : ٥٦٩هـ]

وهذا هو الشاعر المجهول إسماً ونسباً ومولداً ووفاةً كمعاصره « ابن مكرمان » وصاحب الأبيات المشهورة التي منها على لسان الملك « ابن مهدي » :

أتشْرَبُ الخمر في ربا « عدن » والسمر والبيض في « الحُصَيب » ظما . .
ويُلْجِمَ الدين في محافلها والخيل حوليّ تعلك اللجُما ؟

وقد سبق الكلام عنه وسجلنا بعض ما روي أو ما بقى من شعره ونحن نتحدث عن الملك علي بن مهدي وأولاده .

ومن المرجّح أنه قتل مع عبد النبي بن مهدي ضمن من أعدمهم صبرا السلطان « توران شاه » الأيوبي سنة ٥٦٩هـ .

وبالرغم من أن « ابن الهُبَيْني » و « ابن مكرمان » نشآ في عصر واحد ، وربما ينتسبان إلى بلدة واحدة ولعلّهما كانا صديقين وكلاهما شاعر فحل ، إلّا أنهما كانا على طرفي نقيض ؛ رأياً وهوى ومذهباً ، فبينما كان « ابن مكرمان » سنيّ الهوى محباً لآل الرسول مدّاحاً للأشراف السليمانيين ؛ كان « ابن الهُبَيْني » خارجياً يدين بما يدين به ممدوحه ابن مهدي قاتل الأشراف ، وإذا كانَ الأمر كذلك ، فإن حالهما تشبه حال الشاعرين « الكميت »

و « الطرماح » ؛ فقد كانا صديقين على تفاوت المذهب والعصبية والهوى .

٣ ـ أحمد بن علي التهامي

من شعراء العهد الصليحيّ الأوّل ولكنه ممن أبادت أشعارهم وأخبارهم التعصبات المذهبيّة ، والخنزوانات الطائفية ، ولم يصل إلينا شعره . . أو على الأصحّ لم أطلع على شيء من شعره إلّا على قصيدته التي هنأ بها المكرّم الصليحي في سنة ٤٦١هـ بعد إستنقاذه لأمه أسماء من « زبيد » وانتصاره على النجاحيين ، وهي من الشعر الجزل الجيّد ومطلعها :

نفضت غبار العار عن ثوب يعرب ... وقد سحبت أعطافه كلّ مسحب
بشعواء في صنعاء قرع طبولها ، ... وأصداؤها بالعرق دون المحصّب
أدرت على درب الحُصيب مع الضحى ... رحى ذات قطب حاشدي ولولب
فأضحوا على الأبواب صرعى كأنّهم ... قبائل عادٍ في الصباح العصبْصب
وجئت وأم المؤمنين وسِربُها ... كزينب يوم الطفّ حول المخضّب
حماها الذي أعطاك ملكاً كما حمى ... بنات عليّ من مسوخ وأكلُب
فان ذكرت بالفخر يوماً نسائها ... قريش ؛ كعمرو ، أو كعيسى ومصعب
أو الخرق عتّاب ، أو المرء خالد ... أو الشهم مروان الخطيب المهذّب
وأخوتنا الأزد اليمانون أن أتوا ... بغرّ بني الأيام آل المهلّب
أتينا بذي السيفين أحمد ؛ إنّه ... يفوق على الحيّين أدٍ ويعرب
لقد طالهم فخراً ومجداً ونجدةً ... كما طال كيوان على كل كوكب

***

إلى أن يقول :

أليس نظام المؤمنين أميرنا ... أباك ، وإن الفخر للمتسبّب
وأمّك بنت القيل من آل جعفرٍ ... فناهيك من أمٍ ، وناهيك من أب
ومكنك الباري على لوح عرشه ... طراز العلى في مفخر النسج مذهب
فدم لبني قحطان يا رأس عزّهم ... ومهيعهم في الحادث المتعصّب

***

وقد نقل القصيدة الدكتور حسين الهمداني في كتابه « الصليحيون » عن

الجزء السابع من مخطوطة كتاب « عيون الأخبار » للعلامة أدريس بن الحسن القرشي المتوفي سنة ٤٧٢هـ ولم يتعرض لذكر ولادة أو وفاة الشاعر مما يدل على أن معظم أخباره وأشعاره قد أتلفت أو لا تزل بين المؤودات .

ونحن لا نعلم أين ولد أحمد التهامي وفي أي صقع نشأ وما يعرف بتهامة يحتل مساحات شاسعة من جزيرة العرب ؛ وحكمت موحّدة ومجزّأة من قبل عدّة دول وإمارات ؛ هذا إذا لم يكن من قضاة آل التهامي العريقين إقامة وعلماً وأدباً في صعدة ، وصنعاء وزبيد .

٤ ـ العثماني
[ت : ٤٦٢هـ / ١٠٧٠ م]

شاعـر ماجن أصله من العراق واسمه أحمد بن محمد العثماني نسبة إلى الخليفـة عثمـان بن عفّان رضى الله عنه ؛ ولكنه تيمّن وأثّر وتأثر بأحداث اليمن في القرن الخامس الهجري واتصل بالدولتين الصليحيّة والنجاحية ، وقد تحدّث عنه عمارة في « مفيده » وأورد بعض أخباره وأشعاره ، وسبق أن أوردنـا أبياتـاً من قصيدته الدالية في مقتل الملك علي بن محمد الصليحي وذكرنا تشفّعه إلى ابنه الملك المكرم بالقاضـي عمران بن الفضل اليامي .

قصته مع نصراني نجران .

وقـد نزل في بداية أمـره على بني عبـد المدان بنجران ، وتظاهر بالزهد والورع فأعانوه وأعالوه وأكرموا نزله ، وكان ثمة أحد النصارى اسمه رشيد بن عبد الواحد وكان أديباً حاذقاً ومن أهل اليسار والاسراف ، ويحب اللهو واللعب ، فعرف أن العثماني يتظاهر بالعفة تمويها وتستراً ، وأنه يرى شرب الخمر ، قالوا فبعث النصراني إليه غلاماً بقارورة فيها شراب قد خفي لونه ، وقُتِلَتْ رائحتُها ، وقال له : يقول لك مولاي ما هذا الدهن فانه لا يعرفه ؟ ودفع إلى الغلام رقعةً وقال له : إذا تعرّف العثماني على ما في القارورة ، وذاق ما فيها ، فادفع إليه الرقعة ؛ فلما أتى الغلام إلى العثماني وسلّمه القارورة ، فتحها وتَنشّقها ثم تذوّقها ، فدفع الغلام إليه الرقعة فإذا فيها :

لسـت أدري من رقـة وصـفـاءٍ أهي في الكأس أم ترى الكأس فيها

فكتب العثماني على ظاهر الرقعة بعد ما شرب ما في القارورة :

قد أتــتــني يا بنِ الأكــارم راحٌ هي رُوحٌ ؛ لا بل علَتْ تشبـيهــا
لطفــت جوهــراً فلم أتـبـيّنَ أهي في كأسهــا أم الكـأس فيهـا !
فتـمـنيّـت أن غدوت جليسـاً ، أو أنيـســاً عبــداً لمستعمليهــا !

فلما رجع الغلام بجوابه بعثوا إليه بغلة وأتى مجلس النصراني وهو مكتظٌّ بالندماء وانعقدت بينهما زمالة وصحبة .

قالوا ثم كان ينادم سلاطين بني عبد المدان ، منصور بن المهلب ونباتة بن منصور بن منيع ، واختلط بهم وبندمائهم ، وأنسوا إليه ، وقال أشعاره السّيارة فيهم وفي الخمـر ، وخلع عذارة فكـان يشرب جهارا ولا يرى إلاّ معربدا سكرانا . ومما قاله في الخمر :

قم فاسقنيهــا يا ابن عبــد يسوع صهبــاء صافيــةً كلون دمــوعي
واخـــلع عذارك عالمــاً أن الــذيَ قد فاز بالــلذّات غير خليــع
وارشـــد بنــا ما دام «رشــدٌ» باقيـاً في عزّة و «نــبــاتــة» بن منــيــع

وهي قصيدة طويلة يقول فيها :

وشربت حتى صرت لست بعـارف من أين جئتُ ، وأين طُرْق رجوعي!
وظللت أنشــد من لقيت بسكـرتي أين الــطريق لدرب آل « ربيــعِ »
غيــظاً لســنيّ يحرّم شربهــا ، بعـد الصلاة ، وغيظ آخـر شيعي

***

شعره في الصليحي ونهايته

وقـد فارق بني عبـد المـدان واتصل بسلاطين صنعاء وزبيد وعدن من الصليحيين والنجاحيين ومدح قوّادهم وأمراءهم ، فلمّا قتل الصليحي قال يهجوه ويهنىء سعيد الأحول :

يا سيــف دولــة ديــن آل محمــدٍ لا سيف دولــة خيــبرٍ ويهــودِهــا
صبراً فلم يك غير جولــة مرودٍ حتى انـطفت جمرات ذات وقـودها
أقـدمـت يوم السبت تقـدم فتيــة تلقى الـردى بنحـورهـا وخـدودها
ورأيـت أعــداء الشريعــة شرّعــاً صرعى وفـوق الرمح رأس عميدها
أوردتهــا لهب الـردى وصـدرت في ظلّي مظلتـهــا ، وخـفـق بنـودهــا
ا يا غرّةً لعــليّ بن محمــدٍ ما كان أشــأم من صدى غريـدهــا

بكَـرَتْ مظلتــه عليـه ؛ فلم ترح إلاّ على الملك الأجـل سعيــدهــا
ما كان أقبــح وجهــه في ظلهــا ما كان أحسن رأســه في عودهــا !
سود الأراقم قاتلت أســد الثـرى يا رحمتــا لأســودهـا من سودهـا !

***

ومنها في الصليحي :

وأراد ملك الأرض قاطبــةً فلم يظفــر بغير الباع من ملحـودِهـا
أضـحى على خلاّقهــا متعــظِّما جهــلاً ؛ فألصق خدّه بصعيــدهـا
تعـســاً لأيـام الـروافض إنها رفضت مروءتهـا لنقض عهـودهـا
ما كان أكـذب شعرنـا في مدحها ما كان أنــزر حظنــا من جودِهـا

***

وقد أغضبت هذه القصيدة الملك المكـرّم الصليحي ـ وحق له أن يغضب ـ فقد شبه دولتهم بدولة اليهود ، وقال إنهم أعداء الشريعة ، وهجا الملك القتيل وشمت وسخر ، ولذلك فقد أهدر دمه المكرّم فهام على وجهه ، ومما قاله في ذلك قصيدة لم يورد عمارة منها إلاّ هذا البيت :

قتـلتـهُ حرابـة ابــن نجـاحٍ وطـلبـتـم بثـأره الـعـثـماني

وقد روى أدريس القرشي في كتابه « عيون الأخبار » أن « المكرّم » لما ظفر بابن نجاح سعيد الأحول واحتل زبيد طلب « العثماني » ، ولكنه هرب وظل متنقـلاً لا ينـزل ببلد إلاّ لينتقـل إلى آخـر حتى انتهى به الـترحـل إلى « نجـران » ، وعلم ـ وقد بذل المكرم فيه الأموال الجزيلة ـ أن الهرب لن ينجيه ، وأنّـه مدركـه بالطلب ، وكان بينه وبين القاضـي عمران اليامي صداقة وود أيامٍ كان من شعراء البلاط الصليحي ، وقد سمى أحد أولاده « عمران » تبركاً باسم القاضـي الذي كان صاحب الأمر عند المكرّم وأمير جيشه وله الوزارة والتصرف المطلق فيما يشاء ، فصنع العثماني قصيدة وأنفذ بها ولده « عمران » إلى القاضـي الوزير وهو يومئذٍ في المنظر بصنعاء مع الملك المكرّم ؛ فتقدم القاضـي عمران إلى المكرّم ومعه ابن العثماني .

قالوا : وكانت عادة عمران بن الفضل إذا دخل على الملك المكرّم أن يقوم

المكرّم لاستقباله ، ويقعده على سريره ، فلما نهض له وأخذ بيده ليصعده إلى السرير قال عمران : لا أفعل حتى تقضي لي حاجتي ؛ فقال الملك : هي مقضية ولو كانت في أمان العثماني ! فقال عمران : ذلك أريد ، وهذا الغلام ولده ومعه قصيدة ، وقام الغلام فأنشدها ؛ قالوا إن المكرّم قال بعد أن فرغ الغلام من إنشاد القصيدة : « إن صدق ظني فانك تجد أباك قد هلك ، إنني أجد في هذا الشعر آخر أنفاسه » ، ولما عاد الولد إلى مكان والده وجده قد هلك !

فهل يا ترى المكرّم كان قد علم بالشفاعة من قِبل القاضي عمران في العثماني فبذل جهده في تنفيذ اغتياله كما يقول بعض المعلّقين ، وإنما قال ما قاله في مجلسه بعد سماع القصيدة تبريراً ؟!

والقصيدة في أربعين بيتاً ومطلعها :

ماذا تردّ على الركبان عدنان … إن لم تَجُدْ بجميل الصنع قحطانُ ؟
يا ليت شعري يا ابن الفضل مالكنا … هل عندكم لعظيم الذنب غفران ؟

ومنها :

تقول بنتي : أمعِنْ في الفرار وهل … من «ابن أسماء» يغني اليوم إمعانُ؟
وأين وليّت أرجو الأمن خيّل لي … من حيث سرت بأن الأرض نيران
وكل صادحة للطير صارخة … وإن بدت لي ظباء قلت: فرسان
حتى كأن نجوم الأفق من جزع … ولامع البرق أسياف وخرصان

***

نماذج من شعره

يسلك العثماني في شعره مذهب شعراء الخلاعة والدعارة والمجون ، ولا سيما في خمرياته ، ويكاد يظن من يصغى إليه أنه يستمع إلى أبي نواس أو أضرابه من شعراء بغداد ، مثل تلك التي رواها عنه عمارة في مفيده قال : وله من قصيدة أولها :

إن من يعرف أيام الصبا … صدّ إذ أبصر شيبي وصبا
والتي تعرف مهري أدهما … أنكرته إذا رأته أشهبا
أخوتي ؛ هبّوا فقد هبّت لنا … نغم الطير وأنفاس الصّبا

فاصرفوا الهمّ إذا وافاكم ، وخذوا من عيشنا ما وُهِبا
ضمّ شمل الود منا مجلس ترقص الأركان منه طربا

ومنها :

قل لعبد القيس : يا أكرم من مدّ كفّا بحباء ، واحتبى
فارس الخيل إذا ما ركبا ، أكرم الناس إذا ما وهبا ،
أصبحت نجران لي مرتبعا والمدانيون أمّاً وأبا
في بهاء ليل صحوا أو سكروا أكرمونا ، وأهانوا الذهبا

ومنها :

رب شمطاء طرقناها وقد ركد الليل وأرخى الطنبا
قالت الطارق من ؟ قلت أنا وأصيحابي ؛ فقالت : مرحبا
ثم أومت نحو مصباح لها كاد يخبو سحراً أو قد خبا
رفعت في الصحن دنّاً خلت في جنبات البيت منه لهبا
فسقوني منه حتى صرت من سكرتي أحسب مهري أرنبا
إن من قد عابها من بعدما عتّقت في دنّها لي حقبا
يحتسيها عند ريعان الصبا ويخلّيها إذا ما اضطربا
كالتي في رمضان لم تصم بلهاً منها ، وصامت رجبا

***

وله من قصيدة طويلة :

ما العيش إلاّ كاعبٌ وعقار وأكارمٌ نادمتهم أخيارُ ؛
قم فاسقني بالكأس من تلك التي أهل النهى في وصفها قد حاروا
واشرب ولا يلحقك خوفُ عقوبةٍ فيها فربّ حسابها غفّارُ
خذها ؛ فان حلت أصبت وإن تكن حرمت فمحو ذنوبها استغفارُ
لا تصرفوا عني الكبير فأن لي في شرب كأس كبيرها إكبارُ
لو كان فيها ريبة ما كان في جناته منها لنا أنهارُ

***

ومن مديحها في بني عبد المدان :

قُومَا انحرا إبلي فقد طابت لنا ... نجرانُهم ورجالها ، والدارُ
جاورتهم ضيفاً فحين ألفتهم ... طابت لنا بلدٌ ، وقرّ قرارُ
وأخافني بعدي فلما زرتهم ... أصبحت أُقصَدُ مثلهم وأزارُ

وقد أجاب على ما في هذه الأبيات من فسوق وضلال أبو منصور محمد بن عبدون البصري لما قدم إلى نجران بقصيدة منها :

لعبت بلبك كاعبٌ وعقارُ ... وأسَالَ ماء حياءك الخمّارُ
وسرت إليك بها الأماني إذ سرت ... وأرتك أن الموبقات صغارُ
وصبا فؤادك فاستقدت لمعشرٍ ... حسوا الكؤوس فقلت هم أخيارُ
وأتاك إبليسٌ يجرّ رداءه ... لما رآك وما عليك وقارُ !
فلقيته نشوان مسلوب الحجا ... في حالة تزهو بها الفجّار !

إلى آخرها .

سنة هلاكه :

لم يحدثنا عمارة عن سنة هلاك العثماني الداعر ، ولكنّنا نستطيع أن نستنتج أن ذلك كان والملك المكرّم لا يزال مستقراً في صنعاء قبل أن يستقر رأيه ورأي زوجته الملكة السيدة بنت أحمد على أن تكون قاعدة دولتهم « جبلة » بعد وفاة أمّه أسماء بنت شهاب بصنعاء سنة ٤٦٧هـ .

نستنتج هذا من قول المكرّم لابن الشاعر العثماني « إنك ستجد أباك قد هلك » وإن ذلك قد كان ولعل اغتياله كان حوالي عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠ م أو قبل ذلك بعد انتصار المكرّم على النجاحيين وقتل سعيد الأحول سنة ٤٦١هـ حسب رواية الدكتور الهمداني .

٥ ـ ابن مرزوق

ومن شعراء الدولة « الزريعية » بعدن الشاعر أحمد بن مرزوق ذكره « عمارة » وقال إنه كان مقرئاً وأورد له أبياتاً منها :

ما دون نائلكم مطالٌ يتّقي أبداً ، ولا دون الوجوه حجاب
آل « الزُّرَيع » زرعتم العز الذي جادته منكم للسماح سحاب
لسنا نُبالي بعد طيب أصولكم وفروعكم خَبُثَ الورى أو طابوا

ولم يذكر سنة وفاته ولا شيئاً من أخباره .

٦ ـ ابن نحارة
[ت حوالي : ٥٣٠هـ]

الفقيه أبو العباس أحمد بن نحارة الحنفي ، وصفه عمارة بالتبريز في علم الكلام واللغة والأدب ، وقال إنه كان يحذو في شعره طريق أبي نواس ، وعرف بالخلاعة والاستهتار ، واجتاز ليلة بدار القاضي أبي الفتوح بن أبي عقامة وهو سكران يخلط في كلامه ، فصاح عليه وليس عنده أحد من أعوانه : إلى هذا الحد يا حمار ؟؟ فوقف ابن نحارة وارتجل مخاطبا له :

سكرات تعتادني وخمارُ وانتشاء اعتاده ونعارُ
فملومٌ من قال إني ملومٌ وحمارٌ من قال إني حمار

وهو من شعراء الدولة « النجاحية » بزبيد ، وقول عمارة إنه لم يدركه يدل على أنه توفي قبل عام ٥٣٠هـ .

٧ ـ ابن النّوقا
[ت حوالي : ٥٢٠هـ]

الشيخ إسماعيل بن محمد المعروف بأبن النّوقا ، أثنى عليه عمارة في مفيده وقال : « نال وزارة القلم للملك جيّاش بن نجاح ثم للملوك من أولاده وهم الفاتك ، والمنصور ، وعبد الواحد ، وما منهم إلا من أكرمه وعظمه ، وكان في نفسه سيداً رئيساً جليل القدر ، واسع الخير بماله وجاهه ، مأمون الغائلة طاهر المحضر والصدر واللسان ، وأدركت أولاده بزبيد سعيداً وسعداً وعبد الفضل وعبد المحسن ولهم من نباهة القدر ، وارتفاع الوجاهة ، وبُعد الصيت ما هو مشهور لهم ، معروف منهم وعنهم ، وشعر أبيهم إسماعيل كثير يُتَغَنّى بغزله رشاقة ، ويُتمثّل بجزله وثاقة ، فمن غزله قوله :

عند روض الربيع لي أوتارُ تقتضيها الصهباء والأوتارُ

ومن غير الغزل قوله في مطلع قصيدة تخلّص فيها إلى مدح الشريف يحيى بن حمزة السليماني :

يا طاوي الفلوات طيّ المدرج   عج نحو منعرج الكثيب وعرّجِ

وشعره كثير طيب وهو موجود باليمن » [ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥] .

ولم يذكر عمارة سنة وفاته ، ولعلها كانت قبل ارتحال عمارة إلى زبيد للدراسة ، نستنتج ذلك من قوله أنه تولّى الوزارة أو ديوان الانشاء للملك جيّاش وأولاده . وقوله إنه أدرك أولاده بزبيد ، وشعره الكثير الحسن لا يزال بين المفقود أو الموؤد من الشعر اليمني .

٨ ـ إسماعيل بن علا
[حوالي : ٤٥٥هـ]

شاعر ترجم له ابن أبي الرجال وقال إنه كان من كبار الزيدية ومشاهيرهم ، وكان لغوّياً أصولياً وان له رسائل وردود على « المطرفية » ، وأنشأ في ذلك أرجوزة طويلة منها :

يا أخويّ من بني عقيل   كم مشرك بالواحد الجليل
يزعم أنّ خلق كل جيل   بحكمة الأربعة الأصول

ومنها يخاطب رجال التطريف :

كنا وإياكم معاً إخوانا   حتى نطقتم ذلك البهتانا
مقالةً تخالف القرآنا   ما قالها من عبد الأوثانا

وقد أورد له قصيدة طويلة في الامام القاسم العياني في قضية « بني الربيعة » ومطلعها :

ألا أقصرا عنّي لأمّكما الهَبلْ   وكفّا عتابي في الملامة والعذلْ
ملامكما لي غيّةٌ فتجنّبا . .   ملام فتىً عن ثوبه العار قد غَسلْ
دعاني ؛ فقد أقصرت عن طرق الصبا   وتبت عن اللذات واللهو والغزلْ

***

ثم أورد محاورةً للملك علي محمد الصليحي مع ملوك وسلاطين اليمن لمّا

احتلّ « البون » وفيه يفضل اسماعيل بن علا على إمرىء القيس ، ويعني هذا انه قد أدرك الصليحي ولعلّه توفي حوالي عام ٤٥٥هـ وقد أشرف على الثمانين أو جاوزها .

[مطلع : ٣٥٩ ـ ٣٦٢ ـ ج ـ ٢ ـ]

ومن أرجوزته التي هاجم بها فرقة « المطرفية » وانتقد معتقداتهم :

وقلتم الموت المتاح المبرَمُ ليس من اللّه عليكم يحتمُ
سودا وصفرا قلتم وبلغم من الطباع والغذاء والدمُ
[إن سلمت في المرء فهو يسلمُ]
رووا لنا أن صبيّاً ماتا في ريدة وجاور الأمواتا
فقال شيخ حضر الوفاةَ وحمل المشعل والمخلاة
[لو أحكمته أمه ما ماتا]

راجع فصل نشأة المطرفية في السفر الثالث ، ومطلع البدور ج ـ ٣ ـ لوحة ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، ولعله قد عرف « مطرف بن شهاب » وجاد له وناظره .

٩ ـ أبو بكر العندي
[ت : ٥٨٠هـ]

الشاعر الكاتب المترسل الأديبُ صنْعَةً ولقباً ؛ أبو بكر بن أحمد العنَدي وهو من أكابر أعلام الدولة الزريعية في عدن ، وقد أطلق عليه إسم «الأديب » فإذا قيل : قال الأديب عرف الناس أنه المعنيّ ، وقد تولى أيضا القضاء الأكبر وديوان الانشاء .

ونِسبةُ « العنَدي » بالنون إلى الأعنود ؛ قبيلة وبلد في ضواحي « أَبينْ » وهو ما رجّحه بعض المؤرّخين المحدثين ، أمّا ما زُبر في كتب الأوائل ـ ولعلّ ذلك تصحيفا ـ فهو « العَبْدي » بالباء الموحّدة نسبَة إلى « الأَعبود » قوم من « أَبيْن » أيضاً كما يقول « المؤرّخ محمد الحجري » . والقياس أن يقال الأعنودي أو الأعبودي !

وقد ترجمه تلميذه الشاعر المؤرّخ عمارة اليمني في « مفيده » فأثنى عليه ثناءً مرضيا وقال : « ومنهم من جعلت ذكره فارس الأعقاب ، وجمال من مضى

وما يأتي من الأحقاب ، وهو الشيخ الأجل الفاضل أبو بكر بن أحمد العندي وزير الدولة الزريعيّة ، وصاحب ديوان الإنشاء ، وما من شيمة من شيم الانسانية ، وفضائلها المكتسبة والنفسانية ، إلاّ ويجب أن يفرد في جميل ذكرها ، ويجرد في تأليف فرائدها ، ولا أعرف قبله ولا بعده من أصدق فيه إذا قلت : إنّه ليس مثله من دينٍ حصين ، وعقل رصين ، وسؤدد عريض ، وكرم مستفيض ، وتواضع لا يضَع ولا يرخص من رتبته العالية الغالية ، فأما البلاغة فهو إمامها ، وبيده زمامها ، وأما خاطره فأهدى من النجم الساري وأسلس من العذب الجاري ، وأما عبارته فلا يعوقها حبس ، ولا يشوبُها لبس ، فسيح في الاطالة ـ مَجَالُه ، موف على الرويّة ارتجِالُه ، يكاد نظمه أن يبتسم ثغره ، ونثره أن ينظم درّه » .

ثم قال إنه سمع « الشيخ الأجل الموفّق أبا الحجّاج في الأيّام الفائزية والقاضي الجليس أبا المعالي عبد العزيز بن الحباب ، وهما يومئذٍ صاحبا ديوان الانشاء للدولة العلوية [بمصر] وما منهما إلاّ من يقول : لم تصل إلينا مكاتبة أحد من الآفاق ، ولا رأينا لكتاب الشام والعراق ، ما رأيناه من حسن مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب أبي بكر بن أحمد العَندي ، فان له بلاغة تشهد عذوبة مطبوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل مبانيها على فضل معانيها » .

وقد أطنب عمارة في ترجمته لأستاذه ، وسجل العشرات من قصائده وذلك يغنينا عن تكلفّ صياغة ترجمة له لن نطرف فيها بجديد ، وسنكتفي بما قاله عمارة ونعلّق بما نراه .

مولده ونشأته وعلوّ شأنه :

لم يحدثنا أحدٌ عن تاريخ ولادة « العندي » ، ولا ذكر لنا المؤرّخون تفاصيل نشأته الأولى ؛ وإذا كان « عمارة » قد قال : « فأما مولده فمن أهل أبين ، وهو أبين عدن حدثني الفقيه مقبل الأبيني

وغيره قالوا : كان والد الشيخ الأديب سيداً صالحاً يهتدي الناس بحسن أفعاله وينتهون إلى حدود أقواله ، جواداً بما ملك ، محمود الأثر حيث ما سلك .

وحدثني أحمد ويكنى أبا سوار وغيره قال سمعت مؤدب أبي بكر العندي وهو بين يديه في المكتب يدعو له وقال : والله ليخرجن هذا سيداً رئيساً وذلك إني إذا فسحت للصبيان لم يلعب معهم ولم يفارقني من المكتب هذا ولم يبلغ عمره عشر سنين وما أحسن قول الشاعر في هذا المعنى :

بلغت لعشر مضت من سنيك ما يبلغ السيد الأشيبُ
فهمك فيها جسام الأمور وَهَمّ أولئك أن يلعبوا »

وعرفنا من ذلك أن أباه كان سيداً صالحاً ، وجيها في قومه ، كريماً مسموع الكلمة . فانه لم يحدّد تاريخ ولادته ، ولا في أيّ عام تلقفته بلدته الصغيرة في زاوية من زوايا جنوب « الجزيرة العربية » ، وهي لا تدري أنها تستقبل شاعراً كبيراً ، وأديباً سيكون له شأن في بلده « اليمن » ، ويطرب الناس لشعره ونثره في الشام ومصر والعراق وسائر أصقاع بلاد الاسلام .

ولكن . . ولأن عمارة قد أخبرنا في « مفيده » أنه قصد عدن تاجراً سنة ٥٣٦هـ وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين ، وسوف يحدثنا ونعرف منه أن أبا بكر العندي كان قد أصبح وزيراً كبيراً وشيخاً مقصوداً وأنه كان قد تولّى رئاسة « ديوان الانشاء » للدولة الزريعيّة فنستطيع أن نحدس أن الشيخ العندي كان على الأقل في سن الأربعين إن لم يكن قد تجاوزها . حين قابله عمارة ؛ ونحن نعلم أن شاعرنا المؤرّخ « عمارة » قد ولد سنة ٥١٥هـ ؛ وإذن فلن يكون استنتاجنا بعيدا عن الصواب إذا قلنا إن ميلاد الشيخ العندي كان في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري حوالي عام ٤٩٠هـ أو قبل ذلك أو بعده بعام أو عامين ؛ وهذا الحدس أو الاستنتاج لم نصل إليه اعتباطا ، بل بعد طول تأمل ومقارنة بتواريخ حياة وأحداث السلاطين والحكام الذين عاشرهم وعمل معهم كالداعي سبأ ، وابنه محمد والوزير بلال بن جرير المحمدي بل وينسجم مع ما سينقله لنا عمارة وغير عمارة من أخبار وأحوال « العندي » وفقدان بصره ، ومشاهدته انتهاء دولة « بني زريع » الذين أكرموه وعظموه وأحبهم وأخلص الولاء والخدمة لهم .

وسوف نراه وهو شيخ أعمى يقف أمام السلطان « توران شاه » يهنئه بشعر جزل فخم على افتتاحه لمدينته « عدن » سنة ٥٦٩هـ وهو الذي قضى على دولته ، مثلما أعدم أخوه الملك صلاح الدين تلميذه وصديقه « عمارة » ،

ولا نشـك في أنه كان مكبوداً مفؤاداً عندما قال في تلك القصيدة الطويلة يخاطب الغازي :

وَسَمتْ إلى « عدن » عزائمُـك التي ... صدقت وعيـداً في الـورى ووعودا
حتـى دكـكْتَ جبـالهـا ودروبهـا ... وجعلت تربـاً صخرها الصيخودا !

وبهذا نطمئن إلى أنّ حدْسنا بتاريخ ميلاده لم يكن بعيداً عن الصواب . ويقول عمارة : « ولما ترعرع عني بنفسه وكان ينزل إلى عدن وهو من موطنه على ليلة فيجتمع بالعلماء الواصلين من الآفاق إلى موسم عدن ولازم الطلب حتى تفقه وتأدب ، ونظم ونثر وكتب وحسب ، ولم يزل في عدن وجمر فضله مستور بالرماد ، وغمر معينه مغمور بالثماد ، إلى أن مات محمد بن عزي كاتب الشيخ السعيد الموفق بلال بن جرير صاحب عدن فتنبه بلال عليه وأرشده رائد السعادة إليه فجعله كاتبه بل صاحبه .

وأخبرني الشيخ معمر بن أحمد بن عتاب قال كان محمد بن عزي إذا أراد أن يكتب عن بلال كتاباً أو يرد جواباً لم يستقل بنفسه دون الحضور بين يدي بلال حتى يملىء عليه مقاصد الكتاب ثم لا يختمه حتى يلحق بلال بين سطوره بخـطه ما وقـع الاخلال به من اللفظ والمعنى فلما كتب له الشيخ الأديب اعتقد الشيخ بلال أن الأديب مثل ابن عزي في جمود طبعه ، وخور نبعـه ، وثمد معينه ، وعدم معينه ، ونبوة كلامه ، وكبوة أقلامه ، وقصر وشـايه وفقـره من فقر إنشائه ، وشتان بين عزة فارس القلم ، وذلة راجل الجلم ، فألقى الشيخ بلال على الأديب أبي بكـر كتبـا وردت من جهات مختلفة وقال : قف عليها وتصفحها حتى نخلوا من مجلس السلام وأملىء عليك مقاصدها فكتبها الشيخ الأديب في ذلك المجلس في لحظة ودفعها إلى الشيخ السعيد وقد كتب عنوان كل كتاب منها فلما وقف عليها بلال قال : لم تزد والله على ما نفسي من الجواب ولم تنقص عنه ، ولعمري إن كتاب الملوك يكتبون ما يأمرون به ، وأما هذه الفطنة الثاقبة فليست في قوة الكتاب فلم يتماد الحال إلّا يسيراً حتى فوّض إليه واعتمد عليه فعامله الأديب من المناصحة والوفاء له لما قام عنه بفرض الخدمة وأداء فرض النعمة .

وحـدثني الشيخ معمـر بن أحمد بن عتاب قال سمعت الشيخ بلال في

مجلس من مجالس أنسه وقد استأذنه الأديب أبو بكر على ما يجيب عنه عن كتب وصلت إليه ويثيب به آخرين وفدوا عليه يقول له يا مولاي الأديب : الدولة دولتك ، والمال مالك ، فأجب وأثب كيف شئت ، وبما شئت ، وشكى الأشراف العمريون إلى الأديب جنفا من شريك لهم في وادي لحج يقال له ابن أبي الغارات فكتب إلى بلال رقعة فيها : الناس بسبب إحسان الحضرة إليّ ، وإنعامها عليّ ، يعتقدون إني عندها أشفع وأنفع ، فورد الجواب بخط بلال بما مثاله أنت يا مولاي المالك والله عندي أجل من أن تكون شفيعاً ، بل مبسوط اللسان واليد ، وليس على أمرك أمر ، وغفل الأديب عن الرقعة فوقفت عليها في دواته فسألني أن لا أذكر ذلك لأحد ؛ لأنه كان من التواضع والكتمان بمكان ، والحراسة لقلوب المكاثرين لبلال من أهل السيف والقلم على عادته من التلطف والسياسة وتم له ما أراد من سياسته نفسه ، ومنعها من التظاهر بوجاهة ، أو عظيم نباهة ، حتى لم يكن يعرف ذلك إلا آحاد من الناس ، ولو لم يكن من واضح الدليل على فضله ونبله إلا هذه وحدها ، لكانت كافية شافية ، لأن قهر النفس هو الجهاد الأكبر ، فكيف وأنا أعرف من سؤدده أنه كان إذا سمع بقدوم قافلة إلى البلد ، خرج إلى الباب واستخبر عمن فيها من الفقهاء والأدباء ، فإذا ظفر بأحد منهم بالغ في إكرامه ، واستخلاص بضاعته إن كان تاجراً ، وإن كان باعه في الأدب قصيراً عمل له الشعر على لسانه واستنجز له الصلة ، ثم أنزله مدة مقامه ، وزوده عند رحيله » .

العنَدي وشاعرية عمارة اليمني :

فالمواهب الفطرية ، وذكاء الطبع ، وطهر البيئة ، وعلوّ الهمّة ، التي نستشفّها من حديث عمارة عن « العندي » قد رعاها بحسن السلوك ، وظرف الكياسة ، ولطف السياسة ، إلى كرم نادر ، وأريحية أصيلة ، وسؤدد وتواضع ، ورغبة في إسداء النفع للغير ، واهتمام بالغ بالعلماء والفقهاء وطلبة العلم ، ورجال الأدب ، وإلى حدّ يكاد يكون ضرباً من الخيال ؛ إذ لم نسمع به من قبل « العندي » ، ولم نعلم عن أيّ وزير من وزراء المسلمين في تاريخهم الطويل ، إنه كان يخرج إلى باب المدينة عند قدوم القوافل ، ليسأل عن الفقهاء والأدباء كي يشملهم بمساعدته وينزلهم في ضيافته . ثم لا يكتفي بقضاء حوائجهم ، وانزالهم في مقامه ، وتزويدهم عند الرحيل ؛

بل يهتم بتقديمهم إلى السلطان وتعريفه بهم وليس ذلك فحسب ، بل ويجهد نفسه وموهبته فينظم على ألسنة من لا يستطيعون نظم الشعر قصائد في مدح السلطان ، ويستنجز لهم عنها الصلاة السنيّة ! .

وذلك أمرٌ لا ينتهي العجب منه ولا الاكبار له ، ولأن مثل ذلك يكاد أن يلحق بالأساطير ، ويظن من يسمعه أن قائله قد أغرق وبالغ في تصوّر ما لم يكن ، وما لا يمكن أن يكون ، اضطر « عمارة » أن يقول بأن ذلك قد جرى له شخصياً مع الشيخ العندي مع أنه عندما وصل عدن متكسّباً لم يكن قد اشتهر بفضل ولا فقه ولا علم ، ولم يكن على سابقة معرفة بالشيخ ؛ إذ قد جاءها لأول مرّة شاباً لم يتجاوز الحادية والعشرين فقال :

« وهذه القصة جرت لي معه وأنا لا أعرفه ، وذلك أني دخلت « عدن » تاجراً في سنة ست أو خمس وثلاثين وخمسمائة فلقيني وانزلني ثم قال لي : ألا تعمل شعراً تهنىء به الداعي محمد بن سبأ بعرسه على ابنة بلال ؟ قلت فاني لست بشاعر ؛ فلم يزل يحسّن لي ذلك حتى عملت شعراً ضعيفاً ؛ فتناول كراسة بيضاء وكتب فيها ما لم أعلم ، ثم ناولني فإذا فيها قصيدة من شعره عملها على لساني ؛ ووصف فيها المنازل والمناهل من « زبيد » إلى « عدن » ومدح وهنأ بالعروس ، وبألفاظ خاصة كتابية لم أكن أعلمها ؛ ثم تولى انشادها عني في منظر الداعي ، وأنا واقف لا أنطق كالصنم ! وبعد ذلك استخلص لي جائزة من الداعي ، وجائزة من بلال وطيباً ، واشترى لي بضاعة بالمال الذي كان معي ؛ فلما عزمت على السفر قال لي : إنك قد تسمّيت عند القوم باسم شاعر ، فانظر لنفسك ، وطالع في كتب الأدب ، ولا تجمد على الفقه وحده ؛ فان فضيلة اللسان حلية الانسان » .

حقاً إنها لحادثة طريفة ظريفة لم تُحْسِنْ فقط إلى عمارة بل وإلى تاريخ الأدب العربي فلولا تلك الأريحية « العنَدية » لظلّ عمارة فقيها ! ولما كان له شأن في عالم الثقافة والشعر والتاريخ ويظهر من احتفال عمارة بشيخِه ، وبالذكرى العطرة التي ظلّ محتفظاً بها طيلة حياته حتى وهو في مصر يكتب ترجمة الشيخ سنة ٥٦٤هـ أي بعد ثلاثين عاما من تلك الحادثة الطريفة ، وقال بصدق واخلاص أنه لم يعرف قبله ولا بعده مثله ديناً وعقلاً وسؤدداً وكرماً وتواضعاً . ولا شك أن اهتمام وعناية الشيخ العندي بتجويد القصيدة

التي نظمها على لسان عمارة ، وتطريزها بألفاظ خاصة كتابية لم يكن الشاب عمارة قد سمع بها ، ثم وصفه للمنازل والمناهل التي بين « زبيد » و « عدن » ، قد أعطى القصيدة ومن قيلت باسمه قيمة كبيرة ، بل ودفع كل ذلك عمارة إلى أن يعي نصيحة أستاذه وقوله له : « لقد تسمّيت عند القوم باسم شاعر ، فانظر لنفسك ! فاندفع عند عودته إلى مدرسته في زبيد يطالع في كتب الأدب ويعبّ من ينابيعه وصادف ذلك عنده ولاقى فطرة شاعرة ، وألمعية واستعدادا ، فكان لنا منه أحد أفذاذ الشعر في تاريخ الأدب العربي .

إن من يؤرخ لعمارة الشاعر لا يمكن أن يهمل الاشارة الى هذه البداية في شاعريته ؛ وكان من الأليق أن أؤجّل تسجيلها ، والتعليق عليها إلى أن أتحدّث عن « عمارة الحكمي » الشاعر وأترجم له ، غير أن توهّج أريحية وسؤدد ذلك الشيخ العالم الشاعر الوزير الكريم أبي بكر العندي قد غمرني بأشعة إجلالي له وإكباري ففضّلت أن أجعلها من أسنا فضائله ، وأعظم مزاياه ، عن أن أذكرها في ترجمة عمارة كسبب من الأسباب أعان على تفجّر ينابيع شاعريته ، وتوهّج ألمعيته .

ثم ماذا ؟ ها هو عمارة بعد أن أصغى لنصح الشيخ ، وعكف عاماً على كتب الأدبِ ، يهزّه الشوق إلى زيارة عدن وأظنه هذه المرة كان يريد أن يُريَ عمه « العنَدي » الوزير الشاعر المتفضل المحسن ؛ أن « عمرواً » في « عُمارة » قد شب عن الطوق ؛ وأنه قد نظر لنفسه وسلّح لقبَ الشاعر فيه بما يستطيع المحافظة عليه ، وأنه لن يقف هذه المرة في « منظر » السلطان الداعي محمد بن سبأ صامتاً كالصنم ؛ بل سينشد شعره الذي صنعه فعلاً بنفسه ، وسيحاور السلطان ويجلس معه ! .

يحكي لنا ذلك عمارة في تاريخه « المفيد » ويذكر فضيلة أخرى مشابهة من فضائل « العندي » الشعرية ولكنّها هذه المرة تثير الضحك وتبعث على الاشفاق يقول عمارة :

« ثم قدمت إلى عدن في العام الثاني وقد عملت شعراً أصلح من الأول ، ومعي انسان جمّال يقال له « الزّعلي » فقال لي الأديب « والأديب إذا اطلق فالمقصود أبو بكر العندي كما سلف » : ما رأيك أن ننفع هذا الانسان بشيء لا يضرّنا ؟ قلت : وما هو ؟ قال : أعمل أنا وأنت قصيدة على لسانه

ونستنجز له جائزة عليها . ففعل وأخذ له صلة من الداعي » . ويعقب عمارة على ذلك بقوله : « فلما انفضّ الجمع دعاني الداعي محمد وقال : إذا سألتك عن شيء تنصحني ؟ قلت : نعم ، قال : أظن أن هذا الانسان الذي أخذ له الأديب الدنانير جمّال ! فقلت : هو والله جمّال ؛ وانما فضل طباع الأديب ومعونتكم على فعل الخير صيّرت هذا وأمثاله شاعراً ؛ فضحك الداعي وأعاد الجمال فزاده ذهبا » . . حقاً لقد كان الوزير أريحياً ، وكان السلطان أعظم أريحية وألطف طبعاً ؛ وأحسن عمارة الوفي بما سجّله للتاريخ .

إحسانه إلى عمارة :

وقد اعترف « **عمارة** » وهو يسجل مذكّراته في « مفيده » بفضل أبي بكر العنَدي عليه ، وليس فقط بتوجيهه إلى قرض الشعر وأن لا يجمد على الفقه ، وأن يطالع في كتب الأدب . بل وبمساعدته له مادياً ، وخلطه بوجهاء وأمراء عدن وسلطانها فقال : « وهو الذي نسج بيني وبين الشيخ بلال بن جرير مولى الداعي وأكبر وزرائه ونوّابه ، والداعي محمد بن سبأ ما نسج من المعرفة التي آلت إلى الصحبة لهم ، والمودّة فيهم ، والمكانة لي عندهم ، والوجاهة لديهم ، والخلطة بهم ، والمعاملة في الجزيل من مالهم ، حتى مات الداعي وعندي له مال درج من يدي بحكم ما نالني من أهل زبيد من التعويق عن الحركة » .

وقد نال عمارة ما ناله من الجهد والبلاء ، والعنت والايذاء من قِبَلِ النجاحيّين ومواليهم حكّام زبيد بسبب صلاته بآل زريع ومدحه لهم ، واختلاطه بهم ، وكاد أن يدفع حياته ثمناً لتلك العلاقة وقد أشار إلى ذلك مراراً في كتابه وذكر أنه بالمال الذي كان لديه للداعي محمد بن سبأ قد صانع ودارى المسؤولين في زبيد حتى استطاع الخلاص باسم الحجّ ثم الرحلة إلى مصر للمرة الأولى قال : « ولما أن وصلت من الديار المصرية إلى عدن وبها الرشيد بن الزبير قال لي الأديب [والمقصود العنَدي طبعاً] : إني قد قلت للداعي عمران ولوزيره الشيخ جوهر أن الفقيه عمارة أقرضني في مكة مالاً احتجت إليه ومبلغه خمسمائة دينار أو قال : ألف دينار ؛ فاحتسبوا ذلك لي وقد قصد مساعدتي ولا والله ما أقرضته » ! وذكر إنه كان أيضاً قد عمل على إعفائه في مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، وقال للذي كان مأموراً بقبضها من عمارة : « والله لئن كلّمت فلاناً أو تناولتَ منه درهماً لأحرمنّك دخول

عدن » ! بل إن رحلته إلى الحجّ في سنة ٥٥٠هـ خمسين وخمسمائة قد كان رفيقاً للشيخ « العنَدي » في قصة تصوّر عمق المودة التي تمكنت من قلب كل منهما للآخر ، قال عمارة : « ثم قدم « الأديب » إلى زبيد حاجاً في تلك السنة فترك قافلته على باب المدينة وتنكّر ودخل ليلاً إلى بلد لم يكن يعرفه ، فلم يزل يستقصي عن داري حتى وجده ، وأيقظني بعد ليل ؛ ففتحت الباب وأنا لا أعرفه فاعتنقني وأنشد قول الشاعر :

أبطحاء مكّة هذا الذي أراه عياناً ؛ وهذا أنا !

ثم قال : إنه لم يأت بي في هذا الوقت إلّا للسؤال عن حالك فدعوت له وشكرته ثم حججّنا في ذلك العام جميعاً وهو عام ٥٥٠هـ » .

وقد ظل إحسانه يغمر عمارة حتى وهو في مصر في بحبوحة من العيش ، فان الفتن لما اجتاحت اليمن وأصاب زبيد ما أصابها من الويل والدمار والخوف والجوع ونقص في الأنفس والأموال والثمرات أثناء الحروب المدمّرة بين النجاحيين وآل مهدي اختص الشيخ الأديب العندي آل عمارة الذين خلفهم في زبيد بالرعاية وفي ذلك يقول في مفيده :

« ولما نزل بأهل زبيد ما نزل من الحصار وضيق الحال وجهد البلاء لم يزل بره واحسانه بصنوف الأطعمة والكسوة متواتراً إلى الأهل والأولاد الذين خلّفتهم في اليمن حتى كان من سفرهم إلى مكّة ما كان . وهذه الأخلاق العلية ، والمكارم السنيّة ، منه تعم ولا تخص ، وتجمل ولا تحصّ ، ولقد بلغني من جماعة من أهل اليمن أن أهل زبيد لما أجلاهم الخوف من ابن مهدي إلى عدن بذل هذا « الأديب » كرامته وجاهه لأكابرهم وأعيانهم ، وماله وشفقته لفقرائهم وأصاغرهم ، وأعانهم ومانهم وصانهم ، حتى دمل كلمهم ، وسدّ ثلمهم » .

إعتذاره لسرقة شعرية !

واسترسل عمارة في سرد الطريف من أخبار العندي ومن ذلك اعتذاره لابن الطرائقي الذي مدح الداعي محمد بن سبأ بقصيدة سرقها من ديوان أمين بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي ، وصادف أن وصل الديوان إلى يد الداعي وقرأ القصيدة التي مطلعها :

نسجتْ غرائب مجدك التشبيبا وكفى به غزلاً لنا ونسيبا

ومنها :

وأنا الغريب مكانةً ونيابةً فاجعل نوالك في الغريب غريبا ؛

فوجد أن ابن الطرائقي قد أغار عليها ولم يغيّر إلّا بعض الألقاب وأسماء الأماكن وادعاها لنفسه ؛ فبعث الداعي بالديوان إلى الأديب العندي وأمره بأن ينسخ القصيدة بخطه ويسيّرها إلى ابن الطرائقي غير أنه كان قد مات بزنجبار ، فما كان من « العندي » إلا أن يعتذر للشاعر السارق ببيتين على نفس وزن وروي القصيدة المسروقة قائلا :

هذي صفاتك يا مكين وإن غدا فيمن سواك مديحها مغصوبا
فاغفر لمهديها إليك فانّه قد زادها تشريف ذكرك طيبا !

***

عَماهُ ؛ وحزن عمارة :

ولما توفي الداعي محمد بن سبأ سنة ٥٤٨هـ وكانت منزلة الشيخ الأديب قد عظمت عنده حتى لا تعد لها منزلة أحد سواه ؛ خلفه ابنه عمران الذي كان لا يقلّ عن أبيه شهامة وكرماً وتقديراً للشيخ « الأديب » الذي كفّ بصره في أيام سلطنته ولعلّ ذلك عام ٥٥٨هـ أي قبل وفاة السلطان عمران بعامين وعمارة قد استقر بمصر وألقى عصاه في قاهرتها ينتظر الشهادة ، وقد حزن لّما بلغه الخبر حزناً شديداً وقال في « مفيده » :

« ثم بلغني أن بصره قد كفّ فعلمت أن الزمان قد سلب بصيرته حيث سلب بصرها ، وأن الأيّام طمست بذلك منهاج جمالها ، وأطفأت سراج كمالها ، فأجناه الله ثمرة الخير الذي كان يغرسه ، وحرسه ناظر الاحسان الذي كان يرعاه ويحرسه ، فتضاعفت عند أهل الدولة وجاهته ، وتزايدت رفعته ونباهته ، وأراد الزمان أن يخفضه فرفعه ، وأن يضرّه فنفعه » .

وتابع عمارة كلامه قائلاً : « وحدثني جم غفير من سفّارة اليمن ، أن الداعي عمران بن الداعي محمد بن الداعي سبأ بن أبي السعود بن زُريع اليامي لما وقف الأديب ينشده قصيدة عملها فيه بعد انعكاس نور البصر من ناظره ، إلى بصيرة خاطره ، حمل إليه ألف دينار واعتذر إليه ، ولطف له في

القول لطفاً يسلّي الحزين ، ويستخف الرزين ، ثم لم يرض بذلك حتى أمر مناديا ينادي في الناس : من دخل دار الشيخ الأديب فهو آمن » .

قال عمارة معقّباً : « ولله در الداعي عمران بن محمد ما أغزر ديمة جوده ، وأكرم نبعة عوده ، وأكثر وحشتُهُ في هذا الطّريق من النظراء ، وأقلّ مؤانسُهُ فيها من الملوكِ والأمراء ! ، ولا يكذب من قالَ : الوفاء والجود ملّةٌ عمران خاتمها ، بل خاتمها ، ولا أعرف ولا سمعت بملك غيره أوسع صاحبه برّاً وكرماً ، وجعل داره مثابة أمنا وحرما » .

وأقول : ألا تسمع معي أيها القارىء نبرة الأسى ، ونغمة المغترب الذي يتقطع حسرات في كلام عمارة هذا ؟ وألا تلمس معي ضيقَه بمن حوله في مصر من الكبراء وهو يُهول وحشة « الداعي » عمران في طريق الجود والكرم ، إذ لا يؤانسه فيها ملك ولا أمير؟ ألا نحسُّ جميعا ، وهو يكتب تلك الكلمات الباكية بعد غربة طويلة أنه كان يتمنّى لو أنه لم يغترب ؟ وأنّه ظل مجاوراً للداعي عمران والأديب العنَدي ؟

أمّا أنا فاسمعه وأحسه وأشعر به .

ويا ليت شعري هل بلغ عمارة أن الأديب العندي قد وفى لأميره عمران ؛ فقد حدثنا الخزرجي في العسجد المسبوك نقلاً عن الجندي قال : « وتوفّي الداعي عمران بن محمد بن سبأ في سنة ستين وخمسمائة [٥٦٠هـ] فنقله الأديب أبو بكر العندي إلى مكة المشرفة ودفنه في مقابرها » [لوحة : ٩٥ ـ وص : ٣١٩ قرة العيون] .

سرعة بديهته :

وقد ضرب عمارة مثلاً لسرعة بديهة العنَدي بقوله :

حدثني القاضي الفقيه جمال العلماء أبو العباس أحمد بن محمد الأبّي قال : أذكر ليلة وأنا أمشي مع الأديب على ساحل عدن وقد تشاغلت عن الحديث معه ، فسألني في أي شيء أنت مفكر ؟ فأنشدته :

وأنظر البدر مرتاحاً لرؤيته … لعلّ طرف الذي أهواه ينظره

ثم قال : لمن هذا البيت ؟ قلت : لي ؛ فأنشد مرتجلاً :

يا راقـد الليـل بالأسكنـدريّـة لي　　من يسهـر الليـل وجـداً بي وأسهرُهُ
ألاحظ الـنـجـم تذكـاراً لطلعتـه　　وإن مرى دمـع أجـفـاني تذكّـرُه
وأنـظر البـدر مرتـاحـاً لرؤيتـه　　لعـلّ عين الـذي أهـواه تنـظره

***

ثم لم يلبث الأديب أن أنشدني قصيدةً على هذا الوزن طويلة ذكر فيها فضل الديار المصرية على جهة التشوّق والثناء ، وتعديد الفضائل والمناقب لأهل البيوتات بها .

شعره

وشعر أبي بكر العَندي الذي وصل إلينا ، جزلٌ فخم ، وفي بعضه من الرقة ما يصبي ويطرب ، ولا شك إنه كان من المكثْرين ، وأن ديوانه يؤلّف عدة مجلدات ، وليس بين أيدينا منه إلاّ ما سجّله عمارة في تاريخه المفيد وحتى ما نقله « الجندي » و« الخزرجي » و« الديبع » لا يتعدّى ما حفظه عمارة الذي كان قد قال في كتابه : « فأما الشيخ الأديب أبوبكر بن أحمد هذا ؛ فالشعر الجيد الرائق الفائق أقلّ خصاله ، وأكلّ نِصاله ، ولم يحضرني من شعره الذي أعلمه في باكورة العمر وريعان الشبيبة شيء ، وإنما أوردت منه ما تلقّفتُه من أفواه المسافرين » .

وإذن فما بين أيدينـا من شعـره ليس فيه شيء من شعر الفتوة وعنفوانْ الشباب ، أيام كان طالب علم في عدن يتفقّه ويتأدّب وينظم وينثر ؛ وجمر فضلِه مستور ، وغمر معينه مغمور ، كما حدثنا عمارة ؛ حتى مات كاتب الشيخ بلال بن جرير صاحب عدن فعينّه كاتباً له وصاحباً ، ولعلّ ذلك كان في عام ٥٢٥هـ وهو يتحفّز ويجتاز العقد الرابع من عمره الحافل .

وإذن فلا شعـر ريعـان الشبيبـة ، ولا ما أنشأه في الداعي سبأ بن أبي السعود ، ولا في ابنه الذي أعزّه وكرمه الداعي محمد بن سبأ ، ولا في بلال بن جرير الـذي اختصّـه بثقتـه ، ووضـع في يده أزّمة أمور الامارة ، ولا ما راسـل به أصـدقاءه وأصحابه وأكابر اليمن منذ ظهر على مسرح العلم والأدب والسياسـة عام ٥٢٠هـ وهو في حوالي الثلاثين من عمره إن صح

حدسنا أنه من مواليد ٤٩٠هـ وحتى عام ٥٦٠هـ طيلة سلطنة الداعي محمد بن سبأ ، وخلفِه وابنه عمران بن محمد ، وهي فترة حافلة بأمور ووقائع جسام كما عرفنا في الفصول السابقة ، وحقبة طويلة لا يمكن لمثل أبي بكر العندي إلّا أن يساهم بقلمه ولسانه في إثارة أو إخماد دوافع وتيّارات أحداثها . . . لا شيء بين أيدينا من أشعاره ورسائله في تلك الحقبة الطويلة التي لا تقل عن أربعين عاماً وهو ما كان يعلمه « عمارة » ، وما كان يعجب له ويطرب كتاب دواوين الانشاء في بلاط الفاطميين ، ويقولون إنهم لم يروا مثلها بلاغة وعذوبة لأحد من كتاب الشام والعراق ، وكلما بين أيدينا من شعره ليس إلّا ما قاله من بعد سنة ٥٥٠هـ أثناء عقده السادس والسابع ، وقد غزا الظلام عينيه وقد نقل لنا عمارة بضع قصائد في مدح الداعي عمران ، وعدّة قطع من الشعر الوجداني البديع تصوفا وتدلها وحنينا ؛ وأربع أخرى في مدح الأميرين نجليْ عمران بن سبأ وراعيهما النّاصح ياسر بن بلال بن جرير قبل أن يقضي عليهم السلطان توران شاه عام ٥٦٩هـ ، ثم قصيدة دالية طويلة لم يروها عمارة لأن أستاذه وصديقه الشيخ قد أنشأها بعد استشهاد عمارة يهنيء بها « توران شاه » على افتتاحه « عدن » وقد تناقلتها كتب المؤرخين الجندي والخزرجي ومن جاء بعدهما وأخذ عنهما .

ولم يكثر عمارة من نقلِ شعر أحد ممن ترجم لهم من شعراء اليمن كما أكثر من نقله لقصائد « العندي » كأنه كان يحسّ أن آثاره ستضيع فحاول أن يحتفظ لنا منها بما يستطيع ؛ رغم أنّها كلّها من شعر شيخوخة « الأديب » ، وليس فيها حرارة الشباب ، وعرامة عنفوانه ، ولا مما أعجب به وحفظه وعَلِمَهُ « عمارة » وهو في ريعان الشباب أيضاً ، وما أظن أننا سنسيء إلى الأدب إذا جارينا عمارة في الاستكثار من شعر أستاذه حتى ولو أسأنا إلى نهج البحث وأسلوب « الأكاديميّين » .

فأول ما اختار « عمارة » لشاعرنا الأديب قصيدة يمدح بها الداعي عمران بن محمد بن سبأ وهي :

ذِكْر العذيب ومائلات قبابه   وقف الفؤاد على أليم عذابه
ومهب أنفاس الصبا من جوّه   فيه شفاء الصب من أوصابه

فدع النسيم يَنِثّ من أنبائه   خبراً على الزفرات رجع جوابه
أسرى عليه من العذيب دلائل   نمّت على مسراه عن أسرابه
لدنْ المعاطف باعتناق غصونه   عذب المراشف لاغتباق شرابه
أترشف الانداء منه كان من   أهواه أودعها شهي رضا به
ويشوقني . . أن المحب يشوقُه   لقيا القريب العهد من أحبابه
فمخيم الأشواق حول خيامه   وتشعب الأهواء بين شعابه
لله أيام العذيب وإن ثنت   قلب المعنى المستهام لما به
وسقى ندى كف المكرم ملتقى   عقدات أجرعه وشم هضابه
ملك لو استسقى الزمان بجوده   أغناه عن سقيا ملث سحابه
ملك أفاض على الزمان بهاؤه   فأعاده في عنفوان شبابه
ملك يشف عليه نور كماله   فيكاد يلحظ من وراء حجابه
داني مثال الجود من زواره   نائي محلِّ المجد عن طلابه
صعب المقاصد ليس يرضى همة   أن يرتقي في المجد غير صعابه
ما عنده أن المآثر غير ما   يسمو إليه بحربه وحرابه
عزّ طوال السمر معربة به   إن كان يضمر في صهيل عرابه
كلف بكل أقب يوهم أنه   في الجري يمرق من رقيق إهابه
مرح كأن الراح فيه تحكمت   وتضرمت باللون في جلبابه
يرقى ذرى الطود ارتقاء وعوله   صعدا وينقض انقضاض عقابه
ما يمتطيه إلى تناقل غاية   إلا وكان النصر تحت ركابه
إن المكرم معدن الكرم الذي   في بابه تحوي الغنى من بابه
جعل الطريق إليه فجا مهيعا   جودا بحار الأرض مد عبابه
ومواهب للمال من سطواتها   ما للأعادي من أليم عقابه
في كل أرض من غرائب ذكره   سفر يقلقل ناجيات ركابه
فإذا تضايقت الشدائد رحبت   بوفود أنعمه فساح رحابه
تتزاحم الأوصاف عند مديحه   كتزاحم الآمال في أبوابه
تجنى المكارم من نداه وتجتلى   أدب العلى والفضل من آدابه
فكأن مجتمع الفضائل والغنى   ما بين نايله وبين خطابه
شيم سناها برق كل فضيلة   من مزنها قبل انسكاب ربابه
وخلائق خلقت من الكرم الذي   عذقت بمنصبه عرى أسبابه
يبدو عليها نور سؤدده الذي   ضوء الغزالة دون ضوء شهابه

ما زال تعرب يعرب عن فضله ... ويراه رب التاج في أعقابه
حتى تجاوز غاية الشرف الذي ... أوفى على تأميله وحسابه
فكفى بقحطان بن هود مفخراً ... أن أصبحت تعزى إلى أنسابه
أعلا مآثرها وشيد فخرها ... دون الملوك بطعنه وضرابه
وبنى لنا بيتاً قواضب بيضه ... عمد له ، والسمر من أطنابه
يزداد حسن المدح فيه وإنما ... يبدو جمال الشيء في أربابه
ويفوز بالشرف الموثل ماثل ... بفنائه أو لاثم لترابه
زان الزمان وزاد في تشريفه ... بأعز نسل من شريف نصابه
فكأن عمران المكرم ملتقي ... لب العلا وابناه لب لبابه
شمسا مطالعه حساما ملكه ... بدرا مواكبه هزبرا غابه
فمحمد جاري فرند حسامه ... وأبو السعود به مضاء ذبابه
نطقت شهادات المخايل عنهما ... أن يلبسا في الفضل فضل ثيابه
يتباريان إلى المكارم نزّعاً ... في قوسها بالسؤدد المتشابه
والله يعضد ملكه بهما كما ... عضد المكين وملكه السامي به
وليبق محروسا جوانب ملكه ... بالعز مانوسا شريف جنابه
فنهاية المثنى عليه وإن غلا ... في وصفه التقصير مع أطنابه

***

معارضة هائية الهبيني :

والقصيدة الثانية مما أثبته عمارة هائيته التي عارض بها قصيدة الشاعر الهُبَيْني شاعر ابن مهدي والتي سبق أن أوردناها ونحن نتحدث عن ابن مهدي وشاعره وهي :

النصر قائد جيشك المتوجه ... والسعد رائد عزمك المتنبهِ
والأرض ملك والعباد رعية ... لك من مطيع مذعن أو مكرهِ
ولرأيك التأييد حسن بديهة ... وروية فيه فروٌ وأبدهِ
فإذا عزمت فكل صعب رمته ... سهل عليك وكل أمر مزدهي
يا داعي الدين المقيم ليعرب ... مجدا يهي ركن الزمان ولا يهي
وأعز من خفقت عليه راية ... تحكي إذا خفقت فؤاد مدلّه
ما العز إلا عز خيلك شزبا ... شعثا تبارى في الطراد وتزدهي
متماطرات بالكماة كما هوت ... من رأس شاهقة صخور مدهده
فاستنهض الأقدار فيما تبتغي ... واستخدم الأيام فيما تشتهي

واصرف صروف النائبات عن الورى … وانه الحوادث عن سطاها تنتهي
وابعث به جيشاً أجش إذا انتحى … أرضاً فجاها بالنكال الأكره
متلاطم الأرجاء تحسب أنه … بحر تلاطم بالرياح الزهزه
تتناكر الأصوات وهي معارف … للسمع من ضوضائه والوهوه
كالعارض الملتف يختلع النهى … قصفات رعد في حشاه مقهقه
يخفي وضوح السيل تحت عجاجه … فكأنما هو مهمه للمهمه
ويكل طرف الشمس عنه إذا غدا … كحلا لناظرها المضيء الامره
فيه ليوث البأس ليس يردها … إن جهجهت في الروع زجر مجهجهه
آل الزُّريع سراة همدان الأولى … ورثوا المكارم مدرها عن مدره
متسربلين السابري كأنما … جمدت عليهم منه أمواه النهى
متبادرين إلى الثغور كأنما … افترت لهم عن بارد الظلم الشهي
من كل صعب بالطعان موله … في متن طاو بالطراد موله
فاكشف لهم ضر البلاد وداوها … بالبيض تبر من السقام وتنقه
سفه السيوف دواء كل سفاهة … ما الفضل للصمصام لو لم يسفه
كم ذا تنهنه من عزائمك التي … تفني الضرائب وهي لم تتنهنه
وتكف من سطوات بأسك والظبا … من فرط حلمك في أشدّ تأوّه
ولأنت أنزه في المفاخر همة … من أن تحض على الفعال الأنزه
أو أن تنبه واعتزامك في العلا … يقظان منتبه بغير منبه
شده الأعادي من سطاك ومن يرح … ما بين أنياب الغضنفر يشده
كم حركوا منه الهزبر بسالة … ولكم دهيّ من تقلقله دُهِي
مَنْ ذا يقاس به شبيها بعدما … سمحت به العليا من متشبه ؟
أم مَنْ يمد إليك باع مطاول … والنجم دونك غير غرٍّ أبله ؟
لا رتبة تسمو بغير مؤهل … فيها ، ولا جاه لغير الأوجه
أنت المكرم معدن الكرم الذي … يلقى الوفود ببشره لا جبهه
أنت الذي ما أنشدت أوصافه … إلا وهز المجد عطف مزهزه
فاصفح عن الأشعار في تقصيرها … عن وصف فضلك أن تحيط بكنهه
ركضت جياد الخيل في ميدانه … حتى تناهت وهو ما لا ينتهي
فقد استوى في العجز عنه مفوه … دان البيان له وغير مفوه
ولقد حكى منه القريض شفاء ذي السمع الأصم وضوء عين الأكمه
وغدا يحرر في نباهة قدره … ذيل التشرف في المقام الأنبه

بمصرع ومرصع وموشّع   ومسجع ومفرع وموجه
تهدي إذا ما استنهكت أنفاسه   نفس الحدائق فاح للمستنكه
وأسعد بعيد أنت تاج فخاره   وكمال بهجته ومنظره البهي
وانحر عداك أضاحياً في نسكه   أو فاعف عفو القادر المتنزه
وأسلم مطاع الأمر منصور الظبا   في ظلّ مملكة وعيش أرفه

***

عدن وداعيها عمران :

ثم ثلّث « عمارة » بقصيدة « العَندي » الكافية التي ما برِح أدباء اليمن يترنمون بلحنها الصافي الرقراق ، ويردّدونه على المزهر والعود عَبر الأجيال ؛ ولعلها هي التي اهتز لها الداعي فأمر من ينادي : « من دخل دار الأديب فهو آمن » وجعل داره مثابةً للنّاس وأمنا وهي :

حياك يا عدن الحيا حياكِ   وجرى رضاب لماه فوق لماكِ
وافتر ثغر الروض فيك مضاحكا   بالنشر رونق ثغرك الضحاكِ
ووشت حدائقه عليك مطارفا   يختال في حبراتها عطفاكِ
فلقد خصصتِ بسر فضل أصبحت   فيه القلوب وهن من أسراكِ
يسري بها شغف إليك وإنما   للشوق جشمها الهوى مسراكِ
أصبو إلى أنفاس طيبك كلما   أسرى بنفحتها نسيم صباكِ
وتقر عيني أن أراك أنيقة   لا رمل عرجاء وروح أراكِ
كم من غريب الحسن فيك كأنما   مرآه في إشراقه مرآكِ
وفواتر الألحاظ يصطاد النهى   ألحاظها قنصاً بلا أشراكِ
ومسارح للعيش تقتطف المنى   منها وتجني من قطوف جناكِ
وعلام استسقي الحيا لك بعدما   ضمن المكرم بالندى سقياكِ
وهمت مكارمه عليك فصافحت   عن كفه مغني الغنا مغناكِ
وحباك بالايثار عنه فجرَّ عن   إيثاره ذيل الثراء ثراكِ
وتأرجت رياك مسكا عندما   عبقت بريّا ذكره رياكِ
فليهنك الفخر الذي أحرزته   بعلاه حسبكِ مفخراً وكفاكِ
قرت عيون الخلق لاستقراره   بك فلتقر بقربه عيناكِ
شرفت رباك به فقد ودت لذا   زهر الكواكب أنهن رباكِ
متبوءاً سامي حصونك طالعاً   فيها طلوع البدر في الأفلاكِ

بالتعكر المحروس أو بالمنظر المأ ... نوس نجمي فرقد وسماكِ
وله الحصون الشم إلا أنه ... يحلو له بك طالها حصناكِ
والمسك نثر تراب أرضك مذ غدا بك قاطناً والدر من حصباكِ
وكأن بحرك جوده متدفقاً ... لو لم تخضه سوائر الأفلاكِ
ملك لو أن الغيث جاد كجوده ... لم يلف في أرض لفقر شاكِ
سبط الأنامل بالمكارم لا يرى ... إمساكه إلا عن الامساكِ
لا قدر للدنيا لديه كأنه ... في بذل زخرفها من النساكِ
أدنى مواهبه الألوف شريعة ... متفرداً فيها بلا إشراكِ
ما اختص في الدنيا سواه بفضلها ... ملك من الباقين والهلاكِ
فالجود مبتسم الثغور ببذله ... أبداً وبيت المال منه باكي
وسراة قحطان بحيث معاقد ... التيجان فوق أسرة الأملاكِ
يرد العدى بالرأي وهو مخيمٍ ... كم من سكون فيه بطش حراكِ
سلت يد الأيام منه مهنداً ... متحكما في هامة الأشراكِ
فإذا سمى بالجيش آذن كل من ... نهضت إليه جيوشه بهلاكِ
شيم كموشيّ الرياض ورائها ... عزم كحد الصارم البتاكِ
يتلو مآثرها الزمان بألسن ... فصح فيعجز عن مدى الادراكِ
بهرت فضائله العقول فما عسى ... يأتي الثناء به ويحكي الحاكي
فليهنه الملك الذي قال العلا ... للدين والدنيا به بشراكِ
وليبق تخدمه السعود كأنها ... أسرى لديه لا ترى بفكاكِ
جذلان ما استدعت بواعث نفسه ... كأس المنى إلا أجبن بهاكِ

***

حنين إلى العتبات المقدسة :

وأما القصيدة الرابعة ؛ فما شئت من لهفةٍ وشوق ، وتضرع وتوق ، وهي عينيّة يتشوّق بها إلى « البيت الحرام » وزيارة المصطفى ﷺ ، في نزوع صوفي ، وخشوع روحي ، وتجرّد واخلاص ؛ وقد كان « الأديب » مولعا بمعارضة غرر قصائد شعراء العرب ؛ وهو بهذه يجاري « ابن زريق » في قصيدته التي مطلعها :

لا تعذليه ؛ فان العذل يولعُهُ ... قد قلتِ حقاً ، ولكن ليس ينفعُهُ

وميله إلى تلك المجاراة ، التي كثيراً ما يجيد فيها ويبدع دليل على تبحّر معرفته بالأدب وشمول إحاطته بروائع الشعر العربي ، وغزارة محفوظاته من بدائعه .

وهذه القصيدة تنشر لأول مرّة كاملة مضبوطة مصحّحة ؛ ومن يراجعها في كتاب تاريخ اليمن لعمارة يقدّر مبلغ ما عانيتُه من جهد في تصحيح ألفاظها التي عبث بها النسّاخ ، بل والناشرون الذين يزعمون أنهم يحققون كتب اليمن وهم إنما يمحقونها ! يقول الشيخ « الأديب » :

لي بالحجاز غرام لست أدفعه ... ينقاد قلبي له طوعاً ويتبعُهُ
يهزني البرق مكيا تبسّمه ... إذا تراءى حجازيا تطلعه
ويزدهيني لقاء الوفد ألحظه ... من جوّه ، وحديث الركب أسمعه
وفائح الريح مسكيا تأرجه ... من طيب ريّاه نِديا تضوعه
وهاتف الوُرق في فرع الأراك به ... يردّد اللحن شجوا أو يرجّعه
كل إليّ حبيبٌ من أماكنه ... ممكّن الفضل في صدري ممنّعه
«جياده» و «الصفا» منه و «مروته» ... ومتّكاه وما يحويه مربعه
و «أخشباه » وواديه و «أبطحه» ... جديية لا أرى جدبا ومرتعه
وموقف الحج في شامي معرقه ... وما تجد منى منه وتجمعه
والبيت فالبيت أعلا إن أحد له ... وصفاً ؛ وتعظيمه عن ذاك يرفعه
في حيث حَجَّاجُه يعلو بمقصده ... عزا ، وسجّده تسمو وركّعه
ومنهج الفوز بادي القصد واضحه ... ومنهل الجود طامى الورد مترعه
وفي ربا يثرب غايات كل هوى ... يجلّ عن موقع الاشراق موقعه
أفق الشريعة والاسلام طالعة ... شموسه مستجاش النصر منبعه
حيث النبوة مضروب سرادقها ... والفضل تشمخ في الآفاق أفرعُه
وحيث كان طريق الوحي متضحا ... بين السماء وبين الأرض مهيعه
وخاتم الأنبياء المصطفى شرفا ... محمد باهر الاشراق مضجعه
صلى الاله عليه ما تكرر بالصّلاة فرض مصلٍ ، أو تطوّعه
والمسجد الأشرف السامي لموضعه ... معقود تاج العلاً منه مرصعه
وللشفاعة أبواب مفتحة ... مشفع من بمغناها تشفعه
محل قدس وتشريف يجربه ... ذيل الجمال على ذي المال يدفعه
يشب نيران أشواقي عليلُ هوى ... إليه ليس سوى مرآه ينفعه

ويستمد حنيني كل منحنىء ... منه وعامره الزاكي وبلقعه
«عقيقه» و «قباه» و «البقيع» وما ... يضمّ «أحدٌ» لمن في الله مصرعه
تلك المواقف لا بغداد موقفه ... والكرخ مصطافه فيها ومرتعه
وهي الهوى لا ربى «نجد» ورامته ... ولا «العذيب» وواديه و «أجرعه»!
مستنزل الفوز والغفران مهبطه ... وملتقى كل رضوان ومجمعه
أحبه وأحب النازلين به ... وما تضم نواحيه وأربعه
طبعاً جبلت عليه في الغرام به ... وأين من طبع من تهوى تطبعه ؟
كساني الحب ثوب الافتتان به ... ولست حتى بخلع الروح أخلعه
أستودع الله فيه كل منفرد ... بالفضل يضرع شجواً من يودعه
تكاد تجري مجاري النفس جملته ... لطفاً ، ويذهل مرآه ومسمعه
وجيرة لي جوار الله ينزع بي ... شوق إلي قربهم في الله منزعه
من كل من بغض الدنيا تورعه ... عنها وبغض ما يحوي تبرعه
كأنما الروض يجلو ما يفوّقُهُ ... من خلقه ، ويوشّى ما يوشعه
فيا سنا البارق المكي يُشعل من ... إيماضه الأفق نوراً ، أو يشعشعه
قل للأحبة عني قول من حنيت ... على الوفاء لهم والشوق أضلعه !
هل حافظ عهد ودي من حفظت له ... على النوى عهد ود لا أضيعه ؟
وهل تجرعه مما تجرعني ، في البعد ... كأسُ الأسى ، أم لا تجرعه ؟
أم هل يهز إدكاري قلبه طرباً ... وتستهل كدمعي فيه أدمعه ؟
وإن يكن طال مرمى البين إذ قطعت ... يداه ما ليس أيدي الوصل تقطعه
فما تغيرت عن محض الصفاء لهم ... ولا تكدر ورد طاب مشرعه
محل كل حبيب حيث يعلمه ... مني وموضعه في القلب موضعه
هيهات ما شغفي مما تُقسّمه ... سوانحُ الرأي ، أو مما توزّعه !
فلا عدمت هوى منكم يحاولني ... فيه النوى بسلوّ عزّ مطمعه
وحبذا الركب يبدي من حديثهم ... ما يجبر القلب تعليلا ويصدعه !
وحبذا طيبُ أنفاس النسيم سرى ... عنهم كما فاح مسك فض مودعه
فهل أخو دعوة في الله تنهض بي ... عناية الذكر منه أو تضرعه ؟
وجاد تلك الربى هامٍ تبجّسه ... يجول من مائة فيها تميّعه

***

حجازيّات :

وله حجازيّات أخرى لا تقل صبابة وتعلّقا بتلك الأعتاب المقدسة وحنيناً ولهفة وشوقاً إليها عن طويلته وفي أسلوب صوفي خاشع مدلّه ، ومنها قوله :

يا خليـلي ضاق بالـوجـد ذرعي ... واستبـاح الغـرام غايـة وسعي
فدعـاني أشـكـو لواعـج بثّـي ... إن شكـوى العليـل ليس ببـدع
وأصـدعـا بالحنين والشـوق عني ... تجبرا في الـفـؤاد أعـظم صدعي
واستهبـا طيب النسيم حجـازيـاً ... عسـى أن يفـوح منـه بردع
وأسـألا الركب ركب «مكة» يزجي ... عن ليـالي «منـى» ولـيلة «جمـع»
وعن «النفر» والنزول بوادي «مكة» ... بين كل عضـب وقـلع
ونواحي «مر» و «عسفان» و «الأبواء» ... و «الـشـعـب » و «العقيق» «فسلع»
والضريـح الشريـف صلى عليـه ... من هدانـا به إلى خير شرع
واستجدّا الأنباء عن ساكني البطحاء ... مَنْ رَبْـعـهُـمْ حبـيـبٌ كربعـي
هل قلوب الأحبـاب فيهـا كقلبي ... ودمـوع الجـميـع فيهـا كدمعي
وهـل الـورق في ذرى الأيـك تُملي ... شرح شجوي ما بين نوح وسجع !
تلك أقصى المنى فمن لي منهـا ... بوصـال يسر من غير منع
أتمـنّـى تفـيـؤ الـظل منهـا ... والمقـاديـر دفعهـا غير دفعي
ولئـن عز أن أرى نور عيـني ... فأحـاديـثـهـا تشـوق سمعي

***

وقال أيضاً :

يا محيـا نور الـصبـاح البـادي ... ونسيم الـريـاض غب الغـوادي
حي أحـبـابـنـا بمـكـة ما بين ... نواحـي الـصـفـا وبـين جيـاد

***

وقال أيضاً :

أأحبـابنا بين «الصفا» و «جياد» ... وأشرف أرض قدسـت وبـلاد
لئن زاد طول البعـد منكم تماديـاً ... فقـد زادت الأشـواق طول بعـادي
تلذّ بكـم طعم الصبـابـة مهجتي ... ويـنـعـم فيكـم بالـغـرام فؤادي
فهـل للّيـالي عطفـةٌ تشـتـفي بها ... حشـاشـة ملتـاع وغلّة صادي ؟
وهـل تسمح الأيّام بالقـرب ؟ إنه ... نهايـة سؤلي عنـدهـا ومـرادي

أغرب جائزة في تاريخ الشعر العربي :

ولم نسمع في تاريخ جوائز **الشعر** أن ملكاً أو أميراً قد أجاز شاعره بأحد أولاده وملّكه إيّاه محرّضاً له على أن لا يسترخص قيمته إذا أراد أحدٌ أن يستنقذه أو يفتديه ، أو يشتريه منه ، أو يساومه في ثمنه ؛ لم نسمع بذلك إلاّ عن الداعي عمران وشاعره « العنَدي » !

فقد روى المؤرخون اليمنيون ومنهم الخزرجي في العسجد المسبوك والديبع في قرّة العيون وهم يتحدّثون عن الداعي عمران قالوا :

« ومما شاع من كرمه أن الأديب أبا بكر العندي مدحه بقصيدة اقترحها عليه الدّاعي عمران بن محمد يصف بها مجلسه وما يحتوي عليه من آلات وأولها :

فلك مقامك ، والنجوم كؤوس   بسعوده التثليث والتسديسُ

قالوا : فلما فرغ من انشادها ، سلّم إليه ولده الشاب أبا السعود بن عمران وقال قد أجزتك بهذا وأقعده عن يمينه ؛ فلم يلبث أن وصل أستاذ الدّار يستأذنه في دخول الولد إلى أهل الدّار ، فقال الداعي : الإذن بيد المالك « الأديب » ؛ فأذن له ، فالتفت الداعي إلى الأديب وقال : إذا رغبوك في بيعه فاستنصف في الثمن ؛ فلم يلبث أن خرج الولد مع خادم في يده قدح من فضة فيه ألف دينار وسبعمائة دينار وخلعة ؛ فسأله الداعي عن المبلغ فأخبره ؛ فلم يكتف بذلك بل أطلق له عشور مركب بألفيْ دينار » .

والقصيدة تقع في ثلاثة وأربعين بيتاً ، وقد أوردها عمارة في مفيده . . ولكنه لم يشر إلى « الجائزة » كأنّها لم تبلغه إلى مصر ، ولو علم بها لذكرها ؛ وليس فقط لغرابتها بل ولأنّه كان يحب أستاذه الشيخ الأديب ويقدّر ويمجّد أميره القديم الداعي عمران .

وهذه هي القصيدة :

فلك مقامك والنجوم كؤوس   بسعوده التثليث والتسديس
والبدر وجهك طالعا في دسته   لا البدر أجلى وجهه الحنديس
فأدِرْ بها زهر الدراري ليس فيما دار من كاساتها محبوس
وردية في كل خد وردها   عن رشف ريق رضا بها مغروس

حمراء معقول بلطف الفكر معنا … ها على التحقيق لا محسوس
في موقف وقف الفخار معرساً … فيه بحيث أحلك التعريس
يا داعي الدين الذي أنس العلا … في حيث مغني الجود منه أنيس
يا واحد العرب الذي يسمو بها … يوم التفاخر مجدك القدموس
يا من تطابق فعله ومقاله … فسمى به التطبيق والتجنيس
حق الكواكب أن تكون مدائحا … لك والبروج صحائف وطروس
يا من على أيامه ومقامه … طيب الثناء موقف محبوس
يا من سمت من صيد همدان به … همم وطالت في العلاء رؤوس
الفضل عندك مشرق أنواره … وبناء مجدك شامخ مأسوس
أنت المكرم في الملوك مآثراً … جد المجد لنيلها مقعوس
بحر ولكن النضار عبابه … ليث ولكن الذوابل خيس
صرفت صرف الحادثات عن الورى … منعاً ورضت الخطب وهو شموس

وأقمت للأشعار أسعاراً وكم … عمرت وشعر بديعها موكوس
بجوائز يفني الزمان وذكرها … باق على مر الزمان حبيس
مانالها من جود محمود ولا نصر … بن حيوس ولا حيوس
فإذا لجأ يوماً إليك بحاله … ذو حالة فالرحب والتأنيس
يغدو جليسك في العلا وكأنه … للبدر في أفق السماء جليس
وتخصه بمكارم أنوائها … كفاك والغيث الملث الكيس
الله خصك بالثناء فثوبه … لك ملبس لا المعلم الملبوس
واختص خالصة الامام برتبة … لجلالها التعظيم والتقديس
مولاتنا وولية الزمن التي … طالت كما طالت علا بلقيس
هي جملة لله في تفصيلها … سر بعز جلالها محروس
اسم شريف ليس يجري ذكره … إلا أفاض سعوده برجيس
قد كان لولا صونه في حجبه … قدما يبرهن عنه بطليموس
يرتاح داعي الدين عند سماعه … ويجر ذيل سروره ويميس
ويفيض نائله عليه . . . كأنّما … هو في اجتذاب نداه مغناطيس
في حيث يسجد ذو الفخار لعزها … ويقبل الأرض الملوك الشوس
تزداد إعظاما به ومهابة … وكذا النفيس مدى الزمان نفيس
والنيران المشرقان محمد … وأبو السعود وصنوه المحروس
أبناؤك الغر الذين لعزهم … يعنو رئيس القوم والمرؤوس

يبـدو عليـهـم للكـمال دلائـل ... لم يلتـبس بوضـوحـهـا تلبـيس
سفـروا فأسفـر ملكك السامي لهم ... وأضـاء وجـه للزمـان عبـوس
وكـذا بدور الأفـق ليس شبيههـا ... إلا بدور طالـع وشـمـوس
طلعـوا عليـك وللمـواكب ملتقى ... من حولهـم للحـرب فيـه وطيس
قد حفهم من صيـد كهلان وداعي ... حمير الـكـردوس فالـكـردوس
هذا خميس أنـت تحـمي دونـه ... بأسـا وهـذا يقـتـفـيـه خميس
يسـعـون تحت لواء نصرك كلهـم ... في الـفضـل مغبـوط به منفـوس
والحظ يوم الجـود منـك موفـر ... للكـل لا نزر ولا مبـخـوس
فافـخـر فما لك في الملوك مماثـل ... من ذا يقـاس ومـن عسـاه يقيس

***

العنَدي والدعوة الاسماعيليّة

لم يحدثنا أحد أن الشيخ أبا بكر العندي كان اسماعيلياً ، أو أنه قد تأثّر بالطقوس والألغاز العقائدية الباطنية ، ولو أن شيئاً من ذلك قد ورد في شعره أو رسائله لما أهمله مؤرّخو الدعوة الفاطمية في اليمن ومنهم العلامة الدكتور حسين الهمداني مؤلف كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » .

وإذا كنا نعلم أنه قد نشأ وعاش في منطقة « عدن » التي كانت وسائر جنوب اليمن منذ ثورة علي محمد الصليحي سنة ٤٣٩هـ الفاطمية وحتى سنة ٥٦٩هـ عندما غزا اليمن توران شاه الأيوبي ، تحت سيطرة حكام يدينون بالولاء للحكم الاسماعيلي الفاطمي ، ونعرف أن سلاطين « آل زريع » سواء في العهد الذي كانوا يدينون فيه بالولاء للصليحيين أثناء حكم الملك المكرّم أو زوجته الملكة السيّدة أروى ، أو بعد أن استقلّوا بعدن ولحج والدملوة وماصاقبها من أصقاع ، بعد أن انقسمت الدعوة الفاطمية على نفسها أثر إغتيال الخليفة الفاطمي الآمر عام ٥٢٤هـ واختفاء ابنهِ الصغير « الطيّب » كما يزعمون ، وإقدام الملكة السيدة على إعلان استقلال اليمن وانفصالها ملكاً ودعوةً وسياسة ومذهبا عن مركز القاهرة ، وتبنّيها للدعوة « الطيبيّة » ، والولاء للامام المستور في الوقت الذي أعلن فيه الداعي سبأ الزريعي ولاءه للدعوة « المجيدية » في « مصر » وتبعه على ذلك خليفته وابنه الداعي محمد ثم ولده الداعي عمران بن محمد ممدوح شاعرنا

العنَدي حتى غزا السلطان توران شاه اليمن سنة ٥٦٩هـ بعد وفاة الداعي عمران وقضى على الجميع كما فصلنا في مكان آخر من كتابنا .

نعم نحن نعلم ذلك ونعرفه وندري أن الشيخ أبا بكر العندي الأديب الشاعر كان يتولّى كتابة الرسائل عن الداعي محمد بن سبأ وابنه الداعي عمران إلى الخلفاء الفاطميين في القاهرة ولا شك أنه كان يستعمل العبارات والألفاظ الخاصة بالدعوة الفاطمية من ألقاب وطقوس في تلك الرسائل غير أننا نظن أنه كان يمارس ذلك كموظّف ، وليس كمعتقِد شأنه شأن غيره من كتاب ديوان الانشاء في أيّ بلاط ، ولقد كان سلفه الشاعر الكاتب المترسل الحسين بن علي بن القم يتولى كتابة الرسائل على لسان الملك المكرّم والملكة السيدة أيضاً ؛ ولكننا نظنّ أنه كان وكان « العنَدي » مثلما كان تلميذه الشاعر عمارة والكثير من شعراء وعلماء وفقهاء ذلك العهد ومن أبناء عدن وحضرموت ، وجِبلة وزَبيد ، من أهل السنّة ، وأتباع الامام محمد بن إدريس الشافعي ، ولا يدينون بما دان به الذؤيب ، والخطّاب وأستاذهما الزواحي .

ولكن ما ورد في قصيدة « العنَدي » السينية التي استحق عليها أغرب جائزة في تاريخ الشعر العربي ، يثير بعض الأسئلة التي تلقي ظلالاً من الشك على عقيدة شيخنا الأديب العنَدي !

فماذا أراد بقوله :

الله خصّك بالثناء فثوبه — لك ملبس ؛ لا المعْلَمُ الملبوس
واختصّ خالصةَ الامام برتبةٍ — لجلالها التعظيمُ والتقديسُ
مولاتنا وليّة الزمن التي — طالتْ ؛ كما طالَتْ عُلاً بلقيس !

فمن هي هذه « مولاتُه وولية الزمن »؟ إنها ليست الملكة السيدة أروى الصليحية التي كانت تعتبر نفسها ويعتبرها أتباع الدعوة « حجة الامام » لأنّها كانت قد لاقت ربها عام ٥٣٢هـ قبل أن يلقي العنَدي قصيدته السينية في مجلس الداعي عمران بأكثر من عشرين عاما !

فهلْ هناك امرأة من آل بني زريع ، ولتكن زوجة الداعي عمران كانت تعدّ نفسها لخلافة الداعي كما عملت « السيدة أروى بنت أحمد

الصليحية » ؟ وأن الشاعر قد عناها بقوله :

هي جملةٌ للّهِ في تفصيلها سرٌّ بعز جلالها محروسُ
اسم شريف ليس يجري ذكره إلّا أفاض سعوده « برْجيسُ » !

وبرجيس هو النجم المعروف باسم « المشترى » ، وقد بلغ غاية الغلو والاغراق بذلك ، وبقوله :

قد كاد ـ لولا صونه في حجبه ـ قدماً يبرهن عنه « بطليموسُ »

إلى آخر الأبيات التي تدل على أنه قد تأثر بشعوذات وألغاز العقائد الباطنية والتي نجد ما يماثلها في أشعار السلطان الخطّاب الحجوري ، بل وفي أبيات قالها الحسين القمّي في الملكة السيّدة أروى وكل ذلك ضرب من هوس الضلال .

ومما يكثف ظلال الشك ، ويجرّنا إلى الظنّ بأن « البلاط الزريعي » في أواخر أيام السلطان « عمران » الذي لم يُرزَقْ بأولاد ذكور في وقتٍ مبكر كان يمهّد الأجواء ، ويُعدّ تهيئتها لتَقبّل أمٍ للبنين ، أو وارثةٍ للعرش الزريعي العِمراني تمثّل دور السيّدة أروى التي حفظت « العرش الصليحي » وترأسّت في نفس الوقت الدعوة الاسماعيلية وصانتها من الضياع . . ممّا يجعلنا نظن ذلك أن الشاعر « العندي » ما إن فرغ من تمجيد « مولاته » « وليّة الزمن » حتى انتقل إلى مدح الأمراء الصغار من أولاد الداعي عمران قائلاً :

والنيّران المشرقان محمد وأبو السعود ، وصنوه المحروس
أبناؤك الغرّ الذين لعزّهم يعنو رئيس القوم والمرؤوس
يبدو عليهم للكمال دلائل لم يلتبس بوضوحها تلبيسُ

إلى آخر القصيدة . فهل كان الداعي عمران يحسّ بدنوّ أجله ، ويخشى أن يُفاجأه الموت وأولاده لا يزالون أطفالا ، ولذلك شجّع العمل على تهيئة المناخ السياسي والفكري لوراثة التاج الزريعي والدعوة الاسماعيلية بالطريقة « الصليحية » ؟ .

وليست أبيات القصيدة السينية التي مدح بها الأديب الداعي عمران هي التي أثارت وحدها شكوكنا ؛ فهناك قصيدة أخرى في أربعين بيتاً مدح شاعرنا بها الأميرين الشابين بعد وفاة والدهما الداعي ، وفيها مدحٌ للشيخ

ياسر بن بلال وزير والدهما ونائبه ، والذي مسك أزمة السلطة في عدن بعد وفاته ، وفيها أيضاً إشادة « بمولاتنا السامي محل فخارها » ومطلعها :

هو مفـخـرٌ فوق السـماك مُخيّمُ ومـآثـرٌ من دونهنّ الأنـجـمُ
وعُـلى على وجـه الـزمـان نضـارة منهـا ، وفي ثغـر الـزمـان تبسّمُ

وفيها إغراق في الاطراء لا يستساغ في طفلين صغيرين مثل قوله :

ملكـان ؛ للملك الخطير تطاولٌ بهما ، ولـلزمـن الأخـير تقـدمُ
قمـران في أفق البهاء ، وفي الندى بحـران ، ذا طام ؛ وهـذا مفعمُ
يتبـاريـان فضـائـلا وفـواضـلا وكـلاهمـا فيـهما أحـب محكـمُ
فاذا جرى ذكـر المـلوك فعـنهـما بالفضـل ألسنـة الـزمـان تترجمُ
وإذا الـكـرام تطاولـت لمداهمـا قصرت وأيـن من الـسـنـام المنسم
وإذا أفـاضـا في البيـان وأعـربا نطقـاً فسَحْبان الفصاحـة مفحمُ
فكـأن ألسنـة البـلاغـة عنهـما تملي بديـع الـقـول أو تتـكـلمُ
فتـكـاد تنـظم در مافـاهـا به لو كان در الـقـول مما ينـظمُ

***

فإذا كان مما يستساغ ويجوز عند ذوي الإغراق ، أن يصف الأميرين الطفلين بالملك الخطير ، وإنهما قمران في البهاء ، وبحران في الندى ، فلن يُستساغ بأي حالٍ من الأحوال أن يصفهما بالفصاحة والبلاغة ؛ فإذا نطقا أفحم سحبان وائل ، واستعجم قس بن ساعدة الأيادي ؛ ألسنةُ البلاغة عنهما تملي وتتكلم ، ويكاد درّ ما يفوهان به يوزن وينظم ؛ إلا إذا كان الغرض من ذلك التلويح والتبشير بالتهاويل الباطنية ، وأسرارها وألغازها ؛ ويستمر في المدح والاطراء فيقول :

سبقـا إلى العليـا في سن الصبـا وتنـاولا أقصى الـذي يتـوهم
وتسـنـما رتب الفخـار وجـاوزا في الـعـز من يسـمـو ومن يتسنّم
وتعـاظـما كرمـاً وسـادا في العـلا ما كان ساد معـظم ومـكـرم
فالمجـد موقـوف عليهم والنـدى وإلـيـهـما دون الأنـام مسـلم
والـوفـد منتجـع إلى مغنـاهـما إذ في أكـفـهـما السحـاب المثجم
والـركـب إمـا مستـقـل بالغنى أو قاطـن أو قاصـد وميـمـم

لا يسأمَ الوفد الورود إليهما ... ونداهما متدفق لا يسأم
جعلا بقاعهما الشريفة ملتقى ... إذ للندى علم هناك ومعلم
فلهم ببابهما الكريم تزاحم ... وكذا التزاحم حيث يلقى المغنم
ولكل أرض موسم ولديهما ... في كل يوم بالمواهب موسم
ولو أن هامي السحب دام حكاهما ... لكن جودهما أعم وأدوم
نشآ على دين المكارم والندى ... واستنبطا بالعلم ما لا يعلم
واستعبدا السادات بالنعم التي ... أضحى لها في كل جيد ميسم
فهي القلائد في الرقاب وإنما ... أسنا القلائد في الرقاب الأنعم

***

ثم يلتفت إلى « مولاتنا » !، والشيخ السعيد ياسر بن بلال فيقول :

وأمد سعدهما الآله بسعد من ... تسدى العوارف في الآله وتنعم
مولاتنا السامي محل فخارها ... في حيث لا يسمو السها والمرزم
وولية الفضل الذي افضا لها ... يحيا بها العافي ويغني المعدم
وعزائم الشيخ السعيد فإنه ... مذ كان ماضي العزم فيما يعزم
متيقظاً في صون ملكهما الذي ... عزماته جيش لديه عرمرم
شهراه واعتمدا عليه لأنه ... مقدام بأس في الوغى ومقدم
يرمي فيصمي من رماه كأنما ... آرائه في كل ثغر أسهم
وحمى البلاد وضم من أطرافها ... بالحزم يعقد من قواه ويبرم
فلذاك جل لديهما في رتبة ... بعدت على إدراك من يتوسم
نعم مجددة أقر قرارها ... فيمن تليق به الكريم المنعم
فليسلما في ظل ملك عزمه ... من دونه فيمن عصاه مخذم
وهناهما العيد الذي إشراقه ... بهما وروض الحسن فيه متمم
تمضي الليالي والزمان عليهما ... وكلاهما عالي المراتب أعظم
في دولة إقبالها لا ينقضي ... أبداً وعروة عزها لا تفصم

نعم لقد توفّي الداعي عمران عام ٥٦٠هـ وأولاده الثلاثة محمد وأبو السعود والمنصور لم يدرك أحدٌ منهم الحلمُ كما يقول عمارة وهو يسجل ذلك : « حتى يومنا هذا » أي سنة ٥٦٤هـ وهو يكتب « المفيد » ، وقد سبق أن ذكرنا في ترجمة السلطان الأستاذ جوهر المعظّمي صاحب الدملؤة ، أنه

كفل أولاد الداعي عمران وصانهم من سيف توران شاه ؛ ثم احتال في أيام السّلطان سيف الاسلام طغتكين على الهروب معهم إلى الحبشة !

وإذا كان الداعي عمران وأركان دولته بما فيهم الأديب الوزير الشاعر « العنَدي » ، قد فكّروا في إنقاذ التاج الزُّريعي ، والدعوة « المجيدية » بالأسلوب « الصّليحي » ، فهل غاب عن أذهانهم أن الظروف قد اختلفت ؛ وأن عجلة التاريخ قد دارت دورة التغيير ، كسنةٍ من سنن الله العزيز الحكيم ؟ وهل نَسُوا أن السيّدة أروى بنت أحمد الصليحية كانت خَلْقاً وطبعاً وتكويناً ، ذات مواهب فذّة ، واستعداد فريد ، حتى لقد كان الملك علي بن محمد الصليحي يقول لزوجته « أسماء » حين يراها : « أكرميها ، فهي والله كافلة ذرارينا ، وحافظة هذا الأمر على من بقى منا » ؟ ولقد ذهبت أدراج الرياح ترتيبات وتدبيرات الطامحين والمشفقين ، وأنشد لسان الحال :

تقفون والفلك المسخّر دائرٌ وتقدّرون فتضحك الأقدارُ

شعر المديح :

وهناك قصيدة همزيّة قالها « العنَدي » في الأميرين الطفلين محمد وأبي السعود وفيها يصرّح أنهما في سنّ السابعة ، ولا ندري هل يعني ذلك أنهما توأمان ؟ وقد أورد القصيدة كل من عمارة في مفيده ، والأصبهاني في خريدته ، وهي من الشعر الجزل القوي الحبك والسبك .

ولعل البعض سيضيق باستكثارنا من قصائد المدح ؛ وكثيراً ما رأيناهم وسمعناهم يضيقون به ذرعاً ، ويندّدون بقائله وراويه ، بل ويتعمّدون حذفه من مختاراتهم والدواوين الشعرية التي ينشرونها ، أو يقومون بتحقيقها ؛ وأما نحن فلا نضيق بالمدح ولا بالهجاء ولا بأيّ ضرب من ضروب البيان شعراً ونثراً ؛ وإنما نضيق ذرعاً بالركاكة والأسفاف معنى ولفظاً ، وتعبيراً وتصويراً ، وشعراً ونثراً ، وفي أيّ فن من فنون القول ، وبأي لغة من اللّغات وفي كل زمان ومكان .

إننا لو حذفنا شعر المدح والهجاء من ديوان العرب لحذفنا أكثر من نصف

الأدب العربي ، وشطبنا ثلث تاريخ العرب ، وربع التاريخ الاسلامي ، فلم تُسَجَّلِ الأيام والأخبار والآثار ، والوقائع والمواقع ، والمحافل والمعارك ، والأحسابَ والأنساب ، وصفات الخيل والأبل والوحوش وصفات مكارم الأخلاق أكثر وأتقن مما سجِّلت في قصائد وشعر المدح والهجاء !. وفي مدائح خلفاء وملوك الاسلام ، وأمراء العرب والمسلمين وقاداتهم وشجعانهم وأبطالهم ، بل ومحاباة ومداراة من كان منهم غشوما .

ولا يهمّ طالبُ العلم والمعرفة ، ودارس الأدب وناقده ، في أي أثر يدرسه أو ينقده ، إلّا الجودة تعبيراً وتصويراً ، وقوة سبكٍ وأداء ؛ ولا مبدأً ولا دين ولا طائفة للاجادة البيانية ؛ وليكنْ صاحبها مسلماً حنيفاً ، أو مشركاً أو يهودياً أو نصرانياً ، أو بوذياً أو مجوسيّاً ، أو موحّداً أو ملحداً ، برّاً رحيماً ، أو شريراً رجيما ؛ فذو الذوق الفنّي يطرب لروعة التعبير ، وإجادة التصوير ، وللمعنى البديع ثم لِيُرضِّي وَليتحَنّن عليه ، أو لِيَكُبَّه بلعناته إن شاء في سواء الجحيم !.

وهذه هي سبيل أدباء العرب ؛ قدامى ومحدثين ؛ وكما لم نضق ذرعاً بعمارة والعماد الأصفهاني ، حين اهتما بهذه القصيدة في مدح الأميرين الطفلين ، لأنها من الشعر الجيد ، وأورداها في كتابيهما ، فسوف يوجد بين من يهتمون بمعرفة شيء من الأدب اليمني العربي في العصر العباسي ، من لا يضيق بالقصيدة ولا بنا ذرعاً حين نسجّلها مصحّحة مضبوطة ، ولا سيما وهي تساعد على معرفة الحياة الأدبية والاجتماعية في فترة مهمة من فترات تاريخ اليمن السياسي والثقافي .

قال في الأميرين الزريعيين والوزير ياسر بن بلال :

ملأ النواظر بهجة وبهاءَ ... أفق جلا في دسته الأمراءَ
ومقام إعظام قضت لسعوده ... الأفلاك أن يستخدم العظماءَ
طلعا طلوع النيّرين وجاوزا ... في المجد مطلعها سنا وسناء
ملكان في السبع السنين وقد علا ... مرماهما الشيب الكهول علاء
يتباريان مناقبا وضرائبا ... بلغا بها من مفخر ما شاءا
فمحمد كمحمد في جوده ... وأبو السعود أبو السخاء سخاء
وكلاهما يحكى المكرم سؤددا ... ومكارما أنسى بها الكرماء

ومـــاثـــراً ومـفــاخـــراً وشـــمائـــلا … وفـــضـــائـــلا وفـــواضـــلا وإبـــاء
والمـــجـــد أرفــعـــه بنـــاءً ماغـــدا … الأبـــنـــاء فيـــه تقـــتـــفي الآبـــاء
ولقـد سعى سعي المكرم في العلا … نَجْــلاه تشــيــيــداً لها وبـــنـــاء
وتــقـــبـــلا الآثـــار منـــه كأنـــما … أمـــلاهمـــا آيـــاتـــهـــا إمـــلاء
وتجــاريــا طلق الــرهـــان فبرزا … سبقـــا وجـــاءا في الـــرهـــان سواء
كرمـــا ثنى زمـــر الـــوفـــود إليهـــما … وسرى بأنفـــاس الـــريـــاض ثنـــاء
ومـــواهـــبـــاً موصـــولـــة بمـــواهـــب … أنـــوارهـــا تســـتـــغـــرق الأنـــواء
إن ضن هامـــي المـــزن جادا أو دجى … ليـــل الحـــوادث والخـــطوب أضـــاءا
من يعـــرب العرباء في الأصل الذي … جازت ذوائـــب فضـــله الجـــوزاء
وسراة أبنـــاء الـــزُّريـــع أجـــل من … رفـــعـــت به أيـــدي الخـــميس لواء
ومـــلوك همدان الـــذيـــن تبـــوؤا … رتـــب المـــمالـــك عنـــوة وعـــنـــاء
سلكوا إليها المسلك الصعب الذي … ينـــسى الحـــيـــاة سلوكـــه الأحيـــاء
وتحـــمـــلوا أعـــبـــاءهـــا إذ لم يطق … من رامـــهـــا أن يحـــمـــل الأعـــبـــاء
وتجشمـــوا فيهـــا الصـــلاح وجرعـــوا … كأس المـــنـــيـــة دونها الأعـــداء
حتى دعـــوا دون الملوك ريـــاضـهـــا … وتـــفـــيـــئـــوا من ظلهـــا الأفـــيـــاء
واستخـــدمـــوا فيهـــا الأسنة والـظبـــا … والبـــأس يزجى الغـــارة الشعـــواء
واســـتـــوطنت ما بينهم إذ أنشـــأت … عزمـــاتهـــم أرواحـــهـــا إنـــشـــاء
ومضـــوا وأبقـــوا للمـــالـــك بعـــدهم … من فاق بيض المـــرهفـــات مضـــاء
الأكـــرم المحيى الـظهـــير ، وصنـــوه … الســـامي الأثـــير المشرقـــين ذكـــاء
والأشرفـــين خلائقـــاً والأكـــرمـــين … طرائـــقـــا والـــغـــامـــريـــن عطاء
فتشرفـــت رتـــب المـــعـــالي منهـــما … بأعـــز من بهر الـــزمـــان ضيـــاء
واستنجـــدا تِرْبَ الـــريـــاسة ياسرا … فكفـــاهمـــا الاغضـــاب والارضـــاء
وغـدا السَّعيـــد بن السَّعيـــدِ مقســـما … بيـــديهـــا الـــســـراء والـــضـــراء
ومـــدبـــراً أمـــر الـــبريـــة عنهـــما … فيـــما دنـــى من أرضـــهـــم وتنـــاء
أصفـــاهمـــا منـــه الـــولاء فأصفيـــا … فيـــه الـــوداد وأصـــفـــيـــا الآلاء
فليـــبـــقـــيـــا في ظل ملك دائـــم … الاقـــبـــال ما دام الـــزمـــان بقـــاء
وهنـــاهمـــا شهـــر الصيـــام ومليـــا … فيـــه الـــتـــهـــاني ما استجـــد هنـــاء

***

الأديب وغريب اللغة :

وكـان « أديبنـا » غزير المـورد لغوياً ، ويتعمدّ انتقاء غرائب الألفاظ ، ويتخير نفائسها ويتفنّن في ترصيع أشعاره بها تفنّن الصَّناع الحاذق المتمكّن ، دون تقعّر أو تكلّف ؛ وله همزية فريدة صناعةً وغزلاً ومدحاً ، وحبكا وسبكا وقد اختارها كلٌّ من عمارة والعماد ، ورويُّها صعب لا يتعمده إلاّ الفحول المتبحرّون لغوياً ، وهي من قصائده في الداعي عمران ، وقد افتتحها بهذا النسيب الرقيق :

عاد الهـوى في فؤادي مثـلما بدأ ... لما تعـرفـت من أهـل الحـما نبـأ
أملى على القلب ساري البرق مبتسما ... عنهم أحـاديث شوق تطرب المـلأ
فبـت أروي رُبـا خدَيَّ من ديـم ... تزداد غلة أحـشـائـي بها ظمـأ
وفي العـواذل مهـراق النجيع بها ... لما ترقـرق منهـلا فما رقـأ
لعـل لامـع ذاك الـبرق كان لهم ... طليعـة ؛ طالـعَ الأسرار فارتبـأ
لئن براني هوى أهـل الحـما فلكم ... داويـت من حبـهـم داءي فما برأ
يدنيهم الشـوق مني والحنـين وإن ... شط المـزار بهم عن ناظـري ونـأ
ومـا تقـنـصـني منهم سواء رشـاء ... أفـدي بمهجـة نفسي ذلـك الـرشأ
أغـن يغـني عن الـبـدر المنـير به ... من جالس الشمس من أزراره ورأ
ملء النـواظـر حسنـا حين يلحـظه ... وأمـلكُ الحسـن للألحـاظ ما ملأ
ما اهتز غصن الصبا من عطف قامته ... إلا وأزرى بغـصـن البـان أو هزأ

***

ثم تخلّص إلى مدح الداعي تخلّصاً بديعاً ظريفاً فقال :

نشوان تحسب صرف الراح ريقته ، ... أو مدح داع الهـدى عاطـاه فانتشـأ
عمـران أكـرم من جاء الـزمـان به ... فردا وأشرف من في حجـره نشـأ
كأن قحـطان قدمـاً كان أودع في ... ضمائـر الفضـل سرا منـه أو خبـأ
من أوطـأتـه على كيـوان همتـه ، ... لو كان يرضـى على كيـوان أن يطأ
وازداد فخـراً على ما شاد والـده ... محمـد وسـبـى في مجده سبـأ
تنـاول الغـرض الأقصى فأدركـه ... واجتـاز غايـات أملاك الورى وشأ
أغـرّ أبـلج لو يسري بغـرتـه ... في فحمـة الليـل بدر التم ما انطفأ
يزهى به الـدست يوم السلم مبتسما ... وفي الوغى سابح سامي التليل وأى

كالليث ليس بمختار فريسته ؛ ... سيان ظبي كناس عنده ولأى
لو لم يعر عزمه العضب المهندما ... جرى الردى في غراريه ولا اجتر أى
روى عطاش الأماني وهي صادية ... مكارماً وجلى عن بيضها الصدأ
ما زال ملجأ من سدت مذاهبه ... في حين لا يجد الملهوف ملتجأ
يلقى بسامي ذراه الزائرون به ... والواردون إليه الماء والكلأ
ويفجأ الخطب منه عند رؤيته ... عزم تكشف منه كلما فجأ
فكلما رزأ الخطب الورى كفلت ... بيض الصوارم منه جبر مارزأ
كم حادث غال فاغتالته منه ظبا ... تعودت كشفَ مكروه ورأب ثأى
وكم ألمت ملمات زوابعها ... يظل يدرأ عنها صدر من درأ
سَما لها دون أملاك الورى فكفى ... من هم نازلها ما هم وانكفأ
يبيت يحضؤُ نار الجود ، موقدها ... لوفده وبعود الهند ما حضأ
خطت يد المجد في وجه الزمان به ... مآثراً يقتديها كل من قرأ
قد برّأ الله في التكوين خِلقته ... وخُلْقه من ذميم الفضل إذ برأ
وذرّ في كفه الأرزاق يقسمها ... من راحتيه لمن في عصره ذرأ
للجود في ماله يوم النوال خطا ... يفنيه عمداً إذا جاد امرىء خطأ
يسطو على المال إنعاماً كأن به ... غيظاً على المال يوم الجود أو شنأ
يخضر نبت أياديه وأنعمه ... للمعتفين إذا نبت الرياض ذأ
فليهن أعوامه إقبال دولته ... وأنه خير وال للورى كلاء
وبلغ السؤل في شبلي عرينته ... والمبتدين من العلياء ما ابتدآ
حتى يرى الكل آباءً أخا شرف ... سما الزمان بسامي فخره ونأ
ولينسىء الله للدنيا وساكنها ... في عمره ضعف ما في عمرها نسأ

***

على أن براعته اللّغوية ، وحذقه البياني يتجلّيان في قصيدته « الضادية » التي جاءت رغم طولها ، وعويص رويّها سلْسَةً رقيقة تتحاشى الحوشيّ من الألفاظ التي تستدعيها طبيعة قوافي رويها ؛ ولم يضطر الشاعر فيها إلى استخدام ما يفتقر إلى تفسير ألّا في ثلاث قواف من السهل على القارىء المبتدىء الرجوع لمعرفتها إلى إحدى المعاجم المتداولة .

ويظهر من تحريض الشاعر لهمدان قوم آل زُريع على الحرب ، وشن

الغارات واستلال بيض الصّفاح ، وشرع سمر الرماح ، لقمع من سهاهم الناكثين والبغاة أن القصيدة قيلت أبان نشوب فتنة ؛ وما كان أكثرها في تلك الحقبة قبل طوفان « توران شاه » .

قال يمدح الداعي عمران :

ما البرق من ظلل الغمائم أومضا ... لكنها قضب العزائم تنتضى
أمضى صوارمها المكرم ضارباً ... إن المهند كيف ما استمضى مضى
متقاضياً إيجاد سعد لم تزل ... تجرى مساعدة القضاء بها قضى
ومسامياً زهر الكواكب إنه ... لسوى مجاورة الكواكب ما ارتضى
بينا تراه في القباب مخيما ... حتى تراه للخيام مقوضا
متعوضاً بالدست صهوة سابح ... لولا العلا ما أختار أن يتعوضا
سبق الفعال القول منه فيا له ... سهما أصاب لدارع ما أنبضا
ما كان في إبرام عقدة رأيه ... بالرشد منتظراً إلى أن ينقضا
لم يستشر في السير إلا طِرفه ... والأسمر الماضي الشبا والأبيضا
نهضت به العزمات علما أنه ... لا يفرس الضرغام حتى ينهضا
وأضاء في الآفاق نور جبينه ... كضياء بدر لاح أو صبح أضا
ملأ النواظر والخواطر قاطنا ... والبيد لما سار فيها والفضا
عرضت منيرات السعود تحفه ... بمواكب التأييد لما عرضا
أبداً يحرض في المعالي نفسه ... حسب العلى بالرأي منه محرضا
وكأنما أعدى السيوف بيأسه ... فتعلمت منه التوقد والمضا
فلْيسل غايته المجاري ؛ لم تدعْ ... ركض السوابق للواحق مركضا
ما كل من طلب الكواكب طامعاً ... في قبضها ، متمكن أن يقبضا
لم ترض إلا سعيه رتب العلا ؛ ... إن الشريف من المساعي يرتضا
ثبتت به قدم السعادة وانجلت ... حجج أبت آياتها أن تدحضا
رفع الاله على الملوك محله ... وقضا لحاسد عزه أن يخفضا
واختصه بسوابغ من لطفه ... وأفاض أنعمه عليه وفوضا
ولئن عرا خطب فامرض أرضه ... فعلى ظباه شفاء ما قد أمرضا
أو ناب عارض غلة فقد انجلى ... متكشفا ما ناب منه وانقضى
أن كان أعرض مستجما رأيه ... فيها ، فوجه قيامه ما أعرضا
وعلى عزائمه الشريفة أنها ... تجزي بضعفي قرضه ما أقرضا
فالدَّين ليس بمانع أرجاؤه ... من أن يكذبه الغريم ويُقْتضى

فليجف طيبَ الغمض جفن بات في ... أسـهـاره متـيـقـظا ما غمـضـا
ولـيـرمـين الـنـاكثـين بجحفـل ... لجب تصرف فيـهم صرف القضـا
كالـعـارض المسـود إلا أنـه ... بالـلامعـات يشف عن ماء الأضا
يمـتـد عثـيره دخـانـا كلما ... بدت الـصـوارم فيـه ناراً تحتضـا
ولـتـشفـين قلب المحب وقـائـع ... منـه يبيـد بها الـعـدو المبغضـا
ولـيـرجـعن به الجمـوح شكيمـة ... سلس المقـادة في السياسـة ريضـا
فالام يا همدان إغـماد الـظبـا ... صونـا وذا سيف الامـامـة منتضى
شنـوا بها الغـارات ركضـا إنـما ... عز السـوابق أن تشن وتـركضـا
واستخدموا بيض الصفاح وعرضوا ... سمـر الـرمـاح لمن بغى وتعـرضا
وتـيـقنـوا . . أن الضراغم عزّهـا ... أن تُمْس في الأجمـات تمشي ريَّضـا
والبيض أشرف ما تكـون قواطعـا ... لا أن تذَهّـبَ حليـةً وتـفـضـضـا
واستمسكـوا بعرى المكرم وارفضوا ... ما أوجـبـت آراؤه أن يُرفـضـا
فهـو الـعـماد ومجـد قحـطان به ... يسمو افتخاراً من يجيء ومن مضى
إن طال أو عرض الثنـاء بوصفـه ... فبـما أطـال الجود منه وأعـرضـا
يزداد طيـبـاً في الاعـادة مدحـه ... والمسـك أعـبقـه إذا ما خوضـا
لله عمـران المـكـرم إنـه ... أغضى وقد أصلى العدا جمر الغضا
قسم العنـايـة للبـلاد مُرقـرِقـا ... من ماء رونـق حسنهـا ما غيضـا
وسقى العـطاش بزاخـر من جوده ... أغـنـى به الـورّاد أن يتـبرّضـا
فكـأنه ساري السحائب ما انتحى ... أرضـا بوفـد حيـاه إلا روّضـا
طبعت على الشيم الشريفـة نفسه ... فكفى طهـارة ثوبهـا أن يرحضـا
وصـفـت خلائقـه التي لو مازجت ... صفـو الـزلال بطبعهـا ما عرمضـا
متـصـور ما في الخـواطـر عالم ... فحـوى المخاطب مفصحا ومعرضا
فاق المـلوك مكـارمـا وعـزائـما ... وسـعت وليـاً في الأنـام ومبغضـا
فكـأنـما الـنعـماء والبـأسـاء لا ... تنفـك بين السخط منه والـرضا
فليبـق يمحضـه الـزمـان ولاءه ... طوعـا فحق لمثله أن يمـحـضـا

***

استراحة المحارب :

ومن قصائد « العندي » نستشف نوع الحياة الاجتماعية التي كانت تحيط بقصور أمراء « الـزُّرَيْعيين » ، ونعرف أن « الداعي عمران » كان يعقد

مجالس انس ولهو وطرب كتلك التي سبق أن عرفناها ، وقد نعرف ما يماثلها في قصور النجاحيين ومواليهم والحاتميين والأيوبيين والمماليك ؛ وقد أطلعنا في « سينيته » على شيء من ذلك ، وها هو في إحدى طويلاته يتعرض لوصف ربيع عدن ويذكر تلك المجالس ويبّررها ؛ لأن الداعي إن روح على نفسه فقد أضناها ، وإن جنح للسرور فطالما كابد الأتعاب في ميادين الصراع :

وافى الربيع يرف في ألوانه ... ما بين وشي رياضه وجنانه
وسرى يجرجر من مطارف زهره ... أذيال مخضل الندى ريانه
متوشحا بالخضر من أوراقه ... مترنحا بالهيف من أغصانه
مستوطنا بالعصب من خيراته ... عدناً وإن جلت عن استيطانه
أبدى الغرائب من بدائع حسنه ... غرس تبسم عنه قبل أوانه
غرس تباها في البها متجاوزا ... أقصى مداه ومنتهى إمكانه
مد النعيم عليه فضل ردائه ... متكيفاً واليمن ظل أمانه
وأختالت الدنيا به فكأنما ... عاد الشباب بها إلى ريعانه
فكأنما عدن به عدن جلا ... رضوان فيها النور من رضوانه
بهرت محاسنه العقول فصيرت ... أوصافه وقفاً على استحسانه
وتأرجت مسكا لطائم جوده ... فكأنما دارين في أردانه
عم البسيطة وصفه فكأنما ... قام السماع بها مقام عيانه
فكأنما إشراق سلطان الضحى ... متوقد الاشراق من سلطانه
واهتزت الأعطاف فيه كأنما ... هز النسيم بها معاطف بانه
من كل مشتاق الفؤاد طروبه ... أو كل مرتاح الصبا نشوانه
دارت عليه مترعات سروره ... من مترعات كؤسه ودنانه
وهفا براجحة العقول تمائلا ... ما تصطفي النغمات من ألحانه
وتجاوب الأصوات من ناياته ... في ضجة النغمات من عيدانه
وسمى بمفخره الزمان تعاظما ... لما استخص به عظيم زمانه
وقضى تقارن نيّريه بأن ذا ... الفخرين صاحب وقته وقرانه
داعي دعاة هداة سيف إمامه ... دون الملوك بنصره « عمرانه »
ملك تفرع في المعالي منزلا ... بنيت قواعده على كيوانه
متهلل الاشراق ينهل الندى ... من سحب راحته وفيض بنانه
ما شأنه إلا المفاخر مكسباً ... فليكبت الشاني تعاظم شأنه
تُملى مآثرُه المديحَ فتنتظم الأفكا ... ر در فريده وجمانه

فإذا تصرف كاتبـاً أو خاطبـاً ... فالـدر بين بنـانـه وبيـانـه
فكـأنـما الـقـلم الـدقيـق مثقف ... في كفـه والسيف عضب لسـانـه
إن كان روّح روحـه فلطالما ... تعبـت بيـوم ضرابـه وطعـانـه
أو جال في فلك السرور فطالما ... جال المـكـر به على فرسـانـه
فالآن حين قضى لبـانـات الـوغى ... وثنى لطيب العيش فضـل عنانه
وأفـاض في العـافين راحـة جوده ... متـدفقـاً بالجـزل من إحسـانـه
وهمت على المستمـطرين سحائب ... الأمـوال لا الأمـواه من تهتـانـه
نهج الـطريق إلى المكارم والنـدى ... بشريـف غرس شف عن كتـمانـه
متـلطفـاً في أن تفـيض هبـاتـه ... في سره أبـداً وفي إعـلانـه
فلتجـر فرسـان القـريض سوابقاً ... في شأوه وتجـول في ميـدانـه
ولينـظم الفكـر العـوايص ما اصطفت ... من در أبـحـره ومـن مرجـانـه
فالمجـد سام والـفـخـار مشيـد ... والفضـل منفتـح سنـا برهـانه
والـصـبـح يخبر عن ضيـاء نهاره ... ما تجتـلي الأبصـار من عنـوانـه
والمـدح من شرف المكـارم في العلى ... بمكـان نور الـطرف من إنسـانه
مازال يجري وسط باهـر فضـلـه ... في الشعـر مجرى الـروح من جثـمانه
فلتـبـق ناضرة ريـاض نعـيمـه ... في المـلك عامـرة ربـا أوطـانـه

***

آخر قصائده في الداعي :

إن الذين يحاربون قصائد المدح في الشعر العربي لا يعرفون أو لا يقدّرون أن أبدع ما تلقّيناه عن شعراء العرب في الغزل ، ووصف الحروب والمعارك وأسلحتهـا ، ومجـالس اللهـو والطرب وآلاتها ، وأبيات المواعظ والنصائح والحكمة ، سواء في شعر أبي تمام أو البحتري أو المتنبي أو أساتذتهم بشّار وأبي نواس وأبي العتـاهية ، أو من جاء بعـدهم كالشريف الـرضـي وابن هانىء ومهيار ، أو مَنْ قبل أولئك وبعد هؤلاء . . . إنما تلقيناه واستصفيناه من مدائح أولئك الشعراء . وهذا أمر واضح معروف لا يحتاج إلى تدليل ، ولا يفتقـر إلى برهان ، ولو أني جاريت بعض المؤلفين اليمنيين المعاصرين الذين يحاربون قصائد المدح باسم التجديد و« التقدمية » ! ويحذفونها من دواوين الشعـراء ، لما عرفنـا ونحن نتحدّث عن « الأديب » العندي عن براعته في النسيب والتشبيب والوصف وسائر فنون البيان ؛ فقد كان يودع

قصائده في الداعي عمران وغيره ما يعنّ له من أفكار في كل ضروب القول وفنون الشعر .

وهـذه بين أيدينـا قصيدتـه « العينيّة » الـطويلة والتي قالها في الداعي عمـران ، ونظنّ أنها آخر أو من آخر ما أنشده الداعي قبل أن يلبيّ نداء مولاه ؛ بل وبعد أن غزا الظلام بصر الشاعر « الأديب » .

ونطمئن إلى هذا الظن لأن الشاعر في هذه القصيدة قد أتى على ذكر أولاد الداعي الثلاثة بل وسمّاهم بأسمائهم بينما كان لا يذكر ولا يسمّي إلّا محمداً وأبـا السعـود ، ولعل أصغرهم وثالثهم كان « المنصور » ولعله من أم غير « مولاتنا » ، « وليّة الزمن » التي سبقت الاشارة إليها ، ولذلك فان الشاعر عاد بعد أن مات « الداعي » فلم يمدح إلّا الطفلين اللذين كانا في حوالي السابعة محمداً وأبا السعود ثم « مولاته » أمهما وكافل الجميع الوزير الذي قبض أزمة الحكم في عدن الشيخ ياسر بن بلال .

وعلى كلّ فنحن ندعو أولئك الذين يضيقون ذرعاً بمدائح الشعراء بما فيهم الأوائل الذين اسرفوا في مدائحهم للملوك والأمراء ، وتكسّبوا بالشعر واتخـذوا منـه وسيلة من وسائل المعيشة والحياة ، ندعوهم إلى استماع هذا الوصف المتقن للخيل في مطلع قصيدة « العنَدي » في مدح « الداعي » يقول :

العـز في صهوات خيل الـداعي	مُتَـمـطِّرات يوم يدعـو الـداعـي
لحق الأيـاطـل بالقسـاطـل قنعت	وجـه النهـار من الـدجى بقنـاع
ترنـو فتـحـوي ما رأتـه كأنـما	خلقـت لواحـظهـا من الأبـواع
من كل مبـيض الأديـم كأنـه	من ماء در في الـصـفـا مماع
أو كل ورد ورد روضـة جسمـه	متـفـتـح فـي مائس الأقـماع
أو أصـفـر ألـقـى على سربـالـه	طفـل العشـايا منه فضـل شعـاع
أو أدهـم كالـليـل إلا أربـع	خاضـت صبـاح جبينـه الـلماع
تلك الـتي يقضي لعقـد لوائـهـا	بالـنصر صدق حفـائظ ومصـاع
ويقـودهـا شعث النـواصي شزبـا	ماضي الـعـزايـم صادق الأزمـاع
ملك الملـوك عظيـمـهـا عمـرانها	والـداعي ابن الـداعي ابن الداعي
نسـب كإشراق الـصبـاح يمـده	إشراق بيض فضـائـل ومسـاعي

ثم ينتقل إلى مدح « أميره » فينطق بنظم محكم ، ونغمة تظن وأنت تصغي إليها ، وإلى تراكيب جملها ، ونفائس معانيها ، أنك تستمع إلى أحد الشعراء الفحول في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ففيها طلاوة شعر البحتري ، وقوة سبك المتنبّي ، ورصانة بيان الشريف :

ملك زريعي النجار مؤيداً الأ … نصار ، رحب الباب رحب الباع
مشبوبة فوق الكواكب ناره … لا في ذرى علم وقُوز يفاع
ملك غرائب مدحه وحديثه … نُزَهُ العقول ، وتحفة الأسماع
ملأ الزمان جلالة ومهابة … ملء النواظر مِلْء سمع الواعي
ما أجمعت إلا على تفضيله … بين البرية ألسن الاجماع
تجلو فضائله العيان وإنما … حكم العيان نزيل كل سماع
ملك ولايات البلاد وعزلها … ما بين قطع منه أو إقطاع
متكفل دفع الخطوب عن الورى … في حين أعيى الخطب كل دفاع
يسع النوازل ضاقت الدنيا بها … تركيب صدر لا يضيق وساع
فكأنما هي في فضاء ضميره … سر من الأسرار غير مذاع
يحمي بهيبته الجيوش إذا هفت … أبطالها بالمعرك الجعجاع

***

وسرعان ما ينتقل بنا إلى وصف دقيق للمعامع والمعارك التي خاضها الداعي وأبطال « آل الزريع » فيبدع ويجيد الوصف ، ويجعلنا نعيش مع الخيل تعثر بالرؤوس ، وتخوض في علق الدم ، ونشاهد بطله كالأسد في غابة من الرماح التي كأنها سود الأفاعي ونتذكر ونتصور بعض أيام همدان التي لا نعرف عنها شيئاً كيوم « المعافر » و « قَيْعة قَاع » فيقول :

ويلوذ يوم الروع من سطواته … بالأمن قلب الخائف المرتاع
لا تحجب اللامات عن ألفاته … في الطعن ما في الحجب والأظلاع
في حيث عقبان الحمام حوائم … في النقع واقعة بلا ايقاع
والخيل تعثر بالرؤوس من العدى … وتخوض في علق بهن متاع
يتقدم الانذار وعد مغاره … لا عن ترقب غرة وخداع
ومواكب سالت بها عزماته … كعباب موج أو سيول تلاع
خفقت بها أعلامه فكأنها … في الروع خافقة قلوب رعاع

وأزارهـا أرض الأعـادي صائـلا لا كائـلا صاع الـطعـام بصـاع
ما بين أسرتـه الأولى ما منهـم إلا مدبـر دولـة أو راع
آل الـزريـع الزارعين من العلا والمجـد ما يسمـو عن الـزراع
أسـد يسـير من القنـا في غابـة ويجـرهـا للطعـن سود أفـاعـي
كم عفـروا يوم المعـافـر من فتى ومـقـنـع أردوا بقـيـعـة قاع
لما تبـادر غلب همدان وقـد هم الـعـداة هنـاك باسـترجـاع
واستبـطنـوا الأوجـاع فرط مخافة فأتـى الـردى منهم على الأوجـاع
ويـصـدّع الشمـل المـولف منهم طعـنٌ يزيـل محل كل صداع
والنّصـل في نصر المكـرم راتـع في أنـفس ممن عصـاه شعـاع
وبـنـو زريـع منـه قد لجأوا إلى سام بعـز لوائـهـم منـاع
ما أن تخط يد الـعـلى أوصـافـه إلا بسـمـر الخط لا بيراع
لو أن تبـع كان أدرك عصره أضـحـى له من جملة الاتـبـاع

***

ولا يَكتفي بهذا ؛ بل ويرسم لنا بريشة فنان ناقد حكيم صورةً فذةً للحاكم الحق ، الضرّار النفّاع ، الماضي الأوامر المهاب المحبوب المطاع ، الذي يتجاوز غايات الفضائل باستقامته ، ولا تختلج خواطره بشهوات الأطماع ، المتدفق كرماً وبأساً والذي يحظى من يجالسه بأشرف رتبة ؛ عزةً واستغناءً عن الآخرين ، ويمسي وكأنه جليس البدر أو « القعقاع بن شورٍ » الذي قال فيه الشاعر :

وكنت جليس « قعقـاع بن شورٍ » ولا يشـقـى بقَـعْـقـاع جليسُ ،
ضحـوك الـسنّ إن أمـروا بخـيرٍ وعـنـد الشر مطراق عبـوسُ ،

وما ألطف وأحكم وصفه لذلك الحاكم المثالي :

لا يرتضي لسع الفضائل منذ أن يصغى لسـاعٍ في الـورى لسّـاع
ويسرّه الـسـاعـي إلى أبـوابـه مستمطراً سحبَ الندى ؛ لا السّاعيَ

فيقول :

خضـعـت له غلب الملوك وإنـما خضـعـت لضرار لها نفـاع
وعنت لعـالي القـدر منـه مؤيـد ماضي الأوامـر في الـزمـان مطاع
متـجـاوز غايـات كل فضـيلة لم تختـلج بخـواطـر الأطـماع

ما زال يترع في المواهب إنما أتراع طيب الذكر في الأتراع
متدفق كرما وبأسا ما له عن ذا ولا عن ذاك من اقلاع
أن صال أوجبت النِّصال تبا ين الأوصال بعد تآلف الأوضاع
أو جاد آذن ماله خزّانه لا عن قلى ، بتشتت ووداع
فالمال مقتسم مشاع عنده بيد الندي ، والمجد غير مشاع
فكأنما هو للعفاة ودائع في كفه مضمونة الايداع
يحظى مجالسه بأشرف رتبة ما بين عز علا وخصب مراعي
فكأنّ من يمسي جليسا عنده يمسي جليس البدر والقعقاع
لا يرتضي لسع الفضائل منذ أن يصغى لساع في الورى لسّاع
ويسره الساعي إلى أبوابه مستمطراً سحب الندي ؛ لا السَّاعي
وله من الأمراء أقمار حكوا منه شريف خلائق وطباع
ولدوا على دين العلي واسترضعوا در المكارم عنه خير رضاع
فمحمد للحمد تبعثه على الأ طناب فيه بواعث ودواعي
وأبو السعود له حليف مسعد في الفضل يحفظ فضله ويراعي
وشواهد « المنصور » تشهد أنه ما الظن في عليائه بمضاع
أمراء ملك زينوه وأوطنوا منه أعز مواطن وبقاع
فبقيت يا داعي الدعاة ممتعاً بالكل منهم أفضل الامتاع
أبدعت في كرم الفعال مبرزا فارشف ثغور مدايح الابداع
مدح بها غنى الرواة ورجعت أصوات ورق الأيك بالاسجاع

***

لا شك أن الداعي عمران كان يعاني هماً كبيراً ، من أجل صبيانه الأمراء ، وأمهم « ولية الزمن » ، كما سبق القول ؛ وإن اهتمام شاعره وصديقه ووزيره « الأديب » بهم ، وتكرار ذكره لهم في قصائده كان يخفّف من عناء ذلك الهم ؛ ولكن الأقدار كانت تحوك قصّة مصير الفناء والتشرّد والبلاء ، لكلّ من كان يصغى للشاعر يومئذٍ ، وسيرون بأنفسهم أن « شواهد المنصور » ستشهد ضياعه وتشرّده مع أخويه الأميرين ولله الأمر من قبل ومن بعد .

شعر الغربة والحنين

وكثيرٌ هم شعراء الغربة والحنين في كلّ زمان ومكان ؛ ومنهم من يشعر بالاغتراب حتى وهو بين أهله وذويه وفي وطنه ، كما كان شاعرنا الأديب العندي وأظن أن شعوره ذلك قد زاد حزنا ، بعد أن اكتسح بصره الظلام ، ولا شك أن أساه على فقدان أصحابه وأمرائه من آل زُريع وياسر بن بلال وغيرهم بعد أن أبادهم سيف « توران شاه » قد ضاعف إحساسه بالغربة ، ولا سيما وقد فقد القدرة على الحركة أيضاً بعد أن أوثقه العمى وقيّد خطاه .

وقد سجل له عمارة سبعة أبيات ذكر فيها مسقط رأسه ، وموطن صباه « أبين » يقول فيها :

ليت ساري المزن من وادي « بنا »	**ناب عن عيني فيسقي « أبيْنَا »**
واستهلّت « بالرُّقَيْطا » أدمع	**منه تستضحك تلك الدمنا**
فكسا البطحاء وشياً أخضراً	**وأعاد الجوّ نوءاً أدكنا . . ؟**
أيمن الرمل ؛ وما علّقت من	**أيمن الرملة ، إلاّ الأَيْمنَ**
وطن اللهو الذي جرّ الصبا	**فيه أذيال الهوى مستوطنا**
تلك أرض لم أزل صباً بها	**هائماً في حبّها مرتهنا**
هي ألوت ما يمنّيني الهوى	**برباها ؛ لا « اللّوى » و« المنحنى »**

ولكن هذه القطعة التي يذكر فيها « أبين » وطن لهوه وصباه ، وحيث جر فيها أذيال هواه ، لا تصوّر عرامة شوقه ، ولوعة حنينه التي لمسناها في « حجازياته » ، وحنينه الى الأعتاب المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المشرفة في قصيدته :

لي بالحجاز غرامٌ لست أدفعُهُ	**ينقاد قلبي له طوعاً ويتبعُهُ**

وفي الأخرى التي مطلعها :

يا خليليّ ضاق بالوجد ذرعي	**واستباح الغرام غاية وسعي**

ومع ذلك فلا نجد « العندي » فيما بين أيدينا من شعره يعبّر عن إحساسه بالغربة بشعر باك حزين مؤثر كما نجده في قصيدته التي ختم بها عمارة ترجمته لأستاذه « العندي » ، بل وجعلها مسك الختام لكتابه « المفيد في أخبار صنعاء وزبيد » .

وهو في هذه القصيدة الذي سنجعل عنوانها « حجازيّ من اليمن » قد حدثنا بها عن موطن هواه وحدّد معالمه ، وصرح أنه يمنيّ ولكن سكنه الذي لا يسلوه وهو دائم الحنين إليه بالحجاز ، وأنه غريبٌ في وطنه « اليمن » ولا عجب . . فالوطن هو الهوى وليس الدار !

والقصيدة « حجازي من اليمن » مطربة مؤثرة ، ولكنّا لن نترنّم بها قبل أن نعيش لحظات مع قصيدة له وجدانية أخرى على نفس الوزن والروي ؛ ابتدأها بغزل رقيق واختتمها بمدح الوزير الذي أصبح أميراً ياسر بن بلال ، وسنجعل عنوانها « حمام البان » ولعل القصيدتين الوجدانيتين من آخر ما وصل إلى يد عمارة من شعر العندي وهو يكتب « مفيده » سنة ٥٦٤هـ .

حمام البان !

ذاك يبرينٌ ونعمان   قضب هيف وكثبان
أهيَ غزلان النقا سنحَت   أم جواري الحي غزلان ؟
هزت الأعطاف فانعطفت   نحوها بالحب أذهان
وبدت مفتنةً فبدت   فتن ؛ والحسن فتان
آه من وجدي بما احتملت   كثب منها وأغصان
ورياض للجمال بها   زهر غضٌّ ، وأفنان
أمرعت بالبان من ثمر   فيه تفاح ورمان
يا لقومي هل لمفتقد   منه يوم الجزع وجدان
أسهرتني وهي هائجة   مقل شاني بها شان
رب ليل نام سامره   واشتياقي فيه يقظان
كان نجم الأفق يونسني   وكلانا فيه حيران
وحمام البان ينشدني   بنوى الأحباب إذ بانوا
كيف حال المستهام إذا   ما تخلى عنه خلان
ما الهوى للورق فيه ، ولا   لي ترجيعٌ وتحنان
غير أن النوح منه ولي   أدمع تترى وأحزان
يا حمام الأيك غن لنا   إننا بالشوق ندمان
رجّع التغريد مقترحاً   فلك التغريد ميدان
وترنم تستفد طربا   منك أوتار وعيدان
ما ترى الأيام كيف غدت   وهي بالاقبال بستان

ونسيم الحب قد عبقت ... منه في الآفاق أردان
ورياض العشق مونقة ... ورياض الأمن فينان
بالسعيد ابن السعيد ومن ... بعلاه المدح يزدان
ياسر التيسير أكرم من ... يممت مغناه ركبان
أوحد الجود الذي افتخرت ... بالمساعي منه همدان
وجمال الملك فارسه ... ولدست الملك فرسان
وربيع القاصدين إذا ... ضن هام المزن هتان
من عليه من مكارمه ... شاهد باد وعنوان
والذي قد فاض منه على ... يمنٍ يمن وإيمان
ثابت الجأش الوقور إذا ... ما هفاً للرعب ثهلان
والشجاع المستعد إذا ... أحجمت في الناس شجعان
ما له إلا عزائمه ... في اعتناق الخطب أعوان
والقنا من حوله شجر ... والمواضي البيض غدران
وعجيب من تآلفها ... وهي أمواه ونيران
وله الآراء يعجز عن ... فتكها قضب وخرصان
والمساعي المشرقات له ... كلها حسن واحسان
فهو مطعام الشتاء وفي ... حومة الهيجاء مطعان
سافر في الخطب مصطبر ... باسم في الجود جذلان
ملء أبصار الأنام ولا ... أفْق إلا منه ملآن
والغنى أدنى نداه ولا ... عدد فيه وحسبان
ما خلا من بيض أنعمه ... من جميع الناس إنسان
دينه حب العلاء .... ولصيّد في العلياء أديان
وهواه الصافنات لها ... من سبيك التبر ألوان
تتبارى في الفلاة كما ... حلقت في الجو عقبان
شد أزر الملك مذ علقت ... بعراه منه أشطان
وسمت فوق النجوم له ... عمد شم وأركان
وغدا يصفى الولاء لمن ... ما به إلاه سلطان
للأميرين اللذين زهى ... بهما قصر وإيوان
ملكي قحطان أشرف من ... شاهدت في الدست قحطان
الزُّريعيّين منتسباً ... منه للأنساب تيجان

مخلصا في نصحه لهما ... إن هفا في النصح خلصان
يتساوى في ولائهما ... عنده سر وإعلان
حافظا ما كان قلده ... ملك الأملاك عمران
فنظام الملك متسق ... ومقام العز مزدان

***

حجازيٌّ من اليمن

وهذه هي قصيدة الغربة والحنين :

حن والمشتاق حنانُ ... مستهام القلب ولهانُ
مسترق في فنون هوى ... والهوى والحب أفنان
« يمنيٌّ » بالحجاز له ... سكن ما عنه سلوان
ومعنى بالخليط ومن ... دونه للبين إمعان
أين ممن داره عدن ... جيرة بالخيف سكان
ويح من يهوى فليس له ... غير سُحْبِ العين أعوان
يهتدي كل بمقصده ... وهو ساهي القلب حيران
كلما ناح الحمام هما ... مستهل منه هتّانُ
أو بكى في الناس ذو شجن ... شجوه أبكته أشجان
ولئن غاضت مدامعه ... فهو بالأشواق ملآن
يا حمام البان هل علقت ... بك من بلواه أشطان
أم هل استمليت لوعته ... فهي في شكواك ألحان
لا تساجله الغرام فما ... في تعاطي ذاك إمكان
خل ميدان الحنين لمن ... قلبه للشوق ميدان
أنت تبكي معجماً وله ... ببكاء الألف تبيان
وعليه لا عليك من ... الحب آثار وعنوان
ولك الآلاف يجمعها ... بك أوراق وأغصان
وهو فرد الوجد قد بعدت ... عنه أحباب وجيرانُ
وغريب في مواطنه ، ... والهوى لا الدار أوطان
ما شجاه البان منثنياً ، ... بل هوى من داره البان
أيها العذال حسبكم ... إن بعض العذل عدوان
ساعدوا المشتاق أو فدعوا ... من له عن شأنكم شأن

لا تلوموه على حرق | في الحشا منهن نيران
وأعذروه في تساؤله | كلما هزته أحزان
إن كأس الشوق مترعة | ساورته فهو نشوان
وحميا الحب فيه سرت | ولها سر وإعلان
فأعينوه ولو بعسى | للجوى .. فالحرّ معوان
واسألوا ركب الحجاز له | إن ألمّت منه ركبان :
هل همى دمع الغمام به | واستهلت عنه أجفان ؟
وعهود الود عامرة | وسكون الخيف سكان
وهل البطحاء معشبة | منه ؟ والريان ريان
أم هل الأحباب فيه على | العهد والخلان خلان ؟

***

ولعل الشاعر عمارة لما اختتم كتابه بهذه القصيدة قد تعمّد ذلك لأنها كانت تصوّر أيضاً لوعته ، وحنينه إلى وطنه اليمن .

نكبته وانتهاب ماله ودفاتره .

هذا وقد ذكر العماد الأصفهاني في « الخريدة » أن نجم الدين بن مصال قد ترجم للعندي وذكر أنه يعيش أي في الزمن الذي ألف فيه العماد خريدته ثم قال وأنشدني له ابن الريحاني المكّي :

تحدّث ساري الركب عنكم بأوبةٍ | تنسَّمَ أنفاسَ السرور بها القلبُ
فيا منّةً للعيس إن أدنت النوى ، | ويا حبّذا ما عنكمُ حدّث الركبُ!

ثم قال : ولما استولى شمس الدولة « توران شاه بن أيوب » على عدن وجده به حياً ، وذُكِر لي أنه نُهِبَ له مال كثير ودفاتر ، وعُدَدٌ وذخائر ، وسألت عنه أصحاب الملك المعظَم شمس الدولة عند عوده إلى دمشق في شهر رمضان سنة ٥٧١هـ فذكروا أنه شيخ ضرير ، وله فضل غزير ، ومحل عزيز ، وجاه حريز ، ثم لخص العماد ترجمة عمارة له ، وأورد معظم القصائد والأشعار التي وردت فيها ما عدا قصيدته « يمنيّ من الحجاز » .

وبهذا نعلم أن شاعرنا الأديب الوزير قد امتُحن وليس فقط بهلاك وقتل وتشردّ أصدقائه ومن أحبهم ، وأخلص ودّه لهم ، من الأمراء والوزراء والقادة ، إلى جانب الشيخوخة والعمى ، بل ونُهِبَتْ أمواله وكتبه ، وربما

كان ضمن ما نهب ديوان أشعاره وسجلّ رسائله والّتي لو وصلت إلينا ، أو لو عثرنا عليها بين ما لا يزال موؤداً من ذخائر الكتب اليمنية ، لتوسّعت دائرة معارفنا عن تاريخ الحقبة التي عاشها العندي متنقّلاً في أصقاع اليمن والحجاز ؛ وقد عايش وعاصر عهود « الصليحيين » و« الزُّريعيين » و« الامام أحمد بن سليمان » و« الحجوريّين » و« النجاحيين » و« السليمانيين » و« آل حاتم » و « آل مهدي » و« مطلع العهد الأيوبي » ، وقد قرأت في إحدى كتب التاريخ ولا أتذكر الآن إسم الكتاب أن أبا بكر العندي قد عمل فترة في ديوان الانشاء للسلطان « توران شاه » ، وتولّى كتابة بعض الرسائل عنه إلى أخيه الملك « صلاح الدين » ؛ وأما قصيدته الدالية التي أنشدها يوم فتح « توران شاه » لمدينة عدن فقد أثبتها عندما تحدّثت عنه ، وكانت وفاة أبي بكر العندي بعدن سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٥ م وسنترحّم عليه وننتقل إلى الحديث عن معاصره الشاعر أبي بكر اليافعي .

١٠ ـ أبو بكر اليافعي
[٤٩٠ ـ ٥٥٢هـ]

الشاعر المفلق ، والكاتب المترسل ، والخطيب المصقع ، الفقيه النحرير القاضي أبو العتيق أبو بكر بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن ابراهيم اليافعي نسباً والجَندي بلداً ، ولد عام ٤٩٠هـ وقد ترجمه المؤرخ البهاء الجندي نقلاً عن عمارة فقال : « أثنى عليه ثناءً مرضياً ، وكان به عارفاً ، وله مخالطاً فقال عند ذكره : هو قاضي قضاة اليمن ، المنوطة به أحكام صنعاء وعدن ، وزّر للدولتين الزريعيّة والوليدية ، وتفقّه بعلّامة اليمن زيد بن عبد الله اليفاعي ، وأخذ الأدب على النعماني ، والرشيد بن الزبير ، ولما عاد الرشيد إلى مصر سئل عن من في اليمن من الفضلاء فقال بها جماعة سيدهم أبو بكر اليافعي وقاه الله ورعاه » وأردف قائلاً :

« وكان مجيداً له بديهةٌ لا فضلٍ في الرويّة عليها ، خطيباً مصقعاً يرتجل من ساعته متى أراد ، مسدّداً في أحكامه ، سخيّ النفس ، حسن الأخلاق ، عالي الهمة ، مؤلفاً لأصحابه ، باذلاً جاهه في منافع الاسلام ، استوهب خراج أراضي الفقهاء بالأجناد واستمر الى عصرنا ـ أي عصر

الجندي ـ نزيهاً عن الحسد الذي يبتلى به كثير من مخالطي الملوك والرؤساء كما هو مشاهد ، وله ديوان شعر يدخل في مجلدين معتدلين ؛ غالبه في مدح الملك المنصور بن المفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري والملك محمد بن سبأ الزُّريعي ويحتوي على الجد والهزل ، والرقيق والجزل » .

اختلاف نسخ تاريخ عمارة

وما نقله الجندي عن عمارة يؤكدّ عبث النساخ والمتحيّزين من المتعصّبين والطائفيّين بكتابه « المفيد » فان النسخة المطبوعة لا يوجد في الأصل ما حكاه الجندي عنه من أخبار وأشعار مسنداً لها إلى عمارة ونصّ ما ورد في « المفيد » المطبوع ما يلي :

ومنهم أبو بكر اليافعي وأدركته جليساً وخصّيصاً لملكي اليمن المنصور بن المفضّل والمتوج المعظم الداعي محمد بن سبأ ومن شعره قوله يصف شعره :

شعـر إذا أنـشـدتـه في مجلس   فكـأنـي جمّرتـه بالـعـودِ

ثم أورد ثلاثة أبيات من قصيدته الرائعة :

أسـتـوع الله الـذي ودّعـا   ونـحـن للفـرقـة نبـكـي معـا

وقال : « وشعره كثير مطبوع » وكان قد ذكره في تاريخه وهو يتحدّث عن الداعي محمد بن سبأ وكرمه فقال : « وحضرنا يوماً عنده بقصر الحجر في موضع يعرف بالجنّات وعنده من الشعراء صفي الدولة أحمد بن علي الحقلي ، والقاضي أبو بكر الجندي وهو مجيد وله بديهة لا فضل في الرويّة عليها ، والقاضي يحيى بن أبي يحيى قاضي صنعاء وهو في الشعراء عند أهل اليمن في طبقة ابن القمّ ، فاقترح الداعي على الجماعة بيتي شعر على وزن قام في خاطره ، وشرط لمن سبق فضلاً وثياباً كانت عليه ؛ وتسابق الجماعة فسبقهم القاضي أبو بكر الجندي ، وكان قريباً مني وقد ثمل من الشراب فسرقت الورقة من يده وجعلتها في كمي ، وانتحلت بيتيه وقمت فأنشدتها الداعي ، وأخذت من الداعي خَصْلَه ، وسلبته نصله ، وفزت بالمال والثياب ، ثم فاضت ينابيع كرمه على الجماعة فما منهم إلاّ من خلع عليه وأجزل صلته » ، هذا نص ما ورد في النسخة التي اعتمدها ونشرها القاضي محمد الأكوع ص : ١٨٧ وقد ورد نفس النص في النسخة التي حققها الدكتور حسن

سليمان محمود وعلق عليها المستشرق « كاي » ، إلّا أن قول عمارة « وقد ثمل من الشراب » ، وهو يوحي بأن مجلس الداعي كان مجلس لهو وأنس وشراب لم يرد ؛ ولا ندري هل الزيادة أم الشطب من صنع النسّاخ بقصد التنزيه أو التشويه لسمعة القاضي والداعي !؟

نماذج من شعر اليافعي ونبذة من حياته :

وقد أسهب الجندي في حديثه عن اليافعي الجندي نقلاً عن عمارة وقال إنه كان حسن التأني في المقاصد سهلها جماعاً لجواهر الفنون ، كامل الفضيلة وذكر أنه ولي القضاء بالجند أيام المفضل ثم صار قاضي القضاة من الجند إلى صنعاء ثم لمّا صارت البلاد لمحمد بن سبأ الداعي أبقاه على حاله ، وضم إليه الجُؤَة وأبين وعدن ولحج ونواحيها فصار قاضي القضاة فيها أجمع ، ونزل « عدن » وحكم فيها ثم عاد إلى الجند واستخلف ولده ؛ ولما قدم القاضي الرشيد بن الزبير رسولاً من خلفاء مصر إلى محمد بن سبأ اجتمع بالقاضي أبي بكر فمازجه وأنس به وأحسن إليه إحساناً يقرّ العيون .

وكان يخالط الملوك ، ويكثر مجالستهم ومدحهم ، وبلغه أن جماعة عابوه على قول الشعر ، وأن ذلك لا يليق بذي الفقه فقال :

وكم حاسدٍ لي في الأنام وغابطٍ ... على منطقي إذ كان منطقه رخوا
يعيّرني بالشعر قومٌ وبعضهم ... يوبّخني والكل يخبط في عشوا
أرادوا به عيبي ؛ وهل هو ناقص ... إذا ما جمعت الفقه والشعر والنحوا
وأصبحت في علم العروض مجوّداً ... وقُدمَ قولي في الحكومة والفتوى
وما كنت مداحاً لنفسي وإنّما ... لأجعل أكباد العدي بالغضى تكوى

***

كان سنيّ العقيدة والمذهب .

ومع مجالسته للسلاطين والملوك والدعاة من آل الصليحي والمفضل وبني زُرَيع ومدحه لهم ومخالطتهم في مجالس اللهو والأنس والطرب ، فقد كان مثل عمارة والأديب العَنَدي وغيرهما ممن عاصره وعاش في العهد الاسماعيلي من فقهاء وعلماء وشعراء اليمن ، ونعرف ذلك من قصته مع السلطان المنصور بن المفضل فانه قد تغلّب بعد وفاة الملكة السيّدة بنت أحمد على التعكر وحب ، والأجناد وصبر وسائر الحصون ، وكان دار ملكه « جبلة » ؛ ولما كان

له محبّة بالقاضـي فقد سأله أن ينتقل من الجند إلى جبلة ليكون قريباً منه ولم يقبـل له عذراً ؛ وجبلة إذ ذاك انـما يسكنهـا الـرافضـة ، وأتبـاع وجنـود الاسـماعيليين ، وأهـل السنـة فيهـا قليل لا يكادون يُعرفون ، ويجتمعون بالمسجـد الـذي يُعـرف بمسجـد السنة ، ولا يعرف فيها أحدُ من أعيان الفقهاء ، ومتى سكنها ساكن من أهل السنة عتب عليه الفقهاء وعابوه ، وربما نسبوه إلى الخروج عن المذهب ؛ فلما انتقل القاضـي أبو بكر من الجند إلى « ذي جبلة » كتب إليه الفقيه أبو الفتوح بن عبد المجيد الفائشي شعراً يعاتبه :

لم يأن يا هذا بأن تنهـضـا ... في النجـد أو في الغـور أوفي الفضا
حللت في ذي جبـلةٍ قاضـيـاً ؛ ... فبئسهـا أرضـاً ، وبئسَ القضـا
تأتـمّ بالـطائـفـة المـلحـديـن من بعـد أن كنت إمـام الرضـا !
بالجنـدِ الغّـرا إمَـاماً لجند اللّـه ، بل صـارمهـا المـنـتـضـى
سمـيّـك الـصـديـق في صدقـه ... أثنـى عليـه اللّه ، والمـرتضى ،
للشـافـعـي قولان يا يا فعـي ؛ ... فقـولـه الآخـر لن ينـقـضـا
وأنـت ذو فعـلين فيـما نرى ، ... وفـعـلك الآخـر قد أمـرضـا
إيْهـاً ، فرحِّضْ عرضـك المنتقى ... من دنسٍ أضـحـى له مرحـضـا
وأظـهـر الـتـوبـة تمحـو بهـا ... ما فيضُ الـقـلب ومـا غيـضـا
فقـد عرَضـت الـنـصـح في هذه ... لكـنّـني أنـذر من أعـرضـا

***

وقد فزع القاضـي لهذا الانذار وأجاب :

أهـديـت نصـحـاً يا أخـا فايش ... ونـصـحـك المقبـول والمـرتضى
ولـسـتُ عـن قولـك لـي يا أبـا الـفتوح خرّاجـاً ، ولا معـرضـا
تأتـيـك أنـبـائـي بما تبـتـغي ... إن شاء ربي ذاك أو قيـضـا
لسـتُ مصرّاً مثـل غيري ولا ... أعـود إلّا مصـلحـاً ما مضـى
هذا اعـتـقـادي وبـذا نيّـتـي ... لا بد للمـكـروه أن يُرْحَـضـا
تحيـةً تغـشـاك مني ، ولا ... عدمت نصـحـاً منـك لي أبيضـا

***

ثم لم يلبث أياما حتى اعتذر إلى المنصور عن سكنى جبلة ، وانتقل إلى الجند فلم يزل بها وهو يتردّد إلى المنصور ؛ ولما كان معظم شعره في مدحه قال يخاطبه :

ولو أن للشكر شخصاً يرى إذا ما تأمّله الناظر
لمثلته لك حتى تراه .. فتعلم أني أمرؤ شاكرُ

***

غَيْلُ « خِنوة »

ومن أحسن ما ورد في ديوانه ـ كما يقول الجندي ـ مدحاً لمنصور بن المفضل وذكر به أباه وأنه الجار لغيل « خِنوة » قصيدة منها :

كثرت يابن مفضّل حسادي بصنائع أسديتها وأيادي
وأنلتني بنداك أسباب الغنى فبلغت أوطاري ، ونلت مرادي
وفعلت لي ما ليس يفعله الأب الحاني على الأولاد للأولادِ !
في كل يوم خلعةٌ مشهورة كالروض تسخن أعين الأضدادِ ،
ومواهبٌ عدد النجوم فلو درت زهر النجوم لكنّ من حسادي
وأحبُّ عندي من عطائك ما بدا لي في ضميرك من صحيح ودادِ ؛
فرضاك والودّ الذي تبديه لي خير من الاعطاء والأرفادِ
حسبي رضاك أعيش في الدنيا به فرضاك عندي من أجل عتادي
فلأشكرنّ على الذي أوليتني شكر الرياض لمستهلّ عهادِ
وأصحّ شكر ما بدا من شاكرٍ في زيّه اثر الصنيعة بادي !

إلى أن قال :

فهو الجواد بن الجواد ؛ وهل ترى ولد الجواد يكون غير جوادِ ؟
وأبوه شاد المكرمات فأصبحت أعلامها في الناس كالأطوادِ
وأقلّ مكرمة له وفضيلة اجراؤه للغيل في الأجنادِ !
شق الجبال الشامخات فأصبحت وكأنها كانت ثعاب وهادِ
فاليوم أصبح ماء « خِنوة » وهو في الجند العزيزة منهل الورّادِ
فخر المفضل في المفاخر كلّها بمثابة الأرواح في الأجسادِ

و « خِنوة » بكسر الخاء وغيلها مشهور ومجاريه إلى « الجند » وسط

الجبال ، ولم يعرف أن المفضّل هو الذي شق مجاريه إلّا من شعر القاضي اليافعي .

قصيدة أسماء سور القرآن .

وقد أورد له الجندي قصيدة يتوسل فيها إلى الله ويطلبه الغفران ، وقد سجل فيها أسماء سور القرآن المجيد وهي طويلة جداً ومطلعها :

لك الشكر يا من جلّ عن غاية الشكر ... ولو أنه أربا على الرمل والقطرِ

ومنها :

وأصبحت ذا عمرٍ خلا منه ما خلا .. ... مضاعاً ، ومالي بالمؤخّر من خبرِ
مضى ما مضى عنّي ولا علم لي به ، ... فان فاتني الباقي فيا ضيعة العمر!
زماني في سهوٍ ولهوٍ وغفلةٍ ، ... ومن خلف ظهري هول قاصمة الظهَرِ
فإبليس والدنيا ، ونفسي والهوى ؛ ... فكيف احتيالي والتخلّص من أمري ؟
وكيف ألذّ العيش والموت طالبي ؟ ... ولا بد بعد الموت من ضمّة القبرِ !

***

اليافعي الفقيه

وقد ترجمه المؤرخ عمر بن علي بن سمرة المتوفي حوالي سنة ٥٨٦هـ في كتابه طبقات فقهاء اليمن فقال : « القاضي الأجل أبوبكر بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم اليافعي ولد سنة ٤٩٠هـ تسعين وأربعمائة ، ومات بالجند في شهر رمضان ليلة الأربعاء لسبع عشرة ليلة خلت منه سنة ٥٥٢هـ اثنتين وخمسين وخمسمائة مبطونا وقد عد رسول الله ﷺ المبطون في الشهداء » .

« حضر موته الامام يحيى بن أبي الخير وأصحابه وقال حين نعي إليه ماتت المروة ؛ أخذ الفقه عن زيد بن عبد الله اليافعي ؛ وكان هذا القاضي [اليافعي] أديباً شاعراً ، مفلقاً ، مترسلاً فصيحاً وله ديوان مشهور » .

« روى عن أبيه وخاله ، كتاب « الرسالة للشافعي » و « مختصر المزني » بروايتيهما عن الشيخ عبد الملك بن محمد بن ميسرة ؛ وولي قضاء اليمن من إب إلى عدن من جهة الداعي محمد بن سبأ ومن قبله من جهة الأمير منصور بن المفضل في ذي جبلة وكان له ولد يقال له محمد بن أبي بكر أخذ الفقه عن

أخواله بني عبد العليم ؛ نبت نباتاً حسناً ، وكان لديه معرفة في علم الكلام واللغة العربية ، حسن الشعر مات رحمه الله بالجند سنة ٥٤٦هـ ست وأربعين وخمسمائة قبل أبيه وقبراهما هنالك ، ولأبيه فيه أشعار كثيرة ويرثيه من قصيدة له :

جوار الله خيرٌ من جواري ودار نعيمه لك خير دار

وميلاد القاضي محمد بن أبي بكر سنة سبع عشر وخمسمائة » .

« وكان القاضي أبو بكر ذا جاه كبير ، وخطر عظيم عند الملوك استوهب خراج أرض الفقهاء في الأجناد من الداعي وخلّصها على أهلها ، وكان يقول إذا تنازعت عنده الخصوم : ما قال القمران في هذه الحكومة وتارة يقول : هاتوا جواب القمرين ، يعني الامامين عبد الله بن يحيى الصعبي ، ويحيى بن أبي الخير العمراني » [ص ١٦٥ ـ ١٦٧ طبقات ابن سمرة] .

وليت « ابن سمرة » أورد مرثاته لابنه التي ذكر مطلعها والتي لا شك أنه قد تذكر وهو ينوح بها قصيدة التهامي المشهورة التي رثى بها ابنه وقال :

جاورت أعدائي وجاور ربّه شتان بين جواره وجواري

وقد لازم في القراءة على الامام زيد اليافعي الشيخ يحيى بن أبي الخير ؛ وكان يقول بلغت العشرين وأنا لا أكاد أقلّد أحداً في مسألة .

لهفة الوداع

ومن محاسن شعره قصيدته التي قالها وقد فارق أحبابه بقرية « يَفرس » وهي من الشعر الذي يسمّونه السهل الممتنع ولا يجيده إلا المطبوعون .

أستودع الله الذي ودّعا ونحن للفرقة نبكي معا
أسبل من أجفانه أدمعا لما رآني مُسبلاً أدمعا !
وقال لي عند وداعي له ما أعظم البين وما أوجعا !
ما أنت من بعد النوى صانع ؟ فقلت : لا أقدر أن أصنعا ؛
ما يصنع الصبّ المعنّى إذا فارق إلفاً ؛ غير أن يجزعا ؟

فارقتكم ياساكني « يَفْرُسٍ » ورحت والقلب بكم مولعا .
ناديت صبري يوم فارقتكم أجدّ للبين ، وقد أزمعا . .
يا صبر عدْ يا صبر عدْ ؛ قال : لا لبيّك ، لا لبيّك ، يا من دعا . .

والله لا أرجع ، يا غادراً ... ما دمت في الفرقة ، أو ترجعا
ولي فؤادٌ منذ فارقتكم ... ظلّ كئيباً مؤلماً موجعا
ونفس صبّ شهدت أنّه ... ما نقض العهد ولا ضيّعا
ومقلة مهما تذكرتكم ... تذرف دمعاً أربعاً أربعا
وليس لي من حيلة كلّما ... لجّت بي الأشواق غير الدعا !
أسأل من ألّف ما بيننا ... وقدّر الفرقة أن يجمعا

***

ولو لم يكن له إلاّ هذه القصيدة لبلغ بها الدرجة العالية ، وسمت به إلى طبقة المبدعين من شعراء اليمن ، فكيف وله ديوان في سفرين لا يزال موؤداً وفيه « الرقيق والجزل » ، وقد انتحل شعره في قصة طريفة الشاعر الكبير عمارة اليمني وأثنى عليه ثناءً مرضيّاً .

سميّة النحوي

وهناك عالم يمني آخر اسمه أبوبكر بن محمد اليافعي هو الفقيه رضي الدين من علماء اليمن في القرن الثامن وكان إماماً في النحو وله مؤلف فيه ، يعرف بالمفتاح وهو من الكتب المفيدة لأهل اليمن وقد ترجمه أبو مخرمة في الجزء الثاني من « ثغر عدن » طبعة « ليدن » ص : ٢٨ وهناك من يخلط بين الشخصيّتين فأردت التنبيه .

النعماني والرشيد بن الزبير

نقلنا عن عمارة والجندي قول الأخير أن شاعرنا اليافعي أخذ علم الأدب عن النعماني والرشيد بن الزبير ؛ أما « النعماني » فلا أدري ما إسمه وليس في دفاتري من يلقّب هذا اللقب من أدباء الحقبة التي نؤرخ لها ، وقد يكون الاسم مصحّفاً ، وقد بحثت وفتشت فيما بين يدي من المصادر التاريخية وكتب الطبقات فلم أجد له ذكراً ، وأما الرشيد بن الزبير فقد أكثر من ذكره عمارة في كتابه المفيد . وقال إنه خرج إلى اليمن بتقليد الدعوة علي بن سبأ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة من قبل صاحب مصر الخليفة الحافظ فوجد علياً قد مات فقلد الدعوة محمد بن سبأ ونعته المعظّم المتوج المكين ؛ ثم ذكره وهو يتحدث عن السلطان حاتم بن أحمد بن عمران فقال : « وكان القاضي الرشيد بن الزبير وقد جاوره بصنعاء يذكر من سؤدده ونبله ، وفواضله

وفضله ، ورياسته وسياسته » إلى آخر ما سبق إيراده ونحن نترجم للسلطان حاتم في السفر الأول .

وقد تحدث عن علاقة القاضي الرشيد بشاعرنا اليافعي ابن سمرة في طبقاته فقال : « وقدم القاضي الرشيد أحمد بن علي بن ابراهيم بن الزبير من مصر أيام القاضي أبي بكر فأكرمه وبجّله ، واستفاد علي الرشيد جماعة من أصحابنا أهل اليمن ، وكان القاضي الرشيد عالماً بارعاً مجوّداً في فنون شتى فيقال ان المقامة « الحُصَيْبِيّة » له ومن إنشائه ، وهي تدل على علم غزير ، وفضل كبير » .

وقد كان للرشيد نشاط سياسيّ أشار إليه الدكتور الهمداني في كتابه « الصليحيون » كما كان له نشاط أدبي وثقافي أيضاً ، وقد سبق أن ذكرنا أنه حين عاد إلى مصر وسئل عمّن في اليمن من الفضلاء وقد قابل فيها المئات ومنهم عمارة ، وأبو بكر العنَدي ، وأضرابهم ، ولكنه فضل اليافعي وقال : « بها جماعة سيّدهم أبو بكر اليافعيّ » . ولا يعني ذلك أن اليافعي قد تتلمذ له فلعلٍ في عبارة « الجنَدي » أنه أخذ عنه علم الأدب شيء من التجاوز ، وان كلّا منهما قد استفاد من الآخر . ويقول ابن سمرة : « وروي أن القاضي الرشيد والجليس أبي المعالي المصري أستأذنا يوماً على ابن ابي الغسّان الوزير فاعتذر عن المواجهة ولقيا عنده غلظة في الحجاب ، فعادا ثم رجعا يوماً آخر فاستأذنا عليه فاعتذر وحُجبا عنه وقيل لهما : أنّه نائم فخرجا من عنده ، فقال القاضي الرشيد في ذلكَ :

توقع بأيّام اللئام زوالها	فعمّا قليل سوف تنكر حالها ،
فلو كنت تدعوا الله في كل ساعةٍ	لتبقَى عليهم ما أمنت انتقالهَا

وقال صاحبه أبو المعالي :

لئن أنكرتمو عنا ازدحاماً	ليجتنبنّكم هذا الزحامُ
وان نمتم عن الحاجات عمداً	فعين الدهر عنكم لا تنامُ

فلم يكن غير أيّام حتى نكب الوزير نكبة عظيمة » .
[ص : ١٦٧ - ١٦٨] .

وقد ترجمِ القاضي الرشيد ابن خلكان في الوفيات وأكثر النقولات عن

كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » ، وأورد بعض أخباره وأشعاره ، وذكر سفره إلى اليمن وأنه مدح جماعة من ملوكها وقال إن ممن مدحه علي بن حاتم الهمداني ومن ذلك قوله :

لئن أجدبت أرض الصّعيد وأقحطوا ... فلست أنال القحط في أرض قحطان ؛
ومـذ كفـلت لي مأرب بمآربي ... فلست على أسـوان يومـاً بأسوانِ
وإن جهلت حقّي زعـانف خنـدف ... فقـد عرفت فضـلي غطارف همدان

وروي أن مما قاله في رجل :

لئن خاب ظني في رجـائـك بعـدما ... ظنـنـت بأني قد ظفـرت بمـنصف
فانـك قد قلدتـني كلّ منـةٍ ... ملكتُ بها شكـري لدى كل موقف
لأنـك قد حذرتـني كلّ صاحب ، ... وأعلمتني ان ليس في الأرض من يفي

وقال أنه أقام باليمن مدّة ثم رجع إلى مصر فقتله « شاور » ظلماً وعدوانا لميله إلى أسـد الدين « شيركوه » في سنة ثلاث وستين وخمسمائة ٥٦٣هـ . [وفيات الأعيان ج ـ ١ ـ ص ١٦٠ ـ ١٦٣] .

وقد سميَّ مقامته « الحُصَيْبيّة » لأن « الرشيد » إذا كان هو مؤلفها نزل بالحُصَيْب وهو إسم مدينة زبيدَ وواديها ، ويَقول الأستاذ فؤاد سيّد أن منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم : ١٣٤٦٩ ز وأخرى بمكتبة البلدية بالأسكندرية برقم : ١١٥ ب .

نمط من نثر اليافعي

لقد كان أبو بكر اليافعي كاتباً مترسلاً ، وخطيباً مصقعاً ، ولكن رسائله وخطبه لا تزال مشتتة في المخطوطات الموؤدة ، وقد فقد منها الكثير وليس بين يدي الآن من منثور كلامه إلاّ قطعة صغيرة من إحدى رسائله وهي :

« ولا يظن ظان أن ذلـك جهدي ، وجملة ما عندي ، بل هنالك همم تسمو إلى أرفع من الشعر رتبة ، ومذاكرة بعلم هو أقدم محبّة ، وأمور نيطت بي عراهـا ، ورسخت فلا ترام قواهـا ، وهـذه صنـاعـة لها من أفكـاري الفضـلات ، ومن أوقاتي الغفلات ، فاني منها كالسَّقب من رأل النعام ، وحظها منّي كحظ الوامق من طيف المنام :

ولـولا ما تكـلّفـنـا الـلّيـالي	لطال الفكـر ، واتسـع الـرويُّ
ولـكـن الـقـريض له معـان	وأولاهـا به الـفـكـر الخـليّ »

وربما كانت هذه القطعة من مقدمة ديوان شعره .

١١ ـ أبو بكر المحرفي

الفقيه أبوبكر المحرفي شاعر ذكره العماد الأصفهاني في « الخريدة » بين من ذكرهم من شعراء اليمن ، وقال انه ذكره له بعض عبيد مكة وأثنى عليه ، وقال كان يعلّم أولاد الأمير وأنشد له قصيدة في الأمير حسن بن يحيى منها :

أهـدت إليك مع البعاد سلامها	مستصحبـاً صاد الصـلاة ولامَهـا
وتخـيّرتـك من البرية ملجأً . .	نفس أبت من لا يرى اكـرامَهـا

ومنها :

تاه الـزمـان بدولة الحسَن الـذي	ما زال منـتـظراً بها أيـامَـهـا
يا عزّ آل محمـدٍ وهمـامـهـا	ولسـانها فيـما حوى وكـلامـهـا

لم يذكـر العـماد سنة وفاة هذا الشاعر المعلّم ولكننا نعرف أنه ترجم في الخـريدة لشعراء القرن الخامس ،ولم يترك إلّا الخامل ونعلم أنه توفي سنة ٥٩٧هـ عن ثمانية وسبعين عاماً وكان من أعيان كتاب ووزراء صلاح الدين وشهد مصرع الشاعر عمارة اليمني .

١٢ ـ جُشيم البَحِيري
[حوالي : ٤٧٥هـ]

شاعر مطرفي تحدّث عنه ابن أبي الرجال عرضاً في ترجمته للشيخ عليان بن أسعد الحميري المطّرفي فقال : « وفي أهل بيته فقه وأدب منهم جشيم بالجيم بعـدهـا شين معجمـة بصيغـة التصغير ويقال لهؤلاء البَحيريّين بنو محمد ، ومنزلهم بشوابة وكان جُشيم شاعراً له نوادر ومتحفات ؛ ومن ذلك إنـه اتفق ببعض المتعبـدّين المتنسكين بغير بصيرة وكان جميل الحال حسن الثياب كثير الصمت فما عرف أحد بقدره ، بل أجلّوه لظاهر حاله فتوسم جُشيم أحـواله فظن فيه الجهل ، فاعترضه يوماً وسأله : ما تقول : النبي

صلى الله عليه وآله وسلم حسنيً أو حسيني ؟ فقال : بل حسيني لأنه من عشيرة أُمْ مَهْدِي يقصد « المهدي » !! وكان الرجل هذا يعتقد حياة الحسين بن القاسم العياني فقال جشيم قصيدة أولها :

الـديـن ثوبٌ نفـيس ليس يُبتـذل — وليسَ يلبس ثوب المصطفى السفلُ
مالي أرى عربـاً بيـضـاً ثيـابهـم — ومـن قلوبهـم بالميـل يُكتَحَـلُ
مخلاتـه من لعـاب الصـوف مفعمةٌ — وقلبـه من معـاني دينـه عطلُ !

قال : وهي قصيدة طويلة منها :

ديـن تحمّـله يحيـى وحـقـقّـه — أفـضـت إلـيـه به آبـاؤه الأول

وهو يقصد بيحيى الامام الهادي يحيى بن الحسين .

ومن شعره :

كفى للعـاقـل الـفـطن الـلبيب — بما في الـصـنـع من أمـر عجيب
ومـا تأتي المـنـايـا في الـبرايـا — بأنـواع المـصـائـب والخـطوبِ
فلو لم نلق في الأيـام إلاّ — مفـارقـة الأحـبـة للحـبـيـب
وسـكـنـى في المـرامس وارتحـالا — عن الـلذات والمـال الـرغـيـب
لكـان لنـا به شغـل عظيـم — فكيف بمـوقف اليوم العصيب !؟
عزيـزٌ في قبـيـلتـه حسـيـبٌ — ولـيس لدى جهنـم بالحسـيـب
تراه يقـاد مغـلولاً ذلـيـلا — شديـد الـوجـد ذا قلب كئيب
وقـد نكـرتـه أسرتـه ، ولانـت — قسـاوتـه ، وأعـلـن بالـنـحـيـب
وكـان إذا الـتـقـت غرر المـذاكي — شديـد البـأس في رهـج الحـروب
يردّ الخـيـل دامـيـة الهـوادي ، — معـفّـرة الخـواصر والـتريـب
تراه يسـتـطيـع غداً دفـاعـاً — بنصرٍ من قريـب أو نسـيـب ؟
ألاَ . . لاَ . . ليس منتفعـاً بشيء — سوى الايـمـان والـديـن الـصليب
ويكفي المـرء من أدنى الخـطايـا — كما يكـفـي الـذبـاب من القليب
فيـا باري الـبريـة فاعـف عنّي — بحـقّـك ؛ أنت علّام الـغيـوب
ففـي ذي الـدار قد أكملت حظي — فلا تقـطع من الأخـرى نصيـبي

***

وله من قصيدة حسنة الوعظ :

دع الذخر يا مغرور إن التقى ذخرُ ... فليس هنا عسر يدوم ولا يسرُ ،
وما الذخر إلّا مسلك الدين والتقي ... فمن لم يسر فيه فليس له ذخرُ
ومن لم يضع قدامه التبر جُنّةً ... تنّجيه ؛ لم ينفعه من خلفه التبرُ!
ومن رام عزّاً بالتكبّر لم يكن ... له لَبثٌ حتى يذلّله الكبرُ
وما كبر من يبتزّه الموت صاغراً ؛ ... وما عزّ ذي عزّ وآخره القبرُ؟
سواء عليه يوم يصبح هالكاً ... أعاش بعمر طال أم لم يطل عمرُ؟!
ولا فرق بعد الموت بين معمّر ... مئين ، ونفس لم يتم لها شهرُ!
وكم غاشم قد أرغم الدهر أنفَهُ ... وذي جدة أبلى شبيبَتَه الدهرُ
وما أطول الدنيا إذا ما جهلتها ... وما أقرب الأخرى إذا استُعمل الفكرُ

***

ثم قال ابن أبي الرجال : « ومن أهل هذا البيت : محمد بن ابراهيم بن السميدع وهو شاعر مشهور بينه وبين محمد بن أحمد اليامي صنو حاتم بن أحمد مشاعرات وكان في محمد بعض الاختلال » . ولا ندري هل قصد محمد اليامي أم محمد بن السميدع الذي لم يورد من شعره شيئاً ؟ ولم يذكر لأيّ منهما سنة وفاة وابن السميدع عاصر السلطان حاتم اليامي والامام أحمد بن سليمان في النصف الأول من القرن السادس . وأما جشيم فهو من أساتذته .

وقد ترجمه مسلم اللحجي في الجزء الرابع من طبقاته فقال : هو جشيم بن عبد الله البحيري بن ضاف بن سفيان بن أرحب ، وأهل بيته من بني بحير ويقال لهم فيها بلغني بنو محمد وكان ينزل « شوابة » ثم قال : « وكان رجلاً شاعراً له نوادر قوية المعاني وله في شعره ألفاظ ضعيفة قد استعمل فيها مولّدة اليمن » ولعل « مسلّم » يقصد بهذا ان جشيم كان يوظف في شعره ويستعمل الألفاظ الدارجة على ألسنة العامة أو إنه كان لا يلتزم قواعد الاعراب ثم قال : « ولقد يمرّ بي في أثناء أبيات له ما يضطرني إلى الحفظ له استحسانا ؛ ثم أذهل عنه استهجانا ؛ فالاستحسان لمعانيه ، والاستهجان لألفاظه مثال ذلك :

قلت لصحبي و « أنا كالفازعْ » ... قوموا بنا نطلب أصلاً نافعْ

معرفة الباري ، والشرائعْ ، وطُعم مسكين يتيم ضائعْ
تسيل من رحمته المدامعْ لا تبتنوا البيت لنا « من طالعْ »
وترقعوا « بالخصف المقانِعْ » كم من ضعيف الدين أو من قانعْ
يختطف القسيم خطف السافع يقول « شوّل » والآلة الزارعْ
وليس إلاّ نفسه يخادعْ ؛ إن عميل السؤسمّ ناقعْ

***

قال مسلّم ناقداً : « ومعلوم أن قوله وأنا باظهار الألف معيب في اللغة ! وقوله « كالفازع » ينبغي أن تكون « كالفزِع » وقوله « من طالع » من فوق أولى ، لأن الطالع والطلوع من الأضداد والعرب لا تقول مثل ذلك ! ولا تستعمله في العلوّ والاستعلاء ؛ والخصف يريد به الفرش الموضونة من الطُّفَى وخوص النخل ، وهو استعارة من الخصفة وهي جلّة التمر ونحو ذلك ؛ وهذه أمثال حسنة برزت معانيها في غير كساها فأشبهت الحسان الحراير الشرايف من النساء تبرز في الأطمار المخرّقة ! وكذلك « شوّل » و « الألآه الزارع » من أحسن الأمثال ؛ إلا ان استعمال التشويل في كلام أهل اليمن دون كلام غيرهم يراد به نوع من الحرث ، ومنهم من يقول : شول السهم في الغرض أي دخل فيه أكثره وبقي بعضه يُرى وهذا بعيد الاشتقاق والاستعارة . لأن أصل شال يشول ويشيل من الارتفاع ، ومنه قيل للأبل التي ارتفعت ألبانها أي قلّت فلم تدر شول وقال راجزهم :

كأن في أذنابهن الشول من عبس الصيف قرون الأيل »

وهذا النقد اللغوي والبياني من أقدم ما نقرؤه لآدباء اليمن ومنه نعرف أن هناك من الألفاظ العربية التي كان اليمنيّون يستعملونها في أشعارهم ولغتهم اليومية ما لم يدوّن في المعاجم المتداولة وفي تاج العروس شرح القاموس من ذلك الكثير وهو يؤكدّ عراقة « الحُميني » أو الشعر الشعبي في اليمن .

ثم قال مسلّم اللحجي : « وبلغني عنه إنه كان يرى رأي « الزيدية » وكان قد أتخذ كثيراً من مخالفيهم مساخر ومطاعن في دين من ينتسبون إليه وكان يولع بجهال « الحسينية » الذين يعتقدون حياة « الحسين بن القاسم » وإنه لا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملأت جوراً ، ويكون هو المهدي المبشر به للأمة » ثم ذكر إنه ثقف أخباره من رجلين من قومه صارا إلى بلده

وذكر إنه كان كثير التسويف وانه قد يتوب التوبة العجيبة ويزهد في الدنيا ويتنسّك ثم يفتر ويلوذ بأهل الظلم ويتكسب بالشعر مادحاً من لا يليق بمثله أن يمدحهم من سلاطين الجور وإنه قد تعرض لخدمة الملك علي محمد الصليحي ومدحه فأدخله « في أهل الأربعين وهم من كان يجيزه بأربعين ديناراً » ثم أورد ما سبق نقله عن مطلع البدور من شعر مما يدل على أن ابن أبي الرجال نقل ما نقله عن طبقات « مُسلّم » ولكنه أهمل ما نقله عن محمد بن إبراهيم بن السميدع الشاعر من أن جشيم كان ينادم الملوك على الخمر وكان يلحد وينكر البعث وورد في شعره ما يدل على ذلك ثم تاب وأناب .

ولم يذكر مسلم سنة وفاة جشيم ولكنا نعلم إنه قد عاصر علي محمد الصليحي الذي قتل عام ٤٥٩هـ ولعله عاش بعده حتى سنة ٤٧٥هـ .

وفي قول مسلم إن في قول جشيم « وأنا كالفازعْ » عيب إظهار ألف أنا وان ذلك معيب في اللغة أشكال ؛ ولعل هناك تحريف وأن الأصل : « قلت لأصحابي وآنا كالفازعْ » بعدم إظهار الألف وإن ذلك معيب وهو ما يتبعه أهل اليمن عند الكلام حتى يوم الناس هذا .

مخطوطة طبقات الزيدية لمسلم اللحجي ج ـ ٤ ـ لوحات : ٣٨ ـ ٤٤ .

١٣ ـ الحسن بن أبي عقامة
[ت حوالي : ٤٨٤هـ]

الشاعر الفقيه اللغوي الأديب الحسن بن محمد بن أبي عقامة ؛ أثنى عليه عمارة ثناء عاطراً وهو يتحدّث عن بني أبي عقامة فقال : « وكان فقيهاً شاعراً إماماً في العربية وقتله الملك جيّاش بن نجاح ، وقد ولي القضاء في زمانه ، ولما سمع قول المعرّي وكان من معاصريه :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله ... وتزويجه لآبْنَيه بِنتَيْه في الدّنا
علمنا بأن الناس من أصل زنْيةٍ ... وأن جميع الناس مَن عنصر الزنا

أجابه بقوله :

لعمرك أمّا القول فيك فصادقٌ ... وتكذب في الباقين من شطَّ أودنا
كذلك إقرار الفتى لازمٌ له ... وفي غيره لغوٌ ؛ بذا جاء شرعنا

وقال عمارة : « وهؤلاء بنو أبي عقامة ، أهل رياسةٍ متأثلة في اليمن من أيام ابن زياد ، ولم يزل الحكم « يريد القضـاء » يتوارثونه إلى أن زال عنهم بزوال دولة الحبشة من زبيد سنة ٥٥٤هـ ؛ ومازال في كل عصرٍ منهم عالم مبرّز ، وحبر مصنّف وخطيب مصقع ، وشاعر مفلق ، وإمام مدرس » .

وقـول عمارة إن منصب القضـاء بزبيد زال عنهم سنـة ٥٥٤هـ يخالفه ما ذكره ابن سَمرة في طبقاته أن الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عقامة ولي قضاء زبيد من جهة إبن مهدي [طبقات ص : ٢٤١] .

وقد سبق أن ذكرت وأنا أتحدّث عن دولة بني زياد وعبيدهم كيف تكونت دولتهم ثم مواليهم من بعدهم من الثالوث الذي توزّع السلطة في تهامة طيلة عدّة قرون فللزِّياديين الامارة ، ولبني خلف المروانيِّين الوزارة ، وللتغلبيّين الـذين عُرفوا فيما بعد ببني عقامة القضاء ، وذكرتُ أن الخليفة المأمون قد انتدب جدودهم الثلاثة على رأس حملة في مطلع القرن الثالث لتأديب قبائل عك والأشاعر وكان اسم القاضي التغلبي جدّ بني عقامة محمد بن هارون .

وقال إبن سمرة « وآخرهم في هذه المدة القاضي عبد الله بن محمد بن أبي عقامة التغلبي قاضي زبيد الآن من جهة الأثير » [حوالي سنة ٥٨٠هـ] تفقّه بفقهاء زبيد وأخذ عنهم ، وله معرفة في الحديث والتفسير ، وفضائل بني أبي عقامة مشهورة ، وهم الذين نصر الله بهم مذهب الامام الشافعي في تهامة وقد ماؤهم جهروا ببسم الله الرحمن الرحيم في الجمعة والجماعات ، ونسبهم في « تغلب » ، قال بعض بني أبي عقامة :

نمـتـي ربيـعـة في تغـلـب ومـن تغـلـب في بني الأرقـم

وكـان الحسن بن محمـد قد تولّى القضـاء للصليحيين وكـانـوا يجلّونـه ويعـظمـونـه وقـد أثنى عليه أسعـد بن شهاب نائب الملك علي بن محمد الصليحي بزبيد فقال : « أقام الحسن عنّي أمور الشريعة قياماً يؤمن عيبُه ، ويحمد غيبُه » ولكن الحسن كان يميل إلى الحبشة ويرى إن بني نجاح أولى بالملك من الصليحيين كرها في مذهبهم لانه سنيّ شافعي ، وهم اسماعيليون روافض ، وعملٍ جهده في إعادة الملك إلى جيّاش ابن نجـاحٍ الذي كان يبجّله ويوقره ويلقّبه بالنصير والمؤتمن و لكنه بعد ذلك قتله ظلماً وعدوانـاً .

سبب قتله :

وقد سبق أن أشرت إلى ان سبب قتل جيّاش للحسن بن أبي عقامة ؛ أن جياشاً كان خطب إمرأة من « الفرسانيين » أهل « مَوْزع » وهم مثل بني عقامة ينتسبون إلى ربيعة بن نزار ، وإن بعض أولياء الفتاة وافق وأجاب ، وامتنع بعضهم ؛ فبعث جياش القاضي الحسن كوسيطٍ ، فيقال إنه أشار على أهل الفتاة بالامتناع لعدم كفاءة جياش الحبشيّ الأصل ، وأفتى إنه إذا لم ترض المرأة ولا الأولياء أجمع لم يصح النكاح ، وإن الجميع بعد ذلك قد أصرّوا على الامتناع ، وعاد إلى جيّاش وأخبره بامتناعهم ، ونصحه بأن يصرف نظره عن ذلك ، ولكن جيّاش ظل يستدرج أولياء الفتاة بالمال حتى أجابوه وزوّجوه ، فلما زفت إليه المرأة أخبرته بما قال القاضي وبتحريضه لأهلها على عدم الرضا ، فوجد عليه حتى قتله عمداً وظلماً وعدواناً لبضع وثمانين وأربعمائة ، وأوردت أبيات الشاعر الحسين بن القم في قصيدته المشهورة :

أخطأت ياجياش في قتل الحسنْ   فقأتَ والله به عين الزمن ،

وذكرت أن له في قتل الحسن قصيدة أخرى ومنها يخاطب جيّاشاً

تفرّ إذا جرّ المكرّم رمحه   وتشجع فيمن لا يُمرّ ولا يُحلي

وإن « العقاميّين » قد نقموا هذا البيت ، وقالوا : إن قتل صاحبهم أهون عليهم من كونه لا يمرّ ولا يُحلي .

القصيدة النونية ومؤلّفاته

وقد اشتهر الحسن بن أبي عقامة بالبلاغة والفصاحة وقال ابن سمرة إنه كان قويّ العارضة ينظم الخطبة وهو على المنبر ، وله شعر حسن ، وقصيدته « النونية » تدّل على علوّ همته وهي :

إذا لم تسد في ليالي الشباب ؛ فلا سدتَ لا عشت من بعدهنّهْ
وهل جلّ عمرك الاّ الشباب ؛ فخذ منه حظاً ولا تهدرنَّه ؟
إذا ما تحطّم صدر القناة ، فلا ترجونّ من الزجّ طعنه !
فلا وأبى ما أضعت الشباب وأذلتُه تحت ظل الأكنّه ؛

إذا لم تسد في ليالي الشباب ؛ فلا سدت لا عشت من بعدهنه
وهل جلّ عمرك الاّ الشباب ؛ فخذ منه حظاً ولا تهدرنَّه ؟
إذا ما تحطّم صدر القناة ، فلا ترجونّ من الزجّ طعنه !
فلا وأبي ما أضعت الشباب وأذللتُه تحت ظل الأكنّه ؛
ولكن سعيت لكسب العلوم كسعْي أبي قبل في كسبهنّه
فآبت إليّ نوافره كأوْب الطيور إلى وكرهنّه
فرحْبُ جناني جواءٌ لهنّه ، وغرب لساني ذليقٌ بهنّه
اذا ما أجولُ ميادينهّنه أجُلْ يسرةً ثم شاماً ويمنَهْ
يصلّي حذاي سعاة الرجال ، وتقصر عما ورائي الأعنّه
وعن قنن المجد ذدتُ الرجال فأجْلَوْا وخيّمت في كل قنّهْ
فسلْ بي ذا القرن إما سألتَ يقلْ سائر القوم لم نرَ قِرنهْ
كلام إذا أنا صدّرته فكالمخذم العضب فارق جفنَهْ
يسير مع الشمس أما تسير ، وقد ودّت الشهب لو أن يكنّهْ
فلو رام سحبان ؛ دع غيره مقالي لألْجمت فاه بلكْنهْ !
فهل من عليم رأيتم غدا لعشرين علماً يفرّغ ذهنه
وما التيه شأني ، ولكنّني أحدثكم عن إلاهي بمنَّهْ
وقد قال لي اشكر ولا تكفرنْ وحدّث بصنعي ولا تكتمنّهْ
وقال الرسول : أنا ابن الذبيح وخير البرية هدْياً وسنّه

وإلى الحسن هذا تنسب (الخُطَب العقامية) وله ترسّل رائق ، وألف كتاب « نوادر مذهب أبي حنيفة » بحث فيه المسائل التي شنّع عليه فيها أصحاب الشافعي وغيرهم ، وقد اجتهد الحنفّية باليمن على إتلافه فصار عزيز الوجود ، كما صنع « العقاميّون » بكتاب جياش « المفيد » لأنّه ثلم نسبهم فيه ، وله مصنف أدبي سمّاه « جواهر الأخبار وملح الاشعار » جزءان في مجلّد يقول الحبشي ان منه نسخة بمكتبة أحمد بن عبد القادر الأهدل بزبيد ، وصورة فوتوغرافية له بمعهد المخطوطات العربية . [مصادر ص : ٣١٥] .

بينه وبين المعرّي

لا شك ان الحسن بن أبي عقامة كان مخلصاً في ردّه على البيتين المنسوبين إلى أبي العلاء المعري ، ونحن نعلم أن أبا العلاء قد كُذِبَ عليه ، وكان اليهود والصليبيون والزنادقة والملاحدة يقولون الشنيع من القول الذي يدل على انحراف وزندقة ، وينسبونه إليه ، وسار ذلك في الأقطار وشاع بين الناس وقد ذكر هذا ياقوت الحموي حين تحدّث عن أبي العلاء في معجم

الأدباء ولعل البيتين الذين ردّ عليهما القاضي الحسن من هذا القبيل ، وهما سخيفان مبنى ومعنى ، وأبو العلاء أجل من ان يهبط إلى مثل ما يتضمنانه من سخف ، ولا أريد الدفاع عن عقيدة شاعر الاسلام المعري إذا استطردت ما ذكره ابن خلكان وهو يتحدث عن « المنازي الكاتب » ، وأنه اجتمع بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان فشكا أبو العلاء إليه حاله وانه منقطع عن الناس وهم يؤذونه فقال المنازي له : ما لهم ولك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فقال أبو العلاء : والآخرة أيضاً ؟ وجعل يكررها ويتألم لذلك ، وأطرق ولم يكلّمه إلى أن قام » [وفيات ج ـ ١ ـ ص : ١٤٣] .

ولولا عمق إيمانه ، وسلامة اعتقاده ، ما استبشع ما قد شاع عنه في الآفاق مما هو عنه منزّه ومنه براء ، وذلك هو سبب ترداده بحزن : والآخرة أيضا ؟ وتألمه وإطراقه وإهماله للشاعر الكاتب « المنازي » .

وذكر ابن خلكان أيضا أن شيخ الاسلام علي بن أحمد الهكاري لقى أبا العلاء المعري وسمع عنه ، فلما انفصل عنه سأله بعض أصحابه عما رآه منه وعن عقيدته ، فقال : هو رجل من المسلمين . [وفيات ج ـ ٣ ـ] .

فلو ان القاضي الحسن قد لقي أبا العلاء لعرف ان كلّ ما نسب إليه من أقوال تدلّ على فساد عقيدته ، من افتئات وتزوير أعدائه وما أكثرهم من الظلمة واليهود والصليبيين الذين كان يقرّعهم ، ويحاربهم ويسخر منهم ، بشعره ونثره وكتبه ورسائله .

قصيدته في المكرّم :

وذكر الدكتور الهمداني أن صاحب عيون الأخبار أورد قصيدة طويلة للقاضي قالها بمناسبة إسناد العهد إلى المكرّم بأعمال الدولة من قبل والده الملك علي الصليحي لما استعد للسفر إلى مكة سنة ٤٥٩هـ جاء فيها :

هَنَا الدينَ والعلياءَ تقليدك الأمرا — فقد طوق التقليد هذا وذا فخرا

وقد سبقت الاشارة إليها وسوف نذكر شعراء آخرين من بني عقامة تعرض لذكرهم « عمارة » في مفيده ، ونثبت ما نظفر به من أخبارهم وأشعارهم إن شاء الله .

١٤ ـ الحسين القميّ
[٤٢٦ ـ ٤٩٠هـ]

كما جعل الشاعر عمارة « الأديب » العنَدي فارس الأعقاب ، وختم به كتابه الذي ألّفه لكي يعرّف صديقه القاضي الفاضل وسائر علماء وأدباء مصر ببعض أخبار صنعاء وزبيد ، ويحدّثهم عن شعراء اليمن في عصره فقد افتتح حديثه عنهم ، بالشاعر « ابن القم » وجعله حامل علمهم وقائد ركبهم .

ونحن نعرف ان اسمه الحسين بن علي ، وبعض الكتب تقول هو « ابن القم » ، وبعضها تسميه « القميّ » ، ولا تحدثنا إلى أين تتصل هذه النسبة ، ولا ندري كيف كانوا يضبطون حرف القاف ؟ وهل يكسرون حركته أم يضمّونها ، ولم أطلع بعدُ على ضبطها فيما تحت يدي من مصادر ! ولا أستبعد إذا كانت القاف مضمومة انها نسبة إلى مدينة « قُم » الفارسية وأن جدّه الأعلى في القرن الهجري الأول كان من جملة اليمنيين الذين استوطنوا منطقة « قُم » . اثر فشل ثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج بن يوسف ؛ فقد توطّن الكثير من العرب تلك الأصقاع ، ونسب إليها جماعة من أهل العلم والأدب .

ويقول المعلّق محمد الأكوع ـ تخمينا ـ انّه من قبيلة « يام » مستندا إلى مدحه لتلك القبيلة مثل قوله :

القائد الخيل شعثاً ضمراً عبساً   شعثاً قوانسها يمرحن في اللجم
والمنهلون صدور السمر من مهج الأعداء ، والمغمدون البيض في اللمم
والساحبون ذيول السرد سابغة ،   والناقضون صفوف الجحفل العرم

ولا أستطيع الاطمئنان إلى هذا التخمين لسببين : أولاً ان قبيلة « يام » كانت من أنصار الدولة الصليحية ، وكان القاضي عمران بن الفضل اليامي من أعمدتها ؛ فلا يبعد ان المدح الذي أورده المعلّق نقلاً عن مؤرخ « وصاب » الذي لم يذكر اسمه ، قد قاله الشاعر القميّ وهو يمدح أحد وزراء أو سلاطين اليامين هذا إذا كان ثمة نصّ في الشعر على اسم القبيلة !

وثانياً نحن نعرف أن الحسن بن القم ووالده علي كانا من المتأمرين على

« الصليحيين » وساعدوا جيّاش بن نجاح على استعادة السلطة في تهامة ، وإبعاد النائب الصليحي ، ولو كانوا « ياميّين » من « الاسماعيليّين » لما خوّل لهم مذهبهم ذلك ، وقد كان شأنهم شأن سائر الذين تولّوا المناصب الكبيرة مع الصليحيّين ، ولكنهم لم يتورطوا في اعتناق عقائدهم ، وتلك هي حال عمارة وبني عقامة ، والأديب العنِدي .

قصة الملك جياش بن نجاح :

إن قصّة فرار « جيّاش بن نجاح » إلى « الهند » بعد قتل أخيه « سعيد الأحول » غريبة طريفة ، وتكاد تلحق بالأساطير ، وقد سردها صاحبها « جياش » سرداً محكماً في كتابه « المفيد » ونقلها عنه المؤرخ الشاعر عمارة ، وهي بحق تؤلّف عناصر « مسرحيةٍ » بديعة ، وفي نفس الوقت تعطينا صورة لأساليب الكتابة والنثر الفني ، وطريقة التأليف في الفترة التي نؤرّخ لآدابها ، وقد رجحت إرجاءها ، وأن أذكرها حين أتحدّث عن « ابن القمّ » لأنه مع أبيه من عناصر القصة . . وسوف أوردها كما وردَت في تاريخ عمارة المفيد ؛ وقبل ذلك أودّ الاشارة إلى أن أقوال المؤرخين قد اضطربت في تحديد أزمنة أحداث أولاد نجاح ، مع الصليحي وابنه المكرم ، وقتل كلٍّ من الملك علي أو سعيد الأحول ، وفرار جياش وعودته متنكّرا ، ومن كان النائب للصليحيين في « زبيد » ، هل هو أسعد بن شهاب أم أسعد بن عرّاف وهل كان كل ذلك ما بين عامي ٤٥٩هـ و٤٦١هـ أم بين ٤٧٣هـ وعام ٤٨١هـ ، ولقد اعتمدت ما رجّحه الدكتور حسين الهمداني في كتابه « الصليحيون » وأقرّه ورجحه أيضاً القاضي محمد الأكوع ، ونحن في هذا الكتاب لا تهمنّا دقّة التحديدات الزمنية ، مثلما نهتم بالنصوص الأدبية وتحقيقها .

ولقد عرفنا من السفّر الأول مقتل علي محمد الصليحي وأسر زوجته أم المكرّم ، ثم استنقاذها من الأسر وقتل سعيد الأحول ، وعكوف المكرّم بعد ذلك في حصن « التعكر » ؛ واستيلاء الملكَة أروى على السلطة ، وكل ما ساير ذلك من ظروف وملابسات ، وخامره من أحداث ، أمّا قصة جياش فهي كما يلي :

« قال جيّاش : ثم تنكّرت ودخلت إلى عدن ومعي الوزير خلَف إبن أبي

طاهر ، ودخلنا الهند سنة ٤٦١هـ فأقمنا بها ستة أشهر ، ثم رجعنا إلى اليمن في تلك السنة بعينها » .

« قال : ومن أعجب ما رأيتُ في الهند أن إنساناً قدم من سرنديب فلم يبق أحد إلا فرح به ، وزعموا انه عارف بأخبار المستقبلات ؛ فسألناه عن حالنا فبشّرنا بأمور لم يُخْرَم مما قاله شيء ؛ واشتريت جارية هندية علقت مني بالهند ودخلت بها اليمن وهي في خمسة أشهر ، وحين وصلنا إلى عدن قدّمت الوزير خلف إلى زبيد على طريق الساحل وأمرته أن يشيع موتي في الهند ، وأن يستأمن لنفسه ، ويكشف لي عن حقيقة أحوالها ومن بقى من قومنا ؛ الحبشة في أعمالها وصعدت إلى ذي جبلة فكشفت أحوال المكرم بن علي وما هو عليه من العكوف على لذاته واضطراب جسمه وتفويض الأمور إلى زوجته السيدة بنت أحمد ثم انحدرت من الجبال إلى زبيد واجتمعت بالوزير خلف فأخبرني بأحوال طابت بها نفسي عن أوليائنا وبني عمنا وعبيدنا وانهم في البلاد كثير وإنما يعدمون رأساً يثورون معه .

قال جياش : وجريت على عادة الهند فأخرجت شعر وجهي وطولت أظفاري وشعري وسترت عيني الواحدة بخرقة سوداء وكنت قريبا من الدار السلطانية وإذا افترق الناس من الصباح قصدت مصطبة علي ابن القم وهو وزير الوالي من قبل المكرم فسمعته يوما وهو يقول :

والله لو وجدت كلبا من آل نجاح لملكته زبيد وذلك لشر حدث بينه وبين الوالي وهو أسعد بن عراف .

قال جياش : وخرج الحسين بن علي بن القم الشاعر وهو يومئذ رأس طبقة أهل زبيد في الشطرنج فقال لي : يا هندي تحسن تلعب بالشطرنج فقلت نعم فتلاعبنا فغلبته فكاد أن يسطو عليّ ثم دخل على أبيه فقال له : غلبت في الشطرنج قال له والده : ماهنا من يغلبك إلا جياش بن نجاح وقد مات بالهند ثم خرج لي والده الحسين وهو طبقة عالية فلعبت معه فكرهت غلبه فخرج الدست مائعا فاغتبط بي وخلطني بنفسه وهو في كل يوم وليلة يقول عجل الله علينا بكم يا آل نجاح . فإذا كان الليل اجتمعت أنا والوزير خلف ثم نفترق بالنهار وأنا في أثناء ذلك أكاتب الحبشة المفرقين في الأعمال وآمرهم بالاستعداد .

قال جياش فحين حصلت حول المدينة خمسة آلاف حربة متفرقة في الحارات وداخل البلد قلت للوزير خلف : أن لي عند عمر بن سحيم مالا فخذ منه عشرة الآلاف دينار وأنفقها في الرجال الذين اجتمعوا ففعل ذلك ثم لقيت الوزير خلف ليلة فقلت له إن مولاي القائد أبا عبد الله الحسين بن سلامة « أتاني في النوم وقال لي : يعود إليك الأمر الذي تحاوله ليلة ولادة هذه الجارية الهندية ثم التفت الحسين إلى جانبه الأيمن فقال لرجل معه أليس كذلك يا أمير المؤمنين قال : بلى ويبقى الأمر في هذا المولود برهة من الدهر .

قال جياش : ولقد أذكر يوماً أن علي بن القم عاد من دار السلطان إلى داره وهو مغتاظ فلما سكن غيظه ، قال لي أصعد يا هندي حتى ألعب معك فلما أن لعبنا جاء الحسين ابنه فضرب عبداً له بالسوط فنالني طرفه وأنا غافل فاعتزيت وكانت عادة لي أقولها عند كل مهم يتعبني وقلت أنا أبو الطامي فقال الشيخ : ما أسمك يا هندي فقلت أسمي بحر فقال : بحر والله يصلح أن يكنى أبا الطامي قال جياش : وندمت عليها وساءت ظنوني بالقوم قال جياش . فلما أراد الله رجوع هذا الأمر إلينا تلاعبت أنا والحسين الشاعر ابن القم الشطرنج وليس معنا إلا أبوه على سرير وهو يعلم ولده قال له أبوه . أن غلبت الهندي أوفدتك على المكرم وعلى السيدة بارتفاع هذه السنة ودفعت لك الوفادة التي يدفعونها لعامل تهامة وهي ألوف من الدنانير فتراخيت له حتى غلبني قصدا في التقرب إلى قلب أبيه ، فطاش الحسين بن علي من الفرح فسفه عليّ بلسانه فاحتملته لأبيه فمد يده إلى الخرقة التي كانت على وجهي فاحفظني فقام أبوه فقبّح عليه ، وقمت من الغيظ فعثرت فقلت . أنا جياش بن نجاح على جاري عادتي ولم يسمعني سوى الشيخ فوثب علي بن القم خلفي حافياً يجر ردائه حتى أدركني فامسكني وأخرج المصحف فحلف لي بما طابت به نفسي ، وحلفت له وليس معنا أحده ثم أمر باخلاء دار الأعز بن الصليحي وفرشت وعلقت ستورها ونقلت الجارية الهندية إليها وحمل إليها وصائف ووصفان وماعوناً وأثاثاً وعاقني عنده إلى الليل ثم إذن لي بالانصراف فدخلت فوجدت الجارية قد وضعت بين المغرب والعشا ولدي الفاتك ثم أتاني علي ابن القم ليلا وقال : إن خبرنا لن يخفى على أسعد ابن عراف ، قلت إن معي في البلد خمسة آلاف حربة . قال ابن القم لجياش

فقد ملكت البلد فاكشف أمرك .

قال جياش : « فأني أكره قتل أسعد بن عراف لأنه طالما قدر على أهلنا وذرارينا فعفا عنهم وأحسن إليهم قال ابن القم : فافعل ما تراه فضرب جياش الطبول والأبواق وثارت معه عامة المدينة وخمسة آلاف من الحبشة فأسر ابن عراف فقال ابن عراف : ما يومنا منكم يا آل نجاح بواحد ، والأيام سجال بين الناس ومثلي لا يسأل العفو قال له جياش ومثلك لا يقتل يا أبا حسان ثم أحسن جياش إليه وأولاه خيرا وسيره بجميع ما ملك من أهل ومال قال جياش وتسلمت دار الامارة بما فيها صبيحة الليلة التي ولد فاتك ولدي وصح ما كان الحسين بن سلامة أخبرني به في النوم من رجوع الأمر إليّ عند ولادة الحامل التي كانت عندي ثم لم يمض شهر حتى صرت أركب في عشرين ألفا من عبيدنا وبني عمنا الذين كانوا مستضعفين في البلاد فسبحان المعز بعد الذلة ، والمكثر بعد القلّة » .

مولده ونشأته

ونستطيع أن نتعرف من « قصة جياش » على طبيعة « ابن القم » ؛ ونستنتج إنه كان نزق اللسان والسوط ، حاد الطبع والذكاء ، سريع الانفعال والحركة ، وان أباه كان يؤثره ويعتز به ، وكان ماهرا في لعبة الشطرنج بل هو رأس طبقة أهل زبيد في المعرفة بها ، ويفرح ويسرّ إذا غلب قِرنه ، وانتصر على منافسه ، ويتأثر ويستاء إذا انغلب وفاته « الدست » ، بل لا يستطيع أن يمسك نفسه إذا انفعل ، ويندفع فيقول أو يفعل ما لا يليق بالعقلاء أن يقولوه أو يفعلوه ، وقد يأتي حركات تؤذي قِرنه ومنافسه ، ومن يلاعبه أو يباريه .

فالملك ، الحبشيّ المتنكّر « جياش » يقول : ان « ابن القم » كاد ان يبطش به ، ويسطو عليه لما غلبه وفاز بالدست عليه ، كما انه لما تراخى له وجعله يغلبه تقرّباً إلى أبيه طاش من الفرح ، ولم يكتف بالسرور بل تعدّاه إلى الشماتة بقرينه ونزيل مَصطبة والده ؛ فسفه عليه بلسانه ، ومدّ يده إلى الخرقة السوداء التي يضعها على عينه إمعاناً في التنكر مما احفظ جياشاً فقام مغضباً وتعثر فاعتزى باسمه قائلا أنا جياش بن نجاح ، وكأنه قد فقد صوابه ، ونسى انه متنكر في مظهر سائح هندي .

وكـان ـ وبحضور جياش ـ قد تعدى بالسوط يضرب أحد عبيده ونال طرف السوط ضيفهم المستغرق في ملاعبة الأب ففزع ونطق بكنيته « أبي الطامي » دونما شعور وكل ذلك يؤكد انه كان حاد الطبع سريع الانفعال والحركة .

ولم يحدثنـا الرواة والمؤرخون عن تاريخ ولادة « ابن القم » ، وعمارة قد أخبرنا انه ولد ونشأ وتأدّب بزبيد ، وأن أباه عليّاً كان أديباً وشاعراً ، وأنه ساد في أيام الداعي علي محمد الصليحي ووزّر لنوابه على زبيد وان الملكة السيدة فوّضت إليه النظر في أعمال تهامة بعد انتقال المكرم من صنعاء إلى ذي جبلة ، وذكـر أيضاً ان إبنه الحسين كان يكتب عن السيدة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية .

كل هذا قد تناقله المؤرخون لكن أحداً لم يحدثنا عن تاريخ ولادته ويأتي الدكتور حسين الهمداني فيحدثنا في كتابه « الصليحيون » ص ـ ٨٦ ـ ان الحسين بن القم قد كتب رسالة على لسان الملك علي الصليحي إلى الخليفة الفـاطمي المستنصر ليبشره باستيلائـه على « عدن » وسـائـر أصقاعها برّاً وبحرا ، مستندا إلى مجموعة رسائل القمي ، كما كتب أيضا رسالة أخرى على لسان الصليحي إلى السلطان « مَعْن » في عدن بعد فتحه لجميع أصقاع تهامة .

ونحن نعلم ان الخليفة الفاطمي المستنصر ولد سنة ٤٢٠هـ وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده عام ٤٢٧هـ وظلّ في الخلافة ستين عاماً وأربعة أشهر وانه توفي عام ٤٨٧هـ ؛ كما نعلم أيضاً ان فتح الصليحي لعدن كان حوالي سنة ٤٥٤هـ وان رسالته إلى « مَعْن » كانت عام ٤٥٥هـ وهو العام الذي لم ينقضِ الاّ وقد ملك الصليحي كافّة القطر اليمنى جبله وسهله وبرّه وبحره كما تقدَم .

ولا شك ان الحسين بن علي بن القم لا يرقى إلى منصب رئاسة ديوان الانشاء للملك الصليحي الاّ وقد بلغ مبلغ الرجال الكملاء وناهز الثلاثين من عمره أو تجاوز الخامسة والعشرين على أحصف تقادير نبوغه المبكّر .

وإذن فنستطيع ان نقول بانه ولد في عهد نجاح مملوك بني زياد الحبشي

الذي استولى على السلطة في تهامة سنة ٤٠٧هـ وتوفي مسموما سنة ٤٥٢هـ وربما ان ذلك كان عام ٤٢٦هـ ، وان والده عليّ كان من أعيان الدولة والفقهاء المقربين إلى الملك نجاح وأولاده سعيد وجيّاش ، وانه مع ابنه الحسين قد اختلط بهم ؛ ودليل ذلك قوله لابنه حين أقبل إليه مغتاظا لان جياش « الهندي المتنكر » قد غلبه في لعبة الشطرنج : « ماهنا من يغلبك الا جيّاش بن نجاح وقد مات بالهند » ، وما رواه جياش أيضاً من انه سمع عليّاً بن القم يقول : « والله لو وجدت كلباً من آل نجاح لملكته زبيد » ! وسمعه عدة مرات وهو يقول : « عجّل الله علينا بكم يا آل نجاح » ! هذا وهو الوزير المفوض إليه النظر في أمور زبيد وأعمال تهامة مع نائب المكرم أسعد بن عرّاف ، أو ابن شهاب ، على اختلاف الروايتين ولكن يظهر انه كان مبجلاً محلّلا من قبل نجاح وأولاده ، أو أنه قد ضاق ذرعاً بالمذهب الاسماعيلي وعقائد الصليحيين ، وأمرائهم وجنودهم ، ولهذا فقد تآمر مع ولده على إزالة الحكم الصليحي من بلدته زبيد ، وتعاون مع جياش وعبيده وأبناء جلدته على استعادة السلطة ؛ ولا شك أنه قد نال مع أبنه مكانة عالية عند نجاح ، وظل الابن الشاعر مكينا لدى جيّاش بعد وفاة والده مدّة طويلة حتى كان ما كان من قتل جياش للحسن بن أبي عقامة وقال « ابن القم » قصائده منذداً مستنكرا ، وكان ذلك بعد عام ٤٨٠هـ مما جعله يلجأ إلى الداعي الصليحي سبأ بن أحمد خوفاً من الملك جياش .

وإذن ؛ فقد ولد حوالي عام ٤٢٦هـ ونشأ ودرس وتأدّب في معاهد « زبيد » في ظلال نجاح ووالده العالم الأديب الشاعر فلما مات نجاح سنة ٤٥٢هـ واستفحل أمر الملك علي بن محمد الصليحي مال « ابن القم » الكبير مع ابنه إلى الدولة الناشئة الصليحية ، وانضم الأبن الكاتب المترسل الشاعر إلى ديوان انشاء الملك علي وكان أحد حداة قافلة نصره لما احتلّ عدن وكتب على لسانه الرسالة إلى الخليفة المستنصر سنة ٤٥٤هـ ولما قتل الصليحي كتب لأبنه المكرّم وانشاء الرسالة على لسانه إلى المستنصر أيضاً سنة ٤٦١هـ وهي رسالة طويلة أثبتها الدكتور الهمداني في كتابه ص ٣٠٨ ـ ٣١٨ . ثم لما غزا المكرّم زبيد واستنقذ أمه ، وفرّ آل نجاح ، كان « ابن القم » الكبير وابنه الشاعر من أعيان الدولة فيها حتى كان ما كان من « قصة نجاح » ؛ وأشعار ابن القم التي بين أيدينا تؤيد ما استنتجناه

وقدرناه ، فهو قد مدح السيدة أسما زوجة الملك علي وأم المكرّم ، ورثّى الملك علي الصليحي وأخوته ، وهنّى المكرّم على اقترانه بالسيدة أروى عام ٤٥٨هـ قبل مقتل أبيه بعام ، ومدحه بغرر القصائد وسنختار ما يروق من كل ذلك .

مع جياش بن نجاح :

سبق ان ذكرنا ونحن نتحدث عن جياش وابن عقامة ما قاله ابن القم من تقريع للملك جيّاش في أرجوزة افتتحها بقوله :

أخطأتَ يا جيّاش في قتل الحسنْ ... فقأت والله به عينَ الزمنْ
ولم يكن منطوياً على دخنْ ... مبرّأً من الفسوق والدرنْ
كان جزاه حين ولّاك اليمنْ ... قتلكَه ودفنَه بلا كفنْ !

ويظهر من البيت الثالث ان الحسن كان من المتآمرين مع « إبن القم » وأبيه على « الصليحيّين » لإزالتهم ، وارجاع السلطة إلى جيّاش ، ولم يكن سبب نفور « ابن القم » من جيّاش والتحاقه بالداعي سبأ استياؤه من قتل صديقه ابن أبي عقامة ، وخوفه من ان يناله مكروه أو يلحقه أذى من جرّاء ما قاله من تقريع وتشنيع بسبب قتله فقط ، بل يظهر ان العلاقة بينه وبين جياش كانت قد فترت ، وانه قد لاقى بعض المضايقات وذلك ما نفهمه من بعض قصائده التي يشكو فيها الأهمال ، وتضييق أسباب الرزق عليه مثل قوله يعاتبه :

يا أيها الملك الذي ... كل الملوك له رعيّهْ
إن كنت من خدامكم ... فعلام لا أعطى جريّهْ ؟
أو كنت من ضيفانكم ... فالضيف أولى بالعطيّه !
أو كاتباً ؛ فلسائر الكتاب أرزاق ... سنيّهْ !
والله ما أبقى الخمول على وليّكَ من بقيّهْ
ووحق رأسك إن حالي ـ لو علمت بها ـ زريّهْ !
وإذا هممت بكشف باطنها أبت ... نفسٌ أبيّهْ
لا تنظرن إلى التجمّل ؛ إن عادته رديّه ،
ففِ لي بوعدِك إنّني ... وعلاك من أوفى البريّه
لله ؛ أو لمدائحي ، ... أو خدمتي ، أو للحميّه !

ونسمعه في أخرى يعاتبه في لهجة حزينة ، تنم عن ما يكابده ، وكأن جيّاشاً قد قلب له ولصداقة أبيه وإحسانه إليه ، ومشايعته له ، ظهر المجن ؛ فأصبح ذليلاً بعد عز ، وغدا يفتش عن شفيع بعد أن كان الأثير المشفّع ، فيقول :

اذاع لساني ما تجنّ الأضالعُ وأعربْنَ عما في الضمير المدامعُ
وإني مما يحدث الهجرُ جازعٌ ؛ وما أنا مما يحدث الدهر جازع
فيا بن نصير الدين ؛ دعوة هاتفٍ دعا بك للجلّا ؛ فهل أنت سامع ؟
وقد كنت أرجو ان أكون مشفّعاً لديك ؛ فهل لي عندك اليوم شافع ؟

إلى أن يقول :

فأصبحت أغضي الطرف في كل مجلسٍ ، وأكتم أمري وهو في الناس ذائع
وأظهر بشْرى للجليس وغبطةً وبين جناحيَّ الشفار القواطع !
وما أنت الاّ البدر أظلم منزلي وكلّ مكان نوره فيه ساطعُ

ثم كانت حادثة الحسن بن أبي عقامة فازدادت حاله تأزّماً ، ولم يجد من وزرٍ غير الفرار إلى كنف « الصليحيين » الذين ساهم في ابعادهم من زبيد .

وقد قال عمارة إنه أخذ قوله : وقد كنتُ أرجو أن أكون مشفّعاً ؛ من قول الأول

مضى زمنٌ والنّاس يستشفعون بي فهل لي إلى ليلى الغداة شفيع ؟

وأن قوله : وما أنت إلا البدر أظلم منزلي ألخ ينظر إلى قول البحتري :

تقلّص عني الظلّ والظلّ شاملٌ وأقصر عنّى الفضل ، والفضل واسعُ
أترضى ـ وحاشا المجد ـ أن يشبع الورى جميعاً ويمسي ضيفكم وهو جائع ؟

ولقد ضاقت به الحال حتى فضل الموت على الحياة فقال :

اذا حلّ ذو نقصٍ محلة فاضلٍ وأصبح ربّ الجاه غير وجيه
فأن حياة المرءِ غير شهيّةٍ إليه وطعم الموت غير كريه !

وهو بذلك انما يصور نفسه ومجتمعه وبدأ يحدث نفسه بالهجرة فيقول :

إذا تضايق عن رحلي فِنا ملكٍ يوماً فقد وسعتْني دونه الهمم
كلّ البلاد إذا لم تنبُ ، لي وطنٌ ، وكل أرض إذا يممتها أمَمُ !

وأحيانا يعرض بأنه ليس من موالي بني زياد كما هو حال آل نجاح فيقول :

رقّ قلبي لها وقد كان فظا ... فأرتني دُرّيْن دمعاً ولفظاً
ثم قالت ألست تقبل نصحاً ... من نصيح ؟ أم لست تقبل وعظا ؟
بتَّ يابارد الجوانح خِلْواً ... من غرام قلبي به يتلظّى
فاز كلّ بالحظ من هذه الدنيا ، ... وما نلت من زمانك حظاً !
أنا مولى « محمدٍ » و « عليّ » ... لست مولى بني زيادٍ فاحظى !

وقد تثور به كرامة محتدة ، ويحدّث نفسه بالثورة على ما يشاهده من أوضاع ويعاتبها على خنوعه ، ويحرّضها على الاقدام معرضاً بهوان العرب فيقول :

أما ونعمة عافٍ مخفقٍ الطّلب ... يرمي إلى غاية نحوي فلم يخب
لا أقنعنّ بعيش دائم الرّتبَ ... حتى أبلّغ نفسي أشرف الرتب
لم لا أروم التي أسبابُها جمعتَ ... عندي ، وقد نالها قومٌ بلا سبب !؟
أخيفة الموت أثنى النفس عن شرفٍ ؟ ... اذاً برئت عن العلياء والأدب !
لا خير في رجلٍ لم يوُه كاهلَه ... حمل اللواءِ أمام الجحفلِ اللجب ،
يظنّ هنديّه هنداً فيلثمه ... فما يزال بليل المعرس العَزب ،
كأن ما في غروب البيض من شنب ... مكان ما في غروب البيض من شطب !
فقل لقحطان إن طال الهوان بها ... لا أرغم الله إلّا آنُفَ العرب
إن أغضِ ؛ أغض على ذلٍّ ومنقصةٍ ، ... وإن أصُلْ لا أجدْ عوناً على النوب ،
وغالب الظن اني سوف تحملني ... علوّ نفسي على الاقدام والعطَب

لكن نفس « القمي » لم تحمله الّا على الفرار واللجوء إلى كنف أمير صليحي كريم ويقول عمارة ان بيته : « يَظنّ هنديَّه هنداً فيلثمه » من قول المعري :

يقبّل الرمح حبّاً للطعان به ... كأنّما هو مجموع مِن الّلعسِ

منزلته الشعرية

يُعدّ « الحسين بن القم » من أفذاذ شعراء اليمن عبر العصور ، وكان من المكبّرين وذوي الحظوة والمنزلة الرفيعة عند الأمراء والملوك ، ولما فزع من جياش ، والتحق بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأقام معه بحصن « أشيح » وكان له مجلّلا بحيث يرمي إليه وقد أراد القيام بين يديه لينشده

شعرا . . بمخدّة ليقعد عليها . اكراماً له ، ورفعاً له عن الحاضرين وسائر الشعراء ثم لم يقتنع سبأ بذلك حتى قال له : أنتَ يا أبا عبد الله عندنا كما قال أبو الطيب المتنبي :

وفـؤادي من المـلوك وإن كان لسـاني يرى من الـشـعـراء

وأنشده يومها قصيدته التي أشرنا إليها ونحن نتحدّث عن السلطان سبأ بن أحمد والتي منها البيت المشهور :

ولمـا مدحـتُ الهبـزري بن أحمـد أجـاد ، وكـافـاني على المدح بالمدح

وقد أثنى عليه عمارة بل كان يتخذه مثلاً : فاذا أراد ان يمجد شاعرا وقال هو في طبقة « ابن القم » فهو يعني انه من الخناذيذ الفحول .

وروى عمارة ان الفقيه أبـو السعـود بن علي الحنفي حدثه عن ابن أبي الصبـاح قال : حضرت مجلس الوزير ـ بالعراق ـ وعنده جماعة يتذاكرون الشعـر فقـال لي : هل تحفظ شيئـاً لأحـدٍ من أهـل اليمن فأنشدته قول « ابن القم » من قصيدته التي يقول فيها :

الـليـلُ يعـلـمُ اني لسـت أرقـده فلا يغـرنّـك من قلبْـي تجلّده
فان دمـعي كصـوب المـزن أيسره وانّ وجـدي كحـرّ النـار أبـرده
لي في هوادجـكـم قلب أضنُّ به فسـلمـوه وإلا قمت أنشـده !
وبـان للنـاس ما قد كنتُ أكتمـه من الهوى ، وبدا ما كنت أجحده !

قال : « وكان الوزير متكئاً فاستوى جالساً واستعادها مرارا ، ثم بعثني في الموسم إلى مكة ابتاع له ديوان ابن القم ، فلما جئته به كان أقوى الذرائع في خلطته والانقطاع إلى جملته » .

بين ابن القم والخفاجي وديوان شعره :

وروى عمارة قال : حدثني الشيخ سعيد ابن أبي الطاهر ابن أخي الوزير خلف قال حدثني محمد بن العبيد الشاعر الحكمي قال حججت عام ثلاث وستين وأربعمائة فلقيت بمكة ابن سنان الخفاجي الحلبي فأنشدني قصيدة له طويلة يمدح بها ناصر الدولة يقول فيها :

وفيكم روى النّـاس المـديح ومنكمُ تعلّم فيـه القـوم بذل الـرغـائب
فدعني وصدق القول فيك لعلّه . . يكفّـر من تلك القـوافي الكـواذبَ

وما كنت لما أعرض البحر زاخراً   اقلّب طرفي في جهام السحائب
طويت إليك الباخلين كأنما   سريتُ إلى شمس الضحى في الغياهب !

قال ابن العبيد ثم اجتمعت بابن القم عند الداعي سبأ بن أحمد وقد جاء هارباً من صاحب زبيد فأنشدته قصيدة الحلبي هذه فقال : تعلم والله إني آخذ هذا البيت من الحلبي أخذا يسرّك ثم بتنا معاً فلما أصبحنا قام ابن القم لينشد سبأ ، فمنعه من القيام ورمى له بمخدة ، وأقعده إكراماً له ، ورفعاً عنا ، ثم أنشده قوله :

ولما مدحت الهزبريّ بن أحمدٍ   أجاز ، وكافاني على المدح بالمدح ؛
فعوّض عن شعري بشعرٍ وزادني   عطاءً فهذا رأسٌ مالي وذا ربحي ؛
شققت إليه الناس حتى لقيته   فكنتُ كمن شق الظلام إلى الصّبح

وهذا البيت هو بيت الحلبي بعينه

وقد انتقد بيت « ابن القم » العماد الاصبهاني في « الخريدة » فقال وهو يتحدّث عنه كان معاصراً « ابن سنان الخفاجي » أو بعده بقريب ، وكان الأمير المفضل نجم الدين أبو محمد بن مصان ، ينشدني شعره ونحن على الخيل سائرون إلى بعلبك تحت رايات الملك الناصر صلاح الدين يوسف في آخر شعبان سنة سبعين وخمسمائة فذكر ان ابن القم سمع بيتاً لابن سنان الخفاجي قد ابتكر معناه وقد أحسن صياغة مغزاه وهو :

طويتُ إليك الباخلين كأنني   سريتُ إلى شمس الضحى في الغياهب !

فقال من قصيدة يذكر فيها أنه مدح الممدوح فأجاز شعره وأجازه ؛ ثم أورد العماد بيت « ابن القم » كما يلي :

لفظتُ ملوك الأرض حتى رأيته   فكنتُ كمن شقّ الظلام إلى الصبح

وقال معقباً : « ولم يقصّر في أداء المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » ؛ هذا وقصيدة عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي الطويلة منها البيت المشهور .

بكى الناس أطلالَ الديار وليتني   وجدتُ دياراً للدموع السواكبِ

وتناشدُ أشعار « ابن القم » في موكب « صلاح الدين » سنة ٥٧٠هـ ،

وإرسال الوزير العراقي لابن أبي الصباح إلى مكة ليبتاع ديوان « ابن القم » ، دليل على ذهاب شعره في الآفاق ، وإن ديوانه قد اشتهر وتداوله الأدباء في الأقطار الاسلامية ، وقال الدكتور حسين الهمداني إن ثمة صورة شمسية من ديوان الحسين بن القم في المتحف البريطاني نمرة : ٤٠٠٤ ولكنه عاد فقال عنه : إنها فقط أوراق منتزعة من ديوانه وقال ان الداعي أدريس أورد بعض قصائده في السّبُع السابع من « العيون » وذكر انه يوجد في مكتبتهم المحمدية الهمدانية نسخة خطية من مجموع المكاتيب التي ألّفها على لسان السلاطين الصليحيين . [ص : ١٠٣ - و ١٣٠]

نماذج من شعره

١ - يقول العماد في الخريدة إنّ مما أنشده الأمير المفضل من شعر الحسين ابن القم قصيدة مطلعها :

سرى طيف سعْدي بعدما هجع الركبُ ، ونجم الثريّا قد تضمنّه الغربُ ،
وليس الردى ما تفعل البيض والقنا ولكنّه ما يفعل الصدّ والحبّ ،
يكلّفني العذّال حبَّ سواكم ... وسلوتكم ؛ حتى كأنّ الهوى غصب
وما يلتقى صدق الوداد وطاعة العذول ؛ ولا كفّ ابن أحمد والجدبُ
كريم إذا جادتْ فواضلُ كفّه تيقنت أن البخل ما تفعل السحبُ
أجار فلا خوف ، وأحيي فلا ردى ، وجاد فلا فقرٌ ؛ ورام فلا صعبُ
ويُثنْي على قصّاده فكأنّه يُجادُ بما يجدي ، ويُحبا بما يحبُو
كتبتُ إليه والمفاوز بيننا فكان جوابي جودُ كفيّه لا الكتبُ
وما كنت أدري قبل قطع هباته إليَّ الفيافي ، أنّ أنعمه رَكْبُ !

***

٢ - وله قصيدة في مدح الملك المكرّم الصليحي ، وهي من شعره القديم ولا يزال يتمتع بالطموح والشباب وقد سلك في نسيبها والحديث عن الاطلال قبل ان يتخلصّ إلى مدح الملك مسلكا جديداً فقال :

ما بال دارس هذه الأطلالِ جدّدن أشجاني وهنّ بوالي !

اتـرى علمـنَ بما يكـابـد مدنفٌ لعبـت بمـهـجتـه يد البلبـال ؟
سأل الـرسـومَ الأوّلـون وعنـدي الخـبر الـيـقـين ؛ فما يفـيـد سؤالي ؟
حال الطلول كما علمت ؛ فكيف بي ؟ لا كيف .. لو تدري الطلول بحالي !

ثم ينتقل من هذا التساؤل الذي أبدع به وجدّد ، وأتى بما لم نسمعه عن أحدٍ قبله من الشعراء الذين شغفوا بالوقوف على الاطلال ومخاطبتها ، أو التحدث عنها فيقول :

هجَـرَتْ ؛ وخـالفهـا الخيـال فزارني ، والهجـر أحسن من وصـال خيـال !
هيفـاء مثـل الـذابـل العسّـال ؛ في ردفٍ ، كمـثـل الأدعص المنهـال ،
يا أخـت آرام الـكـنـاس ترفّـقـي بفـؤاد عانٍ ليس عنـك بسـالى
لَظَلَمْـتِ غزلان الـفـلاة لأنهّا عطل الـنحـور ، وأنت نحـرك حالي
يا عاذِلِيَّ دعـا المـلامَ فانّ لي قلبـاً به صمـمٌ عن الـعـذّال

***

٣ ـ ويقول عمارة ان له قصيدة يمدح بها عبد الواحد بن بشارة وانه أحسن في التخلّص إلى مدحه حين قال :

ولئن ذكـرت هوى الـظعـائن جملة والقصـد صاحبـة البعير الـواحـدِ
فكـما يُعـد الأكـرمـون جماعـة والـواحـد المرجـوّ عبـد الـواحـدِ

والحق انه مخلص جميل ؛ وكأن قوماً كانوا قد حاولوا الافساد بينه وبين عبد الواحد هذا الذي كان من أعيان دولة الملك علي محمد الصليحي وكان ضمن وفده إلى الخليفة المستنصر عام ٤٥٩هـ فقال يفنّد تلك المحاولة ويؤكّد صدق وداده :

نبّئـت انـك قد أتـتـك قوارص عنّي تنـمّ عن الضمـير الـواجـدِ
عملت رُقى الـواشـين فيك ، وانها عـنـدي لتضرب في الحـديـد البارد

٤ ـ وله من قصيدة يمدح الداعي سبأ بن أحمد :

معـاليـك ؛ لا ما شيّدته الأوائل ، ومجـدُك ؛ لا ما قالـه فيـك قائـلُ

وما السعد إلّا حيث يممت قاصداً ، وما النصر إلّا حيث تنزل نازلُ ؛
إذا رمت صيداً فالملوك طرائدٌ أمامك تسعى والرماح أجادلُ !
مصائبها ان سالمتك مواهبٌ ، وأعضاؤها إن حاربتك مقاتل
ومذ رمت إيراد العوالي تيقّنت نفوس الأعادي انهنّ مناهل
وقد عشقت أسيافك الهام منهم فكل حسام مرهف الحدّ ناحل
مليك يفض الجيش والجيشُ حافل ، ويُخْجل صوبَ المزن والمزن هاطلُ
سحاب غواديه لجينٌ وعسجد وليثٌ ؛ عواديه قناً وقنابلُ
توقّى الأعادي بأسه وهو باسمٌ ، ويرجو الموالي جوده وهو صائل

***

٥ ـ وقال من قصيدة يهني المكرم بتزوجه بالسيدة بنت أحمد :

وكريمة الحسبَين يكنف قصرها أسدٌ تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغض عن تمثالها المرئيّ في مرآتها !
ظفرتُ يداك بها ؛ فبخٍّ ، انّما لك تَذْخُرُ العلياء مضنوناتها ،

المجلس الإسلامي

***

٦ ـ وقد مدحها بعد أن استولت على السلطة وأصبحت ملكة بعدة قصائد منها تلك التي مطلعها :

اعلمتَ ان من الرماح قدودا ومن الصفاح محاجراً ونهودا

وفيها يقول مادحاً وقد أفرط وأغرق وغالى :

أعلى الأنام أباً ، واكرم طيبةً وأتم أعراقاً ، وأصلب عودا
لو كان يعبد للجلالة في الورى بشرٌ لكانت ذلك المعبودا
أو كان في أثوابها بلقيس ما هابتْ سليمانا ، ولا داوودا
وإذا الوفود تأخّرت ، وفدت عطاياها ، فكانت للوفود وفودا !
هي نعمة الله التي ما ماؤها ثمدٌ ، ولا معروفها مجحودا
هي رحمة الله التي مازال من فوق البرّية ظلّها ممدودا !

***

ورغم هذه المبالغة والاغراق في الغلوّ إلى حدّ الدخول في المحذور ، فنحن لا نلمس في شعره الغالي الاخلاص في الولاء الذي نحسه ونكاد نلمسه في أشعار السلطان الخطاب التي أطرى بها السيدة بنت أحمد وسبق إيراد بعضها .

٧ ـ وقد رثى « ابن القم » الملك علي بعدّة قصائد ومنها الأبيات التي أنشأها على لسان السيدة تحفة بنت محمد الصليحي في رثاء أخيها وبقية أهلها الذين قتلوا على يد سعيد الأحول بن نجاح وهي :

لعمري ما طارت طيور بأسْعُدِ … غداة دهتني الحادثات بأسعَدِ
وذكّرني فقدي لأسعد أخوتي … ملوك من المستشهدين بسُرْدُدِ
وقد فقِدَ الأحبابُ بعد أحبتي … وان كان لا مفقود مثلُ محمّد !
رزيت من الأملاك كلّ متوّج … كثير غبار الجيش طلّاع انجد
ملوك ترى الأملاك حول دسوتهم … صفوفاً عكوفاً من قيام وسجّدِ
أأبكى عليّاً أم أخاه الذي فدى ، … واكرمُ مفديّ هناك ومفتدى
أم الثالث اللّاقي الحراب بنحره ، … وقد نهلت من كلّ أغيد أصيدِ
فلله اسد صرّعت بثعالب ، … ولله أحرارٌ أذيلت بأعبدِ
وهوّن وجدي انهم ما تخرّموا … بغير المواضي والوشيج المقصّدِ
أمام الخميس الخورُ تخفق فوقهم … لواء معدّ مرتضى آل أحمدِ

***

ويريد بالخور الخيل المسرعة ؛ ومَعَد هو الخليفة الفاطمي المستنصر .

وكلّ صور « ابن القم » الشعرية ظريفة بديعة ، ولغته جزلة فخمة وكان مولعاً بمعارضة كبار شعراء القرن الثالث والرابع الهجريين فيحسن ويجيد .

٨ ـ وكان « ابن القم » من الشعراء الذين حرّضوا العرب على وجوب الأخذ بثأر مليكهم علي محمد الصليحي فقال من قصيدة :

أقحطان هزّي البيض ، واعتقلي السمرا … ورُدّي العوالي من دماء العدا حُمْرا
ولا تُهدِري ثأر المظفّر إنّه . . . … بنى لكم مجداً ، وشاد لكم فخرا
سرى نحو بيت الله ، لله قاصدا … يروم من الله المثوبة والأجرا

***

٩ ـ ولم يكن يقتصر في مدائحه على أمراء البيت الصليحي ، بل كان يمدح أيضاً أعيان دولتهم ، وكبار رجال الدعوة الاسماعيلية رغم عقيدته التي تخالف ما يعتقده الدعاة وأتباعهم ، كما صنع مع عبد الواحد بن بشارة ؛ وقد مدح أيضاً الشيخ ابراهيم ابن أبى سلمة بن الوليد القرشي بقصيدة جاء فيها :

فيا شبه الخليل ندى وتقوى	لخالقه وحلماً واعتزاما
فابراهيم ابراهيم أضحت	به « صنعاؤه » البلد الحراما
فيا نجل الوليد ورثتَ مجدا	من الآباء يتّسق انتظاما
فإن يكن الخليل أتاه وحيٌ	فقد أصبحت في العليا إماما

وقال أيضاً يمدحه :

واغْرفْ من اليمّ لا ماءً كما زعموا	لكنّ درّاً ، ومرجاناً ، وياقوتا
جد بَالسلام عسى نار الغرام به	تعود برداً إذا حيّيت حيّيتا !
أنت «الخليل» و«صنعاك» الحرام ، وواديك « السِّرار » بها لو كنت نبّيتا	
يا سيّداً ما نسينا عهد صحبته	أنُسِيْتَ في أجلٍ ؛ هل كنت أُنسيتا ؟

***

فهو في القطعة الأولى يتخذ من الاسم الكريم « ابراهيم » وسيلة فيرتفع بالممدوح « الاسماعيلي » ـ وحاشا خليل الله ـ إلى مرتبته حلماً وعزما ، بل ويشبّه بلد ابراهيم ابن أبى سلمة « صنعاء » بالبلد الحرام الذي رفع قواعد بيت الله فيه سيدنا إبراهيم مع ابنه اسماعيل عليه السلام ؛ ثم يقول دون حياء بيته الأخير فيجعله « إماماً » مشيراً إلى قوله تعالى مخاطباً إبراهيم عليه السلام « إني جاعلك للناس إماما » .

ويتجاوز كل ذلك في القطعة الثانية فيسمو بصاحبه وببلده وبواديه ويقول له : « أنت الخليل » و« صنعاء » التي تسكنها هي البيت الحرام « مكة » وواديك « السِّرار » يُشْبه وادي « السِّرَر » المبارك لو انك كنت من الأنبياء !

و« السِّرار » كما في القاموس ومعجم البلدان وادي صنعاء اليمن الذي يشتقها ويجري إذا جادت الأمطار ويُصبّ في « سِنوان » فيكون كالبحيرة .

و « السِّر » من الأرض ؛ ما خصب وطـاب وكـرم . و « السِّرَر » هو الموضع الذي سُرّ فيه الأنبياء ، على بعد أربعة أميال من مكة ، وفي حديث ابن عمر انه بالمازمين من منى ، كانت فيه دوحة ولد تحتها وسُرَّ سبعون نبيا ـ أي قطعت سررهم في ظلّها .

وهذا من « ابن القم » تطاول لا يليق واغراق قبيح ، وكأنّه يجاري القوم في اضفـاء هالات التقديس على أئمة الاسماعيلية ودعاتهم ! وكأن الشيخ ابراهيم الأَنْف القرشي كان قد وعد الشاعر بشيء ما لأجل معلوم ؛ ثم لم يف بها وعـد فأراد تذكـيره ، ولكنـه تملّقه ونزّهه عن النسيان ؛ مشيراً إلى الحديث الشريف : « لا أنسى وانّما أنسّى لأسنّ » أيّ لأذكر لكم ما يلزم الناس لشيء من عبادته وأفعل ذلك لتقتدوا بي !

١٠ ـ ومن القصيدة التي أعجب بها الوزير العراقي ، وابتعث رسولاً إلى مكة المكرّمة ليبتاع ديوان « ابن القم » والتي مطلعها :

الـليـل يعـلـم اني لست أرقـدُهُ فلا يغـرّنْـك من قلبـي تجلّدُهُ

قال مادحاً :

مشهّر الفضل؛ إن شمس الضحى احتجبتْ عن العيـون أضـاء الأفق سؤددُه
مات الكـرام فأحيتْهُم مآثـرُه . . كأنّ مبعث أهـل الفضـل مولـده
لولا المـخـافـة من أن لا تدوم له ارادة البـذل أعـطت نفسهـا يده
كأنـه خاف أن ينسى السـماح فما يزال منـه له درسٌ يردّده
المـوقـدون إذا باتـوا فواضـل ما ظل الـطعـان بأيـديهم يقصّـده
بكـلّ عضب تخرّ الهـام ساجـدة إذا رأتـه . . كأن الهـام تعبـده !

***

١١ ـ ومما تفرّد في نقله عنه العماد الاصبهاني قصيدة يمدح بها الداعي سبأ بن أحمد ومنها :

ضامتك أظعانها بالسفح من اضم وأسلمتـك مغـانيهـا بذى سلمِ
فما تزال على آثـار منصرفٍ عن الـوداد بوجـدٍ غير منصرمِ
وكم أخذت على قلبي المقامَ على الصَّبر الجـمـيـل فعاصاني ولم يقـم
لو كان لي ؛ كان لي طوعاً ، فدونكَهُ سلّمت فيـه إليك الأمر فاحتكمِ !

فما أنازع فيه كفّ مغتصب ، ولا أرق له من جور منتقم
ولو فعلت به ما ظل يفعله سيف المتوج من قحطان في القمم
العالم العامل ، الغاني بشهرته عن أن تشبّهه بالنار في علم
ملك تظل عطاياه وأنصله يباريان نفاد المال والبهُم
بجُودِ مكتسب للحمد مكتنز ، وبأس مقتدرٍ للحرب مقتحمِ
يحجّ وفّاده منه إلى حرمٍ رحب الفناء حلال الصيد في الحرم !
يغنى العِدا ، والقنا كلٌّ بصاحبه فبين منعقر قعصاً ، ومنحطم
معوّدٌ أن يرد الخيل عابسةً عن كل ثغر بثغر النصر مبتسم
أخلت مدائحه من كل مكتسب مدائحٌ ملأتْ بالشكر كلّ فم

ومنها :

ان بان وجهي فشكري لم يبن معه ، أو شطّ جسمي فودّي فيك لم يرم
فجد وعُدْ ، واعف واسمح لي وهبْ وعِدِ واصفحِ وأَدْنِ وأحسِنْ وارضَ وابتسمِ
فلستُ أوّل عبد عقّ سيّده ، ولستَ أوّل مولى جاد بالكرم
لا تطرحنّي ؛ فعندي كل سائرة يبلى الزمان ولا تبلى من القدم
من كل زهراء لا تفنى على هرم تزري بشعر زهير في الفتى هَرِمِ

***

١٢ ـ ولا ندري ما هي الاساءة التي اقترفها نحو ممدوحه والذي لجأ إليه هارباً من وطنه « زبيد » ومناوئاً للملك جيّاش بن نجاح فيطلب من السلطان سبأ العفو والصفح والاحسان والرضا ، ويقول ـ وكأنه قد فارقه برهةً مغاضباً ـ إنه ان فارقه بجسمه فقد ظلّ وده وهواه مخيماً في مقامة ، وان ابتعد بوجهه فما فَتِئَت لسانه تلهج بشكره ، وانه ليس أول عبدٍ جنى وأبق ، ولن يكون السلطان أوّل مولى يصفح ويجود ، ولكننا نعرف من طبيعة « ابن القم » انه حاد المزاج ، نزق الاعصاب ، سريع التأثر والانفعال ، وقد ذكر « عمارة » أبياتاً قال انه عاتب بها السلطان سبأ ، وفيها شيء من الادلال والتعالي والتعريض ، مع إننا نعرف أن السلطان كان يجلّه ويرفع مقامه ، ويشبّهه بالمتنبي فيقول له إذا كان لسانك من الشعراء فان قلبك من الملوك . قال :

أبا حمير ان المعالي رخيصة ولو بذلت فيها النفوس الكرائم
وجدتُ مطاراً يا بن أحمد واسعاً إلى غرض لو ساعدتني القوادمُ !

وما أنا الاّ السهم لو كان رائشٌ ، وما أنا الاّ النصل لو كان قائم ؛
ولا عار ان جاء الزمان وإن سطا إذا لم تخنّي همّتي والعزائم
فلا تحتقر جفنا يبيتُ مسهداً ليدرك ما يهوى وجفنك نائم !

***

١٣ ـ وإذا كان قد عرّض وهو يعترف بذنبه ، ويطلب الصفح والعفو بأنه لا يليق به أن يُطّرح ويبعد ويحتقر لأنه شاعر عنده السوائر الخالدات من القصائد التي لا يبليها الزمان فقد عرفناه مولعاً بوصف شعره والافتخار والاعجاب به ، ومن ذلك قوله :

إذا ما ادّعَتْ فضلاً رأيت شهودها تبرّع من قبل السؤال وتقسمُ
وما قلّلت إذ لم يقلها « كثيّرٌ » ، وما نقصت إذ غاب عنها « متمّمُ »

وقال من أخرى في وصف شعره :

فلأَهْدين إليك كلَّ كريمةٍ يمسي الحسود بها مغيظا موجعا
طوراً ترى بين الورى جوّالةً في الأرض تقطع مغرباً أو مطلعا
كالدر نظّمه بديع الفكر في سلك على الأيام لن يتقطّعا
حلل تزيد على ابتذال جدّةً ، أبداً وتخلق أن تُصان وترفعا
ألبستني حللاً سيخلعها البلا فلألْبسنّك حلةً لن تخلعا

***

١٤ ـ مقطّعات

ولابن القم مقطّعات من الشعر في شتى المواضيع فمن ذلك قوله وكتبه على كاس :

ان فضلي على الزجاجة اني لا أذيع الأسرار وهي تذيعُ
ذهب سائلٌ حواه لجينٌ جامدٌ ؛ إنّ ذا لشيء بديعُ !

وقال يخاطب أحد كتّاب الديوان :

نبّئت انك إذ وقفت على درج الرسوم نقصت من حقّي
وعجبت إذ عشنا إلى زمن أصبحت فيه مقسّم الرزق

وقال يعاتب أميرا :

اني وإن كنت عبدكْ وكنتُ أضمر ودّكْ
لا أرتضى ان تراني بحالة النقص عندكْ !

وله يعاتب صديقا تنكر له :

عذرتُ على الصدّ بعد الوزارة من كان واصل من أجلها ؛
فما عذر من صدّ لمّا انقضت وكان أخاً لي من قبلها !؟

وقال بديهاً وقد طرحت فريسة لسبع فأعرض عنها بين يدي السلطان :

يا أكرم الناس في بؤس وفي نعم وخير ساع إلى مجد على قدم
لا تعجبن لعموم الأمن في بلدٍ أضحيت فيها فأضحت منك في حرم
أما ترى الليث لما أن طرحت له فريسة حاد عنها وهو ذو قُدُم
ملأت بالخوف أكباد الورى رَهَبًا فعندك اللّيث لا يسطو على الغنمِ

***

وفي أيام خوفه استند إلى سلطان يقال له « ابن فضل » فأعطاه رمحه ذماما ، فلما انقضت مدة ذمامه وجواره التمس منه إعادة الذمام وقال :

كنتَ أعطيتني ذمامك لمّا خفت من صولة الزمان الذماما
فاذا ما رددته يا بن فضلٍ فبماذا أطاعن الأياما ؟

وقال متغزّلاً في جميل اسمه « عيسى »

يا سميّ النبي « عيسى » فدتك النفس ؛ لِمْ لَمْ تكن كعيسى النبيّ ؟
ذاك يحيي الموتى ؛ وأنت بعينيك تسوق الردى .. إلى كل حيّ !

١٥ ـ في الرثاء :

لا شك ان « ابن القم » لم يدع ضرباً من ضروب الشعر ولا فناً من فنونه الّا ومارسه وأجاد فيه ؛ وما استشهد به « عمارة » من أبيات يرثي بها بعض أصدقائه ، وأعيان زمنه تدل على اتقانه واحسانه في هذا الباب من أبواب القريض ، وان كان لم يستشهد الّا بمقطعين الأول من قصيدة يرثي بها أسعد بن عمران وفيها يقول :

صدور آل قُلَيْدٍ مألفُ الأسل ليت الرماح افتدت بالغلّ والوجَل !

تشتـاقهم كاشتيـاق الجـود أيـديهمَ — ألا جفَتْهُمْ جفـاء الجبن والبخَـل ؟
قومٌ إذا استُنْجـدوا قلّ اعتـلالهـم — يكـثـر المـوتَ فيـهـم قلّةُ العـللِ
كأنّمـا الحـرب ان لم يجل معـركهـا — بماجـدٍ منهـم تخشـى من الـعـطل
لم يلبسـوا السرد الاّ عادةً لهم — في الحرب للحزم لا خوفاً من الأجل
أمنت بعـدك لا أخشى الهلاك وقـد — كان البقـاء على الاشفـاق والـوهلِ

ويظهر ان أسعد قد قتل في إحدى المعارك ، والمقطع الثاني من قصيدة يبدو من صدق لوعتها انه بكى بها صديقا عزيزا ومطلعها :

لهفـي لفـقـدكَ لهفـاً غير منـقـطع — ما كان أقرب يأسي منك من طمعي !
ان تسـترحْ فأنـا المبلوّ بعـدك بالأحزان ، أو تسـلُ إني دائـم الجـزع ،
كيف التـذاذي بدنيـا لست ساكنهـا — أو اغتبـاطي بعيش لست فيـه معي !؟

***

إنها ثلاثة أبيات ؛ تغني عن ثلاثين بيتاً ، في كل حرف حرقة تجهش ، وفي كل كلمة حسرة تئن وتتوجع ، وعيون الطمع والجزع والمعية في قوافيها تفهق بدموع اللوعة والألم والحزن الصادق . وما أظن عمارة ـ لو كان ثمة زيادة على هذه الثلاثة الأبيات يتعمد إهمالها .

وقد سبق أن سجّلنا مرثاته للملك علي محمد الصليحي واخوانه على لسان أختهم « تحفة » الصليحية .

١٦ ـ في الهجاء . .

هل من يجيد المدح والاطراء يجيد القدح والهجاء ؛ ومن يستطيع أن يصف محاسن الشمائل إذا رضي هل يستطيع ويحسن أن يندّد بسيء الطباع والأعمال إذا سخط ؟ المتبادر المعقول عند من يريد الجواب على هذا السؤال هو ان يقول نعم . ويستشهد بكلامِ عمرو بن الأهتم لمّا سأله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن الزِّبرقان بن بدر فقال : « مانعٌ لحوزته ، مطاع في أَدْنَيْه . وكان الزبرقان حاضرا فقال : « انه يا رسول الله ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي ، فقصّر بي » : فقال ابن الاهتم : « أما لئن قال ما قال فوالله ما علمتُه الاّ ضيّق الصدر ، زَمِر المروءة ، ضيّق العطن ، لئيم الخال » فلما رأى انه خالف قوله الآخِر قوله الأول ورأى

الانكار في عيني رسول الله قال : « يا رسولَ الله ، رضيتُ فقلت أحسن ما علمت وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخِرة » فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « إنّ من البيان لسحرا » .

ومع ذلك فان الشهرة بالهجاء لم تتيسّر لكل شاعر ، والشعراء الذين هجوا فوضعوا ، ومدحوا فرفعوا ، وردّوا على من هاجاهم فأفحموهم ، لا يتجاوزون عند أبي عبيدة ثمانية ؛ أربعة منهم جاهليون وهم زهير ، وطرفه ، والاعشى ، والنابغة ، وأربعة اسلاميون وهم الحطيئة ، وجرير ، والأعشى ، والنابغة ، وقد أحسن الرافعي عندما علل ذلك بقوله : « ان أصحاب الهجاء ، كأصحاب السياسة من أهلها وغير أهلها ، يستطيع كل امرىء أن يتأوّل ، ويتنبأ وينذر ، ويأتي بصنوف القول كلها ومع ذلك لا تجد شهرة السياسة الاّ لنوادر الرجال ، لأن حوادثها أرزاق وحظوظ فلا يتفق لكل من ينتحل السياسة أن يصرف الدول ويضع ويرفع ، كما لا يتفق مثل ذلك لكل هجّاء » [٩٠ ج ٣ ـ تاريخ آداب العرب] .

وليس ديوان « ابن القم » في متناول أيدينا إذ لا يزال بين المؤودات من كتب التراث ـ فنعرف هل كان بارعاً ماهراً في الهجاء الذي لم يكن في الأصل السبّ والشتم والاقذاع فيها ؛ بل كان الغمز في خلق كريم ، وتجريد المهجو من فضيلته ، ولكن ما استنتجناه آنفا من سلوكه وتصرفاته ، وقولنا إنه كان حاد المزاج والذكاء ، وسريع الانفعال والغضب ، ونزق اللسان والسوط ، يفضي بنا إلى الظن بأنه كان يملك جماع صفات السّلاطة التي هي أهم طباع الشاعر الهجّاء . . . وقد أورد له عمارة أبياتاً في الهجاء منها قوله في أمير :

إن كنت أخشاك أو أرجو نداك فما   في الناس مثلي في جبنٍ وفي طمع !

ومن شعره في الهجاء :

ولقد حدست الحمد فيك فطال ما كذّبتَ حدسي
أُضحى على ما ساءني متصبّرا وعليه أمسي
أرجو غداً فإذ أطلّ ذممته ، وحمدتُ أمسي !

وقال يهجو طبيباً أتخذ باباً فوسعه فوق المعتاد :

ما طوّل الباب الطويل لأنه شيء يزينُهْ
لكنّه رام الدخول فلم تساعده قرونُهْ

وقال يهجو بني بشارة وكان أحدهم قد أخذ له درجا وقد افحش :

بني بشارة ردوا عليّ بالله درجي
فليس كل طويل مدوّرٍ «...» زنجي !

وقال من قصيدة :

لُمْ يا عذولُ وفنّدْ إن أخْلق بي من الثناء لتوبيخٌ وتفنيدُ
إني نزلت بقوم ضيفهم أبدا على لذاذاته بالموت محسودُ
كأنما زرتهم أرتاد موعظة فقولهم لي توريعٌ وتزهيد !
يا ليت كفي كانت عندهم أذُناً فان كفّى أغنتها المواعيدُ

***

١٧ ـ في المديح

وتفرّد « العماد » في نقل أبيات قال انه مدح بها السلطان قاسم أبن أحمد وهي مما جارى به المتنبي :

وليل كأن الشهب في ظلماته لآلِيء لم تقصد لها كف ناظم
سرت بين سِتْريه بنا أعوجيّة كرائم من أبناء غرّ كرائم
أحسّ بها نسر السماء فأعجلَنْ أخاه ؛ فلم تنهضه ريش القوادم
قطعنَ بنا البيد الفساح إلى امرءٍ له مثلها من سؤددٍ ومكارم
تقسّمهنّ الليل والبيد والسرى ، فأقسمَنْ لاعرّجن من دون قاسم ؛
يَزُرْن بنا من يحقر الأرض منزلاً لعافٍ ، وما في الأرض نُزلاً لقادم
قصدْنَ بنا من لو تجنّبن قصده سرت نحونا جدواه سرى الغمائم
تغير العطايا في كرائم ماله مغار مواضي بيضه في الجماجم
كأن مواضيه طبعنَ من الشجا فهنّ من الأعداء بين الغلاصم
إذا شاق عين الحاسدين على العلى أقام عواليه مقام التمائم !
كسوب ولا أموال غير محامدٍ قؤول ولا أقول غير الغماغم
من النفر الغرّ الذين تعودت مناكبهم حمل القنا والمغارم
يظل بهم وحش الفلا في ولائم تظل بها أعداؤهم في مآتم

ومن جيد مدائحه قصيدة في السلطان سبأ بن أحمد ومنها :

إن ضامك الدهرُ فاستعصم «بأشيح» أو ... أزرى بك الفقر فاستمطر بنان «سَبَأ»!
ما جاءه طالبٌ يبغي مواهبه ... الّا وأزمع منه فقره هربا !
تخال صارمه يوم الوغى نهراً ... تضرّمت حافتاه من دم لهبا !
بَني المظفّر ما امتدّت سماء علاً .. ... الّا وأُلفِيتُمُ في أفقها شهُبا
ان امرءاً كنت دون الناس مطلبه ... لأجدر الناس أن يحظى بما طلبا

***

١٨ ـ في النسيب

ومن رائق نسيبه مقدمة قصيدة في مدح أحد السلاطين وهي :

يا صاحبيّ قفا المطيّ قليلا ... يشفى العليل من الديار غليلا ،
هذي طلولهم أطلن صبابتي ... وتركن قلبي من عزاي طلولا
ولئن خلَتْ منهم مرابعهم فقد ... غادرن قلبي بالغرام اهِيلا
لو ان عيسهم غداة رحيلهم ... حمّلن وجدي ، ما أطقن رحيلا !
من كلِّ ريم لا عديل لحسنها ... رحلت فكان لها الفؤاد عديلا
كالبدر وجهاً ، والغزال سوالفاً ، ... والرمل ردفاً ، والقناة ذبولا
غادرني جاري المدامع حائراً ، ... وتركنني حيّ الغرام قتيلا

***

وإذا كان قد نظر في البيت : « ولئن خلت منهم مرابعهم فقد الخ » إلى قول أبي الطيب المتنبي :

لك يا منازل في القلوب منازل ... أقفرت أنت ، وهنّ منك أواهلُ

فان العماد الاصبهاني يقول ان بيت ابن القم :

لو أن عيسهم غداة رحيلهم ... حمّلن وجدي ما أطقْنَ رحيلا

أخذه من « المقدونيري » :

وركايب حَمَلْتكُم لو حُمّلت ... وجدي لما مدّت لترحال يدا !

وإنْ كان ذلك كذلك ؛ فانّ شرف الصياغة من حظ البيت « القِمي » ولعلّ أبيات النسيب هذه خير ما نختتم به النماذج الشعرية من آثار « إبن

القم » كما ان الخزرجي في كتابه « طراز أعلام الزمن » قد أورد كثيرا من أشعاره وقال القاضي محمد الأكوع انه أورد له رسالة ؛ ولو انه أثبتها ضمن تعليقاته على كتاب « عمارة » لأحسن إلى طلاّب المعرفة .

وفاته . . .

ولم يحدثنا المؤرخون عن سنة ومكان وفاة الحسين بن علي بن القِم كما لم يشيروا إلى سنة ميلاده بزبيد ، ولكننا قد استنتجنا بالاستقراء والتتبع أن ولادته كانت حوالي عام ٤٢٦هـ وقد عرفنا انه بعد عام ٤٨٠هـ قد هاجر من زبيد والتحق بالسلطان سبأ بن أحمد الصليحي فراراً من الملك جيّاش بن نجاح وأقام مع السلطان سبأ في « أشْيح » .

ونحن نعلم أن السلطان سبأ بن أحمد توفي سنة ٤٩٢هـ ، فتضعضعت بعد وفاته دولة السيدة أروى ، واستقلّت عنها وخرجت عليها بعض المقاطعات كما سبق في السفر الأول ؛ فهل كان الشاعر إبن القم قد توفّي قبل وفاة آخر من استجار من السلاطين بكنفه . . سبأ بن أحمد ؟ أم أنه عاش بعده في مقام الملكة السيدة ، فترة من الزمن وكان أحد كتّاب ديوان الانشاء في بلاطها المتضعضع ؛ وتوفى غريباً عن وطنه زبيد في مطلع القرن السادس وقد جاوز الثمانين ؟ .

انني أستبعد ذلك وأظن انه مات قبل وفاة السلطان سبأ أي حوالي سنة ٤٩٢هـ ولما يتجاوز السّبعين عاماً ، وإلاّ فأين مرثاته في السلطان ؟ ولو وجدنا في مجموع رسائله ما يثبت انه قد كتب للسيدة بنت أحمد بعد تاريخ وفاة السلطان سبأ لعرفنا انه قد طال عمره وعاش بعد صاحبه ؛ كما لو أن ديوانه في متناول أيدينا لعرفنا منه الخبر اليقين .

وقد وهم الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي لمّا قال « وأكبر الظن ان الحسين لم يَشْرك أباه [علياً بن القم] في خروجه على الصليحيين » وهذا ينافي ما ذكره عمارة عن جيّاش ان الحسين بن القم كان مع أبيه في زبيد حين عاد إليها ثائراً متنكراً ، وأورد قصة لعبهما بالشطرنج ، وسفه لسانه عليه وتآمرهم معاً على نائب المكرم الصليحي في زبيد ، وقد سردنا بعض مدائح الحسين بن القم في جيّاش وبعض ما جرى بينهما من

عتاب ، ثم تفنيده لعملية اعدام القاضي الحسن بن أبي عقامة حوالي سنة ٤٨٤هـ ، وخوفه على نفسه بعد ذلك وفراره إلى السلطان سبأ الصليحي وهذا يدل على انّه عاش في زبيد بعد استيلاء جياش أكثر من عشر سنوات ، وكان من رجال دولته ، وكتَبَةِ ديوان إنشائه كما يثبت ذلك شعر إبن القم نفسه .

وافتراض الدكتور شوقي ضيف أنّ الحسين بن القم عاد بعد وفاة سبأ إلى مسقط رأسه زبيد وانه « قد حاول ان ينال شيئاً من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره في الخريدة » ! قد أثمره ذلك الوهم وقد بيّنا في الأصل ان استيلاء جياش على السلطة في زبيد كان بمساعدة الوزير علي بن القم وكان ابنه الحسين عونه وشريكه ، ثم توفى الأب ، وظل الابن كأحد أعيان الدولة ولسبب ما ساءت العلاقة بين الحسين وجيّاش فقال تلك الاشعار التي في الخريدة ، والتي نقلها العماد الاصبهاني عن كتاب عمارة ، وكلّها قيلت قبل عام ٤٨٠هـ وقبل قتل إبن أبي عقامة ، ومن البعيد أن يعود « إبن القم » بعد وفاة سبأ سنة ٤٩٢هـ شيخاً هرماً إلى عدوّه جياش الذي نعلم انه توفي سنة ٤٩٨هـ أو بعد وفاته إلى ابنه فاتك الذي اشتبك مع أخوته وعبيدهم في صراع مرير .

وبهذا الايضاح نرجو ان الجزء الأخير من حياة إبن القم والذي أشار الدكتور شوقي إلى أن الغموض يكتنفه قد أصبح واضحا . وفي الامكان أن نقول انه توفي غريباً عام ٤٩٢ أو حواليها . [وانظر ص : ١٤٧ ـ ١٥٠ ـ ـ ٥ ـ تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف] ولا شك أنه لم ينضم إلى النجاحيين إلا بعد قتل الصليحي لأنّه قد رثّاه كما تقدم .

مسك الختام

لقد كان إبن القم حوّلاً قلّباً ، نزق الطباع متملّقا ، وهو يمثّل الشخصية النقيض لشخصية أستاذ عمارة أبي بكر العندي فطرة وأخلاقاً وسلوكاً ، بل ولم يرق مستواه السياسي والاخلاقي إلى مستوى خلفه الشاعر المؤرخ عمارة اليمني ؛ ولكن كلّ ذلك في واد وما نحن بصدده في واد آخر إذ لا يهمّنا منه إلّا معرفة شاعريته وأدبه ، وقيمة شعره وآثاره الأدبية بلاغة وفنّا ؛ ولقد أوردنا

له من النماذج ما يدل على ألمعيته ، وعلوّ طبقته ، ولا أظن أحداً يسمع قوله :

تشكّى المحبّون الصبابة ؛ ليتني ... تحمّلت ما يلقون من بينهم وحدي !
وكانت لنفسي لذّة الحبّ كلها ... فلم يدرها قبلي محبّ ولا بعدي

ثم لا يطرب ولا يعجب ويصرخ به من وراء القرون : لقد تحجّرت واسعا أيها الشاعر الكبير .

هذا وقد رجّحت ضبط القاف في اسمه بالكسر لأني وجدت الأستاذ المحقّق الدكتور حسين الهمداني قد ضبطها كذلك ، ولم يحدّثنا عن السبب ولكنه ثقة ، لا يعمد إليه اعتباطا ، ثم ان ألسنة أدباء اليمن ينطقونه بالكسر أيضاً فلعل التوارث السّماعي قد ظل ينقلها من جيل إلى جيل بكسر القاف .

١٥ ـ حسين اليامي

القاضي حسين بن عمران بن الفضل اليامي أحد أفراد الأسرة التي احتلّت مراكز حيوية في العهد الصليحي ؛ وأورد الدكتور حسين الهمداني مرثاة للقاضي حسين هذا قالها عندما زار قبر السيدة الملكة بنت أحمد في ذي جبلة عام ٥٣٢هـ جاء فيها :

وقفت على قبر الوحيدة وقفةً ... وقد زينَ منها مسجد وستورُ
فقبّلته واستفت ريّا ترابه ... وعاود قلبي رنةٌ وزفير
وسالت دموع العين مني كأنها ... بشط مجاري المقلتين سطورُ
ولله منها روح قدسٍ تميّزت ... فصارت بأعلى الدائرات تطير
خلا القصرُ في ذي جبلة من مكارم ... يحنّ إليها بائس وفقير
ومن جود بحرٍ بالعطايا نواله ... على معتفيه عسجدٌ وحريرُ
ومن درس ما ضمّ الكتابُ وبعده ... صلاة وتسبيح معاً وطُهورُ
وما سمعت أذني ، ولا راع ناظري ... تجاوب قيناتٍ بها وخمورُ !
ولو كان داعي الموت يثنيه دونها ... قبيل وينجى من سُطَاه عشير
لقام لها من حمير كل أرعن ... سحاب المنايا حيث حلّ مطير
وصار له من صيد كهلان جحفل ... تسير الجبال الشم حيث يسير
ولو حال دون الموت عنها مبلّط ... منيع يردّ الطرف وهو حسير

لكان لها في حصن « قيضان » معقل تقصر عنه في العلوّ طيورُ
ولكن أبى الاّ خفيّاً بشخصه حقير ؛ وما يسطو عليه كبيرُ

***

ولم يترجم له الهمداني ولا ذكر سنة وفاته ، ولعله كان من غلاة اتباع الدعوة الاسماعيلية ، وأخباره وأشعاره في كتبهم الخاصة . ولعله ممن حضر وقعة الكظائم التي قتل فيها والده القاضي عمران بن الفضل اليامي من جراء طعنةٍ عاجَلَه بها الشريف يحيى بن حمزة السليماني ونقل الدكتور الهمداني عن « نزهة » إدريس ؛ إن الحسين هذا قد خرج مع أخيه أحمد بن عمران ونزلا إلى تهامة طلباً بثأر أبيهما وتعرفا على الشريف وقتلاه [صليحيون ص : ١٥٣] وقد سبقت الاشارة إلى المعركة وما قيل فيها من أشعار وكان نشوب حرب وقعة « الكظائم ١٥ ذي الحجة سنة ٤٧٩هـ والبيت .

وما سمعت أذني ، ولا راع ناظري تجاوب قينات بها وخمور

فيه تعريض بقصور السلاطين من آل زياد وآل يُعفر الحواليين وبني نجاح وأضرابهم » .

١٦ ـ خلف بن أبي الطّاهر
[٣٢٠ ـ ٥٠٢هـ]

من الشعراء الذين ذكرهم عمارة والعماد الأصبهاني في « الخريدة » وهما يتحدّثان عن شعراء اليمن الوزير خلف بن أبي الطاهر ، ونحن ملزمون بالوقوف معه حتى ولو لم يصل إلينا من شعره إلاّ ثلاثة أبيات لأن ثناء عمارة عليه ، ثم مواقفه السياسية تدل على انه كان من أقطاب الفترة التي نؤرّخ لآدابها ، والمؤثرين في حياة مجتمعها سياسيّاً وأدبيّاً .

ولم يفرد له أحدٌ ترجمة غير الصفحة الموجزة التي خصّصها له عمارة في كتابه ، ونقلها عنه العماد ، ولم يذكر أيٌّ منهما عام ولادته أو وفاته ، ولا مصيره بعد ان اختلف مع الملك جياش ، وقد تتبعت واستقريتُ أخباره المشتتة في كتب التاريخ وبعد لأي عرفت ما يلي :

١ ـ فهـو أوّلاً من ذرية عبد الملك بن مروان ، وكـان جدُّه ثالثَ محمـد بن عبيد الله بن زياد ، ومحمد بن هارون التغلبي لمّا بعثهم الخليفة المأمون على رأس حملة تأديبيّة إلى اليمن عام ٢٠٢هـ وكوّنوا فيها دولةً مستقلة قاعدتها « زبيد » وتـوزعـوا فيهـا السلطة والأمـر ، فللزيادي الرياسة ، وللمروني الوزارة ، وللتغلبي القضاء وقد سبق الكلام عن ذلك في السفر الأوّل .

٢ ـ وهـو ثانياً قد هرب مع سعيد الأَحـول بن نجاح لما انهزم أمام المكرّم الصليحي حين غزا « زبيد » لاستنقاذ أمه « أسما » سنة ٤٦٠هـ وبقي مرافقاً لسعيد عاماً في جزيرة دهلك ثم رجعا إلى زبيد واستعاد سعيد ملكه واتخذ من خلف وزيراً ، كما كان أبوه مع الملك نجاح الحبشي وأجداده مع ملوك بني زياد وكما فصلنا سابقاً ، ولمّا قتل سعيد النجاحي في معركة « الشِّعِر » وانهزمت عسـاكـره ، واستولى المكرم على زبيد سنة ٤٦١هـ هرب الوزير خلف مع صنو سعيد ، جيّاش بن نجاح ودخلا « عدن » متنكّرين ثم لحقا بالهند وكان ما سبق ان فصلناه في « قصة جياش » ونحن نتحدّث عن « ابن القم » .

٣ ـ وقد عرفنا من قصّة جياش انه قد أمر رفيقه الوزير خلف لما عادا متنكرين من الهند إلى « عدن » أن يسبقه عن طريق الساحل إلى « زبيد » ، ويعلن موت « جيّاش » في الهند ، ويتظاهر بالولاء للصليحيين ، ويستأمن لنفسه وأهله ، ويتصل سراً في نفس الوقت بمن بقي من آل نجاح ، والمروني وبني عَقَامة التغلبيين وأنصارهم ، والمعادين للصليحيين سياسة وعقيدة ومذهبا ، ويظل على صلة به ليكشف له أحوال « زبيد » وأخبار وأسرار الدولة فيها ، حتى يفرغ جياش نفسه من مهمته الاستطلاعية في رحلته التنكرية وجولته بثياب الفقـير الهنـدي الأعـور في بلاط المكـرم وزوجته السيدة بنت أحمد وسيلحق به حينئذٍ إلى زبيد .

٤ ـ كان قد حدثنا عمارة في تاريخه وهو يتكلم عن السلطان سبأ ابن أحمد وإسناد الدعوة إليه بعد وفاة المكرّم سنة ٤٧٧هـ أنه كان يساقي جيّاشاً سجال الحرب دون أن يتمكن من التغلب عليه واستعادة زبيد وذكر ان وزير جيّاش خلف ابن أبي الطاهر قد دبّر حيلةً شدّ بها أزر صاحبه ، وأيأس سبأ وملكته السيّدة من طمع الاستيلاء على تهامة ، والقضاء على دولة النجاحيين فقال :

« ولما طال ذلك من أمرهما ـ سبأ وجياش ـ أشار الوزير خلف بن أبي الطاهر علي جيّاشٍ بأن يعتقله ويقبض على أمواله وأملاكه ، ويقيم محمد بن العقاري وزيراً له ؛ ففعل جياش ذلك ؛ ثم ان خلفاً ـ وذلك بالطبع حسب الخطة المدبرة مع جياش ـ نقب الحبس وهرب إلى سبأ ، فحسن موضعه منه ؛ فلم يزل يحسّن لسبأ النزول إلى تهامة ، وضمن له الخبرة والمكايد ، وما يقطع به دابر جيّاش ، وكتب الوزير خلف إلى جيّاش يأمره بالتراخي ، وإظهار العجز ، وان يكتب إلى سبأ إما في نصف البلاد ، وإما أن يلتزم لسبأ مالاً يقوم مقام النصف ، وان يشترط على سبأ ابعاد الوزير خلف من عنده ، فلما فعل جياش ما أشار به الوزير استحكمت اطماع العرب في البلاد واطمأنوا ـ إلى رأي الوزير خلف ـ وذهب سبأ إلى زبيد ، ومعه ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل ، وكان جيّاش قد أعد الجموع واستنصر بالشريف يحيى بن حمزة بنٍ وهاس ثم ان القائد ريحان الكهلاني مولى سعيد بن نجاح بيّت العرب ليلاً وهم مرتبون على باب زبيد في غرّة ، ووقعت معركة الكظائم سنة ٤٧٩هـ فلم ينج من جيش سبأ إلّا صبابة يسيرة وهلك الجميع قتلاً بالحراب ، وقتل الأميران قيس بن أحمد بن المظفر ومحمد ابن المهنا وحمل الشريف يحيى بن حمزة على القاضي عمران بن الفضلِ اليامي فطعنه طعنة مات بسببها بعد أيام وعقر فرس الأمير سبأ فسار راجلا في غمار الناس حتى لقى آخر الليل من حمله ، ولم تعدِ العربُ تهامة بعدها » [عمارة ص : ١٤٩ ـ والصليحون ص ١٥٢] .

٥ ـ وقد ترجم عمارة كما قلنا للوزير خلف في القسم الخاص بشعراء اليمن فقال : « ومنهم الوزير خلف بن أبي الطاهر الأموي وزير الملك جيّاش صاحب زبيد ، وكان أحد أفراد الدهر نبلاً وفضلاً وصحب جيّاشاً حين زال ملكهم ودخل معه الهند ، وعاهده على ان يقاسمه الأمر إن ملك ، ونعته « قسيم الملك » ، ولولا الوزير خلف ما تم لجيّاش ما تم من رجوع الأمر إليه » [ص : ٢٦٧] .

تعقيب تاريخي

ونستطيع ان نستنتج مما سبق أمرين .

الأول أن الوزير الخطير ، الأموي النسب والدهاء والطموح قد مثّل الوفاء

والصبر بوقوفه مع جيّاش وأخيه سعيد ، وفراره معهم إلى « دهلك » ، ثم تضـامنـه مع جياش بعد قتل سعيد وتشرّدهما إلى « الهند » ثم في مغامرته وعـودتـه إلى « زبيد » ، واشـاعتـه لموت صاحبـه ومـداجاته لنائب الملك الصليحي ، وتمهيده لاستعـادة العرش النجاحي وثورة جياش ، وتكوين الـدولـة النجـاحية الثـانية ، واستحق بكـل ذلـك أن يتخذه جياش أكبر وزرائه ، وان يسميه « قسيم الملك » فهو بحق العامل الأكبر في نجاح ثورة النجاحيين ؛ ولولاه ما تم لجياش ما تم من رجوع الأمر إليه كما قال « عمارة » .

الثاني أن هذا الوزير الخطير الأموي النسب والحيلة والمكر ، قد استطاع ان يقرّب أجل الدولة الصليحية ، ويقضي على آخر قوة ضاربة لها ، وأن يفـرّق بين الشبيهـين ـ الصليحيين والسليمانيين ـ ويجمـع بين النقيضين ـ الاحباش والعرب ـ ، فألف وحالف بين الاحباش ومليكهم جياش وبين الأشراف السليمانيين ليكونوا جبهة واحدة ضدّ القوة اليمنية التي تمثلها السيدة الصليحية ، وقـوّادهـا سبأ بن أحمد ، وعمران اليامي وأنصارهم من حمير وهمدان وقحطان .

واستطاعةُ ذلك براعةٌ تصدّق قول عُمارة : إن الوزير خلف كان « أحد أفراد الدهر نبلاً وفضلاً » ولعل قائلاً يضيف ودهاءً ومكرا !

ولكنـا إذا ابتعـدنـا بالحـديث عن الأشخـاص وتجاوزناهم راضين أو ساخـطين ، مكـبرين أو محتقـرين ، غير مبـالـين بطوائفهم وأنسـابهم واحسابهم ، سواء كانوا أحباشاً سنيّين ، أو يمنيّين باطنيين ، أو مسلّطين لا هم لهم ولا هدف إلاّ أن يحكمـوا ويظلموا ، وأن يسلبوا وينهبوا ، وأن يظلوا سادة مستعلين مترفين ، يرهقون التجار والفلاّحين ، والرعايا المواطنين القـاطنـين في « زبيد » وسـائـر تهامـة اليمن . إذا تجاوزنـا الحـديث عن الأشخاص علماء أو فقهاء ، أمراء أو شعراء ، حكاماً ظالمين ، أو سلاطين محسنين ، وسمحنا لأنفسنا أن نطالع من وراء القرون الموقف ، ونستعرض حالة ووضع المواطنين اليمنيين من أبناء تهامة نساءًا ورجالا وأطفالا ؛ كيف كانـوا يعيشـون في ظروفهم التعسـة الخسيسـة ، وهـل كانـوا يفكرون في « خلاص » ؛ وهم أصحـاب الأرض وما عليها ؛ وهـم أحفاد أبي موسى

الأشعري وأبي هريرة واخوانهم الذين قال الرسول ﷺ لما وفدوا عليه . « أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق افئدة » .

نعم ؛ كيف كان المواطنون يعيشون ، وهل كانوا يفكرون في « الخلاص » ويحسّون ويشعرون بها يقاسونه ويعانون ، أم انهم كانوا مستضعفين قد استمرؤا العذاب وألفوا الهوان فأصبحوا كما قال المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّتٍ إيلامُ

ولقد أصبحت « زبيد » وسائر وادي « الحُصَيْب » في تلك الفترة التعسة الخسيسة أراضي خراج ليستغلّها الصليحيون والأحباش النجاحيون ؛ وبطريقة وأسلوب وحشي أشرنا إليه سلفاً وقلنا ان التاريخ لم يعرف له مثيلاً ، وقد صوّر الحالة «عمارة » بقوله :

« وبحكم مصاقبة أعمال سبأ بن أحمد لتهامة كان يساقي جيّاشاً ابن نجاح سجال الحرب ؛ وذلك ان العرب إذا برد النسيم اجتمعوا ونزلوا إلى تهامة بقيادة سبأ ويقيم فيها يجبي خراجها ولا يؤذي أحدا من الرعايا بظلم ولا غيره ، وكان يحتسب للعمال ما قبض منهم جيّاش في أشهر الصيف والخريف ، فإذا انفصل الشتاء وانصرم الربيع ارتحل بمن معه من العرب إلى الجبال وملك جيّاش تهامة إمّا بالقتال ، وإما لشدّة الحر ، وانتشار الوباء في الناس ، وإذا عاد جيّاش إلى زبيد نُشِرَتْ المصاحف ، وابتهلت له الرعايا بالدعاء واحتفل الفقهاء ، وتطاول العلماء ، واحتسب جيّاش أيضاً للعمال واجبات الأموال وما قبضه منهم سبأ في شهور الشتاء والربيع » [ص : ١٤٩ عمارة] و[ص : ١٥١ ـ صليحيون] .

فأيّ عنتٍ وأيّ ارهاق كان يحلّ بالمواطنين !؟ ، إن المشاعر الانسانية لترتجف رحمةً وحنانا ، وترتعش أسى وحزنا ، حين تتصوّر وتتذكر تلك المخلوقات اليمنية ، وهي تستقبل في الصيف الملك جيّاش مولى آل زياد ووزيره التغلبي ، والآلاف من عبيده وبني جلدته يقبلون من « دهلك » يزمجرون ويلوّحون بحرابهم وفؤسهم ، وقد نزح السلطان سبأ وسائر الصليحيين بعد ان اصطافوا وتمتعوا بدفء شتاء تهامة ، وفرغوا من جباية الخراج ، وسلب ونهب العمال المواطنين !

وعجباً لذلك التعاون الشاذ الغريب بين القوتين الغاشمتين على عدالة الجشع والمساواة في الظلم ؛ فيحتسب جيّاش للرعايا ما كانوا قد دفعوه لسبأ حسب مستندات الدفع والقبض ، ويحتسب سبأ للزرّاع والتجار والعمال ما جباه منهم جيّاش أيام الصيف وشهور الخريف ؛ ويصفون دون حياء ذلك عدلاً ومساواة وكأنهم انما ينفّذون شريعة الاسلام التي يرفعون رايتها ويحكمون المخلوقات التعسة باسمها .

ومع كل ذلك يبتهل الرعايا بالدعاء ، ويحتفل الفقهاء ويتطاول العلماء وينشرون المصاحف احتفاءً بجيّاش وزبانيته ، ويستقبلون بالمباخر والتهليل والتكبير وأناشيد الترحيب شياطين الربيع والشتاء ! أَلَيْسَ حقاً وصدقاً ما قال أبو الطيب :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميتٍ إيلام ؟

ثم أليس من الغريب أيضاً أن يأتي المعلقون العنصريّون والطائفيون فيمجّدون تلك المظالم !؟

وأظنّ أن ملامح النبل والفضل التي رسمها المؤرّخون وأبرزها الشعراء ، وتفنّنوا في إبداع ألوانها البراقة على وجوه صور سلاطين ووزراء وحكّام ذلك العهد التعس ـ لا فرق بين الهمدانيين والأحباش والعدنانيين والقحطانيين ـ ستتعكّر وتكتئب حين نسمح لأنفسنا بتصوّر حالة البؤس والشقاء التي كان يعانيها سكان تهامة اليمن ، ووادي الحُصَيْب ، وسيظهرون بل ويظهر مؤرخوهم وشعراؤهم معهم في ملامح بشعة تقشعر لها جلود الذين يؤمنون بالله وحريّة الانسان ، وبشريعة العدل والاحسان . وحسبنا أن نعرف أن الزياديين والنجاحيين قد حرموا على التهاميين ركوب الخيل ، وأظن ان هذا التصور التاريخي الانساني سيؤكد ضرورة ما ندعو إليه من إعادة النظر فيما كتبه المؤرّخون ، بل وإعادة كتابة تاريخ اليمن السياسي والأدبي والاجتماعي ، وأستطيع أن أقول وتاريخ الأمة الاسلامية في كل زمان ومكان .

ويحقّ لي ان أفترض ـ ورغم الهوان الذي حلّ بمواطني ذلك العهد الكئيب وصوّره بيتُ أبي الطيّب أن البعض منهم كان قد شعر وأحس بوزره وتألم له ، وترقب الخلاص منه ، وعمل من أجله وأن ثورة العالم الزاهد

الحنفي علي بن مهدي ـ وقد سبق الحديث عنها ـ كانت بوح ذلك الترقّب ، والمحاولة العملية للتخلّص منه والانتقام من فاعليه ولولا أن الظروف الاسلامية التي كانت أيضاً كئيبة سواء في بغداد أو حلب أو القاهرة ـ كانت تمهّد لامتداد الموجة الأيوبية والمماليك من بعدهم واكتساحها لجزيرة العرب شمالاً وجنوباً لكان لحركة ابن مهدي شأن في اليمن غير ذلك الشأن الذي كان .

عودٌ إلى الشاعر « إبن أبي الطاهر »

لعلّنا قد ابتعدنا بهذا التعقيب عن الوزير « إبن أبي الطاهر » ولم نتحدث بعد عن مولده ونشأته ، وعن شعره ومصيره ووفاته ؛ فأما مولده ونشأته فلا شك أن زبيد كرسيّ وزارة آبائه الأمويّين كانت هي المسرح الذي خلق ونشأ وتأدب فيه ، وأنه قد درس وتعلّم وتفقه في معاهدها وزواياها ، وإذا كنّا نعلم انه في سنة ٤٦٠هـ قد صار وزيراً للسلطان « سعيد الأحول بن نجاح » وانه قد هاجر معه إلى « دهلك » ثم عاد معه فلما قتل عام ٤٦١هـ على أيدي الصليحيين رافق أخاه جيّاشاً إلى الهند ، فلا شك انه كان قد بلغ مبلغ الرجال وجاوز الثلاثين ، واننا لن نعدو الصواب إذا افترضنا انه ولد حوالي عام ٤٢٠هـ في عهد الملك « نجاح » [ت عام ٤٥٢هـ] كما أننا لن نبعد عن الصواب أيضاً إذا قلنا انه بعد أن هاجر مع جيّاش إلى الهند ثم عاد معه إلى عدن متنكراً كما في قصّة نجاح ومهّد لعودته ذلك التمهيد البارع قد ظل معه وزيراً وقسيما للملك حوالي سبعة عشر عاماً حتى أحكم حيلته سنة ٤٧٩هـ وأشار على جيّاش بها ، وفرّ إلى سبأ بن أحمد الصليحي ، وسبّب الهزيمة النكراء لجيش سبأ في معركة « الكظائم » الفاصلة . ولعله بعد ذلك وبعد عام ٤٨٠هـ وقد صفا الجو للملك جيّاش قد ساعده بصفته « قسيم الملك » على التخلّص من أصحاب الفضل عليهم الذين تآمروا معهم ضد « الصليحيين » أمثال عائلة « القمي » والقضاة « بني عَقَامة » ؛ ربّما انتقاماً منهم لأنهم أثناء فرارهم إلى دهلك قد تعاونوا مع « الصليحيين » فكان قتل الحسن إبن أبي عقامة التغلبي ، وكان فرار الشاعر « إبن القم » والتحاقه بالسلطان سبأ بن أحمد كما ذكرنا سابقا .

ويذكر المؤرخون ان علاقة خلف الوزير قد ساءت بينه وبين « جياش » وانه قد ابتعد عنه ، ولا يبعد ان الوزير قسيم الملك قد أخذته العزة ، وشعر

بأنه أكثر من « قسيمٍ للملك » ! وأكبر من وزير ، وربما ركن إلى الترف ، واستنام إلى اللذات ومجالس اللهو والطرب ؛ وان ذلك قد غيّر عليه قلب صاحبه ورفيقه وقسيم ملكه ؛ ونفخ الوشاة والحساد والمنافسون الذين يكثرون عادةً في بلاطات مثل تلك الظروف في الرماد ؛ فابعده جيّاش ؛ أو انه هو نفسه قد ابتعد فاراً بأنفته وكبريائه ، أو ناجياً برأسه خشية أن يكون مصيره مصير القاضي ابن أبي عقامة .

وقد ذكر عمارة الفساد الذي حدث بين الوزير والملك ولكنه لم يذكر التاريخ فقال :

« حدثني الشيخ محمد بن اليافعي قال حدثني أبي وجماعة من خواص الوزير خلف أن سبب الفساد الحادث بين الوزير وبين جياش إن الوزير خلف شرب ذات ليلة في داره وغنّاه إبن المصري ـ وكان محسناً ـ قول قيس إبن الرقيات يمدح بني أميّة :

لو كان حولي بني أميــة لم ينـطق رجـال إذا همو نطقـوا
إن جُولِسُـوا لم تضق مجالسهم ، أو ركـبـوا ضاق عنهـم الأفـقُ
تحبّـهـم عوّذُ النسـاء إذا ما أحمـرّ تحت القلانس الحدقُ !

قال فطرب الوزير ، وشرب ، وخلع على من كان في مجلسه وهم ثلاثة عشر رجلاً ثلاث مرات ووصلهم ، ولم يزل يستعيد الصوت ويغنّيه إلى أن أصبح ؛ ونقل المجلس إلى جيّاش فتوهّم منه ، واستوحش خلف فافترقا !

فمن شعره قوله يجيب جيّاشاً حين كتب إليه يستعطفه :

إذا لم تكـن أرضي لعـرضي معـزّة فلسـتُ وان نادت إليّ أجـيـبُـهـا
ولـو إنها كانـت كروضـة جنـةٍ من الـطيب لم يحسن مع الـذل طيبُها
وسرت إلى أرض سواهـا تعـزّني وإن كان لا يعـوي من الجدب ذيبُها »

[ص : ٢٦٧ ـ ٢٦٨]

هذا هو كل ما حدثنا به المؤرخون من أخبار الوزير خلف وشعره وأسباب فساد الحال بينه وبين الملك جيّاش ، ومن الصعب أن نَصدق أن المجلس العابث كان هو السبب الوحيد ؛ فلا بد ان شأن الوزير قد كبر ـ مثل صاحبه ـ بعد القضاء على القوة « الصليحية » واستقلال الدولة النجاحية

بتهامة وخراجها وان المجلس المذكور كان كالقشة التي تقصم ظهر البعير بالنسبة للرجلين ، وربما ان خلفاً قد أظهر خيلاءه واعتزازه بعنصره ونسبه القرشي ، مزدريا حسب جياش الحبشي ، وطغى به ذلك الشعور فتطاول إلى ما هو أكبر من الوزارة .

كما ان أحداً لم يخبرنا متى كان فساد الحال بين الرجلين ، ولكني لا أشك في أن ذلك كان بعد عام ٤٩٠هـ ولعل ذلك حوالي سنة ٤٩٤هـ قبيل وفاة جيّاش بأربع سنوات ، وقد حاول جيّاش استرضاء وزيره ، ولكنه كما تنطق الأبيات رفض وفضل الغربة مع العز على العودة مع الهوان .

ولا ندري هل عاش الوزير بعد الأمير ، أم مات مبعداً قبله ؟ ولكني أرجح انه توفي بعده في مطلع القرن السادس سنة ٥٠٢هـ وقد ناهز الثمانين ربما في « دهلك » أو في مكان ما بالحبشة ، أو في كنف سلطان آخر من سلاطين اليمن حيث لا تطاله كفّ « النجاحيين » ولا سلطة « الصليحيين » .

ولا أخاله قد عاد إلى « زبيد » بعد وفاة « جياش » وما أظنه كان يستطيع العودة ، وقد خلّف جياش عدة أولاد من جوار واماء حبشيات ونساء متضاربات عنصراً وطائفة ؛ فاختلفوا على السلطة وتقاتلوا على تركة موبؤة ، ولجأ بعضهم إلى « الحجوريّين » ، وآخرون إلى « الاشراف » ، والبعض لحق مستعينا بالملكة الصليحية التي كانت تحرّر وصيتها مخلصة لنحلتها ، واهبة كلّما في خزائنها من ذهب وجواهر ولؤلؤ وكنوز لمولاها الامام المختفي ! [وانظر الصليحيين ص : ٣٢٣ - ٣٣٠] .

والأبيات الثلاثة من الشعر الجيّد تصويراً وتعبيراً ، وهي كل ما تبقى لنا من شعر ذلك الوزير الخطير ، وقد استوحينا معها هذا الحديث الذي نظنّه قد طال ، والذي نأمل ان يجد فيه القرّاء « طائلا » .

١٧ ـ السلطان زكَري البحْري
[ت حوالي ٥١٠هـ]

لقب « السلطان »

كثر « السلاطين » في اليمن أثناء ما نسميه العصر العباسي ولا سيما في منتصف عهده الثاني أي بعد إغتيال الملك الصليحي سنة ٤٥٩هـ وحتى غزا السلطان توران شاه اليمن عام ٥٦٩هـ ؛ وعندما نلتزم بهذا اللقب « السلطان » في تراجمنا لبعض من كان منهم عالماً أو شاعراً لا نحسّ طبعا بما نشعر به عندما نسمع اللفظة مقترنة « بهولاكو » أو « محمد الفاتح » ، أو « صلاح الدين » أو أضرابهم ممن اشتهروا بهذا اللّقب ، وأضفتْ عليه أعمالهم هالات من معاني الرهبوت أو القوة والاكبار .

فلم يكن هؤلاء المتسَلْطنين فيَ فترات التمزق الوطني والفوضى الادارية . . سوى مشايخ عشائر قد لا تتجاوز سلطة بعضهم أفراد عائلته أو من يجتمع في « ديوانه » من أتباعه الذين يمثلهم عند من هو أكبر منه شأنا ؛ ويؤيّدونه ضد منافسه ، ويتعاونون معه أو يتآمرون عليه ؛ تبعاً للمصلحة ، وحفاظاً على المعيشة ؛ ولم يكثر فقط من تلقبوا بالسلاطين بل والامراء والملوك والأئمة وسيوف الاسلام وهو ما يذكّر بقول الشاعر :

مما يزهّدني في أرض « أندلس » ألقاب « معتمدٍ » فيها و « معتضد »
أسماء مملكة في غير موضعها. كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد !

ونحن إنما نلتزم أو نحافظ على تلك الألقاب لأن مؤرخينا اليمنيين قد إلتزموا بإيرادها ، وحافظوا عليها ، وبها قدّموهم إلينا ، وعرفونا عليهم ، فأصبحت جزءاً من أسماهم فنقول « السلطان » الحوالي ، أو اليامي ، أو الحجوري ممن سبق الحديث عنهم في السفر الأول ، وان كان لا يمثّل حولاً ولا طولاً . ولا قوّة ولا سلطانا . ولقد رجعت إلى كل المصادر من كتب التاريخ والتراجم والأدب اليمني التي تيسّر لي العثور عليها لأجد أيّ خبر أو حدث عن هذا « السلطان زكري البحري » مما قد يشير إلى أنه كان ذا شأن في بلده أو قبيلته ، يخول له هذا اللقب فلم أظفر بطائل ؛ وليس غير ما ذكره « عمارة » من أنه كان « شاعرا » واتحفنا بنماذج من شعره تثبت مبنى ومعنى ، وفنّا وأسلوبا ، بانه يستحق لقب « الشاعر » حتى ولو لم يكن

يستحق لقب السلطان ؛ أو أنه كان « سلطانا » مجازاً لا حقيقة كما عبّر بعض ظرفاء الفقهاء أواخر العهد الصليحي .

وإذا كنا لم نجد في أخبار هذا السلطان البحري ـ أو على الأصح لم يصل إلينا شيء ـ مما وجدناه في زملائه « الحواليين » من مكر وغدر ، أو الحجوريين من جبروت وفلسفة ، أو « الحاتميين » من دهاء ومعرفة ، فربما نجد في هذا النزر اليسير من شعره وما يفيض به من شاعرية تجبرنا على تقديره كشاعرٍ مجيد من شعراء مجون ولهو واستمتاع ذلك العهد العجيب .

كلما ما بين إيدينا عن هذا « السلطان » الشاعر هو ما تفضل به « عُمارة » في كتابه ونقله عنه « الاصبهاني » في خريدته وهو قوله :

« ومن شعرائهم السلطان زكري بن شُكيل بن عبد الله البحري ؛ بطن من خولان يقال لهم بنو بحر » . ثم أورد ستة مقاطع من شعره تفنّن النسّاخ والناشرون الذين يزعمون التحقيق في تصحيف وتحريف كلماتها وقوافيها مما أتعبنا عندما أردنا قراءتها وضبطها . ولكنها مع ذلك تدل على أنه كان شاعرا أكثر منه سلطانا .

شاعر غزل ولهو :

أفلا يذكّرنا قوله في « العيون » :

يَرمِينَ أفئدةً تفدّيها ولو قتَلَتْ ؛ أيُكرمُ قاتلاً مقتولُ ؟
فقسيّها أجفانُها ، وسهامها حدقاتها ، ولحاظهنّ نصول ،

بقول جرير المشهور :

ان العيونَ التي في طرفها مرضٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا !

وأنه قد باراه وأجاد ، وجرير قمّة عالية من قمم الشعر العربي ؟!

كما أن « خمريته » الحائية تذكرنا بخمريات الأخطل أو أبي نواس ، وتدلّ على انه كان قد انغمس في ملذّات « زبيد » وعاش مجالس لهوها وطربها في العهد النجاحي كما عاش بعده السلطان سليمان الحجوري .

يقول أولاً في الراح :

عدْ إلى الاغتباق والاصطباح وانج في القصف من نصيح ولاح ،
واسقني الراح انها تجلب الرو ح وريحانها إلى الأرواح
قهوة طال عمرها فهي مما عتقتها الدنان للوضّاح
بزلوها ؛ فامتد منها بجوّ الليل نور أغنى عن المصباح
ما يزيل الهموم مثل اصطباح في صباحٍ ، لدى وجوه صباح
وترى الديك كالبعير ، وكالأرض السماوات ؛ أو فأنك صاحِ !

ويتغزّل فيقول :

وارع عينيك في عيون من الغيد . . حلاها نَورٌ كنور اللأقاح
من بني عوهج ؛ منعمة الأطراف ، ريّا الأرداف غرثى الوشاحَ
شفتاها نُقْلي ، وماء ثنا ياها مدامي ، وخدّها تفّاحي
كيف يصحو من سُكْرُهُ من لحاظٍ ورضاب عذب وقدٍّ رداح ؟!

وقد أثبت « عمارة » بيتاً خبيثاً تورّع الاصبهاني فشطبه وهو قوله :

وهو جرم « أبو حنيفة » قد رخّص فيه ؛ فما به من جناح !وهي نفثة من نفثات الشياطين .

وقد تخلّص السلطان زكري الى مدح الملك جيّاش فقال مغرقاً ما شاء له شيطانه النشوان .

قلتُ لما تكنّف الروضةَ الأفراحُ والحسنُ من جميع النواحي
هذه الجنّة التي وعد اللّه ، وما عن نعيمها من براح ؛!
وكأنا فيها اختلسنا نسيماً من سجايا جيّاشٍ بن نجاح !
فهو كان الذي يروقك لا نَو ر رياض ، ولا نسيم أقاحي !
علم المجد ، ذي الفضائل ، فخر الأمةِ المرتضى ، الفتى الجحجاح
غافر الذنب، مسعر الحرب، جالي الكرب، غوث الموتور ، عون المجاح
لفظه في الصحائف السود تغنيه ، وتكفي عن سل بيض الصفاح

***

لماذا لجأ إلى زبيد ؟

لم تحدثنا الكتب عن موطن ولادة ونشأة السّلطان زكري بن شكيل ، ولا لماذا غادر مركز سلطنته أو مشيخة قبيلته والتحق بزبيد ، ومن قول عمارة ان

« البحري » نِسْبَةٌ إلى « بطن من خولان يقال لهم بنو بحر » ، ونحن نعلم أن « بني بحر » إحدى قبائل خولان الشام بمخلاف « صعدة » ؛ نعرف ان بني بحر موطن مولده ونشأته و« بصعدة » مركز المخلاف تأدّب وتمذهب وتثقّف ، ولأسبابٍ لها صلة بالاضطرابات والفوضى التي كانت تعم اليمن في النصف الأخيرً من القرن الخامس الهجري اضطرّ لمغادرة « صعدة » ، واللجوء إلى « جيّاش » في « زبيد » ؛ ولا ندري هل لأنه قد ساهم في الفتن والنزاعات التي نشبت بين « الاشراف » العيانيّين والهادويين ، وصراعات « ذي الشرفين » وأخيه ، والسُّليمانيين ، والحجوريين ، وفتنة الخطبة للمكرّم الصليحي على منبر الامام الهادي بصعدة ، وثورة ابن عبد المجيد الأباضي وما حدث من جرّاء ذلك من مجازر ؟ أم لنزاعات عشائرية وقبلية نشبت بين الربيعيين والسعديّين والأكيليين ، وسائر قبائل « صعدة » وما أكثرها في الجاهلية والاسلام وقديماً وحديثاً ؟

وثمة قصيدة ـ لعلها في الأصل طويلة ـ ولم يتذكّر منها عمارة إلاّ أبياتاً من فاتحتها ، وبضعة أبيات من خاتمتها ، وهو في المطلع يبكي على الأطلال ويشبّب ويصف صاحبته ، وفي الخاتمة يخلص إلى مدح جيّاش ويفضي بما يدل على انّه قد فارق موطنه « صعدة » مضطراً بعد نكبة حلّت به ، فآواه جيّاش واسعفه يقول في المطلع :

كم لا تزال تُسِرُّ وجداً ما سرى ... مزن ، وتسفح ماء عينك ما شرى !
أطللت دمعك للطلول وكِدتَ من ... حُرق الحشا أن لا تخال الأسطرا !
عفّى معالمها الغوادي ، والسواري ، والعواصف ، والأعاصر أعصرا ؛
ولقلّ ما غري القديم بمحدثٍ ... الاّ وأحدث في القديم تغيّرا ؛
فتنكّرت في العين وهي معارف ... في القلب ؛ يكبرُ قدرها أن تُنكرا !
ولقد علقت بها غزالاً أغيداً ... غنج اللحاظ ، أغنّ ، أحوى ، أحورا
أعدى بسقم جفونه قلبي ؛ فلو ... أعدى جفوني مِنةً منه الكرى !
يثنى الصباح بفرعه ليلاً ، ويثنى الليل صبحاً إن بخدٍّ أسفرا

***

ويقول في مدح « جيّاش » :

المشتري حلل الثناء بما حوت ... كفّاه ، والحامي لها أن تُشترى !

والمـوقـد الـنـارين : ناراً للوغى		لا تنـطفىء أبـدا ؛ ونـاراً للقـرى
من كان يمـدح للعـطاء ؛ فانّـني		للفخـر أمـدحـه ، وحسبي مفخـرا
ملك تدارك غُصني الـذّاوي وقـد		عبث الـزمـان به فأصبح مثمـرا

***

فهو ما يكاد يشعر بعزة منصبه وينزه نفسه عن أن يكون ما يكيله لجيّاش من ثناء ومدح إنما هو وسيلة للكسب والعطاء كما يصنع الشعراء حتى سرعان ما يتهالك ويعترف بأن « جيّاشاً » قد تدارك غصنه الذي عبثت به كوارث الدهر فأثمر بعد أن كان ذاويا ، واخضر بعد أن كان يابسا .

هل فرّ من أبيه ؟

على ان ثمـة ثلاثـة أبيات يقـول عمارة انها من قصيدة كتبها إلى أبيه « شُكَيْل » تدلّ على أنـه قد خاصم أبـاه ، واختلف معـه ، ولا شك ان القصيدة التي عاتب بها أباه ، قد كانت قبل فراره والتحاقه بزبيد ولو وصلت إلينا كاملة لعرفنا منها المزيد عن الشاعر السلطان . . والأبيات هي :

قلْ للشّكـيـل وسَلْهُ : ما المعنى بأن		أشقى بها ؛ وأنـا المقيم ببـابهـا ؟
فإذا هوت دلـوي تريـد قليبهـا		جاءت بَجنْـدَ لِها معـاً وتـرابهـا
وإذا بها أدلى سواي بدلـوه		جاءتـه مترعـة إلى اكـرابهـا ؟

***

وهو لا شك يعني بالبئر والقليب السلطنة والجاه ، وكأنه كان أكبر أولاد أبيه « شُكيل » ، وكأن الأب كان يفضل ويقدم عليه أحد اخوانه ، وكثيرا ما يحصل ذلك في كل زمان ومكان ؛ أم أنه قد خرج على أبيه وحاربه أو نازعه في السلطنة أو رئاسة القبيلة لأنه قد اختلف معه رأياً ومذهباً في تلك الفترة التي تضج وتعج بشتى التيّارات المذهبية والسياسية والطائفية ، كما حدث لمعـاصريه « الحجـوريين » و« الحـواليين » و« السليمانيين » وأبنـاء الأئمة « الزيديين » ، وكما سيحدث لمن خلفهم سواء كانوا سلاطين أو ملوكا أو أئمة ، عرباً أو غُزّاً ؛ قحطانيين أو عدنانيين ، في شتى مراحل تاريخ اليمن فرأينا الابن يقتل أباه والأخ يذبح أخته وأخاه وابن العم يتآمر على ابن عمه ؟

وتلك لعمري أسئلة لا نملك الردّ عليها الاّ بعد استقراء الكثير مما لا يزال

محجوباً عنا من كتب التراث اليمني .

أحشاء التاريخ :

وهـل يحقّ لي ـ استـطراداً ـ أن أعـرب عن لســان حالي وأنا أرقم هذه السطور فأنشد :

ياليـتـني فيـهـا جـذعْ أخـبْ فيـهـا وأضَـعْ ؟

وهل يحقّ لي أيضاً أن أتصوّر أن ذلك « الجذع » الشاب القوي سيأتي في يوم من الأيام ويناديني من وراء القرون : ها قد وجدنا الكثير ، وأطلعنا على ما لم تطلع عليه ؟ وهل يحقّ لي أن أقول ان احشاء التاريخ المظلمة السحيقة مزدحمة بشتى الحشرات السامة ، والديدان القذرة ، والوحوش المسعورة ؛ من أكـاذيب وسخافات وأباطيل وأحقاد ، ومن أوهام وتعصّبات ، وإفك واختلافات ، وعلى من يريد أن يرحل في تلك الاحشاء المظلمة أن يتزوّد بكل أسلحة العقل المطبوع منه والمسموع ، من تجرّد ، وعلم ، وشجاعة ، ولا يُلقَّى تلك الوسائل الّا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ، فالنفس الأمّـارة كثيرا ما تطغى ، والشيطان بالمرصاد ، ولقد رحلتُ هذه الرحلة الاستكشافية الأولى في أشد فترات تاريخ اليمن الفكري والثقافي ظلمة ، ولن أجبن أو اخجل إذا اعترفت ان وسائلي من العلم والتجرّد لم تكن كافية ، مثلما كانت ـ ولله الحمد ـ وسائلي من الشجاعة والمثابرة والاجتهاد .

إندماجه مع المجتمع النجاحي :

ومهـما يكن من أمر شاعرنا السلطان الذي جرجرنا إلى احشاء التاريخ ومهما كانت الأسباب والدواعي التي دفعته إلى الهجرة إلى « زبيد » والتحاقه بالـدولـة النجـاحية الثـانية ، فلا يخامـرني الشـك ان المقام بزبيد بجوار « جيّاش » ومماليكه ووزيره التغلبي الشاعر ، والجو الاجتماعي الذي يضج بالجواري والقيان ومجالس اللهو الطرب قد طاب له وراق وانسجم مع مزاجه الشعري الماجن ، وحرية نفثاته عن الخمر والجنة وأبي حنيفة ، وقوله :

أن ترى الـديـك كالبعـير وكـالأرض السماوات ؛ أو . . فأنك صاحي !

وهو ما لا يستطيع أن يمارس ذلك يومئذٍ في صعدة ، وبنفس الصراحة والأسلوب ؛ لأن « المجتمع النجاحي » كان قائماً على استغلال الرعايا من

تجار وفلاحين ، وعلى القرصنة في البحر الأحمر وتنقّل الحكام ما بين « دهلك » وزبيد شتاءً وصيفاً كما سبق ، وكان من بعض خراج جزيرة دهلك لملك زبيد سنوياً ألف راس من الرقيق منها خمسمائة وصيفة ، ومنها خمسمائة وصيف من النوبة والحبش ؛ فماذا ترى كان سيجد « الشاعر السلطان » في بني بحر جوار مسجد الامام الهادي ؟!

ولقد كان أحيانا يشعر بمركزه فيقول مفتخرا :

ان تحسبوني من أجناسكم رجلاً ... فالمندل المصطفى نوعٍ من الخشب ؛
أنّي تحيلون فضلي عن معادنه ... متى استحال نحاساً معدن الذهب؟
والدين والخيم والعلياء تعرفني ... أجزي بغدرٍ وفاء المنعم الحدب

وله من قصيدة يمدح جيّاشاً :

عظيم يهول الأعظمون لعزه ... فمطلبه من كل أمر عظيمُهُ
تأخر من جاراه في حلبة العلى ، ... وقدّمه إقدامه وقديمُه
كتائبه قبل الكتائب كُتْبُهُ ... ويغنيك عن بطش الهزبر رنيمه
فلولاه لم يثبت على الحمد حاؤه ، ... ولا وصلت يوماً إلى الدال ميمه !
يبيح لعافيه كرائم ماله ... ويمنع من ان يستباح حريمُه ،
وأحيى بلطف الرأي منه ومعظم العطايا رجائي فاستقلّ رميمه

***

والسلطان زكري بن شكيل بالبيت الأخير يؤكّد فضل جيّاش عليه ؛ ولا ندري متى كانت وفاته وأين ولعلها عام ٥١٠هـ بعد وفاة جياش ، وجودة شعره تذكرنا باسلافه من شعراء خولان صعدة ، وسائر شعراء شام اليمن ، أمثال محمد بن ابان ، وعمرو بن زيد ، وأحمد بن عبد الله الأكيلي وغيرهم(١) .

١٨ ـ سليمان المفضل
[ت حوالي ٥٥٠هـ]

من قضاة الشعراء ، وشعراء القضاة ، سليمان بن المفضل ، ويقول عمارة

(١) كلّما قلناه عن هذا السلطان لا يستند إلى مصدر ومن قبيل الحدس والظن .

إنه ولي الحكم ـ أي القضاء ـ في عدن ـ ولكنه لم يحدثنا في عهد مَن من حكام وأمراء عدن ، وأورد له قوله :

عاط النديم زجاجة بيضاءَ ودع العذول ، وألغِه إلغاءَ
بكرٌ وقد نكحت بفَضّ ختامها ؛ فاشرب بها منكوحةً عذراءَ
عيسى المسيح أحلَّها ، ومحمدٌ يأبى ؛ أأحسنَ ذا وذاك أساءَ ؟

والبيت الثالث يجاري فيه تلك السخافة التي يزعمون إنها من شعر أبي العلاء في الأبيات المشهورة :

في اللاذقية ضجةٌ ما بين أحمد والمسيحْ

. . . الخ

وفي أصقاع الجزيرة لحنٌ انتشر بين الخاصة والعامة ومن قصيدته الميمية هذا البيت السائر :

فأن حرّمت يوماً على دين أحمدٍ فخذها على دين المسيح إبن مريم !

وقد قال عمارة إن قصيدة القاضي سليمان التي منها الأبيات « عاطِ النديم » مما قاله أيام الحداثة

وإذا كان عمارة لم يشر إلى موطن « سليمان » ولا ذكر تاريخ ولادته أو وفاته كعادته مع معظم من تعرض لهم في كتابه الذي يكاد أن يكون سيرة شخصية فاننا من قول القاضي سليمان

أصبحت لا أرهبُ الأيام والنّوبا لأنّي جار « منصور » وجار « سبأ »
فإن سطوتُ على الأيام مقتدراً ، أو ارتقيت إلى الشعري فلا عجبا !
فقل لمن رام كيدي أو معاندتي : أقصر ؛ ففي تعب من عاند الشهبا

نعلم إنه قد عنى بمنصور ، السلطان منصور بن المفضل بن أبي البركات الذي أمر أمرهُ بعد وفاة الملكة السيدة [وتوفي سنة ٥٥٢هـ] وقصد بسبأ ، الداعي سبأ ابن أبي السعود الزريعي ملك عدن المتوفي عام ٥٣٣هـ ؛ وبهذا نعرف إنه ولد ونشأ في الجنوب وظل متنقلا ما بين جبلة وتعز وعدن ، وتولى القضاء أيام الداعي سبأ الزريعي ولحق بأيام إبنه الداعي محمد بن سبأ ، وربما أدركه عمارة في أولى رحلاته إلى عدن ، ولعله توفي حوالي عام ٥٥٠هـ . . وهذا الاستنتاج يصدق الكلمة المشهورة : « الشعر ديوان

العـرب » فهو جماع لغاتها وتاريخ آدابها وسجل علومها الدينية والجغرافية وسائر معارفها . ولولا ذكر « سبأ » ما عرفنا متى عاش الشاعر ؛ وفي مخطوطة « الخريدة » سماه سليمان بن الحكم .

١٩ ـ سليمان بن شافع الحارثي
[حوالي ٥٣٠هـ]

يقول العماد الاصبهاني في « الخريدة » ـ مخطوطة دار الكتب ـ إن سليمان الحارثي من تهامة اليمن ، وإن عمارة اليمني ذكره في تصنيف له عن شعراء اليمن ؛ ولكن الأسم والشعر الذي نسب إليه غير موجود في « مفيد » عمارة المطبوع ، وهذا يدل على إن نسخ « المفيد » متعددة ، أو أن ثمة مصنف آخر لعمارة عن شعراء اليمن أطلع عليه العماد الذي نقل عنه إن الشاعر سليمان بن شافع قدم في وفدٍ على علي بن زيدان الحكمي والد عمارة يستعينه في دية قتيل فوجده مريضاً فقال :

إذا أودى ابـن زيـدانٍ عليّ ، فلا طلعـت نجـومـك يا سماء ؛
ولا أشتمـل النسـاء على جنين ، ولا روّى الثـرى للسحب ماء ،
على الـدنيـا وسـاكنهـا جميعـاً إذا أودى أبـو الحسـن العفـاء !

والصورة الشعرية تمثل المدى السحيق الذي ينحدر إلى أحشائه ، وقراره المظلم ، المحتاج المضطر ويؤكد البيت المشهور :

صاحـب الحـاجـة أعـمـى لا يـرى إلا قضـاهـا

ولعله من شعراء النصف الثاني من القرن الخامس وتوفي في الثلث الأول من القرن السادس والله أعلم .

٢٠ ـ السّليف الحكمي
[حوالي ٥٥٥هـ]

وحـدثنـا عمارة حديثاً مقتضبـاً عن شاعـر من بلدتـه « حَكم » اسمه « السّليف » ويظهر إنه كان من معاصريه ، وقال إنه لا يحفظ له إلا قوله :

أحمـائم الأثـلاث من وادي الحمى انـتـنّ هيّـجتنَ صبّـا مغـرمـا ؛

حالي الغداة كحالكنّ مع البكا .. جزعا ؛ ولكن لا أرى دَمعا همى !
إن الحمام إذا تغنّى شاقني ويزيدني شوقاً إلى ذات اللّمى ،

ولا ندري سنة مولده ولا عام وفاته ولعل السليف عندما هاجر عمارة إلى مصر سنة ٥٥٢هـ كان لا يزال على قيد الحياة . وقد ذكره أيضاً صاحب « الخريدة » .

٢١ ـ عبد الله الحرازي
[٥٦٠هـ]

ومن الشعراء الذين عاصرهم « عمارة » وذكرهم في « مفيده » عبد الله إبن أبي الفتوح الحرازي ، وقال إنه إجتمع به مراراً في زبيد ثم في « الكدراء » عند القائد إسحاق بن مرزوق السحرتي وهو القائل :

أنالتكَ أيام الزمان المطالبا ، وأعلتكَ أبراج النجوم المناكبا ،
وصاغت لك الأفلاك في دورانها لبانات مجدودٍ ، وساقتْ مأربا
فكنْ واهباً للنيرين رَدَافَةً ودع عنك أملاك البرية جانبا

ولم يذكر فيمن قال « الحرازي » هذه الأبيات .. ونظن أنها مطلع قصيدة طويلة مدح بها الملك علي بن مهدي الحميري ، وإن الشاعر قد كان من قواده وأنصاره لما غزا زبيد وقضى على دولة الأحباش وعبيدهم فيها عام ٥٥٤هـ ، وعمارة في مصر يتسقط أخبار اليمن من أفواه المسافرين . نعرف ذلك أولا من قول عمارة عنه : « وهو في نفسه ذو رياسة وحسب في قومه وبلاده . وملوك بني مهدي تبجّله ، وتعظم صلته إذا وفد عليها » .

وثانياً من قول الحرازي :

فكنْ واهباً للنيّرين رَدَافةً ودع عنك أملاك البرية جانبا

والنيران هنا هما ولدا الملك علي بن مهدي اللذان كانا رديفيه بعد وفاته ؛ الملك مهدي بن علي ، والملك عبد النبي ، وقد سبق ذكرهما وذكر والدهما وشاعرهم « ابن الهُبَيني » .

والردافة لغةً : كالخلافة ، وأَرداف الملوك هم الذين يخلفونهم في القيام بأمر شئون الدولة ، واحدهم ردف ؛ والاسم الردافة .

وقد لقبهما بالنيّرين وأما ابن الهُبَيْني فقد قال فيهما بعد وفاة والدهما :

سير الأمام ؛ قديمها وحديثها فرح القلوب وروضة المتنزه
أشهى من الماء الزّلال على الظما وألذّ من عصر الشباب الأموه
فاليوم نجنح للخليفة بعده بالقائمين الهاديين النزّه
« سبطيه » ، قطبيه الذين إليهما شرف الخلافة والأمامة تنتهي

إلى آخر ما سبق ذكره . ولعل الشاعر الحرازي لم يشهد مصرع الملك عبد النبي عام ٥٦٩هـ ، وإنه توفي حوالي ٥٦٠هـ بعد وفاة الملك مهدي بن علي عام ٥٥٨هـ أو نحو ذلك والله أعلم .

٢٢ ـ عبد الله بن علي بن أبي عقامة [ت حوالي : ٥٢٥هـ]

سبق الحديث عن آل « بني عقامة » ورياستهم المتأثلة ونحن نتحدث عن الحسن بن أبي عقامة ؛ وقد اشتبكت أسماؤهم وتشابهت مما يُصَعِّب تمييزها . ولا سيما ولا تواريخ تحدّد الميلاد والوفاة ، ويقول عمارة وهو يتحدث عن هذه الأسرة العريقة في القضاء والشعر والتأليف .

« ومنهم القاضي أبو محمد عبد الله بن علي بن أبي عقامة والد محمد الحفائلي ، وكان شاعراً مجيداً ، ولا أحفظ إلّا قوله :

ما لهذا الوفاء في الناس كلّا ؟ أتراهم جفوهُ حتى استقلّا ؟

ومن ترسّله قوله في القاضي أبي حامد بن أبي عقامة إبن عمه ، وقد شجرت بينهما منافسات على الحكم قوله : « سلِ عني قومَكَ ونفسك ، ويومكَ وأمسك ، تجدني معظماً في النفوس ، قاعداً على قمم الرؤوس » .

ولم يشر إلى تاريخ وفاته ولكنه في طبقةِ والد عمارة ؛ نعرف ذلك من قوله وهو يترجم لابنه « محمد الحفائلي » : « وممن عاصرته وعاشرته وكاثرته من بني أبي عقامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله » . . وستأتي ترجمته ، فقد كان كأبيه شاعراً مجيداً ، ولعلّ وفاته في أواخر عهد المماليك النجاحيين عام ٥٢٥هـ أو حواليها ، وكان إبنه « الحفائلي » من رفقاء عمارة وابن عمه عثمان .

٢٣ ـ عثمان بن أبي الفتوح بن أبي عقامة
[حوالي : ٥٥٤هـ]

القاضي الشاعر الرئيس عثمان بن أبي الفتوح بن علي بن محمد بن علي بن أبي عقامة استطرد ذكره عمارة وهو يتحدث عن الحسن بن أبي عقامة الذي قتله جياش وسبقت ترجمته فقال « ثم انتقلت رئاسة البيت حكما وعلما ـ أي بعد قتل الحسن ـ إلى القاضي الأجل أبي الفتوح بن علي ، واحد عصره وشيخ دهره قياماً بالعلم » وذكر إنه صنّف كتباً في « المذهب والخلاف » لم يتفقّه أحد بعد تصنيفها الاّ منها » . . ثم قال عن « عثمان » إبنه : « ومن شعراء اليمن المجيدين المكثرين في كل فن ولدُ لهذا أبي الفتوح . وقال إنه ولي القضاء في الأعمال المصاقبة لزبيد مثل حيس وفشال وإنه كان جواداً مدّاحاً ممدَّحاً ، يخلع على الشعراء ويغنيهم ، وفيه يقول القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحباب المصري حين قدم اليمن من قصيدة وكانت بينهما صداقة ومودة :

أبني عقامة لست مقتصدا ... في وصفكم بالمدح ما عشتُ
علقتْ يدي منكم بحبل فتىً ... ما في مرائر ودّه أمتُ

ومن شعره قوله في رُزَيق الفاتكي :

نفسي إليك كثيرة الأنفاس ... لولا مقاساة الزمان القاسي

وكأن عمارة لم يكن يحتفظ بالكثير من شعره بل يتذكر الأبيات والمطالع ، ولذلك أشار إلى قصيدة له مطلعها : « بأيّ المعاني من كتابك أكلفُ » ثم ذكر ان منها في الفخر مع التضمين :

أصِغْ أذُناً ، وانظر بعينك هل ترى ... من الناس إلاّ من عقامة تردفُ
« ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا »

ثم قال : « ومن مراثيه قوله في أهله وقد زار مقابرهم بالعِرق :

ياصاح ؛ قف بالعرق وقفة معولِ ... وإنزل هناك فثمّ أكرم منزل ،
نزلت به الشمّ البواذخ بعدما ... لحظتُهم الجوزاء لحظة أسفلِ
أخواي ، والولد العزيز ووالدي ... ياحطم رمحي عند ذاك ومنصلي
هل كان في اليمن المبارك قبلنا ... أحدٌ يقيم صغا الكلام الأميل ؟

حتـى أنـار الـلـه سدفـة أهـلـه بـبني عقـامـة بعـد ليـل أليـل
لا خير في قول امـرىء متمـدّح لكن طغى قلبي ، وأفـرط مقـولي

***

والعماد الاصفهاني لم يزد في « خريدته » شيئاً على ما أورده « عمارة » ، ولم يحدثنا أيّ منهم عن سنة وفاته أو ولادته ، لكن قول عمارة إنه قد مدح الوزير الفـاتكي بقصيدة سينية يدل على إنه من أعلام النصف الأول من القرن السادس الهجري وأنه من معاصري عمارة ، وأبي بكر اليافعي والعندي ؛ لأن رُزيق الفاتكي تولى الوزارة لفاتك بن منصور النجاحي عام ٥٢٤هـ كما يقول عمارة أو ٥٣٣هـ كما في السلوك ، ورزيق هو الوزير الذي تناسخت فريضتـه وفـريضـة من مات من أولاده وأحفـاده قبل قسمتها ، وانتشرت واتسعت ، حتى لم يقدر العلماء على قسمتها إلى أن حدث ما حكاه عمارة سنة ٥٣٩هـ من التقائه بالشيخ الحضرمي الحاسب ، وكان ما سبق إيراده ونحن نتحدث عن « عمارة الفرضى » .

فلعل عثمان بن أبي الفتوح أدرك قيام الملك علي بن مهدي سنة ٥٥٤هـ ، ويؤكـد ذلك إن أبا المعالي عبد العزيز بن الحباب المصري قد مدحه وكان بينهما صداقة ومودة ، ولعل أبا المعالي كان قد رافق صديقه القاضـي الرشيد الـذي انتُـدب من مصر عام ٥٣٤هـ لتقليد الدعوة المجيدية الاسماعيلية القائم من آل زريع بعدن ، وكانت له جولات أدبية وعلمية في زبيد وصنعاء .

وإذا كان والـده قد ورث رياسـة البيت العقامي التغلبي بعد أن قتل جياش القاضـي الحسن بن أبي عقامة سنة ٤٨٤هـ كما سبق فلماذا لا يكون القاضـي عثمان قد ورثها بعد وفاة والده واستمر إلى حوالي عام ٥٥٤هـ أو بعد ذلك رئيساً ممدّحاً يجزل العطاء للشعراء !

وقول عمارة إنه كان « من شعراء اليمن المجيدين المكثرين في كل فن » ؛ ونحن لا نجد من آثاره إلّا الأبيات التي رواها عمارة مما ظل عالقاً بحافظته ، يؤكد أن معظم أشعار ومؤلفات وآثار تلك الفترة قد تلف وضاع . وربما إن البعض منه لا يزال موؤداً في مكاتب « زبيد » و« المراوعة » الخاصة أو في خزائن وأقبية مساجدها .

وعندما نستمع إلى عمارة وهو يتحدث عن الوزير الشيخ منّ الله الفاتكي ويقول : « وكان يثيب على المدح ثواباً جزيلاً حتى قال الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي السهامي وكان يؤدّب أولاد الوزير منّ الله قال : أذكر أني جلّدت مما مدح به القائد الوزير عشرة أجزاء كبار من شعر المجيدين المشهورين » ندرك إن ما فاتنا وما لم نطلع عليه من شعر شعراء تلك الفترة كثير جداً ، وقد سبق أن أوردنا قصة الوزير منّ الله ونهايته الرهيبة على يد الحرة أم أبي الجيش عام ٥٢٤هـ أو ٥٣٣هـ . كما يؤكد الخزرجي في السلوك .

ولا يُقَعْقِعُ معترضٌ بشِنانه ، ويقول وماذا خسر الأدب من ضياع عشرة أجزاء في مدح وزير أو أمير !؟ فقد رأينا أن أجمل وأبدع ما نقل عن فحول الشعراء العرب ومنهم أبو تمام والبحتري والمتنبي من وصف وغزل وحكمة وحماسة ، ووجدان كان في قصائد المدح التي أنشأوها في « المعتصم » أو « المتوكل » أو « سيف الدولة » أو « كافور » ، أو غيرهم من الملوك والوزراء .

وقد كان الشعراء يتخذون من قصائد المدح والرثاء وسيلة للتعبير عما يريدون البوح به مما يقاسونه أو يكابدونه ، أو يحسّونه وينطوون عليه من آراء ومشاعر عن كل ما في الكون والحياة ، ولا يتخلّصون إلى الممدوح إلا بعد أن يعربوا عما يريدون ، وفي شتى الشئون والفنون .

٢٤ ـ علي بن أبي الحسين الحكمي
[عاش عام ٥٥٠هـ]

والأسر الشاعرة :

في اليمن ـ قديماً وحديثاً ـ أسر وبيوتات أشتهرت بتوارث الشعر والفصاحة ؛ وقلّ أن يمر عصر لا ينبغ فيه منهم شاعر أو أديب ؛ وقد أشاد بذلك النقاد والمؤرخون ، ومنهم في الفترة التي تؤرّخ لها آل حاتم ، والحمزات وآل يحيى بن يحيى والسليمانيين والأنف ، وجاء بعدهم بنو العنسي والأنسي ، والأرياني والحضراني والكبسي وآل الأمير ، والوزير ، وإسحاق ، وحجاف ، والشامي ، وشرف الدين ، والشماحي ، والزبيري ، وغيرهم .

والتوارث الشعري معروف عند العرب تحدث عنه مشايخ الأدب ومن أُسَرِه آل « زهير» و« الحميري » و« حسان » و« آل أبي طالب » .

وكما قد ذكر عمارة « بني عقامة » ، وعدّد بعض شعرائهم فقد ذكر آله الذين ينتمي إليهم فقال :

« ومن الشعراء المشهورين بالجودة « الحكميون » آل أبي الحسن وهم الشيخ أبو الحسن وأخوه محمد الأعوج ، ومنهم علي بن أبي الحسين وهو أشعرهم ، بل أشعر عرب تهامة ، وأنا أعرفه ورعاً ، ديّناً ، جواداً ممدحاً مقصوداً في منزله ، وأما عمه الأعوج فكان كذّاحاً مدّاحاً لا يصحو حتى يقتفي ، ولم يحضرني من شعره شيء مع كثرة ذلك باليمن » [ص ٢٩٤] .

كما أنه أشار وهو يتحدث عن مبدأ نشأة الملك علي محمد الصليحي إلى الفقيه أبي الحسين علي بن سليمان وقال إنه « كان شاعرا قد أسنّ ، ومن شعره قوله في عمر بن عدنان العكي :

إذا الليالي أساءت غير عالمةٍ ... كان بن عدنان لي من جورها جارا

وإنه القائل يذم قومه في قصيدة :

فمن يشتري عكاً بفلس فاني ... جميعاً على قطع الخيار أبيعها

ولا أدري هل هو من « الحكميين أم لا ؛ وعلى كل فأشعار هؤلاء مثل أشعار بني عقامة وجل شعراء اليمن إلى ما قبل القرن الثامن ما بين مشتت أو موؤد أو ضائع ، ونظن أن معظمه قد أكلته الآفات ، وأبادته الكوارث ، ولا أمل في إمكان العثور عليه ، ولا نملك إلّا أن نذرف الدمع على قبر كنزه المجهول . وندعو القادرين من ذوي الهمم إلى محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه ، واستحياء ما يستروح نسائم العودة بعد طول غياب .

٢٥ ـ علي بن محمد الماربي
[حوالي ٥٦٩هـ]

الشاعر بن الشاعر علي بن محمد بن زياد الماربي قال عمارة إن من شعره قوله :

خَلَتِ « الـرعارعُ » من بني المسعودِ ... فعهـودهم فيهـا كغير عهود ؛ !
حلّت بها آل « الـزّرَيـع » ؛ وإنـما ... حلّت أسـود في مكـان أسـودِ ؛

وهو من شعراء الدولة الزريعيّة المعاصرين لعمارة ، ويظهر إنه كان عف اللسان ، فهو لا يشمت بقوم حلّ محلهم آخرون ، ويعلّل ذلك تعليلاً حسنا كما في البيتين ؛ ووقف نفس الموقف لما ابتاع الداعي محمد بن سبأ من الأمير منصور بن المفضل جميع المعاقل التي كانت لبني الصليحي ومنها مدينة ذي جبلة سنة ٥٤٧هـ فقد قال قصيدة يخاطب بها الداعي الزريعي ومنها :

بذي جبلة شوق إليـك ؛ وإنما ... لتظهرُ للشيخ الذي ليس تضمرُ !
عوائد للغيد الغواني بأنّما ... من الشيخ نحو ابن الثلاثين تنفر ،

ولم يذكر عمارة سنة وفاته ولعله شهد مطلع العهد الأيوبي سنة ٥٦٩هـ إن لم يكن ممن اجتثتهم مناجل آل مهدي قبل ذلك .

٢٦ ـ عمارة الحكمي
[٥١٥ ـ ٥٦٩هـ]

نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي بن محمد بن زيدان الشاعر القاضي الفقيه الفرضي المؤرخ السفير الرحّالة ، ذو المواهب المتعدّدة ، والذي لا أعرف بين شعراء العرب من لقّب بعدّة ألقاب ، ونسب إلى شتى الصفات والحرف والبقاع مثله :

وقد ذاع صيته ، وانتشر ذكره في حياته وبعد مماته ، وتُرجمت آثارة إلى كثير من اللغات ، وتَرجَمْ له مشاهير علماء الاسلام وأدباء العرب ، وكان أقدمهم معاصره العماد الكاتب الاصفهاني في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » وموجز حياته كما يلي :

١ ـ ولد سنة ٥١٥هـ من أسرة كريمة في « الزرائب » من منازل قبيلة « حَكَم » بالمخلاف السليماني وكان يعرف عند أهل بلده بعمارة « الحدقي » ولعلّه لقب الأسرة ، أو نبز مكتبي .

٢ ـ هاجر لطلب العلم إلى « زبيد » سنة ٥٣١هـ وفيها عرف بالقاضي عمارة ، ولعلّه لقب تشريف ؛ ثم سموه « عمارة الفرضي » ؛ أما أهل

عدن وجبلة وصنعاء فقد عُرِف لديهم بعمارة « الفقيه » ثم عمارة الشاعر .

٣ ـ عندما هاجر إلى مكة حاجاً ومبتعداً وفاراً من حسد فقهاء زبيد ومكائدهم سنة ٥٤٨هـ عرف باسم « عمارة الحَكَمي » وعندما سيّره أمير مكة قاسم بن هاشم سفيراً له إلى مصر سنة ٥٤٩هـ عرف عند المصريين والفاطميين باسم « عمارة اليمني » وبهذه الألقاب تحدّث عنه المؤرخون قديماً وحديثاً .

٤ ـ وأقام في مصر حوالي عام ، ثم عاد إلى مكة واليمن ؛ وفي سنة ٥٥١هـ حجّ ثانية فأرسله أمير مكة ثانيةً سفيراً له إلى الخليفة الفاطمي عام ٥٥٢هـ ، فاستوطن مصر ولم يفارقها الّا إلى لقاء ربّه شنقاً بأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي في شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ .

حياة قصيرة لكنها عريضة :

لقد كانت حياة عمارة حافلة بالجليلِ من الأمور والخطير من الأحداث ، عاشها في دراسةٍ وجد يافعاً ، وتاجراً ورحالةً شاباً ، ثم اختلط بالوزراء والملوك والسلاطين ، ونافسه على ذلك أترابه وأنداده من الفقهاء والأدباء والشعراء ، واكتوى بنيران الحسد توجّجها مكائد قصور الحكام ، والوزراء ، في كل من عدن وجبلة ، وزبيد ، ومكة ، والقاهرة ، على اختلاف عقائد ومذاهب وأمزجة أرباب تلك القصور وأصحاب الحول والطول فيها ، ولكنه بلباقته وذكائه ، وتوقد ذهنه وإتساع معارفه ، استطاع أن يكتسب إحترام الجميع فقيهاً وتاجراً وشاعراً ،وخطيباً بل ونديماً ومعاشراً ، ! وكسب من كل ذلك جاهاً ومالاً وشهرة ومكانة ، حتى وقع فيما أغراه به وفاؤه للمحسنين إليه من « الفاطميين » ، مع أنه عمارة السني الشافعي المذهب فأمر السلطان صلاح الدين بإعدامه شنقا ولما يتجاوز الرابعة والخمسين . ومن يدري ؟ فلعل ثمة أسباب شخصية قد حركت ذلك الوفاء النادر !

رائد المؤرخين اليمنيين

يُعد عمارة رائد المؤرخين اليمنيين سياسياً وأدبياً ؛ وهو فيما أعلم أول من

تصدّى لتأليف تاريخ عام عن اليمن[1] لا يهتم بأمجاد الماضي والعهود الغابرة ، بل يتناول تاريخها الاسلامي بعد أن تحوّلت من إيالة تابعة لمركز الخلافة الاسلامية في الحجاز أو الشام أو العراق ، وبدأت تتكون فيها الدويلات الوطنية ، أو التابعة للمذاهب المتصارعة على السلطة في ساحة العالم الاسلامي من سنّيين وشيعة وخوارج وقرامطة .

وما عهدنا المؤرخين قبله منذ عبيد بن شرية ، ووهب ابن منبه ، ومروراً بالكشوري والهمداني ونشوان إلّا يتحدّثون عن جرهم ومعين وسبأ وحمير ، وكذلك لم نجد قبله عند العلوي وابن يعقوب الهمداني والربعي ، إلّا الحديث عن سير الأئمة وأخبارهم وحروبهم وفضائلهم .

فعمارة الحكمي هو أول من حاول التعريف باليمن في تاريخ عام ، وأول من تصدى للحديث عن شعرائها في كتاب ، وكل من جاء بعده يدينون له بكل ما وصلوا إليه من معرفة عن اليمن ولا سيما في الفترة التي أهتم بها وهي لا تقل عن ثلاثة قرون .

مذهب عمارة

ولا يهمنا في هذا الفصل أن نردّد ما قاله عنه « العماد » في خريدته ، أو إبن خلكان في وفياته ، أو غيرهما قدامى ومحدثون من ثناء على نبوغه وإطراء لشعره ، وإشادة بفضله فكل ذلك معروف مشهور ؛ كما إن عمارة نفسه قد تحدّث في شتى المناسبات عما مارسه وزاوله من أحداث في كتابه « النكت العصرية » وتاريخه « المفيد » .

ولعلّ الكثير سينتظرون إبداء الرأي في عقيدة الشاعر عمارة ، والتحدث عن مذهبه ، وموقفه من الدول الاسماعيلية التي عايشها في اليمن ومصر ، ودولة النجاحيين والأشراف وآراء « إبن مهدي » التي لا تخرج عن دائرة التطرف الخارجي في بعض تشريعاتها .

لقد ولد ونشأ في بيئة علم وصلاح ؛ محيطها سني شافعي ، ولكنه أيضاً ذكر أنه قد لازم وتتلمذ لاستاذه علي بن مهدي الحميري وانقطع إليه لمدة سنة ، وإنه لم يقطع زيارته الشهرية له إلّا لما استفحل أمره خوفا من أهل

(١) تبينّ لنا ان مسلم اللحجي قد ألف قبله ولكن كتابه لا يزال مفقودا .

زبيد ، كما إنه قد خالط وإندمج إندماج الخل والصديق بمشايخ ووزراء وسلاطين الصليحيين والزريعيين ، وامتزج بأشراف مكة « الزيديين » وكان سفير أميرهم والمتحدث عنهم لدى الخليفة الفاطمي بالقاهرة ، ثم جالس وعاشر الفاطميين في مصر حوالي سبعة عشر عاماً فماذا كان تأثير كل ذلك في عقيدته وأفكاره ؟ ، وأيّ نحلة انتحل ، وهل دان بمذهب من مذاهب تلك الدول لا يلتئم مع تعاليم المذهب الشافعي الذي هو مذهب بيئته الأولى ، ومذهب أسرته وعشيرته في المخلاف السليماني ؟

هل ظلّ « فقيهاً سنياً » كما تعود الناس أن يسموه في زبيد وعدن وصنعاء ؟ أم إنه قد تحول إلى اسماعيلي شيعي بعدما انتقل إلى « مصر » وأكرمه الخلفاء الفاطميون ووزرائهم ، وكان ذلك التحول هو دافع وفائه لدولتهم وتآمره على السلطان صلاح الدين من أجل استعادة الحكم لسلالتهم ؟ وهل حقاً كاتب « الصليبيين » واستعان بهم ليتمكن من القضاء على الايوبيين في سبيل وفائه للفاطميين ؛ وبتلك التهمة شنقه صلاح الدين ؛ أم إنه كان زنديقاً كما زعم بعض الفقهاء المصريين ؟ أم كان حنيفا مسلما صحيح العقيدة ولكن ما أنعم الله به عليه من فضائل التفوق والألمعية والوجاهة والعلم قد أثار عليه الحسد والحقد في نفوس أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله منْ فضله في كل زمان ومكان ؟!

لقد اختلف المؤرخون في شأن عمارة ؛ فأمّا من يعرفه من اليمنيين والذين عاشروه في زبيد وجبلة وعدن ، ثم في مكة والمدينة ، وقرأوا أشعاره في « النجاحيين » و « الصليحيين » و « الزريعيين » و « الأشراف » فهم مجمعون على إنه كان سليم العقيدة ؛ ولم يكن اسماعيلياً ولا باطنياً ولا خارجياً ؛ وكانوا يسمونه عمارة السني والفرضي والفقيه ، وإذا كانوا قد اختلفوا معه في شئون سياسية ، ونقم عليه سلاطين « زبيد » صلاته بخصومهم في « جبلة » أو « عدن » فلم يشك أيٌّ منهم في تمسكه بمذهب الامام الشافعي ، أو على الأقل لم نسمع بأن شيئاً من ذلك قد كان . ثم انه مكث في مكة مجاوراً وكان شريفها وأميرها « زيدياً » ولا غلوّ في التشيّع الزيدي ؛ ومبادىء أصول الزيدية الكلامية والعقيدية تخالف أشد المخالفة مبادىء الاسماعيلية بل ويكفر بعضهم بعضا ، وقد استطاع أن يكسب عطف وإحترام أهل الحرمين الشريفين بمواعظه وخطبه ، ومجالسه العلمية ،

فقد روه وقرّبوه وعظموه ، وأخيراً اختاره الشريف الأمير سفيرا له إلى مصر . وأما غيرهم فقد اتهموه « بالسّمْعَلَة » ولكلٍّ دليله من شعر عمارة .

نعم ؛ اختلف المؤرخون ، وتضاربت آراؤهم وأقوالهم في الشاعر الحكمي ؛ فمنهم من قال إنه لم يكن اسماعيليا واستدل بقوله من قصيدة طويلة يخاطب السلطان صلاح الدين ويذكر مكارم الخلفاء الفاطميين ووزرائهم عنده وأفضالهم عليه .

مذاهبهم في الجود مذهبُ سنةٍ ... وان خالفوني في اعتقاد التشيعِ

وقوله من نفس القصيدة يذكر مذهبه الشافعي وتعصّبه له :

فان كنتَ ترعى الناس للفقه وحده ... فمنه طرازي بل لثامي وبرقعي
ألم ترعني للشافعي ؛ وأنتمُ ... أجلّ شفيعٍ عند أعلى مشفّع
ونصرى له في حيث لا أنت ناصرٌ ... بضرب صقيلاتٍ ، ولا طعن مُشرع
ليالي لا فقه العراق بسجسج ... بمصر ، ولا ريح الشأم بزعزع
كأني بها من آل فرعون مؤمنٌ ... أصارع عن ديني ، وإن حان مصرعي !

***

ويستدلّ هؤلاء أيضاً بمحاوراته مع علماء وفقهاء الفاطميين الذين كان يتجادل معهم ويناقشهم في شتى المواضيع الدينية والفقهية ملتزماً مبادىء أهل السنة وإليها أشار بالأبيات العينية .

ويذكرون محاولة الملك الصالح وزير الخليفة الفائز إغراء عمارة بالمال والجاه لكي يعتنق مذهبهم الاسماعيلي وإنه كتب إليه أبياتا بخطه ومعها ثلاثة أكياس ذهباً وفيها يقول :

قل للفقيه عمارةٍ يا خير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
إقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ، ... قل حطةٌ ؛ وادخلِ علينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولن ترى ... إلّا لديهم سنةً وكتابا
وعليّ أن يُعلى محلك في الورى ... وإذا شفعت إلي كنت مجابا
وتعجّل الآلاف وهي ثلاثة ... صلة ؛ وحقك لا تعد ثوابا

***

وقد أجابه عمارة بقوله :

يا خير أملاك الزمان نصابا — حاشاك من هذا الخطاب خطابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم — معمور معتقدي وصار خرابا
وأتى دليل الحق في أقوالهم — ودعوت فكري عند ذاك أجابا
فاشدد يديك على أكيد مودتي ، — وامنن علي وسدّ هذا البابا

***

وأما الذين يقولون بأن عمارة قد اعتنق المذهب الاسماعيلي فيزعمون أنه إنما كان شافعي المذهب في مطلع حياته العلمية بزبيد ، وأما بعد أن اتصل بالزريعيين فقد إعتنق المذهب الاسماعيلي ، ولما هاجر إلى مصر ولاقى ما لاقاه من الاجلال والاكرام في البلاط الفاطمي وبجوار الوزراء آل رُزّيك وشاور ، تطور فكرياً وعقيدة ورأياً ، وإنّ ما ورد في كتابه « النكت » وقصائده في صلاح الدين من التبري والتنصل عن التشيع إنما هو من باب « التقية » ! وكان طبيعياً أن يخفي اسماعيليته وتشيّعه عن الأيوبيين ، ويوردون أشعاراً له تدل على « تَسَمْعُله » من ذلك قوله في مدح العاضد :

لا يبلغ البلغاء وصف مناقب — أثنى على احسانها التنزيلُ
شيمٌ لكم غرٌ أتى بمديحها الفرقان والتوراة — والانجيلُ
سيرٌ نسخناها من السّورِ التي — ما شأنها نسخ ولا تبديلُ

وإنه يقرر بذلك ما يقرره الاسماعيليون من حق « العاضد الثابت بالمعقول والمنقول ؛ ويستشهدون أيضاً بقوله في العاضد ووزيره ابن رزيك :

أغنى عن التقليد نصّ إمامةٍ — والنص يبطل عنده التقليد
لا شيء من حل وعقدٍ في الورى — إلّا إلى تدبيره مردود !
ملك أغاث المسلمين وحاطهم — منه وجودٌ في الزمانِ وجودُ ! »

وبقوله من أخرى :

كم آية رويت لكم أسرارها — آل الوصيّ وللورى إعلانها
فكأنما تأويلكم أرواحها — وكأنما تفسيركم أبدانها
وكأن علم الكائنات وديعة — مخزونة ، وصدوركم خزّانها

ويدّعون أنه بهذا يردّد الألفاظ والتعابير الاسماعيلية عن الامامة ، والنصّ الآلهي ، وتوارثه خلفاً عن سلف ، ونظرية العقل الفعال الذي يمثلها إمامهم ، والفيض ، والعلم الباطن وسائر ما نقرؤه في ما يكتبه علماؤهم ويردّده شعراؤهم .

موقف ابن خلكان :

أما العلامة المؤرخ « ابن خلكان » فقد قال في ترجمته لعمارة :

« وكان فقيها شافعيّ المذهب ، شديد التعصب للسنة ، أديباً ماهراً ، شاعراً مجيداً ، محادثاً ممتعاً ، فأحسن « الصّالح » وبنوه وأهله إليه كل الاحسان ، وصحبوه مع اختلاف العقيدة لحسن « صُحْبَته » .

وبعد أن أورد قصيدته الميمية التي كانت أول ما أنشده الخليفة الفائز ووزيره الصالح بن رُزّيك عندما أبتعثه شريف مكة سفيراً له لأول مرة والتي مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهِمم ... حمداً يقوم بما أولتْ من النّعم

قال : « وزالت دولة المصريين وهو في البلاد ، ولما ملك السلطان صلاح الدين ، مدحه ومدح جماعة من أهل بيته ، ويتضمن ديوانه جميع ذلك ، وكتب إلى صلاح الدين قصيدة متضمّنة شرح حاله وضرورته وسماها « شكاية المتظلّم ، ونكاية المتألم » ، وهي بديعة ، ورثى أصحاب القصر عند زوال ملكهم بقصيدة لامية طويلة أجاد فيها ، وغالب شعره جيد » .

وقول « ابن خلكان » : « وزالت دولة المصريين وهو في البلاد » تمهيد لما يراه السّبب الحقيقي الذي ساق عمارة إلى المشنقة وأودى بحياته وكأن المصريين الذين حكموا رقعةً كبيرة من العالم الاسلامي باسم « الخلافة الفاطمية » يُدعى لإمامها في عاصمتها « القاهرة » على منابر الشام والحجاز واليمن والسودان وأقطار المغرب العربي لفترة مائتين وعشرين عاماً ، قد رأوا في سيطرة صلاح الدين الأيوبي على مصر وجعْلِها إيالة تابعة للشام ، وإزالة الخطبة للخليفة الفاطمي وإحلال إسم الخليفة العباسي في « بغداد » محلّه ، غضاضةً عليهم ، وإذلالاً لهم ، وإزالةً لدولتهم ، فتآمروا على « صلاح الدين » ، وأرادوا إعادة دولتهم المصرية الشيعية ، ورأوا في ذلك تحقيق مطلب وطنيّ ، وهدف دينيّ ، يعيد إلى مصر كرامتها وعزتها ، وانضم عمارة

الذي كان قد تأثّل في مصر ، واتخذها وطناً ثانياً إلى أعيانها في تلك المؤامرة ، ولذلك قال ابن خلكان « ثم انه شرع في أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعة من رؤساء البلد على التعصب للمصريين ، وإعادة دولتهم فأحسّ بهم السلطان صلاح الدين ، وكانوا ثمانية من الأعيان ، ومن جملتهم الفقيه عمارة المذكور ، وشنقهم في يوم السبت ثاني شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ بالقاهرة رحمهم الله تعالى » .

وابن خلكان يستند إلى ما رواه المؤرخ المعاصر للشاعر عمارة ، والذي هو أدرى الناس بأسباب الأحداث التي أدّت إلى مصرعه ، وانها أسباب سياسية لا دخل لمذهبه وعقيدته فيها ، وقد أورد ابن خلكان رواية المؤرخ المعاصر فقال :

« وقال العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة ؛ إنه صلب في جملة الجماعة الذين نسب إليهم التدبير عليه ، يعني السلطان صلاح الدين ، ومكاتبة الفرنج واستدعاؤهم إليه حتى يُجْلِسوا ولداً للعاضد ، وكانوا أدخلوا معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر ، فحضر عند صلاح الدين وأخبره بما جرى فأحضرهم فلم ينكروا الأمر ، ولم يروه منكرا ، فقطع الطريق على عمر عُمارة ، وأُعِيض بخرابه عن العِمارة ، ووقعت إتفاقات عجيبة فمن جملتها انه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه يقول فيها :

قد كان أوّل هذا الدين من رجل سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

ويجوز أن يكون البيت معمولا عليه فأفتى فقهاء مصر بقتله ، وحرضوا السلطان على المُثْلَةِ بمثْلِه ! ، ومنها أنه كان في النوبة التي لا تقال عثرتها ، ولا يحترم الأديب فيها ولو أنه في سماء النظم والنثر نثرتها ، ومنها انه كان قد هجا أميراً فعد ذلك من كبائره ، وجرى عليه الردى في جرائره ثم قال ـ أي العماد ـ في آخر ترجمته : والعجب من عمارة أنه تأبّى في ذلك المقام عن الانتماء إلى القوم ، ـ أي رفض « التَسمْعُل » ـ وغطى القدر على بصره حتى أراد أن يتعصب لهم ويعيد دولتهم فهلك » .

والعماد بهذا يؤكد أن عمارة لم ينتم إلى المذهب « الاسماعيلي » ولذلك فهو يعجب كيف حاول إعادة دولتهم والتآمر مع أعيان المصريين ضد السلطان

صلاح الدين ، ! وهو رأي ابن خلكان وغيره من العلماء والمؤرخين المحققين .

ومما يؤكد سلامة عقيدة عمارة ما ظل يرويه عن أساتذته وأصدقائه من علماء وفقهاء وشعراء زبيد وجبلة وعدن ، وكيف كانوا يلومون من يجالس « الاسماعيليين » ويعاشرونهم في خططهم ، ويشنّعون على من عمل ذلك بالاشعار وما قصة اليافعي عنا ببعيد .

كان محباً للآل كإمامه الشافعي :

والذي أراه أن عمارة كان مثل معظم فقهاء وعلماء وشعراء اليمن يدينون بمحبة الطيبين الطاهرين من أهل البيت على اختلاف مذاهبهم ؛ وإذا كان بعض « الزيدية » يحصرون الامامة في أولاد البطنين فإن « الشافعية » ينشدون دائماً مع الامام محمد بن أدريس الشافعي قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض على الناس في القرآن أنزلهُ ،
يكفيكم من عظيم الفضل إنكم من لم يصلّ عليكم لا صلاة له !

وغير ذلك مما ينسب إلى الامام الشافعي .

وقد كان اليمنيون هم أنصار الثوار من أهل البيت خلال العهدين الأموي والعباسي ، وكانوا من قبل القوة الضاربة في معارك صفين والجمل حتى لقد قال الامام علي كرم الله وجهه :

فلو كنتُ بواباً على باب جنةٍ لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وإذاً فاستطيع القول إن عمارة كان شيعياً بالمعنى اللغوي الذي يستند إلى الحديث الصحيح : « يا عليّ لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » فتشيع عمارة هو كتشيع زيد بن علي ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، لا غلو فيه ، ولا مهدوية كهفٍ وغار ، ولا تأويلات باطنية ، وأسرار وشعوذات ، والذين يتهمونه باعتناق المذهب الاسماعيلي هم الذين لا يعرفون صدق الصحبة ، وإمتزاج المشاعر ، وتآلف الأرواح ، حتى بين المختلفين نحلة ومذهبا ، وعقيدة ، ودينا ، كما ائتلف الشريف الرضي والصابي ، وتصادق الطرماح والكميت ، وغيرهم ؛ ولم يكن عمارة ضيق العطن ، ولا منزوياً على نفسه ، بل كان تاجراً شاعراً فقيهاً خطيباً يحب معالي الأمور ، أديباً ماهراً

محادثاً ممتعاً ، ولذلك أحسن « الصَّالحُ » وزير الخليفة الفاطمي وبنوه وأهله إليه ، وصحبوه مع اختلاف العقيدة كما يقول العلامة « ابن خلكان » .

والذين يستشهدون على فساد عقيدة عمارة و « سَمْعَلته » بالأبيات التي سبق إيرادها ويقولون إنها تردد التعبيرات والألفاظ والأفكار « الباطنية » لا يستطيعون أن ينكروا أن ما يشابه تلك التعبيرات وما هو أكثر منها غلواً ، قد وردت في أشعار أبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري ، وإن هؤلاء والعشرات من فحول شعراء الاسلام قد عرفوا بتشيعهم لأهل البيت ، ولم يوصموا بالباطنية والغلو المهلك ، بل هي المحبة والمودة في القربى وهذا أبو العلاء المعري يقول في قصيدته :

علّلاني فانّ بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني

والتي أجاب بها على قصيدة الشريف موسى بن إسحاق ما هو في نظري أشد غلواً وأكثر اغراقاً من أبيات عمارة إذ قد قال أبو العلاء :

يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيد الجموع في غطفان
أحد الخمسة الذين همُ الأغراضُ في كل منطق والمعاني
والشخوص التي خُلِقْنَ ضياءً قبل خلق المريخ والميزان
قبل أن تخلق السماوات ، أو تؤمر أفلاكهن بالدوران !

وفي مثل هذا ما ينكره الكثير ، ويعتبره إغراقاً مشينا ؛ ولكن لم يثبت أحد إن أبا العلاء كان إسماعيليا أو باطنيا ، وقد ندد بهم في رسائله وكتبه وأشعاره ، وإن كان قد وجد من قذف أبا العلاء بالمروق !

ولقد سبق القول إن فقهاء وعلماء وشعراء الشافعية الذين كتبوا واستوزروا ، وكانوا قضاة شرعيين للصليحيين والزُّريعيين الاسماعيليين ، كالعندي واليافعي وابن القم وابن أبي عقامة ، كانوا كما كان القاضي الفاضل مع الخلفاء الفاطميين ، وقلت إنهم كانوا ينجرفون أحياناً بمواهبهم اللسانية والبيانية ويصبغون تعابيرهم الشعرية والكتابية بما يرضي مستخدميهم إغراقاً وإغراباً ؛ وتلك لعمري من هفوات وزلات الشعراء التي لا تعرب عن عقائدهم ، وهي في نظري - من باب سياسة المجاراة الشعرية - تزل بها ألسنتهم وأقلامهم في ساعة رجاء أو ضعف أو خوف أو

محاولة تفوق ، أو نيل جائزة أو جاه ، وهم لا يعتنقون ما يقولون ، ولا يدينون بها ينطقون ، لأنهم في كل واد يهيمون وكثيراً ما يقولون ما لا يفعلون ! وصدق الله العظيم .

ومن الأدلة على صدق تشيع عمارة السني الشافعي المذهب أن أول قصيدة أنشدها في مصر ومدح بها الخليفة الفائز بن الظافر ووزيره الصالح بن رزيك سنة ٥٥١هـ قد قال فيها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولتْ من النعمِ
قرّبن بعد مزار العزّ من نظري ... حتى رأيت إمام العصر من أمم !
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرمِ ،
فهل درى البيت إني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلّا إلى حرم ؟
حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفوٍ ومن نقم ،
وللإمامة أنوار مقدسةٌ ... تجلوا البغيضين من ظلم ومن ظلم ،
وللنبوة آيات تنص لنا ... على الخفيّين من حلم ومن حِكم

إلى أن يقول :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا ... فوز النجاة وأجر البر في القسم ،
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها ... وزيره الصالح الفرّاج للغمم

وفي هذا القسم ولفظة « المعصوم » مبالغة وإغراق قد يدفع ناقد عمارة ومن لم يعرف نشأته وثقافته إلى أن يلصق به تهمة « التّسمْعُل » ، بل ولعله ما أغرى الوزير « ابن رزيك » على أن يطمع في « سمعلته » ، فبعث إليه بالأبيات السابق إيرادها وصرر الدنانير يطلب منه الدخول في مذهبهم وكان رد عمارة بالرفض راجياً من الوزير ان يغلق هذا الباب .

أما نحن فنعتبر هذا الاغراق والغلوّ ، والانجراف في المجاراة هفوات لسان ، وزلات بيان ، لا تعرب عن عقيدة الشاعر ، وهي مما يقع فيه الشعراء في كل زمان ومكان ثم يندمون على صدورها ويستغفرون .

ولا نستطيع بعد هذا أن نوافق من يقول : إن عمارة بعد أن لاقى ما لاقاه من كرم وتقدير وحسن استقبال في مصر قد دفعه إلى تغيير عقيدته الشافعية ، والتحق بالمذهب الاسماعيلي ، وإنه قد تطور عقيدياً وفكرياً ولذلك قال

ما قالـه من أشعار استدل بها البعض على إعتناقه للأفكار الباطنية ، ولا يعدوا الواقع ما ذكرناه وأنه كان شافعي الرأي والمذهب ، محباً لآل الرسول ؛ وكـان مثله بين المصريين والايوبيين مثـل الامـام « المقبـلي » الذي فرّ من « صنعـاء » بتهمـة « النصب » لأنه رفض تخطية الخلفاء الراشدين وشتم الصحـابـة الأبرار ؛ فلما جالس فقهاء مكة وعرفوا زيديته الأصيلة اتهموه بالـرفض والـزنـدقة ، وكذلك كان موقف عمارة تحول من سني شافعي في اليمن ، إلى شيعي باطني في مصر ، وكان لعوامل حسد المنافسين ، وسوء ظن الجامدين آثارها في مأساته .

أسباب إعدام عمارة :

تآزرت عدة أسبـاب ودواعي ، كلهـا تناشد برأس عمارة اليمني ؛ فهو « أولا » ذلق اللسان ، حاد الطبع ، كبير الطموح ، يحب الظهور ، ومعالي الأمـور ، والشهـرة والاعـلان عن نفسه ؛ فغامر تاجرا ، وجادل فقيها ، واحتـال فرضياً ، ومدح وقدح شاعرا ، واتصل بعلي بن مهدي متصوفاً ، وزاحم الـوزراء ، وخـالط الكبراء ، وتزيا بزي السفراء ، وحضر دواوين السـلاطـين ، وقصور الملوك ، وعاشر الظرفاء والشعراء والفقهاء ، ونادم الأمراء ، ومن هذه حاله قلّ أن يسلم من شر الحاسد ، ومؤامرة الحاقد ، ولؤم الجـاحـد ، وخبث الكائد ، ولا سيما في مثل بيئته ومجتمعه ؛ واليمن تتـوزعهـا دول الـطوائف المتضـاربة المتنازعة في « صعدة » و « الشرفين » و « زبيد » و « جبلة » و « عدن » و « صنعـــاء » وفي كل ثنية إمـــام ومنـبر وخطيب وسلطان وشيخ ونقيب ! .

وهو ـ ثانيا ـ ذو مواهب سامية وفيّ لمن أحبه ، أو أحسن إليه وقد رأينا كيف ظل يحمل الذكرى العطرة لاستاذه الشاعر الوزير أبي بكر العندي ، وما اجتاحه من أسى ، وأصابه من كمد وحزن ، لما بلغه أن بصره قد أصيب بالعمى ! وعـرفنـا وفاءه للفاطميين الذين أكرموا وفادته ، واحسنوا إليه ، فأحبهم ومدحهم بأبلغ القصائد ، ثم بكاهم بأروع المراثي ، وظل يشيد بذكـرهم ، وتنفث لسـانه نظماً ونثراً بما يشعر بغضبه على القوة التي حلت محلهم ، ولقد قال في كتابه « النكت العصرية » . . وقد ألفه في بداية عهد صلاح الدين عند ذكر « الفاطميين » : « ذكر الله أيامهم بحمدٍ لا يكل

نشـاطـه ، ولا يطوى بسـاطه ، فقد وجدتُ فقدهم ، وهنتُ بعدهم » ! ولا شك ان مثـل تلك النفثـات التي مصـدرهـا الـوفـاء يغضب السلطة الجديدة ، وأنه قد أغضب صلاح الدين ، وأوغر حفيظته ؛ وكان ـ كما يقول المؤرخـون كلما ـ همَّ صلاح الـدين بعقـوبتـه دافع عنه صديقه القاضـي الفاضل ؛ حتى فاض الكيل ، وحان الأجل المحتوم ! .

وهو ـ ثالثا ـ كما يصرح في « نكُتِه » قد وجد فقد الفاطميين ، وهان على الناس بعدهم ، ولم يلق ممن حل محلهم إلا الحرمان والجفاء والمضايقة في الـرزق والجاه ؛ ولعله قد حاول التقرب من صلاح الدين فمدحه ومدح أقـاربه وأهله ؛ ولكن لعل كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، من يمنيين لاحقـوه إلى مهجـره ، ومصريين وشـاميين ، وغُزّ ، ومماليك يختلفون معه مذهبـاً ورأياً ومواهب وأسلوب حياة ، كانت أبلغ من محاولاته الشعرية ؛ ولعـل أصـدق من عبّر عما قاسـاه وعـاناه ، عمارة نفسه في عينيته الطويلة « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » التي رفعها شاكياً متظلماً إلى صلاح الدين ، وسـوف نعقـد لها فصلا ، وسنعرف منها ان عمارة لو حظى باكرام صلاح الدين ، لما تآمر ضده مع المتآمرين المصريين .

و ـ رابعاً ـ وبعد ان اجتاحه اليأس من عطف صلاح الدين واكتسحه الشعور بالهوان ، كان ما أشار إليه العماد الاصبهاني ، وابن خلكان فانضم إلى أعيان المصريين في تدبير ثورة تقضي على الأيوبيين وتستعيد العرش الفاطمي .

و ـ خامساً ـ قيل إنه كاتب الأفرنج والصليبيين !

و ـ سادساً ـ قيل إنه زعم ان « النبوة » بالسعي فأفتى فقهاء مصر بوجوب قتله وانزال المثلَة بمثله .

و ـ سابعاً ـ قالوا إنه هجا أحد الأمراء .

سبعة أسباب ؛ لا ينجو من تناشد تهمها برأسه ، وتتعاون على إيذائه والقضاء عليه ، إلا بأعجوبة ؛ ولقد قالوا إن عمارة وهو في طريقه إلى الموت طلب أن يعـرّجـوا به على قصر صديقه وأكبر مستشاري السلطان صلاح

الدين ، وأحد أعوانه على إزالة الفاطميين ، القاضي الفاضل البيساني ، عسى أن يشفع له عند السلطان ، وما كاد يواجه باب قصر القاضي حتى رآه يتوارى ، ويوصد الباب في وجهه فأنشد مرتجلاً ساخراً :

عبد الرحيم قد احتجب ، إن الخلاص من العجب !

وكان إعدامه شنقاً سنة ٥٦٩هـ وهو في الرابعة والخمسين .

شكاية المتظلّم :

والقصيدة التي أشار إليها « إبن خلكان » وقال إنه كتبها إلى صلاح الدين متضمنة شرح حاله وضرورته ، وسماها : « شكاية المتظلم ونكاية المتألم » وقال : إنها قصيدة بديعة قد تكون أصدق وصف لحالة عمارة ، وأبلغ شرح للأسباب التي أدّت إلى قتله ؛ وهي من الشعر المعبر الناطق المصور ، ومنها نستطيع أن نتصور وضع عمارة ، وموقف صلاح الدين منه ، والدوافع الحقيقية التي حدت به إلى الانضمام إلى أعيان مصر لاستعادة « الدولة المصرية » رغم ما في ذلك من مجازفة ، وانه لا ناقة له في الأمر ولا جمل ، فهو ليس إسماعيلياً وليس مصرياً ، وسنعرف منها إن الأمر لم يكن فقط مجرد وفاء شاعر كريم لقوم أحسنوا إليه ، وأكرموا نزله ووفادته ؛ بل وهناك أيضاً دوافع أخرى تدفع العزيز الذي هان ، والرفيع الذي اتضع ، والغني الذي افتقر إلى الثورة والتمرد والانتقام ممن أهان كرامته وسلّط عليه الفاقة !

لقد وفد عمارة إلى مصر والدولة الفاطمية تترنح ضعفاً ورفاهية واستخذاءً ، والصراع بين أعيانها ووزرائها ، وجوالزتها على أشده ، ونور الدين زنكي يتحين الانقضاض عليها من الشام ، وكذلك الصليبيون الأفرنج في فلسطين ، وكان هارباً من مشاكل اليمن ، حاملاً في قلبه وعلى كاهله همومها ، مترقبا إندلاع ألسنة لهب الفتن في ربوعها بين الفينة والأخرى ، والصراع قائم بين ورثة الزّريعيين ، والصليحيين ، وابن مهدي يتربص في أرباض زبيد ليقضي على دولة بقايا النجاحيين ومواليهم ، والفقهاء يثورون ويزأرون ، والأئمة وأولادهم ، وآل حاتم وامراؤهم ، يتصارعون بالألسنة والأسنة ، والصوارم ، والأقلام . فكان حاله كالمستجير من الرمضاء بالنار ؛ لولا ما وجده من كرم الضيافة ، ورفاهية العيش ،

وبسطة الرزق ، وتقدير من الخليفة الفاطمي الذي لا يحكم إلا إسميا ، ووزرائه آل رزيك ، ثم آل شاور هم الحكام الفعليّون باسم الخلافة الفاطمية ، وكل ذلك قد مهد له الاستقرار ، إلى رعاية خاصة كان يحوطه بها القاضي الفاضل ذي الحول والطول ! فاتخذ من مصر وطنا ، وألقى عصى الترحال ، يؤلف ويشعر ، ويناظر ويحاضر ، ووجد أهلا بأهل ، وجيراناً بجيران ؛ لولا ما حدث من انقضاض صلاح الدين على الخلافة الفاطمية وإلغائها ، فتغيرت حال « عمارة » تبعاً لذلك وللأسباب التي ذكرنا ، ولما سنعرفه من قصيدته « شكاية المتظلم » التي قلنا إننا سنقف معها وقفةً قد لا تكون قصيرة ، ولأسباب لا تزال مجهولة :

شكاية المتظلم ونكاية المتألم :

١ ـ المقطع الأول

أَيا أُذن الأيام إن قلتُ فاسمعي ... لنفثة مصدورٍ وأنةِ موجَع ،
وعي كلَّ صوتٍ تسمعين نداءه ؛ ... فلا خير في أذنٍ تَنادي فلا تعي !
تقاصر بي خطبُ الزمان وباعه ، ... فقصَّر عن باعي ، وقصّر أذرعي
وأخرجني من موضعٍ كنتُ أهله ، ... وأنزلني بالجور في غير موضعي ؛
بسيف «ابن مهدي» وأبناء «فاتك» ... أقضّ عن الأوطان جنبي ومضجعي ؛
فيمّمتُ «مصراً» أطلب الجاه والغنى ، ... فنِلتُهما في ظل عيش ممتع ،
وزرتُ ملوك النيل إذ زاد نيلهم ، ... فأحمد مرتادي ، وأخصب مرتعي ،
وكم طرقتني من يدٍ « عاضديةٍ » ... سرت بين يقظي من عيونٍ وهجّعِ !
وجاء «ابن رزيكٍ» من الجاه والغنى ... بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي !
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره ... لخبرته مني بأكرم مودع . . !
وليست أيادي « شاور » بذميمةٍ ... ولا عهدها عندي بعهدٍ مضيّع ،
ملوك رعوا لي حرمة صار نبتها ... هشيماً ؛ رعته النائبات وما رُعي
وردت بهم شمس العطايا لرفدهم ، ... كما قال قومٌ في علاً وتوسّع
مذاهبهم في الجود مذهب « سنةٍ » ... وان خالفوني في اعتقاد « التشيع »

***

وقصيدة « شكاية المتظلم » فريدة في بابها ، ومن أبدع الشعر تعبيراً وتصويرا ؛ وهي ذات أربعة مقاطع ؛ الأول يحتوي على أربعة عشر بيتاً ،

قرع به لا أذن الأيام فقط ، بل وسمع صلاح الدين السلطان الفارس الشجاع والملك الهمام ؛ وقد قرعه الشاعر بشجاعة وجرأة ، وبصوت نبرته أليمة متخنة بجراح الحزن والخيبة ؛ وكأنه لا يشكو فقط بل ويحذّر أذن الأيام ، وسمع السلطان بأنهما إذا لم يُصغيا إلى نفثة المصدور ، وأنة الموجع ، ويعيا صوته ، فلا خير فيهما ولا جدوى ، إنه يقصد تحذير صلاح الدين تحذير المنذر بما لا ندري ! وكأنه يقول ان من يتجاهل صوت المنادي الضارع ، ولا يلبي نداءه وضراعته جلفٌ غبي لا خير فيه وقد تفاجئه الأيام بما ليس في الحسبان !

ثم ماذا ؟ ماذا يريد أن يقول ؟ إن خطب الزمن وباعه قد تقاصر عن باعه ، الذي هو أرحب وأطول من باع الزمن نفسه ، وإنه لما عجز عن أن يبلّغه ما ليس يبلغه من نفسه الزمن ؛ وتقاصر به عن مركزه اللائق به ، والذي خلق من أجله ، ولم يستطع مطاولة باعه ، ولا اتسع لطاقة همته ، تعدّى فحطم آماله ، وقصر وسائله ، وانحط به عن منزلته التي كان لها أهلاً ، وانزله جوراً وغدرا في مكان لا يصلح أن يكون له موضعاً ، . . فاضطر إلى النزوح عن وطنه الذي كان فيه ذا شأن رفيع ، وكان أحد أعلامه الشامخة ، ورماه الدهر الخئون وتصرفاته الغادرة في قطر آخر لا شأن له فيه إلا شأن الضيف الغريب ، وهو شجاع صريح لا يوارب ولا يخجل من التعريض بواقعه ، وواقع وطنه المنكوب ، والاشارة إلى الأسباب والدوافع التي جعلته يترك بلده ويلجأ مهاجراً ؛ أولا إلى مكة ، ثم إلى مصر ، ويكشف لنا في هذا المقطع الأول ، أن وصوله إلى مصر لم يكن فقط كما يقول المؤرخون لحمل رسالة من شريف مكة إلى الخليفة الفاطمي ، بل ولأمور أخرى تخصه ! وكأنه ولأول مرة ـ يقول لنا ما لم يصرح به في تاريخه : إذا كنت في رحلتي الأولى إلى مصر قد كنت موفداً أحمل رسالة من أمير وشريف مكة ؛ فإن رحلتي الثانية والأخيرة قد كانت لغرضٍ أسمى وأجل ، ولهدف يخصني ، ويتعلق بحالة وطني وهمومي وطموحاتي ، وكأنه يقول إنه قد تذرّع بحجة السفارة تذرعاً ، وإنه كان قد لمس بوادر الفتن في « جبلة » و « زبيد » و « عدن » وسائر أصقاع اليمن ، وأحس بانهيار الأوضاع ، ولا سيما بعد أن عرض عليه أستاذه الثائر الزاهد « ابن مهدي » التعاون والخروج معه ، وسيكون وزيره الأول ، ولأسباب لعل بعضها يعود إلى طبيعة الشاعر الفقيه

التـاجر في « عمارة » الطموح رفض ذلك العرض ؛ وربما أنه أيضاً بطبعه المجبول على الوفاء قد فكر في مصير أصدقائه إذا ما تغلّب « ابن مهدي » وهو يعرفه جباراً قاسي القلب ، شديد المراس ، يكفّر القائمين في كل من زبيد وعدن ، ويريد القضاء على ما يعتبره فسوقاً وشراً ! ولهذا فكر في الابتعاد إلى مصر فيممها « يطلب الجاه والغنى » ؛ ولا يجمجم ولا يتلعثم وهو يخاطب « صلاح الدين » حين يعترف بفضل « ملوك النيل » الذين أكرموا نزله ، وعاش في كنفهم يتمتع بظل عيش وارف ؛ وأيادي « العاضد » كانت تطرقه صباحاً مساءا ، ومكارم « ابن رزيك » قد جاءت بما زاد عن مرامي أطماعه ، ولم تكن أيادي « شاور » ذميمة عنده ولن يضيع عهدها ولن ينسى فضلها ؛ يقول كل ذلك غير مجمجم ، مع إنه يخاطب السلطان صلاح الدين الذي قضى على أولئك الملوك والوزراء . وليس هذا فحسب بل ويصرخ قائلا :

ملوك رعوا لي حرمةً صار نبتها هشيماً رعته النائبات وما رعى

ومن هو الذي صير نبت تلك الحرمة هشيماً ، وأحرقها بالنائبات ؟ غير الذي يخاطبه ويشكو إليه حاله وضروراته السلطان صلاح الذين ؛ ثم وبحذق الشاعر الفقيه الفرضي الماهر يقول إن كل ما ناله من مكارم أولئك « الملوك » قد كان وهو يخالفهم عقيدة ومذهبا ورأيا فكان وليد « الصحبة الحسنة » :

مذاهبهم في الجود مذهب « سنةٍ » وإن خالفوني في اعتقاد « التشيع » !

وكأنه يعرض بسخرية الواقع المرير فإن الذي جعل كل تلك النعم هشيماً تذروه الرياح قد كان من يتفق معه رأيا ومذهبا وهو السني الشافعي صلاح الدين الأيوبي والذي وإن إتفقا مذهبا ، فلم يأتلفا صحبةً وروحاً !

إنني وقد جرّبتُ مواقف التأمل والتذكر ، ومعاتبة الزمن ، وتقريع أذن الأيام ، والحالات النفسية التي تحدق بالشارد في غربته ، والمهاجر في وطنه الثاني ، والمنهزم في منفاه الاختياري ، أو الاضطراري ، وعرفت مرارة معاناتها ، وشدة لذعها للوجدان ، وإيذائها للبال ، وثقل وطأتها على الروح . . أكاد أتصور مشاعر عمارة وهو يخاطب أذن الأيام مجازا ، ويقرّع سمع السلطان حقيقةً ، وأكاد أسمع ماذا كان يريد أن يقول وما لم يستطع

التعبير عنه والتصريح به !

نعم : إنني أتصوره نادماً على ما فرط منه وما فرّط فيه ، وخلوده إلى متع الظل الوارف ، والعيشة الممرعة ، بالهجرة والابتعاد والاستسلام لكرم الخليفة الفاطمي ، ووزرائه آل « رزيك » و « شاور » واستخذائه إلى رفاهية الحياة مع « القاضي الفاضل » ؛ ! وأكاد أسمع جدله مع ضميره ، وحواره مع وجدانه ، واعترافه الدخيل بأن الأولى والأجدر بمثله كان الاصغاء لعرض أستاذه الثائر « علي بن مهدي » حين التقى به لآخر مرة عام ٥٤٨هـ ، لما عرض عليه التعاون ، وضمن له إذا ثار معه على سلاطين الأحباش وعبيدهم في زبيد ، فسيكون شريكه في الأمر لا يقدم عليه أحداً . . ! وها هو يرى أن آل « رزيك » قد صرعوا على يد شاور والخليفة ، ثم يرى ان شاور وآله قد سحلوا على يد « شيركوه » و « صلاح الدين » ، وقد أبيدت الخلافة الفاطمية ، وقُضي على أهل قصرها ؛ فيأسى ويحزن وينتقل بانفعال إلى المقطع الثاني مخاطباً « صلاح الدين » :

٢ ـ المقطع الثاني :

فقل لصلاح الدين ؛ والعدل شأنه ... من الحكمُ المصغي إليّ فأدعى ؟!
سكتّ ؛ فقالت ناطقات ضرورتي : ... إذا حلقات الباب أُغلقن ؛ فاقرع
فأدللت إدلال المحب ؛ وقلت ما ... بدالي ، بعفو الطبع ، لا بالتطبعِ !
وعندي من الآداب ما لو شرحته ... تيقنت أني قدوة ابن المقفعِ ،
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهرٍ ، ... أقول لصدري كلما ضاق : وسعِ ؛
أُعلل غلماني ، وخيلي ، ونسوتي ... بما صغتُ من عذرٍ ضعيفٍ مرقع
ونُوابك الموفون في كل بلدةٍ ... تُفرق شمل النائل المتوزع ،
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه ... إذا قطعوه لا تقوم بأصبع !
مشارع من نعمائكم زدتها ، وقد ... تكدر بالاسكندرية مشرعي
وضايقني أهلُ الديون ؛ فلم يكن ... سوى بابكم منهم ملاذي ومفزعي ،
فيا راعي الاسلام ؛ كيف تركتنا ... فريقي ضياع ؛ من عرايا وجوع ؟
دعوناك من قرب وبعدٍ ، فهب لنا ... جوابك ؛ فالباري يجيب إذا دُعي ؛
إلى الله أشكو من ليالي ضرورةٍ ... رجعنا بها نحو الجناب المرجع
قنِعنا ؛ ولم نسألك صبراً وعفةً ؛ ... إلى ان عدمنا بلغة المتقنع . . !
ولما أغصّ الريقُ مجرى حلوقنا ، ... أتيناك نشكو غُصة المتوجع

ولقد افتتح « عمارة » هذا المقطع الحزين الموجع جريئاً شجاعاً رغم حزنه ووجعه ومثل دور ذلك المحامي الفرنسي الماهر الذي وقف والمقاصل والمشانق ترتجف برهبوتها ميادين « باريس » ، في قاعة محكمة الثورة الفرنسية ، وصرخ غير هياب ولا وجل ؛ في وجوه القضاة الثوار صرخته المشقشقة المدوية في صماخ الدهر : « افتش عن قضاة فلا أجد إلّا متهمين » !

فقل لصلاح الدين والعدل شأنه : من الحكم المصغي إليّ فأدعى ؟!

إنه افتتاح جري فيه نبرة المتهم المحتج ، لا نغمة الشاكي الضارع ، وكأنه لا يطلب رحمة ولا شفقة ولا عطفاً ولا إحساناً ، ولكنه يطالب بحق مفروض ، ويفتش عن حكم عدل يصغى إلى دعواه ، ويقضي بينه وبين ظالمه الذي يشكو منه إليه ؛ وهو صلاح الدين .

لقد برز في عمارة الشاعر ، الفقيه المحامي المتهم المدافع ، الذي ينشد العدل قبل الاحسان .

ولماذا لا يكون جريئا شجاعاً صريحاً ، وقد طال صبره وسكوته حتى جاع وعري ، وتراكمت ديونه ، وهان على نفسه ، وعلى الناس ، وحتى صرخت به ناطقات ضرورته بأن يقرع الباب الموصد في وجهه بعنف وقوة ، حتى يستيقظ من وراء الباب ، وما أبشع أصوات ناطقات الضرورة ! ولا سيما إذا كنّ أصوات غلمان ، وخيلٍ ونساء ، وأهل ديون لا يرحمون العزيز وإن ذلّ ، والكريم وقد هان !

مسكين عمارة ؛ لقد باض بمصر واستفرخ ، وأعرس وتعرش ، وأصبح ذا مال وبنين ، وسراري وغلمان ، وحشم وخدم ، وخيلٍ ونسوان ، وركن إلى جاهه وغناه ، وكرم « الفاطميين » ووزرائهم المصريين ، ووثق بشرعة مكارم الأخلاق ، فقدّر أن وفاءه لمن أحسنوا إليه من الخلفاء والوزراء في العهد المباد » ، سيُقابل من « صلاح الدين » بالتقدير والاكبار ، كما قوبل موقفه من « الصالح رزيك » في مجلس خلفه وقاتل ابنه « العادل » ابن رزيك ، الوزير « شاور بن مجير» ، لما وقف يدافع عن « السلف المباد » بقصيدته :

صحّت بدولتك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

زالت ليالي بني رُزّيك وانصرمت ، والحمـد والـذمّ فيها غير منصرمِ
ولم يكــونــوا عدوّاً ذلّ جانــبــه ، وإنـما غرقـوا في سيـلك العـرم
ومـا قصدتُ بتعظيمي عداك سوى تعظيم شائك ، فاعذرني ولا تلم ،
ولـو فتـحـت فمي يومـاً بذمـهمِ لم يرض فضلك إلّا أن يسـدّ فمي
والـلـه يأمـر بالاحـسـان عارفـةً منه ، وينهى عن الفحشاء في الكلم

***

وغاب عن ذهنه أن « شاور » كان وارث تقاليد عربية أصيلة ربما تحدّرت إليه من جده أبي ذؤيب السعدي والد حليمة مرضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلبن ابنتها الشيماء . وأن صلاح الدين يوسف ابن أيوب بن شاذي الكردي قد لا يعرف تلك التقاليد !

ثم ماذا ؟ لقد صبر وسكت طويلاً وتعفف عن السؤال والألحاح وتعرض لعطف صلاح الدين مراراً فأوصدت دونه الأبواب ، وربما انه قال قصائد كثيرة ، وحبّر عدة عرائض وشكاوي ، فلم يحظ بغير التجاهل والحرمان ، وتـراكمت ديونـه ، ويغالط نفسه فيزعم إنه يحب صلاح الدين ، ويذكره بأدابه وفضائله العلمية ، وإنه قد أقام في بابه ثلاثة أشهر يقول لصدره كلما ضاق وسـع ، ويعلل نسـاءه وغلمانه وخدمه وحشمه بل وخيله ، بالأماني الملفقة والاعذار المرقعة ، وهو يرى نواب صلاح الدين في كل بلدة يهتبلون النعم ، ويتوزعون المال ويوزعونه وهو وحده المنبوذ المحروم ، ويناشده الله والاسلام ان لا يتركه وخيله وغلمانه وأهله وحشمه ؛ « فريقي ضياع : من عرايا وجوع » ، ! ويتحامل على نفسه وعلى أحزانه وآماله الخائبة ، وكبريائه الجريحة ، فيقـول ما لا يمكن أن يلجأ إلى التصريح به الأبيُّ الـطموحُ الكريم . إلّا وقد بلغت به الضرورة حد الانهيار واللامبالاة ، وكادت الروح أن تبلغ الحلقوم !

قنِعنا ؛ ولم نسـألـك صبراً وعفةً ؛ إلى أن عدمـنـا بُلغـةَ المتقنـع !
ولمـا أغصّ الـريق مجرى حلوقِنا أتينـاك نشكـو غُصـةَ المتـوجعَ

***

ماذا صنع « عمارة » بصلاح الدين ؛ قبل ان يضطر إلى التآمر ـ إن كان حقاً قد تآمر ـ حتى يقف منه هذا الموقف الشديد القاسي اللئيم ؟

٣ ـ المقطع الثالث

وبعد هذا الانهيار الرهيب ؛ وقد عدم أقل القليل من العيش الذي يقيم الأود ، ويتبلغ به الصبور القنوع ، وقد أغص الريق حلوق ذويه من الجوع . وبعد أن اعترف بكل ذلك شاكياً ضارعاً ؛ نراه في المقطع الثالث يحاول التجلد وأن يظهر بمظهر المتماسك ، ويقف موقف الفقيه الشاعر ، السفير ابن الأكابر ، وأن يدل بمواقفه في نصرة الدين ومذهب الامام الشافعي ، ويذكّر صلاح الدين بأنه قد قام بما قام به وحيداً ، وفي وقت كان المذهب الاسماعيلي فيه هو مذهب الحكام والقادة ، والكبراء والسادة ، وهو السائد في مصر ، ولا شنار ولا شان للعراق ولا ريح للشام ، ! وانه بلسانه ومناظراته قد وقف نصيراً للامام محمد ابن إدريس قبل ان ينصره صلاح الدين بصوارمه ورماحه ، وشبه نفسه في وحدته وثباته بمؤمن آل فرعون الوارد ذكره في القرآن .

وإذن فليتساءل محتجاً : لماذا يقف منه السلطان هذا الموقف القاسي المهين ؟ ألأنه قدراً وجاهاً دون أولئك الذين فتّحت لهم أبواب الرزق والعطاء في طول البلاد وعرضها ؟ أم لأنه وحده الذي ثبت ورفض اغراءات الوزير ابن رزيك بالجاه والمال ولم يتزعزع يقينه ولا فسدت عقيدته ؛؟ أم لأنه الشاعر المبدع المطبوع الذي لا يتكلف ، والكاتب الناثر المجيد المصقع ؟ ويخيل إلي انه قد حاول التعريض بصديقه القاضي الفاضل البيساني وربما كان هذا التعريض سبب إنحراف القاضي عنه ، وفقد بذلك آخر المدافعين عنه في بلاط « صلاح الدين » إذ لا أظن إنه قد استطاع العيش طويلاً بعد هذه القصيدة ؛ وأي شعور قد دفعه إلى ذلك التعريض ؟

ثم ينهار من جديد فيناشده إطلاق مرتباته ومخصصاته التي كانت تجرى له من قبل الفاطميين ، وأن يتفضل بتسديد ديونه التي تراكمت على كاهله وهو واقف بباب صلاح الدين ، وبعد ذلك وكأنه قد خجل من نفسه . . فتعاوده كبرياؤه ، فيذكر إنه نسل سادة كرام ، وإنه قائم سيف لم يُعَنْ بكف ، وياقوتة كريمة في سلك عقد من العقيق والجزع ؛ عبّر عن كل ذلك في نسق شعري بديع وجرس لفظي مطرب :

فان كنت ترعى النـاس للفقـه وحـده — فمنـه طرازي ، بل لشامي وبـرقعي !
ألم ترعـني للشـافـعـي ، وأنـتـمُ — أجـلّ شفيـع عنـد أعـلى مشفّـع ؟
ونصري له في حيث لا أنـت ناصرٌ — بضرب صقيـلات ، ولا طعن شرّع ،
ليـالي لا أفق العـراق بسَجْسَـجٍ — بمصر ؛ ولا ريـح الشـأم بزعزع !
كأني بها من آل فرعـون مؤمـن — أصارع عن ديني ، وإن حانَ مصرعي !
أمن حسنـات الـدهـر أم سيئـاتـه — رضاك عن الدنيا بما صنعت معي ؟
ملكتَ عنان النصر ، ثم خذلتني ، — وحـالي بمرأى من علاك ومسمع !
فما لك لم توسـع عليّ ، وتـلـتـفـت — إليّ الـتـفـات الـمنـعـم المتـبرع ؟
فإمـا لأني لسـتُ دون معـاشرٍ — فتحت لهم باب العـطاء الموسع ؟
وإمـا لما أوضـحتُـه من زعـازع — عصفن على ديني ؛ ولم أتـزعـزع ؟
ورَدّي ألـوف المـال لم ألـتفت لهاً — بعـين ، ولم أحفـل ؛ ولم أتـطلّع !
وإمـا لفـن واحـدٍ من معـارفٍ — هو النـظم ؛ إلاّ إنـه نظم مبـدع ؛
فإن سمـتني نظماً ظفـرت بمفلق ، — وإن سمتني نثـراً ظفـرت بمصقـع
طبـاع ؛ وفي المطبـوع من خطراته — غنىً عن أفـانـين الكـلام المصنّـع

***

سألتـك في دينٍ ، ليـاليـك سُقنـه — وألـزمْـتَنيـهِ كارهـا غير طيـع ،
وهـاجرت أرجو منك اطلاق راتب — تقـرر من أزمـان كسرى وتبـع ،
وليتـك فيمن أطلع الشرق مطلعي — لتعلم نبعي إن عَجَمت وخروعي !
ومـا أنـا إلاّ قائـم السيف لمْ يُعَنْ — بكفٍ ، ودرّ لم يجد من مُرصـعَ ؛
ويـاقـوتـه في سلك عقـد مداره — على خرزات من عقـيـق مجزّع !

***

ولا بد إن ثمة أسباب مجهولة لدينا . . قد دفعت صلاح الدين إلى أن يعامل عمارة اليمني هذه المعاملة السيئة ؛ فيحبس مرتبه ، ويضايقه في رزقه ، ويهمله ويتعمد تجاهله ، ! وهل يا ترى لو إنه أحسن إليه ، ولم يقطع مخصصاته المالية التي كانت توفر له العيش برفاهية ؛ هل كان سيندب « الفاطميين » ويبكي على أيامهم ذلك البكاء المرير الذي لا شك انه قد أغاظ صلاح الدين وزاده حقداً عليه ؟ كلا . . كلا . . بل أظن إن عمارة كان سيرتاح إلى دولة الأيوبيين الشافعية ؛ وربما أيّد حملتهم العسكرية إلى

اليمن ، وكـان حادي ركـاب السلطان « توران شاه » للقضاء على « دولة آل مهدي » التي كانت ولا شك قد نالت من آل عمارة كما نالت من غيرهم في « زبيد » و« جبلة » وغيرهما ، وهو ما شكاه في بعض أبيات قصيدته . ولو أنه قد كان ذلك لحرمنا من هذه « القصيدة » ومن روائعه في البكاء على « الفاطميين » . فهل رتّبت الأقدار مأساة الشاعر لترفد الأدب العربي بمثل هذا الكنز النادر من الفن الرفيع ؟!

٤ ـ المقطع الرابع :

أما المقطع الرابع والأخير من « شكاية المتظلم » فقد كان فيه من الصراحة والوضوح وتحديد المطالب ، والضراعة والرجاء ، والوعد بالأخلاص وتقدير الاحسان إن ناله ، ما يغني عن التعليق إذ قد قال :

فيــاواصــل الأرزاق كيـف تركتني — أمـدّ إلى كف المنى كفّ أقـطع ؟
أعـنـدك اني كلّما عطس امـرؤ — بذي شمم أقنى ، عطستُ بأجدع ؟
ظلامـة مصـدوع الفؤاد ؛ فهـل له — سبيـل إلى جبر الفؤاد المصـدّع ؟
وأقسم لو قالت ليـاليـك للدجى : — أعد غارب الجوزاء قال لها : اطلعي !
غدا الأمـر في إيصـال رزقي وقطعه — بحلمك ؛ فابذل كيفما شئت ، وامنع !
كذلـك أقـدار الـرجـال وقد غدت — بحكمـك ؛ فاحفظ ما تشـاء ، وضيّع
فيـازارع الاحـســان في كل تربـةٍ — ظفـرت بأرض تُنبتُ الشكـر فازرع ؛
فعنـدي إذا ما العـرف ضاع غريبـه — ثنـاء كعـرف المسكـة المتضـوع ؛
وقـد صدرت في طيّ ذا النظم رقعةٌ — غدا طمــعي فيـهـا إلى خير مطمـع
أريـد بها إطـلاق ديـني وراتـبي ، — فأطلقهـا بالأمـر منـك ، ووقع !
وبـيني وبـين الجـاه والـعـز والغنى — وقـائـع أخـشـاهـا إذا لم توقـع !
ومـا هي إلا مدة نستـمـدهـا — وقـد فجّـت الأرزاق من كل منبـع
إلى هاهنـا أنهي حديثي ، وانتـهي — ومـا شئت في حقي من الخير فاصنع
فانـك أهـل الجـود والـبر والتقى ، — ووضـع الأيـادي البيض في كل موضع

***

إنها قطعة حية تتحدث عن نفسها ، في قصيدة عامرة يعز نظيرها في تاريخ الشعر العربي ، ولا أدري ما هي الوقائع التي كان يخشاها عمارة إذا لم يطلق صلاح الـدين دينه وراتبه ولم يوقـع الأمر بذلك ؟ ولا ما هي المدة التي

يستمدها ثم بعد ذلك ستكشف الغمة ، وتفج الأرزاق من كل منبع ! وهل في هذه النبرة شيء من الوعيد ، والأنذار الشعري الذي يحتمل التأويل ؟

وقد قلت : إنني أظن بأن عمارة لم يعش طويلاً بعد هذه القصيدة ؛ فيظهر ان السلطان لم يوقع الأمر . . فخابت ظنونه ، ولم يظفر بجودٍ ولا بر ولا تقى ، ولم توضع في عنقه الأيادي البيض ؛ فوقع فيما قال إنه يخشاه ، ! واندفع يتآمر ويدبّر انقلاباً ضد صلاح الدين مع أعيان المصريين فسيق إلى المشنقة وكان من أمره ما كان .

هذا إذا كانت « شكاية المتظلم » خاتمة علاقة عمارة الشعرية والسياسية بصلاح الدين ، وأنه كان قد بكى قبلها « الفاطميين » ودولتهم مما دفع السلطان إلى مؤاذته وقطع مخصصاته ؛ أما إذا كانت تلك المراثي لم تُصَغْ إلا بعد هذه القصيدة ، وبعد أن يئس عمارة من خير صلاح الدين وكانت جزءاً من مؤامراته وتهييجاته للرأي العام في مصر ، وهو أمر محتمل ، فتظل الأسباب والدوافع التي حدت بصلاح الدين إلى إذلال عمارة وإيذائه ، وقطع أرزاقه ، مما حُجب عن معارفنا وتقديراتنا ، وعلى من يريد كشف ذلك ، البحث والتنقيب والتأمل في دراسة ديوان عمارة ونكته بامعان ودقة ودراية .

وروى العماد الاصبهاني في خريدته أبياتا قالها أبو اليمن تاج الدين الكندي في عمارة بعد صلبه ، تلاعب فيها بلفظة الصليب ومدلولاتها اللغوية وهي :

عمارة في الاسلام أبدى خيانةً ... وبايع فيها بيعةً وصليبا
فأمسى شريك الشرك في بغض أحمد ... وأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى ان عجمته ... تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله ، ... ويُسقى صديداً في لظى وصليبا

وهي سخرية سبق إليها عمارة نفسه عندما مر بمصلوب يقال له « طرخان » فقال :

أراد علو مرتبة وقدرٍ ... فأصبح فوق جذع وهو عال
ومدّ على صليب الجذع منه ... يميناً لا تطول إلى الشمالِ
ونكس رأسه لعتاب قلبٍ ... دعاه إلى الغواية والضلال !

ولم يكن يدري إنه سيلاقي نفس المصير ، وربما في نفس المكان .

فضل مصر على عمارة المؤرخ والشاعر :

لقد كان من حسن حظ عمارة الحكمي شاعراً ، ومؤرخاً - ورغم كآبة نهايته المؤسفة - إنه هاجر إلى مصر ! إذ لولا تلك الهجرة التي أثمرت كتبه القيمة عن تاريخ اليمن وشعرائها ، وعن الوزارات المصرية التي عاصرها ، وديوان شعره المطبوع ، لما عرفنا منه إلاّ ما نعرف عن من عاش قبله أو عاصره أو جاء بعده ؛ من أدباء وعلماء وشعراء اليمن ، أمثال ابن القم ، والعندي ، وأبي بكر اليافعي ، وابن أبي عقامة ، والذين كانت لهم مؤلفات ودواوين شعر ، ولكنها تلفت وضاعت ، وأكلتها الحوادث والفتن ، بل وتعمدت ابادتها أهواء التعصبات المذهبية ، والحزازات العنصرية ، والتحزبات اليُعفرية والطائفية ، والأحقاد العشائرية ؛ ولن أغرق أو أشذ عن الحقيقة لو قلت : لولا هجرة عمارة إلى مصر وتأليفه كتابه « المفيد » عن اليمن ودولها وشعرائها وما حفظه من آثارهم وأخبارهم لجهلنا الكثير من آداب اليمن ، وتاريخها الفكري في العصر العباسي ، فقد كان كتابه هو المصدر الوحيد لكل من جاء بعده من المؤرخين والأدباء فيما لم يذكره سواه .

ولقد فقدت وضاعت وأتلفت مؤلفات ورسائل ودواوين جياش والهيثمي وابن القم والعندي واليافعي والعثماني والماربي والهبيني وعشرات من الشعراء الذين تحدث عنهم عمارة ولم يبق لنا من آثارهم إلاّ ما دوّنه وسجله من حافظته في « مفيده » ، ولم يثبت من جاء بعده من المؤرخين لهم شيئاً غير ما قيده عمارة ، ولو انه قد عاد - بكتبه وشعره - إلى اليمن لضاعت كل آثاره ، وأبادتها الأهواء كما صنعوا بكتب وآثار غيره من اليمنيين من تحدث عنهم ، ومن لم يذكرهم ، وتلك شنشنة يمنية . . . عرفناها قبل عمارة لما سمعنا الهمداني يشكوها وهو يتحدث عن الرداعي ، بل ورأيناها في كتب الهمداني نفسه أو ما تبقى منها مما عبث به وشوهه محمد بن نشوان ! وسلام على سجل ابن ابان ، وكتب أبي نصر ، ومجالس الطبري ، وآثار شعراء الاسماعيلية ، والمطرفية ، التي أبيد معظمها عمداً وعدوانا من قبل الطوائف اليمنية المتصارعة .

وإذاً ؛ فنستطيع أن نقول : إن لمصر الفضل الكبير على عمارة وبالتالي

على تاريخ اليمن وآدابها[1] ، ونستطيع أن نقيم الخسارة التي حقّت بالتراث الفكـري اليمني من جراء الخصومات القبلية ، والفتن المذهبية والسياسية الهـوجـاء ، التي عمت اليمن خلال ما نسميه في دراسـاتنا هذه « العصر العباسي » وحتى مشارف القرن الثامن الهجري والذي من بعده وبفضل الاستقرار السياسي والمدني المحدودين في عهد الدولة الرسولية ثم الطاهرية ، وبفضل فطاحلة الفكر والأدب من اعلام « الزيدية » وأئمتهم الذين حافظوا على تراثهم الديني والثقافي أثناء دولة آل شرف الدين ثم الدولة القاسمية منذ مطلع القرن الثامن وحتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي لما طمت اليمن موجة الفتح العثماني الأخيرة وهو ما سنفصله عندما نتحدث عن تاريخ اليمن الفكري في الأسفار القادمة والتي لن نجابه فيها من الغموض والاضطراب والشتات ما جابهناه في الفترات المظلمة التي فرغنا من دراستها بعون الله .

حياته في مصر :

كان لا بد من مدخل للحديث عن حياة عمارة في مصر فنذكر ـ وقد كانت نهايته بها الاعدام شنقاً ـ فضلها عليه تاريخيا وأدبياً بحفظ كتبه من الضياع . وبـالرغم من أن عمارة وباعترافه قد نال من هجرته إلى مصر المال والغنى والرفعة والجاه إلاّ إنها لم تخل من نكد الحساد ، وكيد المنافسين ، وليس ذلك

---

(١) إن فضل مصر ودور كتبها بالقاهرة على التراث الفكري العربي والاسلامي في اليمن فضل لا يجحد ، ولولا مئات المخطوطات التي تسرّبت إلى مصر بشتى الوسائل لضاع منها الكثير ، ولولا ما راجعته في دار الكتب المصرية من كتب التاريخ والأدب للمؤلفين اليمنيين وبعضها كتب في عصور مؤلفيها لما تمكنت من تأليف كتابي قصة الأدب في اليمن عام ١٩٦٠ م/ ١٣٨٠هـ ، وذلك بعون وتسهيلات أمين المخطوطات بالدار يومئذٍ المرحوم الأستاذ العالم فؤاد سيد . وفي دار الكتب ولعدة سنوات سجلت ودونت من المخطوطات اليمنية شتى الفوائد والملاحظات التي اعتمدت عليها في كتابة هذه الأبحاث ؛ كما أن علماء أفاضل مصريين في العصر الحاضر ، قد اهتموا بتاريخ اليمن وألفوا عنها الجليل القيم من الكتب ، ونشروا المفيد الجيد من آثار علمائها وأدبائها وشعرائها وفي مقدمتهم الأساتذة والدكاترة محب الدين الخطيب ، وأحمد فخري ، وخليل نامي وحسـين الهمداني ، وحسن محمود ، ومصطفى سالم ، وأحمد محمود صبحي وقد كتبوا ما كتبوا وحققوا ما حققوا بروية وانصاف ودحضوا تخرصات التعصب الأعمى والطائفية المقيتة التي حاولها بعض الأساتذة من اليمنيين وغيرهم في بعض ما كتبوه أو نشروه من المخطوطات اليمنية .

المؤلف

بغـريب ولا بمنكـر ، وأنّـا لمثله وهو الشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، والكـاتب المـترسـل ، والحافظ الراوية ، والمؤرخ العالم ، والسفير المتجول والمحدث البارع ، والنديم اللطيف ، والطموح الهمام . . ان يسلم وينجو من الحساد والمنافسين ، وتطمئن به الحياة ، وتصفو له ، ويسعد بها وينعم ؟!

لقـد فرّ من وطنـه محاذرةً من شرور الصراعـات الـطائفية والقبلية والسياسية ، وخشية أن تلفحه نيرانها ، وزهداً عن خوض معاركها ، وهروباً من الحياة المعيشية التي تعم أصقاع اليمن آنذاك ونكدها وتعاستها ! فرّ إلى قاهـرة « المعز » وخيراتها ، ونيلها ، ومظاهر الجاه والغنى فيها ، ولكنه قد جابـه فيها ما كان يلقاه في وطنه من المكايد والشرور فكان كالمستجير من الـرمضـاء بالنار ، لولا أنه قد حاز من المال والجاه ومظاهر الترف والنعمة وبلهنية العيش ، ما لم يكن يطمـع فيه ويطمـح إلى نيله في « زبيد » أو « جبلة » أو « عدن » ! فهان عليه الأمر منشدا حنانيك بعض الشر أهون من بعض .

والذي يظهر ان عمارة توفق في رحلته الأولى إلى مصر ، ولاقى من الاكرام الكثير ، والجوائز السنية ، ما أرضى طمعه ، وأشبع طموحه ، نلمسُ ذلك في الكثير من أشعاره ؛ مثل قوله في الوزير الصالح بن رزيك من قصيدة :

ان تسـألا عما لقـيـت ، فانّـني	لا مخفـق أمـلي ولا كذّاب ؛
لم انتجـع ثمـد النـطاف ، ولم أقف	بمـذانـبٍ وقـفـت بها الأذنـابُ
لكـن وردت قرارة الـعـز الـتي	تغـدو عبيـداً عنـدهـا الأربـاب ،
عثـرت به قدم الـثـنـاء فلالـعـا	إن لم تنـلهـا رفـعـةٌ وثـواب

وقـولـه وهـو يودّعه في عودته إلى الحجاز فاليمن قبل هجرته الثانية من قصيدة طويلة :

من لي بأن ترد الحجـاز وغـيرهـا	أخبـار طيب مواردي ومصـادري
زارت بي الآمـال أكـرم ساحـة	فوق الثـرى فغـدوت أكرم زائـر
ووردت التمسُ الكـرامـة والغنى	فرجـعـت من كل بحظٍ وافـر
فكـأن مكـة قال صادق فالهـا :	سافـر تَعُـدْ نحـوي بوجـه سافـرٍ !

وقال من أخرى في الصالح :

لازمت خدمته فأدب خاطري ... فالمدح من إحسانه معدود
فإذا نظمتُ له المديح فإنما ... أهدي بضاعته له ، وأُعيدُ
كم ضمّ فائدة النهي لي واللّهى ... فغدوت مما قد أفاد أفيدُ
فلأشعرنّ بها مشاعر مكةٍ ، ... ولتسمعنُ « عدنٌ » بها و « زبيدُ »

وهو بهذا المعنى يتذكر ما أخذه الشاعر « ابن القم » من قول الخفاجي في ناصر الدولة :

طويت إليك الباخلين كأنما ... سريت إلى شمس الضحى في الغياهب

وزاد فيه ان ممدوحه « الداعي سبأ » كان شاعراً ، ويمدح الذين يثنون عليه فقال :

فعوض عن شعري بشعرٍ وزادني ... عطاءً ؛ فهذا رأس مالي ، وذا ربحي ؛
شققتُ إليه الناس حتى لقيتُه ، ... فكنت كمن شق الظلام إلى الصبح !

وقد ظل المعنى عالقاً بذهن عمارة ؛ ولما قابله الصالح رزيك بما قابله من إكرام ؛ وقد كان أيضاً عالماً أديبا يقول الشعر الجيد ، تذكر سلفه « ابن القم » وأميره « الداعي سبأ » ، فقال الأبيات « لازمت خدمته » إلى آخرها ، ولكنه لشدة غبطته صرخ بأنه سيشعر « مكة » بتلك المكارم ولتسمعنْ « عدنٌ » بها « وزبيد » ؛ ليعرف الجميع ما قد ناله من غنى وجاه !

ولاحقته المكارم إلى عدن :

ولما غادر مصر عائداً إلى اليمن وكان في ذمته للأمير « الزريعي » الذي يدين بالولاء الفاطمي للخليفة بالقاهرة ، ووزيره « الصالح » دَيْنٌ ، فكتب بيد عمارة صكاً يطلب من صاحب عدن إسقاط ذلك الدين عنه وكان جزيلاً كما يقول عمارة نفسه في تاريخه فقال :

لقد غمرتني من نداه مواهبٌ ... أضافت إلى عز الغنى شرف القدر
قصدت الجناب الصالحي تفاؤلاً ، ... وقد فسدت حالي فصالحني دهري
ولم يرض لي معروفه دون جاهه ... فسيّر كتبا كالكتائب في أمري
كأن يدي في جانبي عدنٍ بها ... تهزّ على الأيام ألوية النصر
وما فارقتني نعمة صالحية ... كأني من مصر رحلت إلى مصر !

العودة وقرار الهجرة إلى مصر :

ولعل ما شاهده عمارة في سفارته الأولى إلى الفاطميين من أبهة العرش الذي تجري الأنهار من تحته ، وما رآه في مصر وخيرات نيلها ، ومظاهر الترف ورغد العيش في قصور الأمراء والوزراء وفخامة مواكبهم ، قد جعله يحتقر الحياة الكزّة الشحيحة التي تحتضن اليمن ؛ والمجاعات تتهددها ، والقحط يتوعدها ، والصراعات البشعة بين موالي بني نجاح وسلاطين الصليحيين والزريعيين ، وتربصات الفقهاء والثوار ، وغزوات « الزيود » ، وقبائل اليمن الأعلى تنحدر على تهامة بين الفينة والأخرى ، إلى أنه قد لمح بذكائه ومحاوراته مع الثائر المتربص علي ابن مهدي الحميري قرون الفتن تنجم هنا وهناك ، ورأى أو خال سحب مصائبها تتجمع وتتراكم ، فقرر الهجرة إلى مصر ، وعمل مع شريف مكة على إرساله برسالة ثانية إلى الخليفة الفاطمي ، وصديقه الوزير الصالح بن رزيك . وهو في قرارة نفسه ينوي المقام بمصر واتخاذها وطناً ثانياً ، وكان ذلك سنة ٥٥٢هـ ولعله قد استصحب معه بعض أهله !

وشايات الحساد وموت الصالح

ولكنه يفاجأ بما لم يكن يخطر له على بال إذ لم يجد من كبير وزراء الخليفة ممدوحه القديم والذي ظل يلاحقه بمعروفه ومكارمه إلى اليمن الصالح بن رزيك ، ما تعوده من كرم وبشاش وإقبال ، ووجده قد تغير عما يعهده ، فعلم ان بعض الحساد والمنافسين قد دسّوا عليه عنده ، ولا استبعد أن بعض خصومه وحاسديه في اليمن نفسها ، قد وشوا به ، وكادوا له ، ولفقوا ضده الأكاذيب ، وشكّكوا في ولائه للفاطميين ، وصدق محبته لهم ، لأنه سني العقيدة شافعي المذهب ، ونعرف ذلك من قصيدة قالها يستعطفه ومنها :

فاعلم ؛ وأنت بما أريد مقاله ... مني ومن كل البرية اعلمُ ؛
إني حُسدتُ على كرامتك التي ... من أجلها في كل أرض أكرمُ
إن كان ما قالوا وليس بكائن ... فأنا امرؤ ممن سعى بي ألأم
راجع جميل الرأي فيّ بنَظرةٍ ... تضحى عواطفها تسحّ وتسجم
فالليل إن أقبلت صبح مسفرٌ ... والصبح إن أعرضت ليل مظلمُ
بدأت صنائعك الجميل ومثلُها ... بأجلّ من تلك البداية تُخْتَم

***

وما لبث الوزير الصالح طلائع بن رزيك أن اغتيل بتدبير الخليفة الفاطمي العاضد ، ولحق بربه يوم الاثنين ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ وقد رثاه عمارة بعدة قصائد منها طويلته اللامية التي تعد من أبلغ قصائد الرثاء ومطلعها :

أفي أهل ذا النادي عليمٌ أسائلُه ... فاني لما بي ذاهب اللبّ ذاهلُه ؟!
سمعت حديثاً أحسد الصمّ عنده ... ويذهل واعيه ، ويخرس قائله ؛
فهل من جواب تستغيث به المنى ... ويعلو على حق المصيبة باطله ؟
وقد رابني من شاهد الحال انني ... أرى الدست منصوباً وما فيه كافلُه !
فهل غاب عنه واستناب سليله ... أم اختار هجراً لا يرجّى تواصله
فاني أرى فوق الوجوه كآبةً ... تدلّ على أن الوجوه ثواكلُه

ومنها :

دعوني فما هذا أوان بكائه ... سيأتيكم طَلُّ البكاء ووابلُه
ولا تنكروا حزني عليه فانني ... تقشّع عني وابلٌ كنت آملُه
ولم لا نبكّيه ، ونندب فقده ... وأولادنا أيتامه وأرامله ؟
فياليت شعري بعد حسن فعاله ... وقد غاب عنا ما بنا الله فاعلُه !
أيُكْرَمُ مثوى ضيفكم وغريبكم ... فيمكث ؟ أم تطوى بِبَيْنٍ مراحلُه ؟

***

وهي في ستة وسبعين بيتاً ، ولا شك انه قد فقد بوفاة الوزير الصالح سنداً قوياً إن لم يكن الوحيد ، وهو يعلن تشاؤمه وحيرته وخوفه مما قد تفاجئه به الأيام بعد موته في تساؤله الحزين بالبيتين الأخيرين . . . أفلا ندرك منهما انه قد يعزم على مغادرة مصر بعد الصالح ؟ أولا ندرك أيضاً بانه لا يدري مصيره ؛ وهل سيكرم مثواه وهو الضيف الغريب أم سيهان وينبذ فيترك مصر وتُطوى مراحله بالبين ؟ إنه ولا شك تساؤل حزين . يصوّر حالته وكأنها ريشة في مهب الريح .

وقد صدق عمارة حين قال :

دعوني ؛ فما هذا أوان بكائه ... سيأتيكم طلّ البكاء ووابله

فقد قال فيه عدة قصائد كلها جيدة ، ومنها تلك التي قالها لما نقل تابوته

ولـده العـادل محيى الدين رزيك من القاهرة إلى « القرافة الكبرى » سنة ٥٥٧هـ وفيها الأبيات المشهورة :

خربتْ ربـوعُ المكـرمـات لراحـل ... عُمـرتّ به الأجـداث وهـي بوار
شخص الأنـامُ إليـه تحت جنازةٍ ... خُفِضت برفعـة قدرهـا الأقـدار ،
فكـأنها تابـوت موسـى أودعـت ... في جانـبيـه سكـينـةٌ ، ووقـار
وتغـايـر الهـرمـان والحـرمـان في ... تابـوتـه ، وعـلى الكـريم يغـارُ
غضب الآلـه على رجال أقـدمـوا ... جهـلاً عليـه ، وآخـرين أشـاروا
لا تعجبـا لقُـدار « ناقـة » صالحٍ ... ولكـلِ عصر « صالحٌ » و« قدارُ »
أحـللتَ دار كرامـة لا تنـقضي ... أبـداً ، وحـلّ بقـاتـليـك بوار

ومن مراثيه قصيدة يقول فيها شاكيا حاله :

تنكّـر بعـد « الصالح » الدهر فاغتدت ... محاسـن أيـامـي وهـن عيـوب
أيجـدب خدّي من ربيـع مدامعي ... وربعي من نعمى يديـه خصيب ؟

ومنها أخرى مطلعها :

طمـع المـرء في الحـيـاة غرورُ ... وطـويـل الآمـال فيهـا قصـيرُ

ومنها :

يا أمـير الجـيـوش عنـدك علم ... إن حرّ الأسـى علينـا أمـير
إن قبراً حللتـه لغـني ، ... إن دهـراً فارقـتـه لفـقـيرُ
وبـعـيـد عليّ فيـك سلوٌ ، ... ولـك الـفـكـر موطنٌ والضمـيرُ

إلى قصائد أخرى ؛ فيها لوعة صادقة وحزن مرير ، وكأنه يبكي حظه الذي تترصده الأيام بشرورها المستطيرة ، وتعدّ له الأحداث الرهيبة عدتها :

وبالرغم من أن الخليفة العاضد هو الذي دبر بعض جنوده وأعمل الحيلة لقتـل الصـالـح بن رزيك فان الفَعَلَة الذين وثبوا عليه وجرحوه جراحات عديدة . قد قتلوا جميعـاً قبـل أن يلفظ أنفـاسه الأخيرة ، وتظاهر الخليفة بالحـزن ، ونصّب ولـده محيي الـدين كبـيراً لوزرائـه ، وتلقّب بالعادل ، ولا شك إن عمارة قد عرف المؤامرة ، وتورّط العاضد في حبكها ، ولم تطل مدة وزارة العادل إذ قد ثار عليه « شاور بن مجير » وقتله وتولى للعاضد الوزارة سنة ٥٥٨هـ .

ولعمارة في آل رزيك عدة قصائد مدح ومر اسلات ويظهر انه قد جرت فيما بينه وبين العادل بن الصالح شيء من الجفوة ؛ نعرف ذلك من أبيات قالها يسترضيه :

مولاي دعوة خادم أهملته بعد احتفالك
ان كان عن سبب فلا يذهب بحلمك واحتمالك
أو كان عن ملل ؛ فما يخشى وليّك من ملالك ؛
أأخافُ دهري بعدما علقت حبلي في حبالك
ومدحتك المدح التي عبّرت فيها عن فعالك

***

مع الوزير شاور وابنه الكامل :

ولما تمت لشاور الوزارة تحسنت لفترة ما أحوال عمارة ، وقد مدحه بعدة قصائد ومن ذلك قوله المشهور من قصيدة :

ضجر الحديدُ من الحديدِ وشاورٌ من نصر دين محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتينّ بمثله ، حنثت يمينك يازمان فكفْرِ !

وقد سبقت الاشارة إلى قصيدة عمارة :

صحّت بدولتك الأيام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

والتي حكى عمارة في كتابه النكت العصرية انه لما تم الأمر لشاور وانقرضت دولة بني رزيك جلس شاور وحوله جماعة من أصحاب بني رزيك وممن لهم عليهم احسان وانعام فوقعوا في بني رزيك تقرباً إلى قلب شاور فأنشده عمارة قصيدته يدافع عن آل رزيك وفيها يقول :

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت والحمد والذم فيها غير منصرمِ
كأن صالحهم يوماً وعاد لهم في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يَقُم !
هم حرّكوها عليهم وهي ساكنة والسلم قد ينبت الأوراق في السلَمِ
كنا نظن ؛ وبعض الظن مأثمةٌ بأن ذلك جمعٌ غير منهزم !
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم من كان مجتمعا من هذه الرّخم !
وما قصدتُ بتعظيمي عِداك سوى تعظيم قدرك فاعذرني ؛ ولا تلمِ . . !

***

إلى آخر الأبيات التي يستدل بها المؤرخون على شدة وفاء عمارة ونبله وكرم نحيزته ، ولقد قلت وأنا أعلّق على ذلك الموقف الكريم : إن عمارة قد غفل عندما أراد أن يقف نفس الموقف النبيل من الخلفاء الفاطميين فبكاهم وندبهم ، عن الفرق خُلُقاً وتطبعاً وطبعاً بين صلاح الدين الكردي ، وشاور بن مجير السعدي ، وارث التقاليد العربية الأصيلة المتحدّرة إليه من جدة أبي ذؤيب السعدي ، والد « حليمة » مرضعة رسول الله ﷺ . وإنّ صلاح الدين بن شاذي قد لا يعرف تلك التقاليد العربية !

قلت ذلك ، ومن يدري ؛ فلعلّي قد ظلمت السلطان صلاح الدين حين خبل إليّ - وهو ما توحي به عبارتي - أن عنصره الكردي قد أنف أن يتسامح مع « عمارة » لما بكى وفاءً على « الفاطميين » ، وأن عنصر الوزير « شاور » العربي « السعدي » قد ساعده على التسامح معه لما وقف بين يديه يدافع عن « آل رزيك » بعد أن قضى عليهم وحل محلهم ، وأن التقاليد العربية ؛ تقاليد مكارم الأخلاق هي السبب في تناقض الموقفين واختلافهما !؟! من يدري ؛ فلعلي قد ظلمت السلطان صلاح الدين ، وأن الوزير « شاور » العربي السعدي كان قد سخط على « عمارة » أشد السخط وأعتاه ، وغضب عليه أعنف الغضب وأمضّه ، في قرارة نفسه ولكنه دارى سخطه ، وحابى غضبه ؛ لأنه كان عاجزاً لا يستطيع ان ينفّذ ما يحرضه عليه عنف السخط ، وما يدعوه إليه جبروت الغضب ، فهو من جهة يخشى الخليفة الفاطمي ، وسيدات قصوره ، وأنصار من أبادهم من بني « رزيك » ومن أخرى يقدّر الموقف السياسي والاجتماعي والعسكري الذي يحيط بمصر ويكتنفها من كل جانب ؛ وأعيانها يتطلعون إلى الوزارة ، والتربع على الكرسي الذي يجلس عليه ؛ وذئاب التربص في الشام وفلسطين تترقب فرصة الانقضاض عليها . . ولذلك تظاهر بالحلم ، بل وشكر عمارة على موقفه الوفي النبيل ، وأثنى عليه ، ولكن السلطان الكردي ، لأنه كان قوياً وصادقاً مع نفسه ، ولا يخشى منافساً ، كان صريحاً مع هواه ، أمينا مع عقيدته ، مخلصاً لما يدعوه إليه ، فأمر بشنق عمارة . وسائر المتآمرين عليه ، وليس لأنه فقط قد أثنى على من أبادهم من « الفاطميين » أعداءه في المذهب والسياسة ، بل ولأنه قد بلغه أنه يتآمر مع أعداء البلاد ويؤلّب الجمهور المصري ضده ! من يدري ! فلعلي بذلك القول قد ظلمت صلاح الدين ، وأن الجميع كانوا

بعيدين كل البعد عن شرعة تقاليد « مكارم الأخلاق » والمشاعر الانسانية ! وان « الأكراد » و« العرب » و« الساميّين » و« الآريين » وكل أبناء « آدم » لا يختلفون فيما ركبت عليه طبائعهم البشرية من خير وشر ، ولا تمييز إلاّ في ذكاء المغامر ، وعزيمة القادر ، وتوفّق الظافر ، أو غباء الوَكِل ، وضعف العاجز ، وسوء حظ الخائب .

والأمـــر لله ؛ رب مجتهـــد ما خاب إلاّ لأنـــه جاهـــد !

ومن شعر عمارة نعرف إنه كان أيضاً يتضجّر من معاملة ابن شاور الذي يسمـونه « الكامل » وإنه كان بينهما صحبة متأكدة قبل وزارة أبيه فلما وزّر استحال عليه ـ كما يقول « ابن خلكان » ولذلك كتب قصيدته المشهورة إلى الكامل بن شاور والتي مطلعها :

إذا لم يســالمـك الـزمـان فحـارب … وبــاعــد إذا لم تنتفــع بالأقــارب ؛
ولا تحتقــر كيــداً ضعيفــاً فربـما … تموت الأفاعي من سموم العقارب !
فقـد هد قدماً عرش بلقيس هدهدٌ … وخـــرّب فارٌ قبــل ذا سد مارب
إذا كان رأس المـال عمـرك فاحترز … عليـه من الانفـاق في غير واجب ،
فبـين اختلاف الليل والصبح معرك … يكـــر علينـــا جيشه بالعجـائب ،
ومـــا راعـني غدر الـشبــاب لأنني … أنـست بهذا الخُلق من كل صاحب ـ
وغـــدر الفتى في عهــده ووفـائـه ، … وغــــدر المـواضي في نبوّ المضــارب

ومنها :

إذا كان هذا الــدر معــدنــه فمي … فصـــونـوه عن تقبيـل راحـة واهب
رأيـت رجـــالاً أصبحت في مآدب … لديكم ؛ وحـــالي وحدها في نوادب
تأخـــرت لما قدمـــتــهـــم عُلاكـــم … علي ، وتـأبى الأســـد سبق الثعالب
ترى أيـــن كانـــوا في مواطـــني الـــتي … غدوت لكـــم فيهن أكــرم نائب !؟
ليـــالي أتـــلو ذكـــركـــم في مجالسٍ … حديث الورى فيها بغمز الحواجب

وإذن فلم يكن راضياً كل الرضى على آل شاور ، وكان يتبرم بما يقاسيه من شعـور بالهـوان ، ويعرب عن ذلك شعرا فيه العتاب المرّ والاحتجاج الشديد مثل قوله لابن شاور أيضاً :

وسمتَ بنعـــماك الـــرقـــاب تبرّعـــاً … وأجيـــاد شعـــري ما عليهن ميسمُ
وأنْسِـيتـــني حتى وقـفتُ مذكـــرا … بنفـــسي وقـــوفـــاً حقـــه لك يلزمُ ؛

وأبعدتني ، حتى رأيت غنيمةً دخولي مع الجمّ الغفير أسلم !
كأني لم أخدمكمُ في مواطن أصرّح فيها والرجال تجمجمُ !
ولم أغش هذا الباب قبل ، ولم تكن تضايقني فيه الرجال وترحم
كذبت على نفسي إذا قمت شاكراً وليس لسان الحال عني يترجم
وهل بعد عبدٍ أن يعلّم قومه كما قيل ؛ أو مثل ابن شاور يعلم

ويقول وقد صده حاجب أحد اخوان « شاور »

أتيت إلى بابك المرتجى فألفيته مغلقاً مرتجا
فقلت لبوابه سائلاً : أيغلقُ باب الندى والحجى ؟
فقال : أراك كثير الكلام .. وعندي من الرأي أن تخرجا
وإلّا نتفتُ سبال المديح ، واتبعتها بسبال الهجا !

وله الكثير من مثل هذا التبرم والعتب والتعريض والشكوى ، قبل أن يقضي صلاح الدين على شاور ، مما يؤكّد أنه كان يعاني حالة نفسية قلقة ، وأن آماله وأحلامه التي كان قد شيد قصورها قبل ان يهاجر إلى مصر كانت قد انهارت ، وهذا يؤيد ما ذهبت إليه من أنه لو لاقى بعض العطف ، وشيئاً من الاكرام ، بل لو لم يُؤاذ في رزقه وجاهه ، من قبل السلطان صلاح الدين لرضى كل الرضا عن التغيير الذي أحدثه ، أو على الأقل لما سخط على الوضع الجديد ، ولم يقل ما قاله من القصائد بكاءً على « الفاطميين » ودولتهم ، ولم يتآمر مع أعيان مصر لقلب نظام الحكم وإعادة العرش الفاطمي .

شعره في الأيوبيين

ولقد حاول عمارة التقرّب إلى صلاح الدين بشعره ؛ ومدحه بعدة قصائد كما مدح أباه أيوب ، ورثاه بقصيدة طويلة مشهورة تعد من جيد شعر الرثاء في الأدب العربي [توفي والد صلاح الدين سنة ٥٦٨هـ] ومدح أيضاً أخاه السلطان توران شاه بعدة قصائد وكلها مذكورة في ديوانه ؛ ولعل ثمة من الأسباب ما حال .. بين محاولات التقرب من عمارة إلى السلطان الأيوبي لا ندري من أسرارها شيئاً ، وربما أن تبجّحه ، وكثرة إشادته بنسبه القحطاني مفتخراً معتزاً على غيره كان من بعض تلك الأسباب ؛ ومن جملة

ما قاله في هذا الشأن يخاطب « ابن رزيك »

إلى الــذي لولا سنــى وجــهــه — أظـلم في عيـني سنى الـكــوكـب
من يعــرب العـربـاء حيث التقت — شعــائـب الــسـؤدد من يعــرب
قومــي الأولى يرجــح ميــزانهم — أن فاضـلوا أو ناضـلوا النــاس بي
أيّ مقــام قمــت فيــه لهم — بحــجــة المـجــد فلم أغــلـب ؛
إن ذكــر الاســلام لم يفــتــخــر — غيرهــم حيّ بنصر الــنـبــي
أو ذكــر الجــود فمــن طيّءٍ — أبــو عديٍّ نجــعــة المــجــدب
وهــذه أفــعــال أبــنــائـهــم — حاضرة تشــهــد للغــيّــب

***

هذا إذا لم يقل ما قاله في « الفاطميين » من مراثي إلّا بعد أن قطع صلاح الدين أرزاقه ومخصصاته المالية التي كانت تجري له من خزانة الدولة ، وأما إذا كان حزنـه عليهم قد جاش في صدره وأوحى إليه بتلك القصائد التي تتفجـر بالأسى العنيف قبـل أن يؤذيه صلاح الدين وكانت لوعته خالصة الاحسـاس بفـداحة نكبة الفاطميين وزوال دولتهم ، فيحق للسلطان أن يستاء منه ؛ ولا سيما وقد ورد في تلك القصائد من التعريض والتوعّد واللوم والتحريض بل والاغراق والمغالاة ما لا يستطيع الصبر على مثله من أنشأ دولة جديدة ذات نظام يخالف نظام الدولة المنقرضة مذهبا وسياسة واتجاهاً ؛ ومن أشهر قصائد عمارة في البكاء على « الفاطميين » لاميته المشهورة التي استهلها بقوله :

رميت يادهــر كفّ المجـد بالشللِ — وجيـده بعد حسن الحلي بالعَطل ،
هدمت قاعــدة المعـروف عن عجلٍ — سُقيتَ مُهْلاً ؛ أما تمشي على مهل ؟
ياعــاذلي في هوى أبنــاء فاطمــةٍ — لك المــلامــة إن قصرت في عذلي

وهي طويلة مشهورة وتعد من روائع شعر عمارة ، وقد عرض فيها بصلاح الدين وبأن دولة الفاطميين قد تعود بقوله :

لربّـــا عادت الــدنــيــا لمعـقِـلهــا — منكم واضحت بكم محلولة العُقُلِ
والــله لا فاز يوم الحشر مبـغـضكم — ولا نجا من عذاب النار غير ولي ،

وبلغ حد الغلوّ الذي جعل بعض المؤرخين يتهمونه بالسَّمْعَلة حين قال

في أئمة الفاطميين :

أئـمـة خلقـوا نوراً ؛ فنـورهـم ... من نور خالص فيض الله لم يَفِـلِ
والـله لازلـت عن حبي لهم أبـداً ... ما أخـر الـلـه لي في مدّة الأجـلِ

ومن أحسن مراثيه لهم تائيته التي يقول فيها

لما رأيـت عراص الـقصر خالـيـةً ... من الأنيس ، وما في الربع ساداتُ
أيـقـنـت أنهم عن ربـعـهـم رحلوا ... وخـلـفـوني ، وفي قلبي حزازاتُ
سألـت أبـله قلبي بالـسـلوّ وقـد ... يقـال للبلهِ في الـدنيـا إصـابـات
فقـال : رأي ضعـيف لا يطاوعني ... كيف السلوّ وأهل القصر قد ماتوا !؟
يارب إن كان لي في قربهـم طمـعٌ ... عجّـل بذاك فللتسويف عادات !

ومن هذه الدعوة الصارخة نعرف ان عمارة كان قد نفد صبره ، وبلغ سيل تصبّره الزّبى ، وجرفه الضيق ، وأجحف به الحال . قالوا ولم يقم بعد هذه الأبيات إلا قليلاً حتى شنق وإنه تفاءل على نفسه باللحاق بهم .

عمارة المصور الفنان

لا يكابر ناقد ولا ينازع ، إذا قلنا : إن عمارة من فحول شعراء العرب ، وإنه ـ ولا سيما في الرثاء والبكاء على الأحباب والأصحاب ـ فذّ بينهم ، ذلك ما لا يجادل فيه عارف قرأ ديوان عمارة . غير أني أريد أن أضيف أن بعض صوره الشعرية قد تخوّل له الصدارة والتربع على عرش الوصّافين من شعراء العرب المجيدين ، وان في بعضها من الابداع ما لا يطيقه غيره ، ولم يحسنه سواه ، ولا أريد ان أتكلّف ضرب الأمثال فقد سبقني أديبان كبيران إلى الاشادة بعمارة المصور الفنان وحسبي أن أنقل ما قالاه .

يقول ذو النون المصري في قصيدة عمارة التي وصف بها قصر الوزير « ابن رزيك » ما يلي :

« وعمارة في هذا الوصف مهندس ماهر ، ومصور بارع ، نقل إلينا في أمانة لغوية مفصحة ، تصميم دار من ديار العصر الفاطمي ؛ مبانيها ، وسقوفها ، وجدرانها ، ورخامها ، وستورها ، وألوانها الزاهية ، ونقوشها المختلفة ، وما صور فيها من الحيوانات المفترسة والأليفة ، والرياض المزهرة ، والأشجار المثمرة ، ولو ان رساماً قدم لنا هذا التصميم مصوراً على

لوحة فنية لما زاد عن وصف هذا الشاعر شيئا ، وقد أبدع حين أضفى من خياله على ما قدم لنا من صور حتى جاءت قصيدته تحفة فنية رائعة » .

والقصيدة التي يتحدث عنها الأديب ذو النون المصري هي الرائية التي من أبياتها ما يلي :

فَتَملّ داراً شيدتها همةٌ ... يغدو العسير بأمرها متيسّرا ،
فاقت على الإطلاق كلّ بنيّةٍ ... وسمت فما استثنتْ سوى أم القرى !
أنشأتَ فيها للعيون بدائعا ، ... دقّت فأذهل حسنُها من أبصرا ،
فمن الرخام ، مسيّراً ، ومسهما ، ... ومنمنماً ، ومدرهما ، ومدنّرا ؛
والعاج بين الأبنوس كأنه ... أرض من الكافور تنبت عنبرا
ألبستها بيض الستور وحمرها ... فأتت كزهر الروض أبيض أحمرا :
وسقيت من ذوب النضار سقوفها ... حتى يكاد نضارها أن يقطرا
لم يبق نوع صامتٌ أو ناطقٌ ... إلّا غدا فيها الجميع مصوّرا ،
فيها حدائق لم تجدها ديمة ، ... كلّا ولا نبتت على وجه الثري
لم يبد فيها الروض إلّا مزهرا ، ... والنخل والرمان إلّا مثمرا
والطير مذ وقعت على أغصانها ... وثمارها لم تستطع أن تنقرا
وبها من الحيوان كل مشبّه ... لبس الحرير العبقري معصفرا ،
لا تعدم الأبصار بين مروجها ... ليثاً ، ولا ظبيا بوجْرَةَ أعفرا ،
أنست نوافر وحشها لسباعها ... فظباؤها لا تتقي أسد الشرى
وكأن صولتك المخيفة أمّنت ... أسرابها ألّا تخاف فتذعرا
وبها زرافات كأن رقابها ... في الطول ألوية تؤمّ العسكرا
نوبيّة المنشا تريك من المها ... روقاً ، ومن بزل المهاري مشفرا
جبلت على الأقعاء من اعجازها ... فتخالها في التيه تمشى القهقري

***

وهذا بالنسبة إلى الصور الحسية التي لا تكلّف الفنان الماهر والمصور المبدع ، إلا النظرة المستوعبة ، ودقة الملاحظة ، واليد الصناع ، والذوق الذي يلائم بين الألوان والأضواء والظلال ، وكل ذلك قد اهتدى إليه عمارة كما يقول الأديب « ذو النون » .

أما ما قد يكون أكثر صعوبة ؛ تصويراً وتعبيراً ، وهو رسم المشاعر

الانسانية التي لا يتمكن من تصور انفعالاتها ثم إبرازها حية تكاد أن ترى وتلمس وتـدرك ألوانها ، وما ترفل فيه ، أو تتسكع ، من أضواء وتجهم ، وتبسم واكفهرار ، ومرح أو ترح ، ويأس أو أمل ، وسعادة أو شقاء فهو ما لا يطيقه الاّ ذو الاحساس العبقري .

وقد تحدث الأديب الشاعر أحمد بن عبد الرحمن المعلمي في إحدى كتبه عن قصيدة لعمارة فقال :

« استمع إليه كيف يقول على لسان صديق له وقع في اعتقال السلطان تسمع صورة رائعة أخّاذة بالمشاعر ، ومستدرة للعطف والرحمة » .

« ولا أظنك ـ ان كنت ذا شعور مرهف ، وعاطفة رحيمة ـ الا مأخوذا قد استولى عليك الحزن ، ولا سيما إذا كنت قد عرفت السجن . . إنها صورة نموذجية للشعر الخالد الحي » .

هذه مناجـاة عبـد رقّ حاسـده ... من البـلاء الـذي أمسى يكـابدُهُ
لا يطرق النـوم أجفـانـاً لمقلتـه ... ومـقلة المـوت من قرب تراصـده
ليـلي من الهم ليـلٌ لا صبـاح له ... كأنـني فيـه أعـمـى ضلّ قائـده
أردّد الـظنّ في يأس وفي طمـع ... قد ضجّ هابـطه مني وصـاعـده
فخـوفـه منـك اشفـاقٌ يبـاعده ... وظنـه منـك بالاحسـان واعـده
فتش تجد لي نظيراً في الـذيـن هفـوا ... ومـا نظيرك ممن أنـت واجـدُهُ
ومـا أقـيم لنفسي حسن معـذرةٍ ... أنـا المسيء الـذي ضلت مقاصـده
بعـدت عنكم ؛ وكانت زلةٌ . . خطاءً ... فاغفـر ، وذلـك ذنب لا أعـاوده
إني شقيت ؛ فهل من فضل عاطفةٍ ... عليّ تسعـد جدي أو تسـاعـده ؟
لسـت الجليـد على ما قد بليت به ... فارحم ، فلو كنتُ صخراً ذاب جامده
أنا ابن سبعين ؛ قد أشفى على طرفٍ ... من المنيـة ، واختـلّت قواعـده
مولاي ؛ أبـق على روحي فربّتـما ... أرضـاك طارف اخـلاصي وتـالـده
ولا تقـل : أفسـد التهـذيب نيته ... فالحـر يصلح بالتهـذيب فاسـده
هذا الـرديـني لا يهتـز عامـله ... حتـى يقـوم بالتـهـذيـب مائـده

عناصر مسرحية رائعة :

إن حياة « عمارة الحكمي » بدايةً ونهاية منذ ولادته بالزرائب وفي قبيلة بني حكم العرب الخلص الذين لا يطيقون اللحن ؛ إلى هجرته العلمية إلى زبيد

وانقطاعه إلى صوفية الزاهد العابد الثائر « ابن مهدي » ثم مزاولته للتجارة واتصاله بالقاضي « العندي » و « آل زريع » الفاطميين بعدن ، ومداوراته ومداراته ، ورحلاته مع آل « فاتك » وجواريهم وسيدات قصورهم وقوادهم ، ثم في محاولات اعدامه بزبيد وفراره إلى « الحجاز » وعلاقاته بالاشراف ، ومواعظه ومجالسه وسفارته الأولى إلى مصر ، وفيما كان له من علاقات ومؤامرات مع « آل رزيك » و « بني شاور » و « القاضي الفاضل » حتى أسلم الروح على المشنقة ! إن في كل ذلك ما يكون عناصر مسرحية رائعة تبرر هذا التطويل والاسهاب الذي ما أظنه قد وفى ذلك الشاعر العبقري حقه ؛ وعلى كل فلا يمكن ان أودعه دون أن أقرأ مع القراء حديثه الحزين عن قلبه المسكين :

لو أن قلبي يوم كاظمةٍ معي	لملكته ، وكظمتُ فيض الأدمع
قلبٌ كفاه من الصبابة أنه	لبّى دعاء الظاعنين وما دُعي !
ما القلب أول غادر فألومه	هي شيمة الأيام قد خلقت معي
ومن الظنون الفاتنات توهمي	بعد اليقين بقاءه في أضلعي

لقد كان شاعراً مِلء نفسه والزمن ، ولعل من المفيد التنبيه أن ديوانه المطبوع لا يحتوي إلّا على شعره في مصر وان معظم ما قاله في « الزريعيين » و « الفاتكيين » و « الاشراف » وغيرهم من سلاطين اليمن لا يزال بين الموؤدات وعسى أن يظفر الأدب العربي به كاملاً في يوم من الأيام .

٢٧ ـ السلطان عمر المناخي

[ت ٤٨٠هـ]

وهذا أحد الزعماء الشعراء الذين أبادت الأحقاد ، ووأدت التعصبات أخبارهم وآثارهم ، ولم يذكر في كتب التاريخ إلّا عرضاً ، وقد استطرد ذكره عمر بن علي بن سمرة في كتابه « طبقات فقهاء اليمن » وهو يتحدث عن كتاب « المهذّب » في الفقه تأليف الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إمام الشافعية في عصره وروى عنه قصة انتخاب الشيخ الشيرازي للخليفة العباسي المقتدي بأمر الله سنة ٤٦٧هـ وسماه عمر بن الأشعري المناخي وقال إن الملك علي بن محمد الصليحي طرده عن اليمن بعد أخذه ريمة ، فدخل

بغداد فوجد خليفتها قد مات ثم أورد عنه حكاية إجتماع أهلٍ بغداد وكيف رضى العلماء منهم أن يكون الامام أبو إسحاق الشيرازي عاقداً لمن يستحق الخلافة واختياره للمقتدي بأمر الله .

ولعل السلطان عمر المناخي كان من معارضي الدعوة الاسماعيلية فحارب الصليحي ، ولما تمكن ذهب إلى بغداد مستنجداً بالعباسيين كما صنع أمثاله قبله وبعده . ولكنه أخفق ، ثم قال إبن سمرة ولهذا المناخي مدائح في الامام أبي إسحاق الشيرازي كثيرة مشهورة ومنها قوله :

ولقد رضيت عن الزمان وإن رمى ... قومي بخطبٍ ضعضع الأركانا
لما أراني طلعة الحبر الذي ... أحيى الآله بعلمه الأديانا ،
أزكى الورى ديناً ، وأكرم شيمة ... وأمدّ في طلب العلوم عنانا
وأقل في الدنيا القصيرة رغبةً ... ولطالما قد أضنتِ الرهبانا ؛
صدق الرسول الطهر في إطرائه ... أبناء فارس جهرةً اعلانا
في كل عصر منهم علمٌ به .. ... يبدى الآله الرشد والتبيانا
منهم أبو اسحاق مصباح الورى ... وشهاب نورٍ كشّف الأدجانا
لله إبراهيم أيّ محقّق ... صلبٍ ، إذ ربّ البصيرة لانا
فتخاله من زهده ومخافةٍ ... لله قد نظر المعاد عيانا

***

ولم يترجم أحد لهذا السلطان الشاعر في ما أعلمه من مصادر ، ولعله لم يتمكن من الرجوع إلى اليمن بعد تمكن الفاطميين في اليمن وتوفي غريباً في بغداد حوالي عام ٤٨٠هـ والله أعلم [طبقات ابن سمرة ص ١٢٨ ـ ١٢٩] .

٢٨ ـ عمرو بن يحيى الهيثمي
[٤٠١ ـ ٤٧٥هـ]

شاعر الملك الصليحي ، وحادي ركابه ، ولسانه الذي يجادل وينوب عنه في معارك البيان ، عمرو بن يحيى بن الحسين الهيثمي ؛ وقل أن يرد اسمه في كتب التاريخ والأدب دون أن يقترن بلقب « شاعر الملك علي محمد الصليحي » . وهو لقب ضخم فخم لا يناطُ إلّا بذي جدارة ؛ وصدق أمير

شعراء عصره أحمد شوقي لما قال :

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقبُ !

فلقد كان علي محمد الصليحي عصامياً ، ولم يتم له ما تم من شأن ورفعة ومُلك ، إلا بجد وعزم وحزم ، وطموح لا تتوفر وسائل نجاحه ، إلا لأفذاذ الرجال ، ومثله لا يختار حادياً لركابه ، وشاعراً لمجلسه ـ مع كثرة الشعراء حوله ـ إلا ممن لا تنزلق لسانه لطمع ، ولا يتعثر قلمه لجشع ، ولا يرتعد قلبه لهلع !

لم يُفْرد له أحدٌ ترجمة فيما أعلمه من كتب التاريخ والتراجم ، تتحدث عن تاريخ ولادته ونشأته الأولى ، وموطن أسرته ، وهل هو من « حراز » بلدة الصليحي أم من غيرها . . غير أن خبراً استطرده المؤرخ الحصيف الحاذق عمر بن سَمُرَة في كتابه طبقات فقهاء الشافعية في اليمن وهو يتكلم عن ولاية بني الهيثم للتعكر وأعماله ، جاء فيه ما يلي « وكان في التعكر طعام كثير فأنفقاه مدة ولايتهما ـ أي أحمد ومحمد ابنا اسحاق الهيثمي ـ واقامتهما فيه ، وكان السعر غاليا ، وأظنه « سنة العروسين » التي ذكرها عمرو بن يحيى الهيثمي شاعر الصليحي في ديوانه يوم نهض لحصارهما أحمد بن عبد الله الكرندي من يوم الجمعة من جمادى الأولى سنة ٤٢٩هـ » الخ [ص : ١٠٦] . . يفتح لنا باب الاستنتاج الذي يدلنا على عدة أمور من حياة الشاعر الهيثمي وموطنه وكيف أصبح شاعر الداعي الصليحي .

فهو أولا من أسرة بني « الهيثم » التي حكمت « التعكر » من سنة ٣٤٢هـ حتى عام ٤٢٩هـ « سنة العروسين » المشهورة !

وثانيا : إنه قبل أن يتصل بالملك علي محمد الصليحي كان قد عُرف بالشعر ، وشارك مع أهله بني الهيثم في أحداث « التعكر » وحروبهم مع بَني الكرندي وتحدث في سنة ٤٢٩ عن عام المجاعة المعروف بسنة العروسين التي شهدت نهاية حكم أسرة « الهيثمي » للتعكر .

وثالثا : إن ديوان شعره كان معروفاً متداولاً عندما كان « ابن سمرة » يؤلف طبقاته سنة ٥٨٦هـ بعد مائة عام من وفاته .

كما نستطيع أن نستنتج أيضاً إنه بعد عام ٤٥٢هـ قد اختص بالملك محمد الصليحي ، وربما إنه قد التحق به قبل ذلك بعد أن تغلب آل الكرندي على أسرته بني الهيثم ، وإنه قد كان ضمن أصحابه والداعين له والمرافقين لفتوحاته التي طوى بها اليمن طياً مذهلاً سبق الحديث عنه والتنويه به .

ونستطيع بعد ذلك الاطمئنان إلى إنه من مواليد عام ٤٠١هـ وأنه قد نشأ في « التعكر » وتأدب في مدارس « إب » و « عدن » وغيرهما من مدن الجنوب ومدارسه الكثيرة في ذلك العصر .

ولا شك إنه لم يكن أصلاً إسماعيلي المذهب ، ولكنه لما التحق بالصليحي تعايش مع معتقداته ، ونحن نعلم ان الصليحي نفسه كان يُظهر التسامح ، وكذلك كان خلفاؤه وأهل بيته ، ولذلك كان ممن استوزرَ وكتب لهم ، وتولى القضاء معهم في زبيد والجند وعدن وغيرها الكثير من أدباء وعلماء وفقهاء الشافعية والأحناف أمثال ابن القم وعمارة ، والعندي واليافعي ، وبني عقامة . وربما صانعهم بعض الزيود من مخترعة ومطرفية .

وإذا ما اشتممنا رائحة « سَمْعَلَةٍ » في أشعاره فهو من هذا القبيل ؛ مجاملة المجاراة ، وعدوى المجالسة ، ما لم يظهر ما يصرح بتلك المعتقدات إذا ما عثرنا على ديوانه ، أو في كتب الباطنية والدعوة الفاطمية التي لا تزال موؤدة واعتمد عليها الدكتور الهمداني .

كما أن أحداً لم يذكر مصير « الهيثمي » ولا أين ألقى عصا التسيار ولا في أي عام توفي ، والظاهر وهو ما أرجحه ، أنه قد استسلم مع المكرم للراحة في مسقط رأسه « التعكر » ، بعد أن قبضت السيدة بنت أحمد على أزمة الحكم في الدولة الصليحية ، وخلد زوجها الملك المكرم إلى أمراضه وملذاته ! وإن شاعره قد توفي بعد أن جاوز السبعين ما بين عام ـ ٧٠ ـ و ٤٧٥هـ . . ومما يؤكد هذا الترجيح اننا لا نلتقي معه في أي نشاط أدبي أو سياسي في دولة الملكة السيدة .

نماذج من شعره :

أما المؤرخ « عمارة » ـ والمتقفّى أثره الكاتب العماد ـ فلم يزد كل على أن قال : « ومن مشاهيرهم عمرو بن يحيى بن أبي الغارات الهيثمي : شاعر

الداعي علي بن محمد الصليحي ، قال على لسانه :

سلي فرسي عني ودرعي وصعدتي وسيفي إذا ما المشرفية سلت ،
أنا ابن ربيع المجتدين محمدِ إذا المعصرات السود بالماء ضنَّتِ
وسمّيت في قومي علياً لأنني علوت ؛ وأحذيت الكواكب همتي .

وقال على لسانه أيضاً :

جفا نوم عينك أشفارها وقد كان لولا العلى زارها
وقلت لنفسي : إن الحياة ... على العيب مسبلة عارها !

وله على لسانه :

الحزم قبل العزم ؛ فاحزم واعزم وإذا استبان لك الصواب فصمّمِ !
واستعمل الرفق الذي هو مكسب ذكر القلوب ، وجدْ ، وأجملْ ، واحلمِ !
واحرس، وشن، واشجع، وصل، وامنن، وصل؛ واعدل، وأنصف، وارع، واحفظ وارحمِ
وإذا وعدت فعد بما تقوى على إنجازه ، وإذا اصطنعتَ فتمّمِ !

ثم أورد الأبيات التي قالها عند رحيل الملك من صنعاء واستخلف ابنه المكرم : ما لمن فارق الأحبة عذرُ

وقد سبق إيرادها ونحن نتحدث عن نهاية الصليحي عام ٤٥٩هـ .

بين شريف مكة والصليحي

ومن الأبيات التي كان يصطنعها الشاعر الهيثمي على لسان الملك الصليحي نستشف إنه كان يحمل قلب ملك ، ونتأكد من صدق استنتاجنا بأنه من الأسرة « الهيثمية » التي كانت تحكم « التعكر » • ويعود الفضل إلى مهارة حذق المؤرخ « ابن سمرة » والذي يتفرّد بين جميع المؤرخين اليمنيين بميزة حِرصه على تسجيل تواريخ الأحداث : اليوم والشهر والعام ولولا ذلك لما عرفنا متى ولد شاعرنا الهيثمي ولا إلى أي « هيثم » ينتمي ولظل بين المجاهيل رغم لقبه العظيم .

على أن قصيدته السينية الطويلة التي قالها على لسان الملك علي ردّاً على الشريف شكر السليماني تصور قدرة تقمصه لروح الصليحي ، وإنه كان قد أمتزج به ، وعرف كلٌ الآخر معرفة النفس للنفس ، واختلطا نحائز وسلوكاً

ومشاعر ! وقد ذكر الدكتور حسين الهمداني في كتابه « الصليحيون » إنه لما خرجت مكة عن طاعة المستنصر الفاطمي ، وقطعت الخطبة له سنة ٤٥٣ هـ أرسل علي الصليحي إلى واليها الشريف شكر الحسيني يحذره مغبة خروجه ، وان مراسلات تبودلت بين الطرفين تنطوي على كثير من التهديد والوعيد ، ومن ذلك قصيدة للشريف شكر بعث بها إلى « الصليحي » مطلعها :

لتفليق الجماجم والرؤوس ... وإقحامي خميساً في خميس

فأجابه الشاعر عمرو الهيثمي على لسان الملك بقصيدة طويلة جاء فيها :

دم الأبطال في اليوم العبوس ... مدامي ، لا شراب الخندريس ،
ولهوي بالنشيج إذا تلاقى الوشيج بمعرك حامي الوطيس
أحب إليّ من نغمات عودٍ .. ... وصادحة تغرّد عيطموس ،
ولولا فضل من لبى ، وجدوى ... معدّ ، ذي الندى الغمر المسوس
لكنت حليف اقتار حبيساً ... بدار صريع أفيون شريس !
أفق عن عيب أجدادي ومجدي ... فما بأسي بمفلول الضروس
ولا بيتي بهمدان بن زيد ... بمجهول الفروع ولا القنوس
أنا ابن حماتها ، وذُرا قناها ... أنا ابن عنابس الحرب الضروس
انا ابن سراتها الحكام فيها ... ذوي الأفضال مرضي المسيس
نماني كل أغلب حاشديٍ ... عدوٍ للخَنَا ، عنهُ شموس
بَنَوْا ، وأتمّ مفخرهم بنائي ، ... وقوى حبل مجدهم فريسي
وكم ملك أسرت وكم خميس ... أباد سراته قتلاً خميسي
وكم نقع أثارتهُ رعالي ، ... فخيل الجو منه في سدوس
وكم قوم نعشتهم ، وقومٍ ... طحنتهمُ ، وحصن من مريس
بني حسنٍ ، الا تنهون شكراً ... عن استمطاره سحب النحوس ؟
أتاني السبّ عنه وقال إني ... إذا أقسمت أحلف بالمجوس
ألا قسمٌ بغير « أبي تميم » ... وأسرته البدور من الشموس ؟
متى اذن الامام بحرب شكر ... أتته بالردى خيلي وعيسي
بني حسن حذار ! إذا أتتكم ... جنود الله بالخطب الشكوس

وقد نقل الدكتور القصيدة من مخطوطة عيون الأخبار لادريس بن الحسن القرشي المتوفي عام ٤٧٢هـ وهو من علماء الاسماعيلية المعاصرين للصليحي

وشاعره ، ويقول إنها طويلة ، ولعل في موسوعة « العيون » الكثير من أشعار « الهيثمي » وغيره من شعراء تلك الفترة . والكتاب بأجزائه السبعة بالمكتبة المحمدية الهمدانية [الصليحيون ص : ٨٩ ـ ٩٠] .

مرثاته للأعز الصليحي

وأورد له مؤلّف « العيون » قصيدة طويلة يرثي بها الابن الأكبر للملك الصليحي الأعز محمد بن علي في المحرم سنة ٤٥٨هـ وقد اختار الدكتور الهمداني منها الثلاثة الأبيات التالية :

فتزلزلت شمّ الجبال لفقده وأضلّ سالكه الطريق اللهجَمُ
والشمس كاسفة عليه حسرة ، والجو في وقت الظهيرة مظلم
ان تهدم الأيام عمر محمدٍ فسناؤه فوق السهى لا يهدمُ !

***

مرثاته للملك الصليحي

كما نقل الدكتور الهمداني من مخطوطة « العيون » بضعة أبيات قال إنها من قصيدة طويلة رثى بها الملك علي بن محمد بعد أن اغتاله جيش سعيد الأحول النجاحي في المهجم سنة ٤٥٩هـ وهي :

وأنشأ الحجّ إلى مكةٍ يبغى رضا الله وآل البتولْ ،
وارتجتِ الأرض له خيفة بمن بها بين فرات ونيلْ
وقام بالجيش وأضرابه شم العرانين كرام الأصولْ
فصار في المهجم في عصبةٍ من قومه غالته دهياء غولْ
كالليث في الغابة دبّت له رقطاء ليلاً ذات شخص ضئيلْ !
فان يكن نيل على غرةٍ فالبدر لا بد له من أفولْ

***

وله من أخرى أنشدها المكرم بعد أن عاد من زبيد بجثتي والده وعمه وتم دفنهما في جبّانة « صنعاء » :

وكيف لا نبكي ملوكاً عنت لهم ملوك الشرق والمغربِ
دارت رَحى بأسهمُ من قُرى الشّحر إلى نجد ، إلى يثربِ

بما حوى البحرُ ، وشادوا العلى ، وأدركوا ثارات آل النبي
لم تطلع الشمس على مثلهم من غيرهم جوداً ، ولم تغرب
ولم يمت مجدهم ، إنما غيّبت الأجساد في التّرْب
وسعيُ ذي السيفين يحييهم ما لاح في الليل سنى كوكب

***

على قبر الصليحي :

وينقل الدكتور الهمداني عن صاحب العيون ان المكرم قد بنى على قبر أبيه مشهداً ولكن « المتغلبون » هدموه بعد تقلص النفوذ الصليحي وذكر إن بعض الشعراء قد كتبوا على القبر أشعاراً ومنها هذه الأبيات ذات الأسى والحزن ، واخلق بها ان تكون من نَفَسِ شاعر الملك عمرو بن يحيى الهيثمي :

في القبر ليثٌ وبحرٌ زاخرٌ وجدى جودٍ ، وطودٌ وضرغام وصمصامُ !
فاعجب بأن ضمّ هذا كله جدثٌ بدا له في قلوب الناس إعظام
فطف به واقض حقّ المجد ان له حقاً على كل حرّ جدّه سامُ ..
هذا الذي أمسِ رُجَّتْ خوف سطوته نجدٌ وبغداد والاحساء والشام
حتى إذا قيلَ هذا ما له مثلُ من الانام تولّت قتله حام

***

تعقيب

لعل استنتاجاتي لم تعتَسِفْ ، ولا حادت عن الصواب أو ما يقرب منه ، في تقدير تاريخ ولادة شاعرنا الهيثمي وتحقيق نسبه وموطن نشأته الأولى ، استناداً إلى استطراد ذكي للمؤرخ الثّبْت « إبن سمرة » ، وإذا توفّق باحث ما فيما بعد ، واطلع على ما ينفي إنه عاش حتى عام ٤٧٥هـ وإنه لم يعش طويلاً بعد مليكه الصليحي ، فهو ما نتصوره أيضاً فلا شك ان حزنه عليه كان شديد الوقع على نفسه وشاعريته ، ولنفس السبب كان الترجيح إنه قد أخلد إلى الراحة مع الملك المكرم في « التعكر » ، حتى وافاه أجله المحتوم ، وإذ نعلن الأسف على ضياع ديوانه الذي أطلع عليه ابن سَمُره ، لا ندري هل سيسامح التاريخ الظروف الكئيبة وصراعاتها الطائفية ، ومنافساتها

العشائرية ، وتحزّباتها المذهبية ؛ وكلها قد تآمرت على إبادة آثار أمثال شاعرنا الهيثمي خلال الفترة التي نتحدث عنها ونؤرخ لآدابها ؟!

٢٩ ـ الغرنوق
[حوالي عام ٥٤٥هـ]

شاعرٌ عاصر « عمارة » ومع ذلك لم يهتم بذكر إسمه عندما أراد أن يعرّف به ، ضمن من تحدث عنهم من شعراء اليمن ، واكتفى بهذا اللقب « الغرنوق » الذي يطلق على الشاب الأبيض الجميل تشبيها بالطائر المائي المعروف ، كما ان عمارة ، والاصفهاني لم يذكرا موطنه الأصلي واكتفيا بالقول إنه ليس من أبناء تهامة بل من الطارئين عليها ؛ قال : « ومن جيّد ما قاله قصيدة يمدح بها القاضي المعروف بالحفائلي أولها :

علِقَتْ مقاليدُ الامامَه بالشمّ آل أبي عقامه
القومُ ؛ رَاحَةُ طفلهم في المهد تهطل كالغمامه

ومنها في المدح وهو طائل في معناه ـ كما يعلّق العماد الاصفهاني :

وإذا العروبة أسفرت عن وجه مصقعِه لثامَه
هنى منابرهُ الأذان به ؛ وعزّته الاقامَه

وأراد بالعروبة يومها ؛ وهو يوم الجمعة . وهو يعني ان « الصلاة » ستتأخر وسيؤخذ الناس بخطبته : قال عمارة : « وهو القائل في الوزير مفلح الفاتكي [ت ٥٢٩هـ] وكان حبشياً مَلعُوطاً :

أكرم وجهٍ خطه كف لاعطِ فدت لعَطا منه خدودُ الأشابط

وقد ورد البيت محرفا في النسخة المطبوعة ؛ وأما الأشابط ؛ فهم عرب بلاد ريمة ، وفي البيت ما لا يخفى من التحقير لهم ؛ والألعاط خطوطٌ تخطها الحبش في وجوهها الواحد لَعَط .

وقال عمارة : ودخل هذا الشاعر عند الفقيه ابن الأبار ، بزبيد وقد تضايق المكان لكثرة الطلبة فارتجل يخاطبه :

مجلسك الرحب من تزاحمه لا يسع المرء فيه مقعده
كلّ على قدره ينال ؛ فذا يلقط منه ، وذاك يحصده

وقد قلتُ : انه من معاصري « عمارة » لأنه قد مدح القاضي محمد ا الحفائلي وهو ممن عاصرهم وعاشرهم وكاثرهم عمارة من بني أبي عقامة كما سيأتي في ترجمته فلعل وفاته حوالي عام ٥٤٥هـ والله أعلم .

المحمدون

هنـاك كوكبة متألقة من شعراء اليمن في العصر العباسي يعرفون باسم « محمد » ومن بينهم من كان إماماً ، وأميراً ، وسلطاناً ، وفقيها ، وقد سبق أن تحدثت في السفر الأول عن بعضهم مستندا إلى كتابي « المحمدون من شعراء اليمن » والذي يؤلف الجزء الخامس والسادس من مؤلّفي « شعراء اليمن في الجاهلية والاسلام » وإلى المصادر الأخرى كتاريخ عمارة « المفيد » و « الخريدة » و « المحمدون » للقفطي وطبقات الزيدية وطبقات الشافعية وغيرها . وذكرت من نبغ منهم أو قال شعراً أثناء الفترتين الأولى والثانية ؛ فترة الفتن والثورات ثم الفترة الهادوية ؛ أُسْهِبُ حين أجد المجال ذا سعة ، وألجأ إلى الايجاز والاختصار إذا كان أولى وأجدر وأجدى .

ولقد كان فيهم كما قلنا ؛ الامام والمحدث والفقيه والسلطان فذكرناهم ونحن نتحدث عن أضرابهم وطبقاتهم من غير « المحمدين » ومنهم :

١ ـ الشاعر الرئيس الفارس محمد بن أبان الخنفري المتوفي عام ١٧٥هـ .
٢ ـ الشاعر محمد بن مناذر العدني المتوفي سنة ١٩٨هـ .
٣ ـ محمد بن عبد الله العرزمي الحضرمي .
٤ ـ محمد بن زياد الحارثي . من المعاصرين للرشيد .
٥ ـ محمد بن يسير الرياشي . من المعاصرين للرشيد .
٦ ـ محمد بن وهيب الحميري . من معاصري المأمون بن الرشيد .

وتعرّضنا في الفترة الهادوية لكل من :

٧ ـ الامام المرتضى محمد بن الهادي [ت ٣١٠هـ] .
٨ ـ محمد بن ابراهيم ابن أبي الأسد الصنعاني . من معاصري الامام الناصر .
٩ ـ محمد العوسجي . من معاصري الناصر والهمداني .
١٠ ـ محمد بن افنونة [ت ٣١٥هـ] .
١١ ـ محمد بن أحمد الأوساني [ت ٣٦٠هـ] .

١٢ ـ محمد بن الحسن الكلاعي [ت ٤١٠هـ] .
١٣ ـ محمد بن الوقّار ؛ من معاصري الكلاعي .
١٤ ـ محمد بن الخطاب العدوي ؛ من معاصري الكلاعي .
١٥ ـ محمد بن عبيد الصنعاني ؛ وهو من معاصري محمد بن الحسن الكلاعي .
١٦ ـ محمد بن الحسن بن دانة من المعاصرين للكلاعي أيضاً .
١٧ ـ محمد بن عبد الله الحميري شاعر الامام أحمد بن سليمان وصاحب القصيدة في معركة « الشرزة » عام ٥٥٢هـ .
١٨ ـ الفقيه محمد بن عمر العمراني المتوفي عام ٥٧٢هـ .

فهؤلاء « المحمدون » الثمانية عشر من شعراء اليمن في العصر العباسي هم الذين سبق لنا التعرض لذكرهم في الفترتين السابقتين لفترة العهد الصليحي ، ولا أدعي أنني قد أحطت بالجميع ، ولم يندّ عني أحد ممن تشرّف بهذا الاسم الكريم ؛ لكني أزعم اني قد حاولت الاحاطة جهدي .

وضمن « المحمدين » من شعراء ما اصطلحنا على تسميته بالعهد الصليحي [٤٣٩ ـ ٥٦٩هـ] من سنمر عليهم مرور الكرام إذ لا نستطيع أن نفرد لهم تراجم لندرة أخبارهم ، ولأن المؤرخين قد بخلوا علينا بأشعارهم لأسباب طائفية أو سياسية ولم يتعرضوا لذكرهم الا استطرادا دون تحديد تواريخ لولادة أو وفاة ؛ ومنهم من لم يُسَجَّل لهم من الشواهد الشعرية إلّا البيت والبيتان والقطعة أو القطعتان ، ومع ذلك يصفونهم بالاكثار والاجادة ولا يمكن تجاهل هؤلاء ولا أولئك ؛ فسنشير إلى اسمائهم ونستعرضها كما فعلنا في السفر الأول نلجأ إلى الايجاز حين لا نجد مجالاً ، ونسهب إذا وجدنا مجال القول ذا سعة ؛ آملين أن يتمكن المنقبون والباحثون في المستقبل من العثور على ما لم نتوفّق للاطلاع عليه ، وان تكون هذه الأبحاث مشاعل هداية ترشد إلى مجاهل الآداب اليمنية الضائعة وما لا يزال منها موؤدا ، ولم يصبح مفقودا .

وسأعود الآن بالقراء وأنا أتحدث عن « المحمدين » في « العهد الصليحي » إلى الترقيم المعجمي الذي انتهجته ونورد أسماءهم في كتاب « المفيد » للمؤرخ الشاعر عمارة الحكمي .

٣٠ ـ الشاعر الثلاثون في سلسلة شعراء العهد الصليحي هو محمد الأعرج الحكمي وقد ذكره عمارة عرضاً وهو يتحدث عن شعر آل أبي الحسن وقال كان قداحاً مداحاً لا يصحو إلا إذا افتقر ولم يحضرني من شعره شيء مع كثرة ذلك باليمن [مفيد ص : ٢٩٤] وهو التاسع عشر في الصف المحمدي ومنه سننتقل إلى شاعر قد تكون وقفتنا معه طويلة وممتعة .

٣١ ـ محمد بن زياد الماربي
[ت حوالي : ٤٩٥هـ]

من أعلام اليمن في أواخر القرن الخامس الهجري الشاعر الكريم الوفي اللغوي الرحالة العالم الزيدي محمد بن زياد الماربي ؛ نسبة إلى « مارب » المدينة المشهورة بسدّها العتيد .

وقد تجاوزت شهرة الماربي اليمن وتحدث عنه بعد عمارة العماد الأصفهاني ، والقفطي وياقوت الحموي وابن أبي الرجال وغيرهم ، وعبث غير اليمنيين بلقبه فمنهم من جعله « المازني » ؛ كياقوت الحموي : [معجم ج ـ٢ ـ ص ٤٧١] ؛ ومنهم من حرّفه إلى « العرياني »كالقفطي : [المحمدون : ص : ٣٣٢] ؛ وقد يكون ذلك تطبيعاً ، أو من تصحيفات النسّاخ ولم ينتبه المحققون ، أو أنها نسبة زايدة على النِّسبة إلى « مارب » .

وقد وصفه مترجموه بالوفاء والكرم ؛ وبلغ من وفائه لصاحبه الشريف الأمير عيسى بن حمزة السّليماني بعد غدر أخيه يحيى بن حمزة به ، أن نذر حزيناً وأقسم ، أن لا يرى الدنيا إلّا بعين واحدة ؛ ولمّا لم يتمكن من قلع إحدى عينيه غطّى الأخرى بخرقة إلى أن مات ، وقال في ذلك شعراً ، وبلغ من كرمه واتلافه للمال أن آلاف الدنانير التي كان ملوك وأمراء الطوائف والمشيخات اليمنية يهبونها له ما إن تمكث في حوزته إلّا ريثما تتبدّد كالرمال في عصف الرياح ويوزعها في المكارم والمغارم .

ولقد كان مداحاً محسنا ، وفّاداً على أمراء عصره ؛ والجميع يتنافسون عليه ، ويتبارون في تقريبه واكرامه لا فرق بين « القاسميين والسليمانيين والصليحيين والزريعيين » ، وله مع ذلك طموح علميّ وأدبي ، وطمع في أن يغادر الجزيرة إلى مصر وأفريقيا ؛ وكان ذا عقل واسع الأفق لا يضيق بجدلٍ

أو حوار مع شتى طوائف زمنه ، من مطرفية وأباظية واسماعيلية وشافعية ، وأما أصوله التي يركن اليها فهي كما يقول ابن أبي الرجال في « مطلع البدور » أصول المذهب الزيدي .

وسبق الحديث عن ابنه الشاعر علي الماربي ، وقلنا انه كان عفّ اللسان ولعله ورث ذلك عن أبيه الوفي الكريم .

نماذج من شعره :

يقول عمارة : « ومن شعراء اليمن محمد بن زياد الماربي من مارب مدينة السد ، كان مداحاً للملوك محسنا ، ووفّاداً عليهم .

وكان أكرم الناس بما ملك ، ومدح المفضل بن ابي البركات فوصله بألف دينار فقال من شكره في قصيدة له :

ووهبت لي الألف التي لو انّها ... وزنت بصم الصخر كانت أبهرا

وأوّل من نوّه باسمه الشريف الأمير عيسى بن حمزة السليماني فانه وصله بصلات جزيلة وعامله بمكرمات جميلة .

وحدثني والدي وعمره مائة سنة وخمس سنين قال لما كان من دخول صبابة الغز إلى اليمن ما كان ، أخذت الغز الشريف الأمير يحيى بن حمزة أسيراً إلى العراق وبقى أخوه الأمير عيسى بن حمزة أميراً في البلاد ، فلم يزل يجتهد ويكاتب ويبذل الأموال حتى أفتكّ أخاه ، يحيى بن حمزة من العراق .

فلما عاد الى عثّر دبّر على أخيه عيسى فقتله وملك الأمر فقال محمد بن زياد قصيدة يذكر فيها قتل عيسى ، ويرثيه ، وينعي على يحيى فعله في أخيه ؛ ولم أكتب منها إلاّ ما علق بحفظي في المكتب وهي طويلة فمنها بعد غزل طويل :

خنتَ المودّة وهي ألأم خطّةً ... وسلوت عن عيسى بن ذي المجدين
يا طفّ عثّر أنت طفّ آخرٌ ... يا يوم عيسى ؛ أنت يوم حُسينَ
قد كان يشفي بعض ما بي من جوى ... لو طاح يوم الروع في الخيلين
هيهات أنّ يد الحمام قصيرة ... لو هزّ مطرد الكعوب رُدَيني
أبلغ بني حسنٍ وان فارقتهم ... لا عن قلى وحللت باليمنين
اني وفيت بعهد عيسى بعده ... لا . . لو وفيتُ قلعتُ أسود عيني

وكان ولشدّة جزعه وكثرة وجده على عيسى قد نذر ان لا يرى الدنيا إلا بعين واحدة فغطّى احدى عينيه بخرقة إلى أن مات ولما قرب موته قال :

قرّت عيـون الشـامتين واسخنت عيـني على من كان قرّة عيـني

ولما انتهى الشعر الذي رثى عيسى إلى أخيه يحيى القاتل ، غضب وقال جلّدني الله جلدة المازبي لأسفكن دمه فقال المازبي :

نبئت انـك قد أقسمت مجتهـداً لتسـفكن على حُر الـوفـاء دمي
ولـو تجلّدت جلدي ما غدرت ولا أصبـحت ألأم من يمشي على قدم

وله من غزل قصيدة يمدح فيها بني نفاثة من آل همدان :

ما لقينـا من الـظبـاء العـواطي خافـقـات الـقـرون والأقـراط
هجَّنتْ بالبـدور والـدر والـور دِ ، وازرت بالـرمـل والأخـواط ؛

وقال يمدح أبا السعود بن زريع :

يا ناظـري قل لي تراه كما هوَه اني لأحـسـبـه تقـمّص لؤلـوَهِ ؛
ما إن بصرت بزاخـرٍ في شامـخٍ حتى رأيتـك جالساً في «الدملوَه» !

***

وحـدثني الفقيه أبـو علي الحسن الـربعي قال : هجا المازبي رجلاً من سلاطين اليمن فاعتقله لينظر فيما ذكر عنه فخاف المازبي أن يتم عليه مكروه فكتب من السجن إلى سلطان آخر كان صديقاً له هذين البيتين :

أسفّ إن طار ، أو طِر إن اسفّ وإن لان الفتى فاقسُ أو يقسو الفتى فلِن
حتـى تخلّصني من قعـر مظلمـةٍ فأنـت آخـر سهـم كان في قرني

فركب الـرجـل وكسر الحبس وأخـرج المازبي وسلمه إلى من يمنعه من قومه ؛ ثم لقى السلطان فشفع اليه فيه واعتذر من كسر الحبس » .

هذا هو كلّما حدثنا به عمارة عن الشاعر المازبي واقتفاه العماد فنقل ما حكاه عمارة لم يزد شيئاً ، ولا ذِكْر لسنة ولادة أو وفاة ، ونظن انه لولا حافظة عمارة التي ظلّت واعية مستوعبة لما علق بها أيام الدراسة في « المكتب » كما يقول لضاع اسم المازبي مع ما ضاع من شعره .

ثم يأتي العلامة « القفطي » [ت ٦٤٦] فيترجم في كتابه « المحمدون من الشعراء » لمن سمّاه محمد بن زياد بن أحمد العرياني الشعثمي الصدائي اليمني فيقول : « ذكره اللحجي في كتاب الأترجّة » فقال : « وكان محمد بن زياد رجلاً نحوياً عروضياً متكلما ، فرضياً ، راوية ، آخذا من سائر العلوم بحظ لا سيما من علم لسان العرب وما يتعلّق به ، مشهوراً بذلك ، وكان مع هذا يظلم نفسه » ! « وكان كثير التنقل في البلاد اليمنية لا تقرّه بقعة ، وكان يحدّث نفسه بالخروج عنها إلى أرض القيروان لينازل عربها أهل البوادي والقباب ، ويترك عرب اليمن بحكم انهم أهل قرى ومدن وله شعر منه :

ألا من مبلغ عُلَةَ ابن جَلْدٍ ... على ما كان من نأي وبينِ

إلى أن يقول :

قبيلي من بني العريان عمر ... وهمّام بأعلى الواديَيْن
وشمّ في لحيّة من رجالي ... بني حسن ، وعزّ بني الحُصَين
أما لو شئت ما وخدت ركابي ، ... وحال البعد بينكم وبيّني ؛
ولا قصدت جيادكم جيادي ... عليّ شديد صوت الصارخيْن
ولكن أمطرتني في شبام ... مواطر للثريّا ، والبطَيْن

***

وإذا لم تكن لفظة « العرياني » تصحيفاً للفظة « الماربي » كما يشعرنا البيت الذي ذكر فيه « بني العريان » وزعم انهم قبيله الذي اليهم ينمى وينتسب ، فهل محمد بن زياد هذا شاعر آخر غير الماربي الزيدي ؟

وإذا كان محقق كتاب « المحمدون » ، ومراجعه وعارضه على نسخة المؤلف الأستاذ حمد الجاسر قد أشارا في الهامش إلى ترجمة عمارة له ، وإلى البيتين اللذين قالهما في ابي السعود الزريعي فهل نستطيع الجزم بأنه هو الماربي لا غيره ؟

ونحن نعلم ان كتاب « الأترجّة » الذي نقل عنه « القفطي » لا يزال ضمن كتب مسلّم اللحجي المفقودة ، وعند العثور عليه سيزول اللبس وقد نعرف طائفة أخرى من شعراء اليمن المجهولين .

وإذا كان « القفطي » قد نقل عن « اللحجي » ما يدل على أن « العرياني » أو « الماربي » كان « عالماً نحوياً آخذا من سائر العلوم بحظ ولا سيما من علم لسان العرب » ؛ وهي لا تعدوا الصفات التي نعته بها ابن أبي الرجال في مطلع البدور بقوله : « الشيخ البليغ فخر اليمن لسان البلاغة والعلوم » وقوله : « كان عالماً فصيحاً جيد النظم يزاحم أبا تمام وأضرابه » وقال : « انه قرأ العربية وأتقن علومها وآدابها على العلامتين إبني أبي رُزين علي وموسى ابني أحمد وكانا عالمين مقدمين في العربية تشد اليهما الرحال » فهل يؤكد هذا التطابق أو التقارب في النعت ان « العرياني » هو الماربي وان قبيلة « بني العريان » وسائر الأسماء للأماكن والقرى في شعره الذي أورده « صاحب الأترجّة » من القبل المصاقبة لمارب شرق وجنوب شرق صنعاء ؟ أما أنا فأطمئن إلى هذا وأدع لعلماء الجغرافيا والبلدان والأنساب البحث والتنقيب .

وفاته :

لم يشر أحد ممن حاول التعريف بالماربي إلى تاريخ ولادته أو وفاته ، ويظهر من أحاديث والد عمارة المعمّر عن « الغز » واخذهم للشريف يحيى بن حمزة السليماني وهو ما حدث لما استعان بهم جياش في حروبه مع سبأ بن أحمد الصليحي في قصة غريبة طريفة حكاها عمارة ، ومن قوله وهو يتذكر قصيدة الماربي النونية التي قالها يرثي الشريف عيسى انه قد تحفّظها وهو طالب في « المكتب » ان الماربي من رجال النصف الأخير من القرن الخامس وقد عاصر نشأة الصليحيين وحروبهم مع النجاحيين كما انه قد مدح السلطان المفضل بن أبي البركات الذي نعرف أنه توفى سنة ٥٠٤هـ كما مدح أبا السعود بن زريع صاحب عدن الذي توفي في نفس الفترة ثم لم نسمع له بأي نشاط شعري مع سلاطين وأمراء بداية القرن السادس فلعله توفى عام ٤٩٥هـ وخلّف ضمن من خلف ، إبنه علياً الشاعر الذي سبق أن قلنا انه توفى حوالي عام ٥٦٩هـ .

قصة الغز !

أما قصة الغز التي قلنا انها غريبة وطريفة فقد حكاها عمارة في تاريخه « المفيد » وهو يتحدّث عن وزارة مفلح الفاتكي ، ووردة جارية الأمير عثمان الغزي ، وقد سبق ايرادها ونحن نستعرض الحياة الاجتماعية في زبيد أثناء

حكم النجاحيين ومواليهم في السّفر الأول . وعرفنا أن جيّاشاً أثناء الصراع بينه وبين سبأ بن أحمد الصليحي والسيدة الملكة أروى كان قد استأجر ثلاثة آلاف من فرسان « الغزّ » ، ولما فصلوا من مكة إلى اليمن ندم وعرف انهم اذا تقوّت شوكتهم فسيستولون على « تهامة » متذكراً قول المتنبي :

ومن يجعـل الضرغـام بازاً لصيـده تصيـده الضرغـام فيمن تصيّـدا

فأمر ولاته على البلدان الذين يمرون بها في طريقهم إلى زبيد ان يطرحوا لهم السموم فيما يأكلون ويشربون ويلبسون ، فمات منهم بشر كثير ولم يخلص منهم إلى زبيد إلاّ ألف فارس ؛ وكانوا هم الذين وطّدوا له الحكم في تهامة واقطعهم الاقطاعات الواسعة . وهم أصل « الغز » الذين استوطنوا اليمن .

هل كان الماربي مطرفيا ؟ :

لقد قال المؤرخ ابن أبي الرجال إن الماربي كان زيدي المذهب ، ولكنه أشار إلى أن شيخه علي بن أبي رزين وأخاه موسى اتهما بالتطريف . ونحن نعلم إن « المطرفية » فرقة زيدية ، وسوف نتعرض لذكر بعض المسائل التي خالفوا فيها « المخترعة » وغيرهم من الزيدية ، ونتحدث باسهاب عن مبادئهم السياسية ، ونظرياتهم العلمية ، وعن محنتهم الدامية والمجزرة الرهيبة التي أبادتهم عندما نتحدث عن الامام عبد الله بن حمزة [ت ٦١٤هـ] .

ولا أستبعد إن محمد بن زياد الماربي كان كأمثاله من نوابغ عصره ، وفطاحل القرن الخامس الهجري ، وأنه قد ضاق ذرعاً بما كان يسود الساحة اليمنية سياسياً واجتماعيا وفكريا ، وبأباطيل وأضاليل ودعاوى وخرافات الطوائف سواء من قبل الاسماعيلية ودعاتها في صنعاء وجبلة وعدن ، أو ورثة النظرية والسيادة السلالية من هادويين ، وعيانيين وسليمانيين ، أو من قبل المشايخ والسلاطين المتناحرين المتكالبين على السلطة والجاه هنا وهناك ، والموالي والغز وعبيد النجاحيين يعيثون ويعبثون في تهامة وزبيد ، وأنه قد عراه من الوحشة والأسى ما اعترى قبله « اليَهري » و« الهمداني » و« الطبري » ؛ واقتنع بوجهة نظر أستاذه ابن رُزين في « التطريف » ، ولكنه لم يستطع مثله العزلة والزهد فمال أولاً إلى ملوك وسلاطين الجنوب في

« التعكر » و« عدن » لأنهم أرق أفئدة وأندى أكفاً ، من اخوانهم واضرابهم في الشمال . . ثم عنّ له الابتعاد عن وطنه ، وان يهاجر إلى القيروان كما نقل « القفطي » عن الشيخ مسلم اللحجي مؤرخ « المطرفية » ولكن أجله وافاه .

لعل ذلك ما كان وأخلق به أن يكون وقد نقبت في المظان افتش في تراجم معاصريه عسى أن أجد خيطاً يدل على ما يؤيد هذا القول ؛ فلم أجد الا ما يشير إلى أن قوماً قد نددوا باتجاهات المازبي التي خالف بها من ضاق بهم ذرعاً مذهبا وسياسة وأسلوب حياة . . وفي اشارة عابرة خلال استطرادٍ موجز للعلامة يحيى بن الحسين وهو يترجم للعلامة « علي بن أبي رزين » في « المستطاب » قال « من سكان وقش ، كان علامة اليمن ، واستفاد على يده جم غفير في علوم الآداب وكان يدرّس مقالة « اقليدس » ولم يكن يعرفها في اليمن غيره في زمانه ؛ وربما امتدح بعض تلاميذه الملوك كمحمد بن زياد المازبي ، ومحمد بن السميدع ، ومحمد بن الصبري وقد تغيّرت حالات هؤلاء ؛ فأما المازبي فانه انهمك في مدح الملوك بالجبل وتهامة وأخذ منهم الأموال الجزيلة ، واما ابن السميدع فخرج إلى مذهب الباطنية ، وأما ابن الصبري فخرج إلى مذهب الحسينية حتى قال بعض أهل زمانهم :

فمحمدٌ ومحمدٌ ومحمدٌ خرجوا من الدين الصحيح إلى الردي .

[ص : ٨٥ ـ ٨٦ مستطاب] .

فوائد الاستطراد

يعيب الحرفيون من المتخصصين في حرفةٍ أو صناعةٍ ما ، أو المنقطعين إلى ممارسة فن من الفنون لا يتقنون سواه ، ولا يحسنون غيره ، بل ولا يطيقون الخروج من دائرته . . يعيب هؤلاء العالم أو الكاتب أو الخطيب إذا كثُرت استطراداته ، ولوّن الكلام وتنقل به من موضوع إلى آخر ؛ وهم لا يعرفون لضيق دائرة معارفهم ، وضحولة دراساتهم المنهجية ، التي تضع على أفكارهم وبصائرهم ما يضعه سائس حصان المركبة ، أو مدير جمل الساقية على عيني وسالفة جمله أو حصانه ـ لا يعرفون إن تلك الاستطرادات وذلك التلوين والتنقل من أهم ما يحرص عليه العالم المتبحر ، أو الكاتب المترسل ، أو الخطيب المصقع ، أو المؤلف المتمكن من معرفة مادته والهادف إلى ترسيخ

ما يريد ترسيخه في ذهن القارىء أو المستمع ؛ وان الحاذق الخريت ، واللوذعي الألمعي هو الذي يتوفق في تحقيق ما يهواه في هذا الشأن وبذلك لا بغيره برع واشتهر وتفوّق أفذاذ اعلام العربية عبر العصور .

وفي كثرة الاستطرادات العلمية والتاريخية والأدبية ـ شريطة أن تكون ذات صلة بالغرض الذي يكتب من أجله الكاتب ويخطب الخطيب ـ فوائد شتى للقارىء والمستمع بل وللمنشي نفسه ، ولا يستطيعها ويتقنها فناً وأسلوب أداء إلا الأديب المتمكن الآخذ من كل فن بطرف .

ولقد رأينا كيف استطعنا أن نستخرج تاريخ ولادة ووفاة بل وموطن ونسب الشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي من استطراد قصير أورده المؤرخ الحاذق عمر بن سمرة وهو يتحدث عن ولاية بني الهيثم على « التعكر » وأعماله ؛ ولولا ذلك الاستطراد لما عرفنا له مكان نشأة ، ولا استنتجنا تاريخ ولادته ، ومقرَّ مصيره .

ولقد استطرد المؤرخ الأديب ابن أبي الرجال وهو يترجم للشاعر محمد بن زياد الماربي ، وذكر أساتذته في علوم النحو والعربية فقال : « وقرأ العربية واتقن علومها على العلامتين ابني أبي رُزين علي وموسى ابني أحمد وكانا عالمين مبرّزين في العلوم ، مقدّمين في العربية ، تُشَد إليهما الرحال ، إلاّ إنهما نُسِب إليهما « التطريف » ففاتتهما الوساطة في الشرف ، ولولا ذلك لكانا من مفاخر العصابة الزيدية ، ونسبهم في الأزد فمنهم من سكن صعدة ومنهم من سكن صنعاء وشبام ، واحسب أن نسبهم إلى رُزين السابق ذكره ، فصحبهما الماربي وغيره من أفاضل النحاة باليمن كأسماعيل بن علي بن عبد الله الأبار ؛ وكان اسماعيل هذا صاحب أدب وفصاحة ، وخط جيد ، وشعر حسن وكان قد تعبّد مع المطرفية ! ثم ولع بمدح « الأصلوح » ـ يعني الصليحيين ـ والزواحيين وابن وائل الكلاعي وسلاطين الجند وغيرهم وتظاهر بشرب الخمور ، وله أخبار ونوادر لانه كان سريع البادرة ، وحيّ النادرة ، ولما ولع بهذه النقائص وزهد شيخه ابن أبي رزين في التدريس لعلوم العربية احتاج الناس إلى الرحلة من اليمن إلى مصر ؛ فرحل العلامة ابن أبي يحيى البحيري إلى أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني » [ص : ٣٥٦ مطلع ق ١٠ مخطوطتنا] .

وقد دعاني هذا الاستطراد إلى مراجعة ترجمة ابن أبي الرجال للعلامة رزين بن أحمد الذي كان من أعوان الامام القاسم بن علي العياني [ت ٣٩٣هـ] فإذا به يستطرد ذكر بني رُزين ويتحدث عن الأخوين شيخَيْ الشاعر محمد الماربي ، مشيراً إلى إنهما كانا « مطرَّفيين » ، ويقول : « وكان علي وموسى ابنا أحمد بن أبي رُزين من رجال « التطريف » وكانا وحيدين في علم العربية ؛ فأما علي فامام لا يلحق في النحو ، واشتغل بشرح كتب نحاة اليمن نحو كتب ابن أبي عبّاد [ت : ٤٤٠هـ] فأتى فيها بالعجائب - ولما مال إلى الورع أقفرت معالم النحو ، فرحل الطلبة عن اليمن كالعلامة ابن يحيى البحيري إلى مصر قاصداً محمد بن عبد الملك الشنتريني » ثم قال : « وكان بخط علي بن رُزين كتاب « إقليدس » في الهندسة فلما مات بيع بثمن صالح ! فكان يتأسف عليه الفضلاء ؛ لأن كُتُبَه لا تحتاج إلى مذكرة ولا معلم » ! قال ومن كلام علي بن رزين : « لا تتكلموا مع العوام في الدقائق ، ولا تناظروا خصماءكم بين أيديهم فيما يدق عليهم فهمه فتنفّروهم عن الحق وأهله ، وتقوى الشبهة عندهم فتهلكوهم ؛ ولكن ليكن كلامكم في ذلك مع العلماء منكم ، وكلامكم مع العامة فيما يسرع إليهم فهمه ويقرب عليهم تناوله » .

[مطلع ص : ٢٢٩ ق - ٥ -] .

وقد استفدنا من هذه الاستطرادات فوائد شتى :

أولاً - وذلك مهم بالنسبة لدراستنا - إن اليمن كانت في القرن الخامس الهجري من المراكز العلمية التي تشد إليها رحال طلبة اللسان العربي وعلومه من نحوٍ وبيان ، وان الأنظار ما اتجهت إلى مصر إلا بعد أن زهد الاساتذة في التدريس وضاقوا ذرعاً بفساد أوضاعها السياسية والاجتماعية والفكرية ، وبدأ المفكرون وأصحاب الرأي يتلمسون طريق الخلاص ، ذلك التلمس الذي أسفر عنه قيام الامام أحمد بن سليمان ، وثورة علي بن مهدي ، وانتهى بالاكتساح الأيوبي لليمن .

ثانياً - نرى إلى أي مدى يتحكم طغيان التعصب المذهبي ، والتحزّب الطائفي على أفكار وأقلام وألسنة المؤرخين فيهملون ويستبعدون من لا يطمئنون إلى مذهبه ونزعته ونحلته من مؤلفاتهم حتى ولو كان ألمعيا لوذعيا ؛ فالاخوان علي وموسى ابنا أحمد بن أبي رزين ورغم انهما « كانا وحيدين في

علم العربية » « واشتغل علي بشرح كتب النحو فأتى بالعجائب » ، « ولما مال إلى الـورع أقفرت معالم النحو » « وكان متفرداً في « إقليدس » وعلوم « الرياضة » ؛ « وكان حكيما زاهدا » ، ورغم كل ذلك فانهما لما نسب إليهما نحلة « التطريف » فقد اسقطهما ابن أبي الرجال من مطلع بدوره ، وخسف بهما ، ولم يفرد لأيهما ترجمة تهتم بآثاره وذكر أعماله ، « ولولا ذلك « التطريف » لكـانـا من مفـاخـر العصابة الزيدية » ، وبتلك النحلة والتهمة « فاتتهما الوساطة في الشرف » ؛ والواسطة هي أجود الجواهر في وسط القلادة .

ثالثـاً ـ عرفنا من استطراد ابن أبي الرجال اسم شاعر نحوي آخر وهو اسماعيل بن علي بن عبد الله الابّار وهو ما لا نجد له أي ذكر أو أثر مع إنه كما يقول : « وكان صاحب أدب وفصاحة وخط جيد وشعر حسن ، وكان قد تعبّـد مع المـطرفية ثم ولـع بمدح الصليحيين والزواحيين والكلاعيين وسلاطين الجند وغيرهم ، وتظاهر بشرب الخمور ! وله أخبار ونوادر لأنه كان سريع البـادرة ، وحيّ النـادرة الـخ فأين الشعـر الحسن ، وأين الأخبـار والنوادر ؟ لقد اهملت لأنه أولاً تنسّك مع « المطرفية» ! ثم ضاقت الحياة به ذرعاً ، أو ضاق هو ذرعاً بأصنامها كرفيقه وزميله الشاعر الكريم الوفيّ محمد الماربي ولجأ إلى سلاطين « الجند » ؛ فأهمِل ونُبذ ، وقيل فيه من النقائص ما قيل . . كما قيل ما قيل في صاحبه !

ولـو شئت لقلت ورابعاً وخامساً ، ولكن حسبنا هذا من براهين فوائد استطرادات المؤرخين التي لا يدركها الحرفيون والبلداء .

والعـلامـة النحـوي محمـد بن عبد الملك الشنتريني الذي قال ابن أبي الـرجـال ان « البحيري » قد قصده إلى مصر لقراءة النحو وعلوم العربية عليه ، كان أحد أئمة العربية وصنف « تلقيح الألباب في عوامل الاعراب » وتوفي سنة ٥٥٠هـ وترجمته في بغية الوعاة .

وقد ترجم يحيى بن الحسين للعلامة البحيري فقال : « يحيى بن الحسين ابن عبـد الله بن أحمـد بن يوسف البحيري بفتح الباء الموحدة من أسفل وكسر الحاء المهملة ثم ياء مثناة تحت ؛ العلامة الكبير من الهدوية ، وذُكِر أن عقيدتـه « التطريف » ، وكان من نظراء نشوان بن سعيد الحميري وبينهما المكاتبات والأشعار ، ورحل إلى مصر لما امتنع بن أبي رُزين عن الاقراء وقرأ

على الأعلم الشنتمري وكان القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام يجلّه ويعظمه » . ثم ذكر بعض كتبه في علم الكلام وقال : « ومات البحيري لمضي خمس ساعات ونصف ساعة من الليلة المسفرة عن يوم الخميس السابع من شهر رمضان سنة ٥٧٧هـ بمنزله بهجرة « وقش » ذكره أخوه العلامة علي بن الحسين البحيري » [لوحة : ٤٥] .

وقد وهم العلامة ابن الحسين والتبس عليه « الشنتريني » بالشنتمري ، والصواب ما ذكره ابن أبي الرجال ، لأن الأعلم الشنتمري وان كان أيضاً من اعلام النحاة إلّا انه أقدم من الشنتريني المصري واسم الأعلم يوسف بن سليمان بن عيسى وتوفي سنة ٤٧٦هـ وترجمته في وفيات الأعيان ج : ٧ ـ ص : ٨١ ـ ٨٢ .

وأخيراً أودّ التأكيد أنني انما أنوّه بالاستنتاجات المنطقية التي تستخلص نتائجها بعد استقراء ، ومن مقدمات سليمة نقلاً وعقلا ودراسة ورواية ، وأما التخرصات والتورط في التكهنات السخيفة تعصبا لعنصر أو قبيلة أو مذهب كما يعمل بعض « أغيلمة » الصحافة ممن لا يفرقون بين الأعشى الكبير وأعشى همدان ، ولا بين حجر بن عدي والاشعث ابن قيس ، ويقلدون عبد الرحمن بن الاشعث أمارة المؤمنين باليمنية ؛ ! أو أولئك الذين استأجرهم الغفول المعتّق ، والهوس الأعمى ، ولم يفرقوا بين الجغرافيا الأدبية والطبيعية والجغرافيا السياسية والرسمية ؛ فإذا قيل ان عمارة يمني حسبوا ذلك اعتداءً على « قَوْقَعَتِهم » ، أما مثل تخرصات وتعصبات أولئك أو هؤلاء ، فلا قيمة لها علميا ولا تاريخيا ونحذر القراء من ترهاتهم وأباطيلهم ووساوسهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون .

٣٢ ـ محمد الحفائلي
[٥١٥ ـ ٥٥٤هـ]

القاضي الفاضل أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي بن أبي عقامة الشاعر الكاتب الذي سبق ذكره ، وقد عرف ابنه هذا محمد بلقب « الحفائلي » وهو يدرس في إحدى « مكاتب » « زبيد » فغلب عليه وعلى من جاء بعده من أهل بيته وقد ذكره عمارة في « مفيده » فقال : « وممن عاصرته

وعاشرته وكاثرته من بني أبي عقامة القاضي الفاضل الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله وكان يعرف بالحفائلي وهو من أسماء المكتب وكان نبيلاً فاضلاً فقيهاً ، متكلماً ، شاعراً مترسلاً ممدحاً ، وانتهت إليه رئاسة مذهب الشافعي في زبيد وإلى ابن عمه القاضي الحاكم أبي محمد عبد الله بن محمد ابن أبي الفتوح ، وقال ان من شعره ما كتبه إلى ابن عمه أبي العز بن أبي الفتوح :

رفقا فدتك أوئلي وأواخري ... أين الاضاة من الفرات الزاخر
أنت الذي نوهت بي بين الورى ... ورفعت للسارين ضوء مفاخري

وقال من قصيدة اخوانية :

تشتاقكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم لبقاع الأرض أمطارُ

ومن شعره في الحداثة قوله :

وبكرة ما رأى الراؤن مشبهها ... كأنما سرقت سراً من الزمن
غيم ، وظل ، وروض مونق وهوى ... يجري مع الروح مجرى الروح في البدن
غنت بها الطير ألحاناً وساعدها ... رقص الغصون على ايقاعها الحسن
فقد سكرت وما الصهباء دائرة ... فيها ، ولا نغمات العود في أذني

ومما كتبه إلى عمارة جواباً على كتاب أعرب عن شوقه إليه في أبيات منها :

إذا فاخرت سعد العشيرة لم يكن ... لأخلافها إلّا بأسلافك الفخر
وبيتك منها يا عمارة شامخ ... هوت تحته الشعرى ودان له الشعر

وعاتب صاحباً له تغيّر عن معهوده فقال :

عذرتك لو كانت سبيلاً سلكتها ... مع الناس ، أو لو كان شيئاً تقدّما
فأما وقد أفردتني وخصصتني ... فلا عذر إلّا أن يكون تكرّما

وقد ولي القضاء من قبل موالي آل نجاح وكان معظما عندهم ذا وجاهة ورياسة .

ولم يذكر عمارة سنة ولادته ولكن من قوله إنه عاصره وعاشره وكاثره ، نستدل إنه كان له قرنا وزميلا وكان من مواليد عام ٥١٥هـ وقد ترجمه الاصبهاني في الخريدة فقال : « ذكر ابن الريحاني إنه كان ذا مال ٍ كثير وكانت

له دار لها بابان على أحد البابين مكتوب :

باتُ إلى السعد يفتحْ
فصاحب العلم يُفْتي
وصاحب المال يمنحْ .

وعلى الباب الآخر مكتوب :

باب على الشر يُغلقْ
فطالب العلم يُفْتَى
وطالب المال يُرزقْ .

قال : وذكر إنه قتله ابنٍ مهدي لما تغلب على اليمن سنة ٥٥٤هـ وكان له ولد فاضل شاعر قتله أيضاً وأنشدني من شعره :

للمجـد عنكم روايـات وأخبـار ... ولـلعـلى نحـوكـم حاج وأوطـارُ
تشتـاقكم كل أرض تنـزلـون بها ... كأنـكـم لبقـاع الأرض أمـطارُ
فحيث كنتم فثغر الـروض مبتسمٌ ... وأيـن سرتم فدمـع العـين مدرارُ
لا تعجب الناس منكم في مسيركم ... كذلـك الـفـلك الـعـلوي دوّار
والبـدر مذ صيـغ لا يرضى بمنـزلةٍ ... بها يخيـم فهـو الـدهـر سيّـارُ

ثم أورد ما قاله عمارة عنه ولكنه زاد ما يلي في وصفه : « يثيب المسائل ويجيب السائل ارفاداً وافاده ، وجوداً وإجادة » مما يؤكد ان نسخ تاريخ عمارة متعددة وفيها تفاوت وزيادة ونقصان .

٣٣ ـ محمد بن عيسى الريمي

ذكره عمارة وأورد له ثلاثة أبيات وهي :

لبس الـبـهـاءَ بسعيـك الاسـلامِ ... وتجـمـلت ببـقـائـك الأيـام
فقت الملوك فضـائـلاً وفـواضـلاً ... وعـزائـمـاً عزّت فلسـت ترام
خطبـوا العـلاء وقد بذلت صداقها ... فنـكـاحـهـا الا عليـك حرام

وعده بين الشعراء المجيدين ؛ ولم يخبرنا فيمن قال الأبيات ولامتى ولد أو مات بل اكتفى بقوله وهو « منسوب إلى أعمال ريمة » [مفيد ص ٣٢٢] .

٣٤ ـ محمد بن علي بن هندي
[حوالي عام ٥٦٥هـ]

شاعر مكثر ذكره العماد الاصبهاني في خريدته ؛ وسماه الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن هندي وقال : « ذكره الرشيد بن الزبير في « الجنان » وقال هو خاتم أدباء العصر بهذا المصر ، [يقصد اليمن] وقال ان مما أنشده من شعره قوله :

عقل الفتى ممن يجالسه الفتى ... فاجعل جليسك أفضل الجلساء
والعلم مفتاح التقى لكنه ... ياصاح مقتبس من العلماء

وقوله :

لثمت بفي التفكر وجنتيه ... فسالت وجنتاه دماً عبيطا
وصافحني خيال منه وهنا ... فخطت في يديه يدي خطوطا

وقوله في معناه :

هممتُ أن أُفكِرَ في حسنه ... فخرّ مغشيّاً لفرط الألم
وأشعر الوهم إلى خده ... فانصبغ الخدّان منه بدمْ !

وقوله أيضاً :

واخوان بذلت لهم ودادي ... وحطت مكانهم عندي وصنتُ
فكم من ليل مهلكة وبؤس ... وحدّ منيةٍ فيهم ركبتُ
وكم من بحر معطبةٍ وموت ... ركبت مخاطراً فيهم وخضت
أضاعوني وما ذنبي إليهم ... سوى إني باخلاصي رخصتُ

وقوله :

وكأس مدامةٍ في كف خشف ... رخيم الدلّ ملثوغ الكلام
حكت بهرام إذ ترك الثريا ... يساير في الدجى بدر التمام

وقوله :

أنضيتني لما افترقت ولم أكن ... أرجوه منك وقد علمت كمالي
هذا المثلث ذو ثلاثة أضلع ... لا غير وهو مقوم الأشكالِ

وقوله في أرمد :

قلت له : وردٌ بخديك ذا فقال : لا ؛ بل دم عشاقي !
قلت : فمن أهرقه فيهما فقال لي مرهف احداقي ؛
قلت : فما برهانه ؟ قال لي : بقية الدمع بآماقي

وقوله وقد أحسن في التشبيه :

توسد الورد وقد مال بالأجفان من عينيه اغفاءُ
فأشبه البدر إلى جنبه سحابة في الجو حمراءُ !

وقوله :

الخير زرع والفتى حاصدٌ وغاية المزروع أن يحصدا
وأسعد العالم من قدم الاحسان في الدنيا لينجو غدا

ولم يزد العماد شيئاً على ذلك ولا أخبرنا عن سنة ولادته أو عام وفاته ولا أين قابله الرشيد بن الزبير ؛ أفي عدن أم جبلة أم صنعاء ونحن نعلم أن القاضي الرشيد قد سافر إلى اليمن رسولا للخليفة الفاطمي عام ٥٣٤هـ ومكث بها مدة وتنقل ما بين عدن وصنعاء وزبيد ومدح السلطان علي بن حاتم اليامي فحسده الداعي الزّريعي صاحب عدن ودس عليه بوشايات إلى مصر كانت سبب نكبته وقد قتله الوزير شاور عام ٥٦٣هـ ، وقد يعجب المؤرخ أو الناقد حين لا يجد ذكراً لابن هندي في كتاب عمارة مع انه من معاصريه ، وقد تحدث عمارة عن القاضي الرشيد ورحلته إلى اليمن واجتماعاته بأبي بكر اليافعي وغيره من علماء وأدباء اليمن .

وقد ذهب بي الشك مذهباً لا أطمئن إليه علميا . وهو ان محمد بن علي بن هندي في « الخريدة » ليس إلّا أبو محمد عبد الله بن علي بن أبي عقامة والد القاضي الشاعر محمد الحفائلي الذي قال عمارة إنه كان شاعراً مجيداً ولم يرو له غير بيت واحد ، وقطعة صغيرة من رسائله إلى ابن عمه وقد سبق ذكرهما ، ولعل القاضي الرشيد وهو يؤلف كتابه « الجنان » قد أخطأ في اسمه وكنيته فقال أبو عبد الله محمد بن علي وإنما هو أبو محمد عبد الله بن علي ، ويبعد هذا الظن قوله « ابن هندي » وان كنت لا أعرف وجود شاعر في اليمن يدعى « ابن هندي » ؛ وعلى كل فان نسختي المخطوطة من

« خريدة القصر » سقيمة الخط وفيها تصحيفات كثيرة ولا سيما في ألفاظ وقوافي الأبيات الشعرية ، ولم أطلع عليها مطبوعة .

ومهما كان الأمر فان « ابن هندي » هذا قد عاش في منتصف القرن السادس الهجري عصر عمارة وابن الرشيد واضرابهم .

٣٥ـ محمد بن عيسى اليماني
[حوالي ٥٥٧هـ]

ترجمه العماد الاصبهاني في الخريدة فقال : « ورد بغداد في سنة خمسين وخمسمائة ٥٥٠هـ وكان قد أصعد من واسط ، وهو فاضل مهندس ، لكن له طبع شرس ، لقس النّفس ، مصيب الحدس ، نزل في دار طبيب نصراني من بني قومه ، ولم يبرح من ذلك المنزل ولن يريمه ، وكان لعله في ضيافة الطبيب ، وهو يحل عليه « إقليدس » على الترتيب ، وكان يضن به غاية الضنة ، ويقلّد من يجعل له إليه طريقاً قلائد المنة ، وكنت حينئذٍ مولعاً بأقليدس وحل إشكاله ، وفهم ما يعرض من شكو له وأشكاله ، فتوصلت إلى أن بلغت إليه ، وحللت مقالاته عليه ، فلما رأيته نافر الطبع بالكلية ، أكدت مفارقته بالأليّه ، ورأيته يدعى عليّ ، ويدعو لنفسه أمراً عظيماً من علم « المجسطي » وهيئات الفلك ، والمنطق الذي من شيم شيمه هلك ، وكان يقول : بفارس ، إنسان في هذا العلم فارس ، وأنا لا بد لي من قصده ، واستيراء زنده ، وغاب ثم عاد في السنة الثانية [٥٥١هـ] إلى بغداد فلقيته في عرض الطريق مرة واحدة ، ورأيت طباعه للمعرفة القديمة جاحدة ، فماشيته وجاولته في شيء من العلوم ، وماريته ، وفارقته بعد ذلك وما رأيته ، أنشدني لنفسه من أبيات عملها :

لي الله ؛ ان الدهر أنياب صرفه　　عليّ من الغيظ المبرح تصرف
وذنبي إليه ان نفسي إلى العلى　　تتوق وعن طرق المذلة تعزف
ولكن هذا الدهر لا در دره . .　　على الحرّ جوّار ، وللعبد منصف

وأنشدني لنفسه

أقول لنفسي وقد أشفقت　　لكون الهموم إليها قواصد
إذ كنت تطلب كسب العلى　　فلا تحفلن بلقاء الشدائد

أنشدني كسب المعالي ، فقلت كسب العلى أجود » .

هذا كل ما نعلمه عن هذا العالم المهندس اليماني ويظهر من الصفات المسجوعة التي أمطره بها العماد وصبها عليه سياطا إنه كان ضيق العطن ، وقد كلف العماد بالسجع وتكلفه ولم يفدنا بالمزيد من أخبار هذا اليماني الغريب الأطوار ولا أين كان مصيره ولعله لم يعش طويلاً بعد أن فارقه لآخر مرة ، ولعل علمه كان أكبر من عقله وشعره وقد تحدث عمارة عن شاعر اسمه محمد ابن عيسى الريمي وأورد له ثلاثة أبيات ضعيفة الحبك والسبك .

٣٦ ـ محمد بن المبارك

وكما تفرد « العماد » بذكر العالم الأديب المهندس محمد بن عيسى اليماني فقد انفرد أيضاً بذكر شاعر آخر هو محمد بن المبارك اليماني وقال في خريدته انه من فضلاء اليمن ونبلاء الزمن وانه سافر إلى بغداد وكان من الفصحاء وإنه أقام بها مدة ، ثم نقل عن السمعاني عن أبي الحسن البيهقي عن من سماه ملك النقباء محمد المرتضى إن محمد بن المبارك اليماني قد جرّعته يد الانفاق بكاس الاملاق ، فطلق عرائس العراق ، وركب أثباج الفراق وأنشد له

فانشر مطارف من هواك فطالما أولعت خوف العاذلين بطيّها
ودع التأمل في العواقب إنها لا يستبين رشادها من غيها

ولم يزد على هذا شيئاً ولا ذكر سنة ولادة ولا عام وفاة ، لكنه من شعراء القرن السادس .

٣٧ ـ محمد بن الحسن البكري العدني

وقد ترجم العلامة القفطي المتوفي سنة ٦٤٦هـ في كتابه « المحمدون من الشعراء » لبضعة عشر محمداً سبق أن أوردنا أسماء بعضهم في السفر الأول ، وممن ذكرهم من شعراء الفترة التي نتحدث عنها الفقيه الشاعر محمد بن الحسن البكري وقال عنه : « شاعر من شعراء اليمن ، وفاضل من قاطني عدن » قال يمدح أبا الفضل زنجي بن مُربح :

إذا شئت أن تلقى العلى والتكرّما وصرت من الله المهيمن ملهما ،
فسائل عن المرّى نبراس يعرب فأنهما في ربعه اليوم خيّما ؛
أبي الفضل زنجيّ بن مُربح الذي سما فاعتلى أعلى المراتب إذ سما ،
ففي وجهه الاقبال والبشر كلما نظرت إليه نظرةً . . نلت مغنما
هو الرجل الضرب الخبعثنة الذي له راحة تهمي نضاراً وعلقما
أعزّ الورى جاراً ، وأبسطهم يدا ، وأنداهم كفاً ، وأفصحهم فما

***

ولم يذكر سنة ميلاده ولا وفاته ، ولا أعلم شيئاً عن هذا . . أبي الفضل زنجي بن مُربح ، ولعل في اللفظ تصحيفاً ، وقد كان « القفطي » طلعة وجمع من الكتب ما لم يتيسر لغيره ، وكان في حوزته كتب مسلم اللحجي ومنها « طبقات الزيدية » و« الاترجّة » وهما لا يزالان بين المفقودات من كتب التراث اليمني ولو ظهرا لاطلعنا على الكثير المفيد عن رجالات اليمن من علماء وشعراء وفقهاء ، ولم نجد تفسيراً للفظة « الخبعثنة » والسياق يدل على إنها من صفات الشجاعة والكرم . [المحمدون ص : ٢٣١] .

٣٨ ـ محمد بن الحسن بن الطشّ اليمني

قال القفطي في كتابه « المحمدون » . « وبنو الطش أهل بيت يعرفون بهذا اللقب من أهل حضور كان أديباً شاعراً نحويا يرى رأي الزيدية ، وكان قد رأى رأي الاسماعيلية باليمن ثم رفض ذلك ، وكان شاعرا كثير الشعر يميل إلى الهجو والعتاب كتب إلى ابن المدافع :

قد زرت بابك مرتين وهذه يا ابن المدافع كرّة لي ثالثه
والمالُ ما اكتسب الفتى فيه الثنا لا ما اقتناه لوارث أو وارثه

وكان قد قصد الحرة الملكة بذي جبلة ليمتدحها ، ووعده بالايصال إليها الشيخ محمد بن المبارك بن رزق الزواحي مولاهم ، وكانت الملكة تكرمه ، فلما دخل على الملكة نسي أن يذكر محمد بن الطش ، فكتب إليه لما استبطأه :

صحابتُنا فيما مضى يا محمد مصاحبة الخصيين للأير فاعلما ،
هما صاحباه الدهر حتى إذا بدت له حاجة خلاهما . . وتقدما !

ويقـول محقق الكتاب ان القفطي قد ترجم للشاعر « ابن الطش » في كتابه « إنباه الرواه » ٣٠/٩١ [المحمدون . ص : ٢٦٦] .

ولم أجد له ذكرا في « مطلع البدور » أو في « المستطاب » ولعله من زيدية « المطرفية » ونقل ما نقل « القفطي » عنه من كتاب « الاترجة » أو « الطبقات » للعلامة مسلم اللحجي ، وبيت « الطشي » مشهور في « رداع » و « صنعاء » ، ولعل هناك تصحيفات أو تطبيعات ، ونعرف من قصته مع « الزواحي » إنه من أعلام النصف الأول من القرن السادس الهجري .

٣٩ ـ محمد بن أبارين الصنعاني

وممن ذكرهم « القفطي » الشاعر أبو القاسم محمد بن الحسين بن أبارين وقال ان بني أبارين قوم يسكنون « جبا » من المعافر وأورد من شعره ما مدح به زريع بن العباس اليامي بعدن :

يا أوحد الكرماء والأجواد زين البوادي عمدة القصادِ
أهلاً بغرتك التي قرت بها جذلا عيون أماكنٍ وبلاد ؛
لله درك يازريع معظما حرّ السجايا طيبً الميلاد
جبلت أنامله على تنويله ما يحتوي من طارفٍ وتلاد
بطرائق مخبورهن مناقب وخلائق محصولهن أيادي
من قاس جودك بالغمام فمبطلٌ هذاك منقشع وذا متمادي
صنت الوجوه عن السؤال وجدت مبتدئا ، ولم تحوج إلى ميعاد

قال القفطي : « وكان قد تعرض له بعض الشعراء بالهجاء فكتب إليه :

نبئت انك يا حسين هجوتني فعلام ذلك يا أبا عبد الله ؟
ومشورتي ان لا تحرك ساكنا وإذا عزمت الأمر . فاستخرِ الله !

ولم يذكر سنة وفاته ونحن نعرف ان ممدوحه السلطان الزريعي الاسماعيلي توفي عام ٥٠٤هـ [المحمدون : ص : ٢٦٠] .

٤٠ ـ محمد بن سعيد العشمي اليمني

ترجمه القفطي فقال : « وعشم قرية شاميّ تهامة ، مما يلي الجبل بناحية الحسَبَة ، وأهلها من الأزد وهو شاعر مذكور هناك فمن شعره

راح عن جفن مقلتيّ منامي ... ورماني الهوى بسهمي سقام
ومن امسى له الفراق قرينا ... والهوى ؛ أسقياه كأس غرام
لو تراني إذا تدلّى سهيلٌ ... أو دنا للمغيب بعض النعام ،
كيف عذلي ولست تعلم ما بي ؟ ... جلّ ما بي ، فلا تعد لملامي
أتقلى على الفراش ضجيعاً ... مدنفا تحته وهيج الضرام ،
ليت شعري وللزمان صروف ... لم تزل ، وهي غير ذات انصرام
هل أنالنَّ ما أومّل ممن ... يتمنى كدّي بغير احترام ؟
إذ رمتني بأسهم قاتلاتٍ ... أثبتتني حتفاً ، وطاشت سهامي
دعص رمل حرّ عليه قضيب ... سيسبان عليه بدر التمام
وبخدَّيْن واضحين أسيلين ، وثغر يسبي ذوي الاحلام !
ولها جيد مُغزلٍ أم خشف ... ترتعى بين عرفج وبشام

ومن شعره أيضاً

بكيت فهل من مسعدٍ لبكائيا ؟ ... وناديت هنداً لو أجابت ندائيا !
وهيّج أشواق الفؤاد حمائم ... تداعين بين الرّقمتين تداعيا
يغنينّ أحيانا ، ويضحكن تارة ... فما رمت ، حتى خلتهن بواكيا
فقلت حمامات بهن من الأسى ... ولوعة تفريق النوى مثل ما بيا
خليلي اني مسعد الورق إن بكت ... فهل تريان الحق أن تسعدانيا ؟
فان تفعلا تستكملا أجر صحبتي ... وإلّا فكفّا صاحبي ملاميا

ثم قال القفطي : « والعشمي هذا كان في الزمان القريب ، وكان في أيام الصليحي الداعي باليمن [المحمدون ص ٣٤٠ ـ ٣٤١] .

ويظهر إنه كان من شعراء الطبيعة والوصف والغزل ولم أجد له ترجمة ولا شعرا في المخطوطات اليمنية أو فيما حققه ونشره بعض المؤلفين اليمنيين ، وقد تعرض لذكره ياقوت الحموي في « معجم البلدان » وهو يتحدث عن « تعشر » و « عشم » فقال : « وقال محمد سعيد العشمي

الاليت شعري هل ابيتنَّ ليلةً ... بتعشر بين الأثل والركوان ؟

ونقل عن « الاترجة » كتاب مسلم اللحجي عن شعراء اليمن انه كان في عهد الصليحيين . ولا ندري أيّا منهم يقصد ؛ ونحن نعرف ان المكرم توفى عام ٤٧٧هـ وأما الملكة السيدة فعاشت إلى سنة ٥٣٢هـ .

٤١ ـ محمد بن أحمد بن عمران اليامي
[ت ٥٤٠هـ]

ومن « المحمدين » الذين ترجم لهم « القفطي » في كتابه الشاعر الاسماعيلي محمد بن أحمد بن عمران اليامي صنو السلطان الشاعر حاتم بن أحمد فقال : « المدعو بالقاضي الأجل ، متميز في بلده وله أدب وشعر فمن شعره قوله :

ربعٌ عفا لعهاد المزن معهده حتى تنكر عما كنت أعهدُه

ومنها :

معدل القدّ وافيه مقوّمه منوّر الخدّ صافيه مورّده
نضر المحيا يكاد الدرّ يجرحه ، رخص البنان يكاد اللين يعقده
يسمو فينصبه غصنٌ ينوء به حينا ، ويجذبه حقفٌ فيقعده
ووجد ذي الشوق يبديه تذكره عند الخلو ، ويخفيه تجلده

ولا شك ان الأبيات هذه من قصيدة غنائية طويلة ؛ وهي روعةً وسبكا تذكرنا بقصيدة « ابن القم » التي مطلعها :

الليل يعلم أني لست أرقده فلا يغرنك من قلبي تجلّده

وإذا كان القفطي لم يحدثنا بشيء عن هذا الذي سماه « القاضي الأجل » وقال إنه « متميز في بلده » ولا ذكر متى عاش ولا أين ومتى مات وقال محقق كتاب « المحمدون » ؛ إنه لم يجد له ترجمة . فلعل ما سبق أن أوردناه عن جده القاضي الأجل عمران بن الفضل اليامي ونحن نتحدث عن الداعي علي محمد الصليحي وما ذكرناه في ترجمة حفيده الثاني السلطان حاتم بن أحمد بن عمران من أخباره وأشعاره ومواقفه يلقي ضوءا على حياة القاضي محمد بن أحمد بن عمران وانه من مشايخ وقضاة « همدان » الذين كانوا من أعمدة الدعوة والدولة الصليحية الاسماعيلية ثم من ورثة سلطانها

بعد وفاة الملكة السيدة بنت أحمد عام ٥٣٢هـ ، وانتخاب السلطان حاتم بن أحمد صنو القاضي محمد سلطانا لهمدان وصنعاء سنة ٥٣٣هـ كما أوضحنا في السفر الأول .

وقد ورد ذكره في كتاب « الصليحيون » للدكتور حسين الهمداني في عدة مناسبات ؛ فقد كان ضمن المشايخ والسلاطين من همدان الذين حوصروا في « الجند » عام ٥١٩هـ [ص : ١٧١] مع ابن نجيب الدولة ، وانقذتهم الملكة السيدة بتدبيرها وحنكتها ومهارة حيلتها .

ثم أورد له أبياتا من قصيدة قال إنه مدح بها السلطان علي ابن عبد الله الصليحي لما نصبته الملكة السيدة للدفاع عن دولتها بعد رحيل ابن نجيب الدولة فقال : « وقد مدحه الشاعر محمد بن أحمد بن عمران بقصيدة جاء فيها :

يا غادياً مزمعاً في السير معتزماً ... لا يتقي الأَيْن والوعثاء والألما
واحمل سلامي إلى المختار من كثب ... فخر الخلافة والشم كفّه أمما
وحاز من نسب « الاصلوح » ذروته ... و « حاشد » واعتلى الهامات والقمما
رئيس همدان بل كهلان أجمعها ... بل قرم قحطان ، حاز العلم والكرما
أو في بني الدهر في شام وفي يمن ... قولا وفعلا ، وأعلى يعرب هِمما
ومنصباً ومحلا شامخاً وعلا ... عند الفخار ، واسنى رهطه شيما
لما رأى الله ركن الدين منهدما ... والعدل مهتضماً ، والحق مخترما
حباه بالرتبة العليا وشرفه ... بدعوة الدين حتى عز وانتظما

ولما توفيت الملكة السيدة عام ٥٣٢هـ كان القاضي محمد بن أحمد بن عمران ممن رثوها فقال :

نأت ربة القصر الشريف عن القصر ... فأيأس راجي النصر فيه عن النصر ،
إذا اجتثّ دهر الشر دوحة روضةٍ ... فقضبانها لا تستقيم على الهصرِ ،
سخطتِ على أهل الزمان لفعلهم ... حقيقون أهل العصر ياربة العصر
فصاروا بلا نور يتيهون في العمى ... وذلك تمثيل لما كان في مصرِ
فكم ظلمة يغشونها ، ومضلةٍ ... وكم إصر ذنب يحملون على إصر
رجونا بها بدءَ الظهور ونشره ... فعدنا إلى الستر الحقيقي والحصر

***

والقـاضـي محمـد بن أحمـد بن عمـران اليامي يبرز في هذه القصيدة اسـماعيليا مخلصـاً للدعـوة كجـده عمران ولم يكن مراوغاً كأخيه السلطان حاتم ، وقد سبق أن ذكرنا تضارب آراء المؤرخين في عقائد آل عمران اليامي ونحن نتحدث عن السلطان حاتم . وقد أشار بالبيت : « فصاروا بلا نور الخ » إلى اغتصاب الحافظ عبد المجيد الامامة والخلافة في مصر ، كما ان البيت : « رجونا بها بدء الظهور » يبين ما يعتقد الاسماعيليون الصليحيون من أن بدء دور الستر كان باختفاء الامام الاسماعيلي أبي القاسم الطيب بن الآمر واستمر في مرثاته يقول :

وقـد ينـقص التـيـار من بعـد مده ... ويُضـطر حرف المـدّ حينا إلى القصر
فذاك كسـوف الشمس قد طال مكثـه ... وهـذا خسـوف دائم المكث للبـدر
وذاك سرار لا انـجـلاء لليـلـه ، ... وهـذا محاق ليس يسـفـر عن فجـر
ونـرجـو فروعـاً ثمّـر الله نبتها ، ... وأيـدهـا بالنصر والفـتـح والقهـر
لهم وبهـم رجـاؤنـا وسـلونـا ، ... لأن رجـاء اليـسر في عقـب الـعسر
وأورث أمـلاك الأنـام وسـيـطهـم ... عليّ بن عبـد الـله عالي ذُرا الـفـخـرِ
فصـبراً على ريب الـزمـان وصرفـه ... فأوفـر أهـل الأجـر حظاً أولـو الصـبر

***

ولم يذكر الدكتور الهمداني عام وفاة القاضـي محمد ولعله توفى أيام سلطنة أخيه حاتم حوالي عام ٥٤٠هـ والله أعلم .

٤٢ ـ محمد بن أحمد القاضـي اليمني

وبعد أن ترجم « القفطي » لابن عمران اليامي قال : « محمد بن أحمد القاضـي غير الأول ، أظنه من مخلاف جعفر ، له في المكين صاحب التعكر :

نظرتُ لصـبـح المـعـالي عمـودا ... يزيـد اتضـاحـاً ويعلو صعـودا
سعـادة عصر المـكـين الأجـل ... يجرى على ما يريـد الـسـعـودا
أزال من الـشـم غلبـاً وصيـدا ... وفـتـح من كل حصنٍ وصيـدا ؛
فتـوح تسر الـوليّ الـودودا ، ... وتُـكـبـتُ شانـيـه والحـسـودا
مكـارم لم تلق من سامـعٍ ... حجـوداً ، فيبغي عليهـا شهـودا

أتانا البريد بأنبائها ففاز بنشر المعالي بريدا .
وجاء الكتاب بتحقيقها لنا فحمدنا الآله المجيدا

***

ولم يذكر له تاريخ ولادة ولا وفاة ولعله من معاصري سميه محمد اليامي .

٤٣ ـ محمد بن ابراهيم البحيري
[حوالي ٥٠٠هـ]

الشاعر محمد بن ابراهيم بن السميدع ذكره ابن أبي الرجال في مطلع البدور عرضا وهو يتحدث عن الشيخ محمد بن عليان البحيري الزيدي قائلا : « ومن أهل هذا البيت محمد بن ابراهيم بن السميدع وهو شاعر مشهور بينه وبين محمد بن أحمد اليامي صنو حاتم بن أحمد مشاعرات وكان فيه بعض الاختلال [العقلي] وبحير بالباء الموحدة والحاء المهملة بعدها ياء وهم جماعة اجلاء علماء شعراء زهاد الا ان جمهورهم مال إلى « التطريف » ولم يتميز لي الخالص منهم ؛ وقد قلنا ان محمد بن أحمد اليامي توفى حوالى عام : ٥٤٠هـ [مطلع ت : ١٠/٣٩٢] .

المجلس
الإسلامي

٤٤ ـ محمد بن حسن الطثير الحضوري
[حوالي ٥٣٠هـ]

كما أن أبن أبي الرجال ذكر في ترجمة محمد بن عليان الشاعر محمد بن حسن الطثير وقال إنه كان كثير الاهاجي وان القصيدة التي تنسب إلى ابن عليان من انشائه وهي في ثمانين بيتاً وأولها :

تألّبتِ الأوغاد من آل صعدة لتهدم دين الله في كل وجهة
فحلّ بها أمرٌ من الله واقع بما أسلفت من أمرها واستحلتِ
أتاها من المنصور داع فصدّقت به ثم عنه بعد ذلك صدّت
فلما رأى منها المحسن ما رأى من الفسق ناداها بصوت فصمّت
وأعلنت الطغيان في الشركِ والخنا وأضمرت البغضا له وأسرت

إلى آخرها ؛ وقال مما ذكره مسلم اللحجي في شأن محمد بن عليان إنه رأى بمسجد آل أبي طاهر على اسطوانة منه :

قل لابن عَليان دع عنك النواميسا ... فان ذلك أمر صار مدروسا
إن كان ابليس اغوى الناس كلهم ... فأنت أنتَ الذي أغويت أبليسا !

قال فسألت من القائل ؟ فقيل رجل من صنعاء وقيل محمد بن حسن الطثير الحضوري . ولم يذكر سنة وفاته ولكنه من معاصري البحيري وابن عليان ومحمد اليامي . [ص : ٣٨٩ ـ ٣٩٠]

ونحن نعلم ان محمد بن عليان اغتيل بأمر السلطان حاتم اليامي عام ٥٤٥هـ فلعل وفاة الطثير عام ٥٣٠هـ [مطلع ج ٤ لوحات ٣٨٩ ـ ٣٩٠ ـ] .

٤٥ ـ محمد بن العبيد الحكمي
[حوالي ٤٧٠هـ]

شاعر ذكره عمارة عرضاً وهو يتحدث عن الشاعر « ابن القم » وهو من معاصريه ومن شعراء الداعي سبأ بن أحمد وقد اجتمع بالشاعر الحلبي « الخفاجي » بمكة عام ٤٦٣هـ [عمارة ص : ٢٤٢] .

٤٦ ـ نشوان الحميري
[ت ٥٧٣هـ]

العالم اللغوي الاصولي المؤرخ الشاعر القاضي نشوان بن سعيد الحميري ، ترجم له عمارة ترجمة قصيرة فقال : « هو من شعراء أهل الجبل ، وهو شاعر فحل ، قوي الحبك ، حسن السبك » ثم قال : « وبلغني أن أهل بيحان ملكوه » ثم أورد قطعة من رآئيته المشهورة

ليس المحب عن الحبيب بمقصر ... كلا ؛ ولا هو في الهوى بمقصّرِ

وأبياتاً من داليته المشهورة التي تلاحى بها مع الأشراف القاسميين والتي منها البيت المشهور :

من أين يأتيني الفساد وليس لي ... نسبٌ خبيث في الأعاجم يوجد

وجاء بعده العماد الأصبهاني فلم يُضف شيئاً إلى ما ذكره عمارة غير أنه علّق على قول نشوان في داليته :

قلتم لكم إرث النبوة دوننا ؛ أزعمتمُ أن النبوة سرمدُ
منكم نبيّ قد مضى لسبيله قدماً ؛ فهل منكم إلهٌ يعبد ؟!

فقال : « قاتله الله ولعنه وأخزاه ، ما أشد افتراءه على الله وأجراه ، وأي فضيلة فوق هذا ، ولولا النبي المصطفى الذي أختاره الله واجتباه ، وجعله الوسيلة إلى نيل رضاه ، صلوات الله عليه وسلامه ما سعدوا ولا فازوا ، ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » .

قصة نقائض نشوان وملاحاته مع الأشراف :

والملاحاة بين نشوان والاشراف العيانيين لها حديث طويل في تاريخ الأدب اليمني ، وكان من أسباب إثارة تلك الملاحاة الشعرية كما يقول المؤرخ أحمد بن صالح أبو الرجال في « مطلع البدور » أن الفقيه العالم الأديب جُعَيْد بن الحجّاج الوادعي قال بيتين ينكر على من يقول من « القاسميين » بمهدوية « الحسين بن القاسم العياني » وانه حي لم يقتل وهما :

أما الحسين فقد حواه الملحدُ واغتاله الزمن الخئون الأنكد
فتبصّروا ياغافلين فأنّه في ذي « عرارٍ » ويحكم مستشهد !

وكان الفقيه « جعيد » صهراً لنشوان ، فلما ظهر هذا الشعر وطار في الآفاق اتهم الناس ، وظن القاسميون ، أنه لنشوان بن سعيد ، فقال الأمير عبد الله بن القاسم بن جعفر العياني قصيدة يشتم فيها نشواناً جاء فيها :

أما الصحيح فان أصلك فاسدٌ وجزاك منا ذابلٌ ومهنّدُ !

فأجاب نشوان يذبّ عن نفسه بقصيدة طويلة منها :

من أين يأتيني الفساد وليس لي نسبٌ خبيثٌ في الأعاجم يوجدُ
لا في علوج الروم جد أزرقٌ أبداً ؛ ولا في السود خالٌ أسود
فدع السفاهة إنها مذمومة والكف عنها في العواقب أحمد
والله ما منّي نظام جاءكم فيه يقول حوى الحسين الملحد
ولقد أُتيتُ به فقمت مبادراً عجلاً أمزّق طرسه وأقدّد

فأشاعه من ظنّ أن ظهوره ... في الناس مكرمة عليها يحسد
أغضبتم أن قيل مات أمامكم ... ليس الامام ولا سواه يخلّد
لا عار في قتل الامام عليكم ... القتل للكرماء حوض يورد
ان النبوة بالنبي محمدٍ ... ختمت ؛ وقد مات النبي محمد

ومنها :

إني من النسب الصريح إذا امرؤ ... غلبت عليه العجم فهو مولد
ما عابني نسب الاماء ولا غدا ... باللؤم معرقهن لي يتردّد
فدع التهدد بالحسامِ جهالةً ... فحسامك القطاع ليس له يد !
من قد تركت به قتيلا ؛ أنبني ... ممن توعّدُهُ ومَن تتهددُ ؟
إن لم أمت الا بسيفك إنني ... لقرير عين بالبقاء مخلد !
اسكت فلولا الحلم جاءك منطقٌ ... لامَينْ فيه يذوب منه الجلمد ؛
ينبى بأسرارٍ لديك عجيبة ؛ ... لكن جميل الصفح مني أعودُ !

***

ونشوان في هذه القصيدة قد ابتدأ يدافع عن نسبه الصريح لأن الشريف عبد الله بن القاسمٍ قد اتهم أصله بالفساد ، ولم يكتف بذلك بل لمح بمهارة إلى ما يكثر منه عادة الأمراء والخلفاء ، ولا سيما في ذلك العهد من التسري ومضاجعة الاماء من زرق وسود ؛ وكأن الأمراء العيانيين قد كان لهم أولاد من أمهات روميات وحبشيات ؛ ! ولكنه في نفس الوقت قد انكر ان تكون الأبيات « الجُعَيدية » له ، بل واقسم انه قد مزّقها فور اطلاعه عليها . وهو لا شك يحاول تلطيف الجو والتقرب إلى الاشراف بهذا الانكار ؛ ومع ذلك فانه يعود بمنطق العالم الساخر ويتهكم ما شاء له استهجانه بموقف قوم يغضبون لأن شاعراً قال : إنّ إمامهم مات أو قتل ! وليست قصيدة الشريف عبد الله كاملة بين أيدينا ولم نطلع إلّا على البيت : « أما الصحيح فان أصلك فاسد » . وكأنه قد جاء فيها بما أغضب « نشوانا » ، ولذلك فقد سخر من الأمير سخرية تذكرنا بذلك البيت المشهور بل وتسامقه روعة تعبير :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... فابشر بطول سلامة يامربع

وياليت فورة الغضب وقفت به عند هذا الحد لكنه قد اندفع بثورتها فقال :

موتي قريشٌ ؛ كل حي ميتٌ ؛ للموت منا كل حي يولدُ ،
قلتم لكم ارث النبوة دوننا أزعمتم ان النبوة سرمد ؟

إلى آخر الأبيات التي لا شك ان الكثير حتى من غير الاشراف قد رأوها كبيرة من مثل « نشوان » وشتمه عليها « العماد الأصفهاني » .

وقد تعرض ابن أبي الرجال في ترجمته للأمير عبد الله بن القاسم ابن محمد بن جعفر العياني إلى ذكر هذه الملاحاة والمهاجاة وأورد بيت الشعر : « أما الصحيح فان أصلك فاسد » ؛ قائلا « وله غير هذه القصيدة ؛ ثم آل أمرهما إلى المحاسنة وقال الأمير عبد الله في نشوان قصيدة منها :

فَلْيَهْنَ ندباً سيداً شرفت به من حمير الأحياء والأموات

وقد سبق الحديث عن نشوان المؤرخ واللغوي والعروضي ، ومؤلفاته في علم الكلام ، وانه كان من أكبر المؤيدين لدعوة الامام أحمد بن سليمان وأوردنا بعض أشعاره الدالة على ذلك ، وأقوال علماء وأئمة وفقهاء اليمن في نشوان متضاربة تضارب ما يروى عنه من أخبار وأشعار وقد حكى معظم تلك الأقوال العلامة المؤرخ يحيى بن الحسين في طبقاته « المستطاب » [أوراق : ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٣] ولخص بعضها العلامة ابن أبي الرجال في مطلع البدور وقال : « قال الفقيه العلامة المؤرخ محمد بن علي بن يونس الزحيف في اللواحق الندية : كان من علماء الزيدية ولم يكن يقدح عليه الا بكثرة افتخاره بقحطان على عدنان وله في ذلك مع الاشراف بني القاسم نقائض كثيرة » وبعد أن فنّد الزحيف القول بأن نشوان كان أخاً للامام أحمد بن سليمان من أمه قال ابن أبي الرجال : « إن الأمر بين الامام أحمد بن سليمان والقاضي نشوان كان أولا على المودة والمحبة وان أبياته السائرة التي أولها

دع يرسماً والمساني واقصد اليمنا فأفقر الناس من يابن الكرام سنىٍ

وهي طائرة سائرة كانت قبل الدعوة ، وفيها ملاطفة وحث على الدعوة ،

ووعدٌ بالنصر وقد كان منه ذلك ، ومن تحف ملاطفتهما ان الامام أرسل إلى نشوان رجلاً إسمه عيسى يبشره بوصوله إليه فقال القاضي :

يبشرّنا عيسى بأحمد بعده | بشارة عيسى في الكتاب بأحمد !
أتانا بنور البيّنات فلم نقل | مقال سوانا جئتَ بالسحر فآبعدِ
وقلنا له سمعاً وطوعاً لربنا | ولابن الرسول الأبطحي محمدِ
فأهلاً وسهلاً بالأمير ومرحباً | بمن معه من سيد وابن سيّد

***

وقد عقب ابن أبي الرجال بهذا على قول الزحيف « إنه كان بين نشوان والامام أحمد بن سليمان في ابتداء الأمر عداوة ومهاجاة » ثم أورد بعد ذلك ما أورده الزحيف من أدلة التعاطف والتلاطف بينهما بعد الوحشة والتجافي . ونقل قوله في « اللواحق الندية » إنه وقف على رسالة لبعض ذرية بني نشوان يقول فيها : « والمشهور عن نشوان إنه كان يقدم أقوال الهادي على سائر فقهاء الاسلام ، ويحكم بها بين الخاص والعام ، إلّا أن تتقوى عنده دلالة فيخبر المستفتين بالخلاف الواقع بين أهل الاسلام ، وكان في عصره جملة من العلماء هم نجوم في الأرض كنجوم السماء من علماء قحطان ونزار ، فلم يزر عليه في مذهبه زار ، مع كثرة المناظرة في ذلك والمذاكرة ، وكان مظهراً لمذهبه في أشعاره وكتبه ولم يقع بينه وبين أحد من أهل عصره جفاء سوى الأشعار بينه وبين الأشراف القاسميين » . وكذلك ما كان بينه وبين الامام أحمد بن سليمان من ملاحاة بعد المناظرة التي دارت بينهما ؛ ثم آل الأمر إلى المصافاة وبعث إليه الأمير عبد الله بن القاسم قصيدة يقول فيها :

فليهن ندباً سيداً شرفت به | من حمير الأحياء والأموات

فأجابه نشوان بقوله :

أما كتابك يابن أوحد هاشمٍ | فحديقةٌ فيها الكلام نباتُ
قد أثمرت محض الوداد وفاح لي | من طيبات نسيمها نفحات
غرس امرءٍ طابت مغارس أصله | فزكى وطاب فعاله والذات
أثنى عليّ ببعض ما هو أهله | وله المكارم والندى عادات

وتوالت إلى نشوان الاعتذارات الشعرية من الأشراف فبعث إليه الأمير

محمد بن محمد القاسمي يعتذر من الهجو الذي سبق من ابن عمه عبد الله على نفس الوزن والروي ، فأجابه نشوان بقوله :

أعلى الكآبة منكما لي مسعدُ ... فالخلّ يأسى للخليل ويكمدُ ؟
إن طاب عيشكما وطاب كراكما ... فأخوكما مرّ المعاش مسهّدُ
في قلبه من عتب أبنا « قاسم » ... حرق تأجج نارها وتوقّد
قوم لهم شرف ومجد باذخ ... من تحت أخمصه السها والفرقد ،
وعلى محبتهم نشأت ووالدي ، ... والحب يولد ، والمحبة تولد !
حتى سعت بيني الوشاة وبينهم ... فأمال عبد الله مني الحسدُ
وأطاع أمرهم ، وصدّق قولهم ... فأتى بقافيةٍ تقيم وتقعدُ
فيها مقال منه ليس بجيّد ؛ ... ما بال عبد الله وهو الجيّدُ ؟
فرددت حين بهتّ غير مبالغ ... في الردّ ؛ خوفاً من مقال ينقد
وغدوت مظلوماً ، كأني ظالم ، ... اني على ما نابني متجلد ؛
يابن الأئمة من ذؤابة هاشمٍ ... حيث انتهت علياؤها والسؤدد
وافى كتابك بالصلاح مبشراً ... لازلت تصلح أمرنا وتفقّد
ونظامك الحسن الذي أهديته ... تحيي القلوب به إذا ما ينشد
حققت فيه مودّة لك ضعفها ... عندي ، ووداً في الحشا يتجدّد
وذكرت آل محمد ؛ ووداهم ... فرض علينا في الكتاب مؤكّد
وذكرت زيداً والحسين ومولداً ... لهم زكي الأصل نعم المولد
بأبي وأمي من ذكرت ومن به ... يهدي الجهول ويرشد المترشدُ

***

وكأن قصيدة الاعتذار من قبل الشريف محمد القاسمي كانت قبل اعتذار ابن عمه عبد الله بالتائية ، ولهذا فان نشوان في اعتذاره الجوابي يعتب على عبد الله ويقول : « ما بال عبد الله وهو الجيدُ » ؟ ويبرر رده عليه لأنه قد بُهتَ ، وياليت ابن أبي الرجال أثبت قصيدة الشريف ، فيظهر إنه قد انَصف نشوان العالم الزيدي وأرضاه ، ولهذا أثار مشاعره الدفينة فأعرب عن شخصيته الزيدية ، ومحبته ومودته لآل الرسول ، وإن خالفهم في المسائل الاجتهادية والسياسية ولم يقل بحصر الامامة في أولاد البطنين ، فذلك أمرٌ ، و« المودة في القربى » أمر آخر ؛ ! ثم يذكر الأبيات « الجعُيدية » التي نسبت إليه ظلما فيقول :

واتـرك « جُعيـداً » سوف يلقى ربه ... ويـصـيـب ما زرعت يداه ويحصـد
وتغمـد الخـطأ الـذي منه جرى ... فالـسـيـد المحـمـود من يتغمـدُ
والـعـفـو منكم عادة مألـوفـةٌ ... والـنـاس يُطْلبُ منهـم ما عودوا

ولا شك ان شعر « جعيد » صهر « نشوان » الذي أثار الفتنة ونسبه إلى « نشـوان » ، أكثر من بيتين وانه قد تعرض لما أثار الأشراف من هجو أو شتم ، وليس فقط استهجان دعواهم بأن الحسين بن القاسم لم يستشهد ؛ ولكن الرواة والمؤرخين قد حجبوا عنا بعض ذلك الشعر ولذلك فقد طالب « نشـوان » لصهـره جعيد بالعفو والتغمد ولا يكون ذلك إلّا عما يستحق التجاوز والتسامح ؛ ويختم « نشوان » قصيدته بقوله :

وأنـا المناضـل ضدكم عن دينكم ... والـله يعـلم ، والـبريـة تشـهـدُ
لا أسـتـعـيض بديـن زيـد غيره ... ليس النحـاس به يقاس العسجـد
اني على الـعـهـد القـديم بحبّكم ... كلف الفؤاد بكم ، وجسمي مبعـد

ويقول ابن أبي الرجال أن الأمير الحسين بن القاسم بن محمد العياني قد راسل نشوان بقصيدة ميمية يعتذر إليه فيها عن ابن عمه ويمدحه فأجابه نشوان يقول

والـلـهِ ، والـلـه الـعـظـيم أليّـةً ... يهتـز عرش الـلـه منهـا الأعـظـمُ
أنّي لودّك ياحـسـيـن لمضـمـرٌ ... في الـلـه أبـديـه ؛ وحـيـنـا اكتـمُ
وأود والـدك الـذي آثـاره ... عنـه بحـسـن حديثـهـا تتـكـلم
وأودّ عَمَّـيْـكَ الـذيـن كلاهمـا ... في صالحـي آل الـرسـول مقـدم
وأودّ سائـر أهـل بيـت محمـدٍ ... ووداده‍ـم فرضٌ علي ومـغـنـمُ
قوم أديـن بدينـهـم ؛ وبحـكمهم ... ونصـوصهم أفتى الخصوم واحكم
وأنـا المحب بن المحب وإن وشى ... واش ، ورجّـم بالـظنـون مرجّم
إن الـلـسـان عن الـفـؤاد معـبر ... والـنـطق عما في الـضمـير مترجم
ياطـيـبـاً من طيـب ، ومـطـهـراً ... من طاهـر ، ما فيـه وصـمٌ يعلم
شوقي إليـك مع البعاد مضاعفٌ ... يزداد لاعـجـه وقـلـبـي مغـرم

***

مواقف الحساد والمتعصبين :

لا ريب أن « نشوان » قد ضاق أشد الضيق بملاحاته مع الاشراف ومن

اضطراره لهجو من هجاه منهم ، والقصيدة الميمية وأختها الدالية تعبران عن شدة اغتباطه لرجوع جو التصافي والود بينهم ، وقد أناخ باللائمة على الوشاة والحساد من النواصب ، والذين يرجّمون بالظنون من المتعصبين وهم كثر في كل زمان ومكان ، يتربصون بأهل العلم والفضل ويختلقون عليهم الأباطيل والأكاذيب ، وقد يعمدون إلى اختراع الأقوال شعراً ونثراً وينحلونهم أياها وينسبونها إليهم ، كما فعلٍ حساد وأعداء شاعر الاسلام أبي العلاء المعري ووضعوا على لسانه أشعاراً تدل على سوء عقيدته وهو منها براء ، وهي خطة شيطانية شنعاء لها أمثلة قديمة مذكورة في دفاتر الأدب ، ولها أمثلة حيّة في زماننا هذا وأسأل بذلك خبيراً .

ولا ريب أيضاً أن « نشوان » الزيدي المعتز بنسبه القحطاني قد أرتاح إلى القصيدة القافية التي بعثها إليه الشريف محمد بن عيسى بن محمد ابن جعفر يعتذر إليه مما كان ويمدحه وأولها :

ألا كلما ناح الحمام المطوق   بكيت ؛ وقد يبكي الحزين المشوّق

وعدّد فيها جدود « نشوان » و « ملوك حمير » حتى قال :

أولئك هم أباؤك الغر كلهم   جحا جحةٌ ، والفرع بالأصل يلحقُ
فهم كالنجوم الزهر إن غاب كوكبٌ   بدا بعده في الأفق أزهر يشرق

فأجابه بقصيدة مطلعها :

أثار شجىً ذاك الحمام المطوّق ؛   أهيّجه بثٌّ به أم تشوق ؟
به مثل ما بي من جوى ؛ غير أننا   شجيان معكومٌ ، وآخر مطلق
أسرّ الذي يخفي الزناد ، ولم أبح   به خوف نارٍ منه تبدو فتحرق

ومن الملاحظ إن الذين يتحدثون عن « نشوان » من المتقدمين والمتأخرين لا يبرزون من أشعاره إلا ما ينسجم مع أهوائهم ؛ فالمتعصبون من الزيدية والهادوية الذين لم ترضهم آراء نشوان في الامامة ، وقوله إنها رئاسة عامة مشاعة بين القادرين الأمناء من المسلمين لا يستشهدون ببعض أشعاره في الافتخار بالتبابعة وملوك حمير ، ويكثرون من إيراد قصائده في الاشراف والأئمة وتنصّله مما نسب إليه واعتذاراته عما قاله في ساعة غضبه ودفاعه عن نفسه ، والذين لا يرضون عن « زيدية » نشوان وعن ولائه المحض ، ووده

الخالص لآل البيت ، يتجنبون جهدهم الاشارة إلى ما يدل على ذلك من أقواله وأشعاره ويقتصرون على إيراد افتخاراته بقحطان وأشعاره التي هاجى بها الأشراف وكل ما يوحي بأنه لم يكن زيدياً أو هادوياً بل وقد يأولون كلامه ويحرفونه .

وعندما علق العلامة القاضي محمد الأكوع على حديث عمارة عن نشوان أورد الكثير من أشعاره التي سببتها الأثارة « الجعيدية » والتي تحدثنا عنها ، ولم يشر إلى أن كلاّ من الأشراف ونشوان قد اعتذر للآخر ، وعاد الصفاء والود والتآخي بينهم . كما أكثر من إيراد أقواله وأشعاره التي جادل بها خصومه من الجارودية والمخترعة والمتعصبين من الشيعة والروافض مثل قوله في ذلك الفقيه الذي ناظره وكان كلما جادله بآيات الكتاب العزيز استدل عليه بقول إمامه الذي يقلده فقال

إذا جادلت بالقرآن خصمي	**أجاب مجادلاً بكلام يحيى**
فقلت : كلام ربّك عنه وحي ،	**أتجعل قول يحيى عنه وحيا**

وعلّق بما يوحى أن المقلّد الزيدي وحده هو المقصود مع ان العلامة نشوان « المجتهد الزيدي » قد فنّد بالبيتين الرائعين كلّ مقلّد سواء رد النصوص من الكتاب والسنة بقول الشافعي أو أبي حنيفة أو يحيى أو زيد أو عمر .

وكذلك كان موقف القاضي الأكوع وهو يتحدث عن قصيدة نشوان النونية ، والتي أعرب فيها عن بعض آرائه ومعتقداته الاصولية ولم يوردها كاملة ولا سيما ما يدل على « زيديته » واقتصر على قوله :

أيها السائل عنّى انني	**مظهرٌ من مذهبي ما أبطن**
مذهبي التوحيد والعدل الذي	**هو في الأرض الطريق البيّن**

وقوله :

إن أولى النّاس بالأمر الذي	**هو أتقى الناس والمؤتمن**
كائناً من كان لا يجهل ما	**ورد الفرض به والسنن**
أبيض الجلدة أو أسودها ،	**أنفه مخرومةٌ والأذُنُ**
أيها الشيعة هيا فلقد	**طال ما استولى عليك الوسن**
ما رأيتم لبني عدنان من	**ورم في الدين قلتم سمن !**

وقوله :

ودعوا اللعن لمن خالفكم ؛ لعنة الله على من يلعن

وأورد له نتفاً شعرية قال إنه أطلع عليها في مجموع شعر منها قوله :

حصر الامامة في قريش معشرٍ هم باليهود أحقّ بالألحاق
جهلاً كما حصر اليهود ضلالةً أمر النبوة في بني اسحاقِ

وقوله :

في الذكر ـ ساوى الله بين عباده والرافضي بما يقول ينافى

وقوله :

حصر الامامة ظالم في ظالم وكلاهما في مثله محصور
حصر الهدى والخير في بعض الورى والخير ما عنه امرؤ مقصور

ولم ينتبه العلامة القاضي محمد الأكوع ان مجرد قول نشوان :

مذهبي التوحيد والعدل الذي هو في الأرض الطريق البيّن

يدل على « زيديته » وان عدم أخذه بالرأي القائل بأن الرئاسة العامة محصورة في قريش أو في أولاد البطنين لا ينفيها عنه ، وقد قال بذلك بعض فرقهم وأفذاذ من أئمتهم .

وأنا أستبعد أن يكون البيتان اللّذان يشبّهان من يقول بأن الأمامة في قريش باليهود قد قالهما العلامة نشوان لأنه يعلم أن بعض الصحابة قد قال ذلك وكان من أدلة خلافة الصديق يوم السقيفة وعليه أمم من المسلمين . بل هما مدسوسان على نشوان .

ونسب القاضي إلى « صاحب تاريخ آل الوزير ان نشوان بن سعيد الحميري قال عن نفسه إنها وصلته من بعد عودته من حضرموت ثلاثمائة قصيدة فأجابهم بقوله :

أوَكلما عوتِ الكلابُ أجبتها ؛ تالله لا أصبحت كلباً عاويا ؟!

وبعد أن أورد بعض ما سبق مما أورده ابن أبي الرجال مقتصراً على أشعار

المهاجاة والملاحاة مُعرضاً عن قصائد الاعتذارات والمصافاة ، التي سبق ذكرها قال القاضي الأكوع : « وله قصائد أجاب فيها على الامام المتوكل على الله أحمد بن سليمان منها القصيدة التي أولها :

ذكرت دياراً دارسات خواليا ... رسوماً واطلالاً عفت ومغانيا

وأول قصيدة الامام :

دعيني أطفّي عبرتي ما بدا ليا ... وأبكي ذنوبي اليوم إن كنت باكيا

وقد سبق إيراد قصيدة الامام ونحن نتحدث عنه في السفر الأول وهي من زهديّاته ومواعظه ، وربما إن ما في قصيدة نشوان الجوابية من الاجلال والتكريم للامام أحمد بن سليمان هو الذي جعل العلامة الأكوع يعرض عن ذكرها وقفز إلى البيتين السائرين لنشوان قائلاً : « وفي تحقيق من هم آل النبي ﷺ قال :

آل النبي هم أتباع ملته ... من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله إلاّ قرابته ... صلى المصلّي على الطاغي أبي لهب

قال القاضي : « وقد استدل على ذلك بأدلة ناصعة » ! ولم يوردها . والبيتان المذكوران مما ينسب إلى نشوان ؛ وإذا صحت نسبتهما إليه فهما مما قاله أيام الملاحاة بينه وبين بعض خصومه المتطرفين من آل القاسم العياني ، وقد داخلني الشك في إنهما من شعر نشوان ، حين قرأت في مخطوطة « ديوان الهبل » وهي نسخة قديمة بخط جامع الديوان العلامة الشاعر القاضي أحمد بن ناصر المخلافي المتوفي عام ١١١٦هـ : ان الهبل أعار رجلاً كتاباً وكان شافعي المذهب فأعاده وقد كتب فيه : [هذان البيتان للامام الشافعي] .

آل النبي هم أتباع ملته . . . الخ قال فلما وقف الهبل على ذلك كتب تحتها قوله : « تبييناً لمذهب الامام الشافعي رضي الله عنه وقول أهل الحق » .

آل النبي همُ أتباع ملته ... من مؤمني رهطه الأدنون في النسب
هذا مقال ابن أدريس الذي روتِ الاعلام عنه فمل عن منهج الكذب
وعندنا أنهم أبناء فاطمةٍ ... وهو الصحيح بلا شك ولا ريب

والمؤرخ المحقق الأديب أحمد المخلافي والأديب الشاعر الحسن الهبل لو كانا يعرفان إن البيتين للشاعر نشوان الحميري لذكرا ذلك في الرد على من زعم إنهما للامام الشافعي ؛ وأن لا يعرف مثل المخلافي أو الهبل بأنهما ليسا من شعر نشوان يؤكد الشك في إنهما ليس له ، ثم أن إهمال كل من العلامة المؤرخ السيد يحيى بن الحسين لذكرهما أو الاشارة إليهما في ترجمته لنشوان في طبقاته وكذلك المؤرخ أحمد بن أبي الرجال في مطلعه دليل آخر ، وما نعرفه عن نشوان العالم الفقيه الزيدي المجتهد يجعلنا على يقين إنهما قد نسبا إليه دساً وكيدا لأنهما مفهوماً ومنطوقا يهدمان ركنا من أركان الاسلام وهو الزكاة وجمهور المسلمين يحرّمون صرفها في آل الرسول وان اختلفوا في تحديدهم فإذا كان آل النبي هم أتباع ملته فلم يبق للزكاة وتحديد مصارفها معنى . بل لو كانتا لنشوان لما أهملهما عمارة في مفيده .

ثم انتقل العلامة الأكوع إلى قوله : « وله في الامام أحمد بن سليمان » يهجوه :

عجائب الدهر اشتات وأعجبها … امامة نشأت في إبن خذروف
ما أحمد بن سليمان بمؤتمن … على البرية في خيط من الصوف

ولا أستبعد ان نشوان قد قال مثل هذا الهجو في الامام أحمد بن سليمان فقد جرت بينهما مناظرات وخصومات علمية وأدبية وربما سياسية . ولكن أما كان على القاضي أن يذكر إن نشوان قد أعتذر للامام وصافاه ، ورجع إلى مؤازرته وموالاته كما ابتدأ أمره معه ، وقد ذكر ذلك المؤرخون ؛ الزحيف ، ويحيى بن الحسين ، وابن أبي الرجال وغيرهم ؟ أليس مثل هذا الأعراض والتغاضي يؤكد ما قلناه ، وذهبنا إليه ، من أن أكثر الذين تحدثوا عن « نشوان » من المتقدمين والمتأخرين كانوا لا يوردون من أشعاره إلا ما ينسجم مع أهوائهم وان ذلك ليس دأب أهل الانصاف ؟

وها أنا أحاول تجنب تلك الطريقة جهدي ومن أجل ذلك أوردت ما أتى به العلامة القاضي محمد الأكوع من أشعار قد لا ترضي بعض طوائف الزيدية ، وأوردت أيضاً من أشعاره وأخباره ما يحاول المتعصبون والطائفيون حجبه ووأده ، والتغاضي عنه ، لتكون صورة نشوان ، وتطور حياته العلمية والأدبية واضحة جلية ، يرضى عنها من يرضى وينفر من أراد

النفور . وآمل أن ترضي المنصفين وطلاب الحقيقة .

مصافاته للامام أحمد بن سليمان

لقد أورد العلامة القاضي محمد الأكوع البيتين اللذين هجا بهما نشوان الامام أحمد بن سليمان ولم يورد أو يذكر إنهما قد تصافيا وإن نشوان قد أعتذر إلى الامام وقد ذكر ذلك كل المؤرخين .

يقول ابن أبي الرجال : « ولقد تهاجى نشوان مع الامام أحمد ابن سليمان بعد المناظرة التي وقعت بينهما ؛ حتى كان من نشوان الاعتذار بأبيات يقول فيها :

هل لك في الفةٍ نفوز بها ... فالهجر بين الرجال مطرح
لا غَرْوَ من صلحنا ؛ فسيرتنا ... على العلى نمتري ونصطلح
إني رأيت النّعاج رابضةً ... وادعةً ، والكباش تنتطح
غمّ بنا الحاسدين ؛ إنهمُ ... قد طال يابن الكرام ما فرحوا

ثم مدحه بقوله :

يابن الأئمة من بني الزهراء ... وابن الهداة الصفوة النجباء
وإمام أهل العصر والنور الذي ... هُدي الوليّ به من العلماء
كم رامت الكفّار إطفاءً له ... عمداً فما قدروا على الاطفاءِ
شمسٌ يراها الحاسدون فلم يطق ... منهم لها أحدٌ على اخفاءِ
ياداعيا يدعوا الانام لرشدهم ... وصلاحهم في بكرةٍ ومساءِ
أسمعتهم ؛ فكأنهم لم يسمعوا ... ما جاءهم من دعوة ونداءِ
لبّيك ألفاً من صديق وامقٍ ... من بعد خذلان وطول إباءِ !

وهو في البيتين الأخيرين ، يعرض بالسلاطين من آل حاتم والاشراف العيانيين وغيرهم ممن نازعوا الامام بل ويعترف نفسه إنه قد كان من المعارضين ويقول ابن أبي الرجال معلقا : « قلتُ : وهذا البيت ونحوه يشهد بأن الحال من الامام ونشوان اتحدت آخراً وإنهما ماتا على داعية الوفاء وسلوك مسلك إخوان الصفاء ؛ فما لمح إليه السيد صارم الدين بن محمد الوزير في بسامته ينظر إلى ما كان بينهما من المناظرة والمنافرة أول المدة ، ويزيده وضوحاً قول نشوان في هذه القصيدة بعد قوله : « لبيك الفا » :

من شك فيـك كمـن تبـدّل حيرةً بهدايـةٍ ، وعـمايـةً بضـيـاءِ
يا خير من يمشي به قدم على وجـه الـبـسيـطة من بني حواء
ما عايـنـت عين الـبريـة بعـده الاّ وهـم فيـهـا من الاقـذاء
لم ألـقِ بعـدك من أسر بوجـهـه ممن أعـضـت به من الـصدقـاء
ان غبتَ عن نظر العيان فلم يغب ذكـراك بين الـقـلب والاحـشـاء
يجري ودادك حيث يجرى الروح في بدني ، وحـيـث يحل في أعضـائي
أقصى لبـانـاتي التي أنـا طالبٌ في الـدهـر عاجلُ نظرةٍ ولقاء !

وفي هذا من المبالغة في الاطراء أكثر مما في البيتين من الهجاء ويقول ابن أبي الرجال إن الامام قد أجاب عليه بقوله :

يا أوحـد الأدبـاء والـشـعـراءِ بل أوحـد الـبلغـاء والفصحـاءِ
يا من له عقـل رصـين ثابـتٌ ويـعـده الـعـقـلاء في الـعقـلاءِ
ويـعـده الـفـقـهـاء في فقهـائهم ويـعـده الـعـلماء في الـعـلماءِ
حاز المكـارم والمحـامـد والعـلى أرثـاً عن الأجـداد والآبـاء
من حمير الأمـلاك خير قبـيـلـة في يعـرب والـسـادة الـنجبـاءِ
وافى الكتـاب وكـان كالماء الذي يُهدى إلى العـطشـان في الـرمضـاءِ
ينبي بما يخفي ومـا يبـدى لنـا من محض ودٍ خالص وصـفـاءِ
وملبيـاً لي إذ دعـوت إلى الهـدى كل الـبريـة سامـعـاً لدعـائي
ومـوازرا ومعـاونـاً ومسـاعـداً ومعـاضـداً ، ومصـدقـاً لرجـائي
ومـذكـراً ما كان قدمـاً بيـنـنـا من صحـبـة ومحـبـة وإخـاءِ
فليبـق في عيش هنيّ سالم في الـعـز والـتـوفيـق والـنعـماءِ

***

وقـال : « وقـد كان لنشـوان عناية واهتمام واجتهاد في قيام الأمير علي بن زيد وقيام الامام أحمد بن سليمان وكذلك لما قام الامام المنصور عبد الله بن حمزة خرج معه أبناء نشوان وجدّوا واجتهدوا في خدمته » .

أدوار حياة نشوان :

وما أورده ورجّحه القاضي أحمد بن أبي الرجال في مطلع بدوره هو ما يميل إليه المؤرخ المنصف السيد يحيى بن الحسين في تاريخه وطبقاته وقد أورد آراء المادحين له والقادحين من أئمة وفقهاء الزيدية وغيرهم وأوجز ما أطنب

في شرحه معاصره أبن أبي الرجال ، ولم يتعرض أحد من معاصري نشوان وإلى القرن الحادي عشر الهجري ، أيام المؤرخين الكبيرين ، والمخلافي والهبل لذكر البيتين المشهورين « آل النبي همُ أتباع ملته » ، وأنّهما من شعر القاضي « نشوان » بالرغم من ذكرهم لملاحاته وخصوماته وآرائه الأصولية ، مما يؤكد إنهما ليسا لنشوان .

وقد تقدم قول عمارة : « وبلغني أن أهل بيحان ملكوه » وتعرض لذلك كل من ابن الحسين ، وابن أبي الرجال فقالا نقلاً عن « الزحيف » أن مؤلف كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ، ونحن نعلم أنّه يقصد مفيد عمارة وليس مفيد جياش الذي استمد منه معلوماته مفيد عمارة ، حكى ان القاضي نشوان دعى إلى نفسه في بيحان واجتمع معه قريب من تسعمائة فارس ، وعلّق على ذلك بقوله : وهذا يدل على ان مذهبه صحة الامامة في غير قريش ، وهذا القول لم يقل به أحد من علماء الاسلام إلّا الأصمّ وضرار الجويني والخوارج ، وكلامهم خارق لاجماع الصحابة على اعتبار المنصب ، واحتجاجهم على الأنصار بقوله ﷺ : الأئمة من قريش ، فحينئذٍ يكون قول نشوان خارقاً للاجماع وقد نقل كلامه في رسالة الحور العين ونصه : « ان صحّ قول الجارودية إنها منصوصة بالاشارة والوصف ، بأخبار عندهم كأخبار النعل والخصْف ، لقد وصفوا الخالق بالرمز ، والتلبيس بالإشارة والغمز . أو صحّ قولهم في حصرها على الذرية ، دون غيرهم من البرية ، وإنها لهم كالقلادة ، بما لهم من الولادة ، لقد شرُك فيها ولد قُرين ، وولد الديباج بن ذي النورين ، كما ان عيسى من ذرية الخليل ، لوجود الشاهد والدليل ، ولن توجد حجة قاطعة على النص والحصر ، تشهد لصاحبها على المخالف بالنصر ، من تنزيل ، لا يعارض بالتأويل ، وتأويل لا يُنقض بالسماع أو ضرورة العقل ، التي لا تفتقر إلى النقل » ، وبعد ان نقل تفسير نشوان في شرحه لرسالته من ان قُرين هو لقب عثمان بن عبد الله ابن عمر بن حكيم وأمه سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ، وأن الديباج لقب محمد بن عبد الله بن عثمان بن عفان وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي ذكر الزحيف إنه وقف على كلامٍ لنشوان يدل على انه ندم على دعوته المذكورة فقال : « وقد وقفت على كلامٍ لنشوان مكتوبا بخط الفقيه العلامة محمد بن ناجي الحملاني ولفظه : « كان من علم الله وصولي إلى المشرق فكلفني

أهلها أن أُحمِّل الذرّ أحمال العِير ، وسمحوا بالمين والايمان ، وشحوا بالصدق والايمان ، فرغبت وطمعت في ظاهر كلامهم حتى أدركني الاملاق بمارب ، فخرجت من الدائرة الرابعة إلى دائرة المتقارب » إلى قوله : « ولبثت بحضرموت على ما لبث يونس في بطن الحوت ، أخصف ورق الندامة خصفا ، وأتعرض لرزقٍ حلال فحصل ما فيه سدّ الخُلة ، ثم عدت إلى مارب فلقيني من بها وتعرض لنا سفهاؤهم للعطية ، فقاسمتهم ما على المطية ، ثم عولوا على العود إلى المغارب ، وحلفوا إيمانا على التمام ، وسلموا ذماماً بعد ذمام ، فأشار السلطان راشد بن جحاف الجوفي بترك العود فقصدت الجوف فلحقني من خولان آل فصيل ، فأخذوا القطار ، وكانت الكتب على بعيرين سلم أحدهما وافتُدى الثاني فسلمت ؛ فوصلت الجوف متخليا من الأعوان والأنصار ، ولو شئت وصلته بالجيوش الكثار ، لكنني قلت : ما عند الله خير وأبقى وأنشدت :

وما أنا الاّ من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية أرشد »

قال : « وروي ان دولته استمرت أسبوعا » .

ومما سبق ومن أقوال نشوان شعرا ونثرا ، وأقوال معاصريه والمؤرخين والفقهاء المتضاربة فيه ، نستطيع أن نستنتج أن حياته العلمية والفكرية والسياسية وعلاقته بالاشراف القاسميين العيانيين والامام أحمد بن سليمان قد مرت بثلاثة أدوار ، وكان في كل دور يعبر عما يعتقده ويراه ويعن له من آراء فقهية وأصولية وسياسية لا يجامل ولا يجمجم ، شأنه شأن المجتهدين الناصحين .

١ ـ الدور الأول دور الشباب وفتوته ، والطلب والدراسة في مطلع القرن السادس الهجري وصولجان الدعوة الاسماعيلية والدولة الصليحية في كف الملكة السيدة بنت أحمد ، والصراع على أشده بينها وبين حكام تهامة وزبيد من النجاحيين ، وحالة اليمن الثقافية والسياسية والاجتماعية كما سبق شرحها ونحن نتحدث عن الامام أحمد بن سليمان ؛ حالة تمزق وصراع بين المتطلعين إلى وراثة التركة « الصليحية » عند أن تلفظ الملكة العجوز آخر أنفاسها ، وابن مهدي يرعب بتهديداته وزمجراته الملوك « المماليك » في زبيد ومشايخ « جَنْب » تترصَّد في « ذمار » ، و« آل حاتم » يتبخترون في همدان

وصنعاء بفرسانهم وأشعارهم ، وورثة النظرية الزيدية من آل العياني وأحفاد الهادي يتنازعون خيمتها ، كل يريد ان يستبد بها ، ويتخطرون في عناد ما بين « شهارة » و« الشرفين » و« الجوف » ، وأبناء « السلطان الحجوري » ينتظرون وفاة أبيهم ليتطاحنوا ، وصوت الامامة الزيدية قد خفت وتحول إلى صراع فكري بين « المخترعة » و« الجارودية » ، و« المطرفية » ، والجهابذة العلماء من كل الأطراف منعزلون ؛ قد خلدوا إلى التأليف والتثقيف بل ومجاراة ومجاملة الأفضل والأقوى ومن يجدون في ظله الأمان والحرية مهما كان مذهبه ومعتقده وسلوكه ! في هذا المجتمع ، وفي بيئة علمية زيدية « بحوث » نشأ وشبّ ودرس وتعلم على يد والده ، وعلى أيدي العلماء الذين درس عليهم ، وأخذ عنهم وتخرج على أيديهم ، زميله وتربه الامام أحمد بن سليمان المولود عام ٥٠٠هـ ولعله نفس العام الذي ولد فيه القاضي نشوان .

وهذا الدور الأول قد خوّل لنشوان الشاب الذكي الطموح الانكباب على الدراسة حتى فاق الاقران وأصبح ذا شأن وأي شأن ، وقد تأثر بكتب الاعتزال التي بدأت تتوافد إلى اليمن من العراق ، كما انفعل لا شك بآراء وأفكار « أبي الحسين الطبري » و« أبي محمد الهمداني » و« أبي نصر الحنبصي » و« مطرف بن شهاب » و« مسلم اللحجي » وجادل الفقهاء ، وناظر العلماء ، وكان له آراؤه الخاصة ، وترجيحاته واجتهاداته ولكن في اطار تعاليم ومبادىء الامام زيد بن علي التي هي مبادىء وتعاليم « المعتزلة » . ولا شك إنه كان فطرةً وتطلعا . من النوع الذي لا يضيق ذرعاً بآراء الآخرين فتوسعت دائرة معارفه ، وخالط وجالس وصادق المشاهير في عصره من كل الفرق والطوائف والمذاهب ، وكتابه رسالة الحور العين وشرحها ، يدل على انه درس بامعان ، واستوعب باتقان ، آراء وأفكار ونظريات ما عُرف في زمنه عن الملل والنحل والفلسفة وسائر العلوم العقلية والبيانية .

وقد كان في هذا الدور على صلة قوية بالامام أحمد بن سليمان وسائر الاشراف وإن كان قد اعتنق من آراء أئمة الاعتزال ، أو تبنى ما وصل إليه عقلاً وتفكيراً لا يقره عليها « الهادويون » مثل اختياره لقول النظام في الامامة وانها من حق أكرم الخلق وخيرهم من جميع المسلمين لقوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن**

أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ والنداء لجميع الخلق من أحمر وأسود ، ولم يخص عربياً ولا نفى عجميا ، ولا أحداً دون أحد ، فمن كان أتقى الناس لله ، واعلمهم بطاعته ، كان أولاهم بالرئاسة العامة ؛ وقد اطمأن نشوان الزيدي إلى ان هذا المذهب الذي ذهب إليه النظام هو أقرب الوجوه إلى العدل وأبعدها عن المحاباة . وقال قصيدته التي منها :

إن أولى الناس بالأمر ؛ الذي هو أتقى الناس والمؤتمنُ
كائناً من كان ؛ لا يجهل ما ورد الفرضُ به والسننُ
أبيض الجلدة أو أسودها ، أنفه مخرومةٌ والأذُنُ !

ولكنه أيضا كان حر الرأي يؤمن بالخلاف فيما يجوز فيه الخلاف ، ولذلك فهو لا يسبُ من يخالفه ، ويحذر من ذلك ويقول في نفس القصيدة

ودعوا اللعن لمن خالفكم لعنة الله على من يلعنُ !

وقد كان لهذه القصيدة ردود فعل عنيفة ، عند مخالفي رأيه الذي أيد به نظرية النظام ، وكان أبشع ردود الفعل تلك « الأرجوزة المرعبة » التي تنسب إلى الامام عبد الله ابن حمزة والتي عقدنا لها فصلا خاصا ووقفنا معها وقفة طويلة قد تزعج المتعصبين من كل الفئات .

وبهذا نعلم أن مناشدته لأحمد بن سليمان بالقيام ليس لأنه من آل الرسول فقط ! بل لأنه يعرفه تقياً عالماً مجتهداً كفوءا قادراً على القيام بأعباء الرئاسة العامة ، أو الامامة الكبرى ، إذ أنه وان كان يعتقد عدم شرعية الحصر في قريش أو في بيت معين فانه لا يمانع إذا وجد بينهم من هو الأتقى والأفضل والأعلم بل ربما إنه يرجحه على مثله من الآخرين ، والذين يظنون ان نشوان الزيدي كان برأيه المذكور قد استبعد فئة من الناس انما يظلمونه ويظلمون أنفسهم وهم لا يشعرون .

وبالرغم من أننا لا نجد بين أيدينا ترجمةً تفصل حياة نشوان في هذه المرحلة الأولى فاننا نعرف ان نبوغه كان مبكراً ، وان نشاطه العلمي والثقافي كان واسعاً ، من شذرات أخبار موزعة في تراجم غيره من العلماء ؛ ومنها نعلم أيضاً انه لم يكن متحجّر الفكر جامداً على كتب مذهبه وبيئته ، وقد روى السيد يحيى بن الحسين في « طبقاته » وهو يترجم للعلامة عليان

بن سعد أحد علماء الهادوية الكبار ، والمعدود أيضاً من مشايخ « المطرفية » ، انه اجتمع بالقاضي الرشيد أحمد بن الزبير المصري ؛ وقد كان ـ كما يقول ابن الحسين ـ « يميل إلى مذهب الباطنية وعقائد أهل الفلسفة » وحضر الاجتماع عالم الاسماعيلية وشاعرها محمد بن أحمد اليامي ـ صنو السلطان حاتم بن أحمد اليامي ـ وكوكبة من علماء وفقهاء الزيدية والشيعة ؛ وقال إن القاضي الرشيد أورد عليهم عدة مسائل كانوا لا يستطيعون الاجابة عليها ، أو مناظرته فيها إلاّ بأقوال أئمتهم ، وكان « الرشيد » بمنطقه وبيانه يفحمهم ؛ ولما حضر القاضي نشوان بن سعيد الحميري قال للرشيد المصري : « هؤلاء فقهاء مذهبنا » ، ولكن أنا أتولى جوابك ودخل معه في مناظرة وجدل منطقي أجاب فيها على كل ايراداته ، وافحمه بمنطقه وبيانه وبأسلوبه الجدلي . [طبقات ورقة رقم : ٨٦]

ونحن نعرف إن القاضي الرشيد كما يقول المؤرخون قد وصل اليمن منتدباً من الحافظ العبيدي عبد المجيد لتثبيت الدعوة الفاطمية سنة ٥٣٤هـ وهو الذي قلد الدعوة ابن سبأ الزريعي بعدن ، وظل فترة يتنقل ما بين مدن اليمن ، وزار صنعاء وسلطانها حاتم اليامي ، وله مناظرات وأشعار في اليمن وحكامها وسلاطينها ، فاذا كان نشوان ـ كما افترضنا ـ من مواليد عام ٥٠٠هـ كزميله وتربه ابن سليمان فيكون قد ناظر القاضي الرشيد وهو من أشهر وأكبر فقهاء وعلماء وفلاسفة ومتكلمي عصره ومصره وهو في قمة شبابه العلمي وفي آخر مراحل دوره الأول أو مطلع دوره الثاني .

٢ ـ أما الدور الثاني في حياة نشوان فهو دور الدعوة لمذهبه الزيدي دور الخروج على الظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتثبيت قواعد وأسس العدل والتوحيد وانشاء دولتها ، وقد روى المؤرخ يحيى ابن الحسين في تاريخه « غاية الأماني » أن نشوان بدأ يحرض الامام أحمد ابن سليمان على القيام بالأمر من عام ٥٣٠هـ وان قصيدته التي بعثها إليه سنة ٥٣١هـ كانت من أسباب دعوة السيد علي بن زيد بن ابراهيم ، وانه قد رافق في نفس العام أحمد بن سليمان إلى صعدة مؤيدين وملبينّ لدعوة علي بن زيد « على ما هو عليه من قلة العلم وعدم احرازه شروط الامامة » رغبة منهما في إقامة دولة « العدل والتوحيد » [غاية الاماني ج ـ ١ ـ ص ٢٧٥] .

وبعد أن قُتل السيد علي بن زيد لم يجد الناس ؛ ومنهم « نشوان » أفضل ولا أقدر على القيام من أحمد بن سليمان فناصره بلسانه وسنانه ، والامام ابن سليمان نفسه يعترف بذلك في قصيدته الهمزية .

ولعل ملاحاته مع الاشراف القاسميين قد حميت في هذه المرحلة الحاسمة إذ أن بعضهم كانوا من المعارضين لدعوة « الامام ابن سليمان » وكان الامام مثل « نشوان » يستهجن دعاواهم بمهدوية جدهم الحسين بن القاسم وأضاليل وأباطيل قولهم إنه لم يقتل ولم يمت بل اختفى ، وقد أشرت إلى ذلك في موضعه من كتابنا هذا .

وفي أثناء ذلك أيضا نشب الخلاف بينه وبين الامام أحمد بن سليمان ولا أظن ان اسبابه سياسية لطلب جاه أو سلطان ، ولعل ذلك الخلاف لم ينشب الا بعد أن انتصر « ابن سليمان » على السلاطين « آل حاتم » ودخل « صنعاء » في سنة ٥٤٥هـ ؛ ولعل الكثير من فقهاء « المخترعة » وعلى رأسهم القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام الذي كان والده اسماعيلياً ، وكان أخوه من أكبر شعرائهم وأنصارهم أيضاً ، وكان هو نفسه كما عرفنا من ترجمته من الذين يميلون إلى « التطريف » ثم رجع عنه ، ودارت بينه وبين علماء وفقهاء المطرفية الكثير من المناظرات ، والعنيف من الصراع ، ووقف الامام أحمد بن سليمان بثقله العلمي ، وهيمنته السياسية مؤيداً للقاضي جعفر وتلامذته ولا شك أن ذلك قد أثار الصديق والزميل في « الاعتزال » و« الزيدية » سليل ملوك حمير وتبابعة قحطان ، ولم يستسغ من إمامه وزميله وهو العالم المجتهد أن يتحيز إلى جانب فئة ضد أخرى ؛ يتجادلون ويتناضلون في مسائل عقلية ونظرية يباح فيها الخلاف والجدال . وهو حفيد الامام علي كرم الله وجهه ، وخريج مدرسه « زيد بن علي » .

نعم ربما ان ذلك قد أثار القاضي نشوان واعترض واحتج على الامام ، وليس لأنه يرى رأي « المطرفية » ولكن لانه لا يجيز اضطهاد من يخالفه في الرأي ، ولا يشتمه ولا يلعنه ، ولعله قد جهر باعتراضه واحتجاجه شعرا ونثرا كعادته في كل موقف وإزاء كل حدث . وقد أخبرنا المؤرخون ان الخلاف ما نشب بين الامام والقاضي إلا بعد المناظرة التي جرت بينهما ، ونحن لا ندري حتى الآن فيما ذا تناظرا ؛ إذ قد بخل المؤرخون علينا بذكر

المواضيع التي تجادلا فيها ؛ ولكننا نعرف المسائل الأصولية التي كانت تشغل أذهان العلماء والفقهاء في تلك الحقبة من تاريخ اليمن وهي تنحصر في العقل وتحكيمه ، والتحسين والتقبيح ، وخلق الأفعال ، والامامة وحصرها أو اشاعتها بين المسلمين ؛ وابن سليمان ونشوان الحميري وان كان قد تخرجا من مدرسة زيدية واحدة لكن الامام قد لا يستطيع ان يوافق القاضي على قوله :

إن أولى الناس بالأمر الذي هو أتقى الناس والمؤتمن
كائناً من كان ؛ لا يجهل ما ورد الفرض به والسنن
أبيض الجلدة . أو أسودها ؛ أنفه مخرومة والأذنُ !

وإذا وافقه على ان الأولى بالأمر هو الأتقى والأعلم فقد لا يستطيع ان ينكر ان « الامامة في قريش » ، وأحق قريش بها أولاد علي . إلى غير ذلك من آراء نشوان المبثوثة في كتبه ورسائله والتي لا تتوائم مع آراء الامام المعروفة .

وقد قرأنا في طبقات يحيى بن الحسين وهو يتحدث عن العلامة يحيى بن الحسين بن عبد الله البحيري المتوفي سنة ٥٧٧هـ إنه كان من نظراء نشوان الحميري وأن مراسلات ومكاتبات وأشعاراً قد دارت بينهما ، وهذه المراسلات والأشعار لا تزال بين الموؤدات من آثار نشوان وغير نشوان ، وقد حدثنا المؤرخون أن صراعاً فكرياً ، وجدلاً أصوليا ، ومناظرات علمية قد نشبت بين العلامة البحيري وقاضي قضاة الامام أحمد بن سليمان جعفر بن أحمد بن عبد السلام [ت ٥٧٣هـ] وان تلك المناظرات قد أثمرت كتاباً اسمه « رادمة الأبواب » [طبقات ورقة رقم : ٨٧] .

وإذن فلعل تلك المجادلات ؛ إلى آراء متناقضة لكل من الرجلين قد كانت هي السبب في إثارة الخلاف بينهما ، وتبع ذلك جدل ومناظرة ثم خصومة وملاحاة ومهاجاة ومجافاة ، ولعل نشوان في هذه الأزمة قد تذكر ضيق العلماء والمفكرين بالاشراف من أحفاد الهادي والعياني « ورثة النظرية » ، واعتبار « الامامة » تركة يتوارثونها كما يتوارث أبناء وورثة المشايخ والسلاطين مشيخاتهم وسلطناتهم غافلين عن الفوارق الاجتماعية والدينية وشروط ما يسمونه « امامة » في كتب أصولهم وتعاليم مذهبهم .

ولعله قد تذكر مواقف « الهمداني » و « أبي نصر » و « الطبري » بل وربما قد استمع الى ما يقوله معاصره القاضـي محمد بن علي الاهنومي وقد كان كما يقول يحيى ابن الحسين في طبقات الزيدية : « من علماء الهدوية ورجالهم الأفاضل مبرزاً في ذلك على كثير من نظرائه » . وروى عنه حكاية ظريفة تصور الحالة التي كانت تقلق خواطر علماء « الزيدية » في تلك الفترة ، وهي تكاد ان تكون ـ كما أتخيل ـ حالة القاضـي نشوان بن سعيد قال : « قال مسلم اللحجي أخبرني عمر بن محمد المعمري الوادعي ، قال أقبلت من بلاد خولان ـ حيث كان يسكن نشـوان ـ أريد الشريف يحيى بن الحسين الحسني من ولد الهادي ، وهو بنواحي « مسور » وبلد « حمير » ، وكان من أصحابه ، فمررت ببلاد « ضاعن » من « حجور » وبلاد « الاهنوم » وكان الامام أحمد بن سليمان قد فتح « صنعاء » ونواحيها ؛ فتذاكرنا أمر « الامامة والأئمة » فقال لي ـ القاضـي الاهنومي ـ : اسمع . قلت . نعم . قال : لا أرى إنه يقوم باليمن من أشرافها إمام بعدها إلى يوم القيامة . قلت ولماذا ؟ قال : يرون ـ أي الاشراف ـ رخص هذا الأمر ، وطاعة من يظهر التدين ، ويدعي العلم ، ومن ليس بأهل فيطمعون في مثل ذلك ، فيتهاونون بالعلم والتعليم والعبادة وطلب الخير ، ويطلبون الأمر ثقة بالنصرة عليه من هؤلاء المذعنين للدنانير [المدعين] للعلم بلا كلفة ولا عمل . فمتى تُطلب خصال الامـامـة من بعـد الاستجـابة والاعانة لمن ليست فيه ممن يصدقه الناس ويقلدونه » [المستطاب رقم ١٠٩] .

فلماذا لا يكون القاضـي نشوان قد فكر نفس التفكير في أزمته مع الامام أحمـد بن سليمان ومـلاحـاته مع الاشراف ، ورأى أن الأفضل له ولمذهبه ولبلاده أن يؤيد قوله بالفعل ، وأن ينفّذ رأيه الذي هو رأي النظام ومن تبعه من أهل الاعتزال بل ورأي الامام زيد في نظره ونظر الصالحية والمطرفية من الـزيدية ، ولعله بذلك سينقذ الامامة من عبث ورثتها الذين أشار إليهم القاضـي الأهنومي وقال يائساً : « لا أرى انه يقوم باليمن من أشرافها إمام بعـدها إلى يوم القيامة » ؛ وتذكّر مفاخر قومه وجدوده التبابعة ، ورأى في نفسه الشروط التي يتطلبها الفقهاء في من يقوم بأمر الرئاسة العامة ، فكان منـه النزوح إلى مشرق اليمن بيحان ومارب وحضرموت وكان ما قصه في رسالته حين صدم بالواقع المرير ، واقع فساد المجتمع اليمني وتمزقه .

توكّل على الله ونصب نفسه إماماً أو خليفة أو سلطانا لكنه سرعان ما فشل وتشرد ، وأثناء هذه الفترة قال الكثير من أشعاره في مفاخر التبابعة وملوك اليمن ، وقصائده في قحطان ، وتحامله على عدنان ، ولعل معاناته لواقع اليمن التعس ، ونضوجه الفكري ، قد آبت برشده إلى التفكير في مصالحة صديقه القديم ، وإمامه الزيدي ، ومصافاة الأشراف ، الذين بدورهم قد أنسوا إلى ذلك واعتذروا إليه ومدحوه ؛ وهو ما تحكيه الأشعار المتبادلة بينهم ، والتي سبق ذكر شيء منها ، وكل ذلك قد حداه إلى السكينة والاطمئنان والخلود إلى التأليف والزهد والعبادة ، وهو الدور الثالث والأخير في حياة نشوان الحافلة بالجليل من الأحداث .

٣ ـ نعم ان النضوج الفكري ، وحصاد التجربة القاسية ، وكهولته الوقورة ، هي الدور الثالث والأخير في حياته المتطورة ، وقد أيقن ان ما ينخر في جسم مجتمعه من فساد أقوى من طاقته وقدرة امامه أحمد بن سليمان ؛ فعاد من رحلته الشاقة يائساً نادماً ، وتم الصفاء والوئام بينه وبين الاشراف عموماً وابن سليمان خصوصا ؛ ومما يدل على ما ندعي ويؤكده ما ورد في كتبه ورسائله ومؤلفاته التي خلد إليها بعد أن رجع من رحلته الأخيرة وفيها يدعو إلى المحبة والاخاء والمساواة وحرية الفكر ، دعوة الفيلسوف العالم المتسامح المتغمد المتعبد للعلم والمعرفة والتأليف وذكر الله .

ومن الشواهد الصارخة رسالته التي أوردها الزحيف ونقلها عنه ابن أبي الرجال وهذا نصها :

« انقضت النقائض بيني وبين الشرفاء القاسميين وذلك قبل طرور الشارب ، وبلوغ المآرب ، فأما اليوم فقد زدت على الأشُد ، وصرت من الهزل إلى الجد ، وأتاني نذير الشيب ، وزايلني كل ريب ، وتحلّيت بحلية الوقار ، ونظرتُ نفسي بعين الاحتقار ، ورغبتُ عن القريض ، وملاهي معبد والغريض ، وأقمتُ الشعر ، بأبخس السعر واعتضت القرآن بالشعر بدلا ، وتركت الجدال « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » ، وذهبت في ذلك مذهب لبيد ، واستبداله الشهد بالهبيد ، وجعلت الآيات ، عوضاً عن مصارع الأبيات ، وذكر الله عوضاً عن النسيب ، وذكر المعاد بدلا عن الربع والحبيب ، ولست من الشعراء ، بل من عباد الله الفقراء ، الذين تحل لهم

صدقة الدعاء التي لا تُقبض في وعاء ، وزكاة الاستغفار ، التي تصرف العذاب عن الكفار » ، ثم قال :

« والشرفاء - أبقاهم الله - مما سألت مثرون ، ومما طلبت مكثرون . فلتشملني بركتُهم بهبة أفضل الصدقات ، إذا ذكروا الله في أفضل الأوقات ، وهي صدقة الدعوات عقيب الصلوات . إن الله يجزي المتصدقين ، ويجعل العاقبة للمتقين ، فدعاء الشرفاء المالكين مجاب ، وليس بين العبد وربه حجاب ، فلعل الله ان يمحو عني موبق الذنوب ، ويغسلني من رحمته بذَنُوب ، فقد ضقت ذرعاً فيما فرّطت ، وأنشبت نفسي في أضيق المسالك ، وورّطت ، وأصبحت لنفسي ظالما ، ومن ظُلم غيرها سالما ، ولكني استغفر رباً كريما ، « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

قال الزحيف : « هذا من كلام نشوان بعد كتاب « المسك » - كتاب ديوان أشعاره - فهل صاحب هذا الكلام حقيق بسب أو ملام ؟» [مطلع - ٣ - ٤٢٩] .

وأصدق من هذه الرسالة وأبدع ، وأكثر إنابةً وخشوعاً وأروع ، ذلك الدعاء الذي ختم به « رسالة الحور العين » والتي هي من آخر أعماله في دوره الأخير ومرحلته الثالثة حين خابت آماله في البشر ورجع إلى ربه منيبا عائداً تائبا وقال :

« اللهم إني إليك تائب ، ومن لم يتب من عبادك فهو خائب ، توبة من بهضه الذنب ، وأثقل منه الغارب والجنب ، واستغفرك استغفار منيب هائد ، إلى كل ما يسخطك غير عائد ، قد اعترف بها اقترف ، ووجل مما عمل ، فخجل ، ونادم من تلك الخطايا ، وركوب تلك المطايا ، التي اقتعد منها العشواء ، فتابعت به الأهواء ، حتى أوردته في المهالك ، وسلكت به أضيق المسالك ، فهو يتململ تململ السليم ، ويتأوّه تأوّه المُليم ، كدابغة أديم ذي حلم ، ومداوي ميت لا يحس بألم ، كيف السبيل إلى الخلاص من الورطة ، ودخول باب حطة ؟ ، لا خلاص إلا باخلاص ، ولات حين مناص ! لِمن علق بشرَكِ القناص ، لو كظمتُ ، لما ظلمتُ ، أو عفوتُ ، لما هفوتُ ، فهل من متصدق على بائس فقير ، مثقل من الذنوب وقير ،

بصدقةٍ من حل ، تفكّه من الغلّ ، أو دعوة مثابة ، يرجى له بها أجابة ؟ إن الله يجزي المتصدقين ، ويثيب المتقين » . [٤٨ ـ رسالة الحور العين] .

ونشوان بهذه الضراعة يذكرنا بأبي العلاء المعري في « الفصول والغايات » بل هو أرق تعبيرا وألطف سجعا ، ولو ان العماد الكاتب قد أطلع على هذا الدعاء لما شتمه ، بل كان سيسأل الله له معنا الرحمة ، وها هو ينقض كلما سبق أن قاله من مباهاة وتفاخر بحمير والتبابعة فيقول :

« نحن بنو آدم وحواء ، لأب وأم في الولادة سواء ، فما فضل أخ على أخيه ، إلّا بالعمل الصالح وتوخيه ، كلنا لله عبيد أكرمنا عنده من اتقاه ، وصان وجهه عن حر النار ووقاه ، لا نُسأل يوم القيامة عن نسب ، كل يؤخذ بما اجترح واكتسب ؛ نجا المخفون ، وأمن الخائفون ، أفلح من أخلص النية ، قبل هجوم المنية ، وبتك أسباب الأمل ، ووصل حبال العمل ، وشغله ذكر المعاد ، عن ذكر دعدٍ وسعاد » [ص : ٤٩ حور] .

فأين هذا التواضع القانت ، من ذلك التباهي الشامخ حين قال في طويلته الرائية التي يتبجح بها العنصريون ؟ :

منا التبابعةُ الثمانون الأولى	**ملكوا البسيطة سل بذلك تخبرِ**
من كل مرهوب اللقاء معصب	**بالتاج غاز بالجيوش مظفرِ**
تعنوا الوجوه لسيفه ولرمحه	**بعد السجود لتاجه والمغفر**
يارب مفتخرٍ ؛ ولولا سعينا	**وقيامنا مع جده . . لم يفخرِ !**

وهو بهذا البيت ولا شك يعرض بالأشراف القاسميين والهادويّين الذين هاجاهم ولاحاهم ثم يقول :

لولا صوارم يعرب ورماحها	**لم تسمع الآذان صوت مكبرِ**
وبكرهنا ما كان من جهالنا	**من قتل عثمان ومصرع حيدرِ**
وإذا غضبنا غضبة يمنيةً	**قطرت صوارمنا بموت أحمرِ**
فافخر بقحطان على كل الورى	**فالناس من صدف وهم من جوهر**
وأفخر على من شئت إلا حميراً	**فدع الفخار لأهله من حمير !**

وله رسالة يقول العلامة القاضي محمد بن علي الأكوع إنه عثر عليها عند العلامة علي بن محمد بن ابراهيم ضمن أوراق وجدوها في خزائن جامع

الامـام عبد الله بن حمزة وهي جواب على رسالة وصلته من الشيخ مسلم اللحجي يقول فيها :

« وصلني كتـاب الشيخ الاجـل مولاي ، وصله الله بالمواهب الهنية ، والرغائب السنية ، مضمنا جزل الكلام ، وحفيّ السلام ، سلمه الله من صروف الزمان ، وألبسه من ذلك ثوب الأمان ، وعصمه بعصمة الايمان ، مثنيا على عبد حضرته بما هو أولى به من الثناء ، وفي المثل : « يرشح بما فيه كل إنـاء » مهـديا إلي ما أعارني من محاسنه ، وليس عذب الماء كآسنه ، واصـلاً بذلـك رحماً أمر الله بوصلها ، وثمر الدوحة تنبيك عن أصلها ، والناس أصناف كأصناف الأشجار ، ومعادن كمعادن الحجار ، منها الدواء ومنها السم ، ومنها الطيب ومنها الخبيث في الذوق ، والشم ، ويطيب رائحة العود المندلي على العيدان ، ولذلك حمل إلى جميع البلدان ، ولولا خبث عرق النحاس لكان ذهباً والفلاسفة تقول : هو منه إلا أنه لم تنضجه الحرارة ، وكذلك الثمار المفرطة في المرارة ، وكلام المرء ثمره الذي تجنى منه ، وبذره المأخوذ عنه ، والمرء مخبؤ تحت لسانه ومنسوب إلى إساءته وإحسانه ، والفرع على المنابت ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، وكتاب الشيخ الأجل مولاي دليل على كرم فرع وأصـل ، وحكمة وحكم في الخطاب وفصل ، ومعبر عن رجاحة وحلم ومعرفة بالأمور وعلم ، وهو أدام الله عزه مجلّي حلبة الكرام ، وامام الأدب وكعبة بيته الحرام ، ولم يزل مرابطا على ثغر الحفاظ ، ناطقا بأحسن الألفاظ ، مصيبا بالرمية ، معروفا بالحمية ، حمية الحق لا حمية الجاهلية ، وله في الأصل محل سام يشهده الفضلاء من أولاد سام .

ذكر أدام الله عزه حال ذلك الفقيه ، وما يخشى من رد الجواب ويتقيه ، بما ينسب إليه من قبح الهجاء ، وإخلاف الظن فيه والرجاء ، والهجاء خلق ذميم من أخلاق السفهاء ، مجانب للفضلاء والفقهاء ، ينفث به الشر عن خبث الضمائر ، وفساد السرائر ، ينطق بالبذا ، كما تفوح الحشوش بالأذا ، والفقيه السيد ، أدام الله عزه أشرف من أن يقـاس بهذه الـطبقـة الدنية وأعلا ، وأحق بالذكر الجميل وأولى ، وله أصل شريف طاهر ودين قويم ظاهر وهو بموضع من السؤدد منظور ، ومثله لا يقع في محظور .

ومـالي من ذنـب عليـه علمتـه　　سوى انـه لي صاحـب ونسـيب
فمـذهبـه في سنة الـدين مذهبي　　وأسرتـه قومـي فكـيف أجيـب

وقد كان بلغني ذلك فأمسكت ، وكففت النفس العاصية وملكت ، واستجبت بكتاب يشمل على العتاب فكيف بكلام قبيح ، وشتام للشرف والدين مبيح ، ثم صدر منه بعد ذلك اعتذار يمحو الذنب العظيم ويسلي المحزون الكظيم ، وثناء يعود جزيله عليه ويرجع عمله إليه وحامل العطر يعبق ريحه ، وله بادره وصريحه ، ولو تعمدني بما ينسب إليه لكان لي في الصمت مجال ، ومن جوابه ارتحال ، وأجبت بجواب من الصواب ، وقابلت التعمد بالتغمد ، والهفو بالعفو ، وواريت النظم بالكظم وعثرة اللسان بصبر الانسان وفي الكتاب العزيز والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين فأما أكثر الشعر فقد تركته وقطعته ، ونهاني الدين عنه فأطعته ، وفي الكتاب العزيز ذم الشعراء إلا الذين من البغي سلموا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وأنا عائذ بالله من الطعن في أعراض الغافلين ، والتشبه بالسفهاء الجاهلين وكان جرير بن الخطفي لا يزال بمسجد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله معتكفا ثم خرج يقذف المحصنات ويرميهن بالهنات فروجع في ذلك فقال : لست أبتدي ولكني اعتدي ، وكان الفرزدق قد قيد نفسه وأطال في تعليم القرآن حبسه ، وهو يؤذي المسلمين ، ويمدح الظالمين ، ثم جرت بينهما نقائض ، عنها الحياء والدين غائض ، وفي الكتاب العزيز وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، وقد أقدر الله الآدمي على النطق بما شاء ، إن أراد البر وإن أراد الفحشاء ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وكلام البر دليل الأبرار ، وكلام الشر دليل الأشرار ، وفي الكتاب العزيز ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، وقيل لنُصَيْب مالك لا تهجو قال : لقبح الهجو تركته ، ولو ان السفيه يحسن لشاركته ، قيل له : لو أحسنت الهجاء لقلته ، كما به قلت المديح وانتحلته ، فقال : سبحان الله كيف لا أحسن قول اخزاك ربك مكان عافاك ربك ووزنهما في الشعر واحد ما لذاك في الناس من جاحد لقد بان فضل العبد على أخوي تميم ، وما أنبياه من الفعل الذميم ، وفي الكتاب العزيز قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ، وروي عن النبي ﷺ أن الغيبة أشد من زنا الزانين ، ويكتب في جنايات الجانين ، وفي الكتاب لا يغتب بعضكم بعضا فقرض الغيبة من المسلمين قرضا ؛ ولذلك كان بعض الصالحين يحرس لسانه

بحصاة لا تزال في فيه خوف ذلك اللسان ومآثمه قال رجل لعمرو بن عبيد : إني لأرحمك مما يقول الناس فيك قال : اياهم فارحم وقال بعض أهل الغي ، لحكيم المعي : لأسبنك سبا يدخل معك قبرك فقال : قبرك لا قبري ، فابك على اللافظين إن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ، وما ربك بغافل عما تعملون ، اللهم أني أعوذ بك من اغتياب الغائبين ، وشقاوة العابثين فاكتبني مع الشاهدين ولا تجعلني مع الخائنين » .

وأظنه قد كتب هذه الرسالة إلى الشيخ العالم المؤرخ المطرفي مسلم اللحجي في فترته الأخيرة وقد خلد إلى الكتابة والدراسة والتدريس ولعله يشير إلى معارك كلامية كانت لا تزال دائرة على ألسنة وأقلام بعض فقهاء ذلك العهد الذي عاصره وأرخ له مسلم اللحجي ، ونشوان يدعوه ويدعو نفسه إلى العفو والتغمد والاحسان وينهي عن الفحشاء والمنكر عملاً وقولاً . وأين هذا كله بما فيه من تسامح وخشوع واخلاص وعفو ، من صيحاته العنصرية ونقائضه الطائفية ، وتطاوله واغراقه وغلوّه الذي لم يغضب فقط خصومه ، والمعاصرين له من الاشراف والفقهاء بل ودفع أخيراً « العماد الأصبهاني » وأخيراً الدكتور شوقي ضيف إلى أن يقرعانه باللوم الشديد ، ولو إنهما قد درسا حياته في أدوارها المتعددة ، ومراحلها التي أشرنا إليها لكانا به أكثر رأفة ، ولناشدا له التسامح والتغمد الذي ناشده نشوان لنفسه ، ولمن ناوأه ولاحاه من بني جنسه .

كان ألمعياً . . بل عبقريا

ومواقف المؤرخين والفقهاء من علماء اليمن ـ قديماً وحديثاً ـ متضاربة ومتناقضة كما قلنا ؛ فمنهم من يضلله ويتهمه في عقيدته ، ويُعرض عن كل ما يروى عنه ، أو يسند إليه من أقوال ـ شعراً أو نثراً ـ تدل على إيمانه و « زيديته » ، وأبرّ الناس به من هؤلاء ، وأرفقهم من يقول ما قاله الامام شرف الدين : « وقد رُويت توبته ولكنها مشوبة بغيرها اذ قد خلط الاعتذار بالاحتجاج » ، أو يقف موقف الامام عز الدين بن الحسن ؛ فقد روى إنه مرّ بقبره فأمر أن يكتب عليه هذان البيتان .

يا قبر نشوان ما ضمنت من حكمٍ ومن علوم به تُربى على الدِّيَمِ
يا قبر نشوان لولا النّصب فقتَ على من كان من علماء العرب والعجم

ومنهم من يمجّده ويكبره لمغالاته في تعصبه للقحطانية ، وتحامله على العدنانية ، وقد يندفع البعض من هؤلاء ولا سيما في عصرنا هذا إلى القول : إنه لم يكن زيدياً ، بل وإنه كان على حقّ في تعصبه ومقالاته ، ويعرض ولا يذكر إذا تحدث عنه أي أخبار أو أشعار تنسب إليه ، قد توحي بغير ذلك كما هو حال العلامة المؤرخ المعاصر محمد بن علي الأكوع وتلاميذه .

وظل اسمه تتهاداه الأجيال بين هؤلاء وأولئك ؛ والأولون هم الذين يحصرون منصب الامامة في أولاد « البطنين » ، ويخطئون من يرى غير ذلك ، والآخرون هم الطائفيون والمتعصبون للقحطانية . وقد ظُلِم « نشوان » من قبل الطرفين ، بل وجاء قوم آخرون ، اطلعوا على ما قاله في مرحلة دوره الأول أو الثاني فأوسعوه نقداً وشتماً .

أما شخصية نشوان التي حاولت إبرازها بما سبق من القول ، فهي شخصية العالم الألمعي الذي يدين بمنطق العقل ويحكمه ؛ بل أحد العباقرة الذين يمجّدون الحقيقة ، ولا يستطيعون الخضوع للخرافات والأوهام ، والذين من أجل معرفة الحقيقة واظهارها لا يبالون أن يخشعوا لها ، وأن يؤبوا إليها إذا تجلّت ، ولو اعترفوا بما كانوا عليه من خطأ ؛ لأنهم يعرفون فطرة ، وممارسةً ، أن الباحث عن الحقيقة لا بدّ أن يخطىء . ولذلك رُوِيَ عن عُشاق وطلاب الحقيقة الكثير من الآراء المتناقضة في ظاهرها ، وهم انَما كانوا يعربون عما وصلوا إليه في أطوار تدرّجهم الفكري ، ومراحل مسيرتهم في سبيل المعرفة الشاق الطويل المتشعب بالناسخ والمنسوخ والاستدبار والاستقبال .

لقد كان « نشوان » زيدياً لا شك في ذلك ، وفي كتبه وأشعاره ورسائله من التمجيد للأمام زيد وأئمة أهل البيت ما لا ينكره إلّا مكابر أو جاهل ، كما كان « معتزليا » وكيف وقد قال في « رسالة الحور العين » : « ونزلت المعتزلة ، من الفضل بمنزلة ، فهم ملائكة الأرض ، وأعلم الناس بالسنة والفرض ، فرسان الكلام ، وذروة أهل الاسلام »ولأنه كان « زيدياً » و« الزيدية » كما يقولون هم سنيّة الفرق الشيعية ، فقد أعلن تخطئته لمعظم فرق الشيعة كالسبأية والكيسانية ، والجرمية ، والباطنية والأثنى عشرية والحسينية ؛ وقال في رسالة الحور العين أيضاً : « وحاد أكثر الشيعة عن منهج

الشريعة ، واتخذوا الغلو دينا ، والسبّ خدينا ، كم يُنتَظر لهم إمام غائب ، ! ولم يؤب من سفر المنون آيب » ، « وكل فرقة تدعي غائبها مهديا ، وتهدي اللعنة إلى مخالفها هديا ، ولو كشف الحجاب ، لظهر العجاب » الخ ، وتوسع في شرح ذلك توسعاً مفيداً وقال عن الامام زيد ناقلاً أقوال أفذاذ العلماء .

« ولما شهر فضله وتقدمه ، وظهر علمه وبراعته ، وعرف كماله الذي تقدم به أهل عصره ، اجتمع طوائف الناس على اختلاف آرائهم على مبايعته ، فلم يكن الزيدي احرص عليها من المعتزلي ، ولا المعتزلي أسرع إليها من المرجىء ، ولا المرجى من الخارجي ، فكانت بيعته عليه السلام مشتملة على فرق الأمة ، مع اختلافها . ولم يشذ عن بيعته الا هذه الطائفة العليلة التوقيف » ـ يقصد الروافض ـ الذين طلبوا منه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال : « وما عسيت أن أقول فيهما ؟ ؛ صحبا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحسن الصحبة ، وهاجرا معه ، وجاهدا في الله حق جهاده ، وما سمعت أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما ، ولا يقول فيهما إلا خيراً ، ولما قالوا له : إن لم تتبرأ منهما رفضناك ! قال زيد : « الله أكبر حدثني أبي إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام : إنه سيكون قوم يدّعون حبنا ، لهم نبزٌ يعرفون به فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فإنهم مشركون . إذ هبوا فانكم الرافضة فجرى عليهم هذا الاسم . [الحور العين : ١٨٤ ـ ١٨٥] .

وإذا كان « نشوان » قد جهر وصرّح بأن الإمامة رئاسة عامة يصح أن يتقلد منصبها كل تقي صالح قوي أمين من المسلمين ، فان الصالحية والمطرفية وغيرهم من أئمة الزيدية قد اعتقدوا ذلك بل هو عندهم مذهب الامام زيد ؛ ويستدلّون بموقفه من « الروافض » الذين طلبوا منه البراءة من إمامة الصديقين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وموقفه الصارم لمطلبهم الآثم .

قلنا إن نشوان كان ألمعياً بل عبقرياً ؛ والعباقرة أمثاله لا يجمدون على رأي واحد لا يريمون عنه ولا يحيدون ، وإذا تبين لهم خطل رأي ورأوا الصواب فيما يخالفه فسرعان ما يتبرؤن منه ، ولا يبالون حتى ولو كانوا قد أيّدوا رأيهم

الأول بفتاوي وكتب وأشعار . . آن يصرحوا ويجاهروا بها ينقض ذلك الرأي القـديم ؛ والشجعان من العباقرة هم الذين يعملون ذلك دون محاباة ولا مبالاة بما سيقوله عنهم الجاهلون والجامدون .

والعبـاقـرة أمثال نشوان كثيرا ما تسيطر عليهم ما جبلوا عليه من حدة المزاج ، وشدة الانفعال ، والصرامة والصراحة ، فيعبّرون عما يعتقدونه أو يحسـون به من رضـا أو غضب ، واطمئنان أو قلق ، بقوة وحماس ، وقد تدفعهم الحدة إلى الإغلاظ في القول ، والجفاف في التعبير ، في ساعة النزق والانفعـال ، والمبـالغـة في التواضع والشكر في حالة الرضا والاطمئنان ، ولا يستطيعون كبت ما ينفعلون به إزاء ما يشعرهم بالهوان أو الظلم ، أو الاحتقار من قبل الخصم الذي خالفه في رأي أو مذهب ، وهذا هو ما حدث لنشوان وأمثاله في كل زمان ومكان . وهو سبب ما يظنه البعض تناقضاً وليس سوى صور متعددة لمواقف مختلفة ، لا يستطيع أمثال نشوان الا أن يواجهها وينفعل بها . ويعبر عنها ، في حياته العقلية والسياسية والاجتماعية طالت أو قصرت ، ضل فيها أو اهتدى ، ونجح وتوفّق ، أو فشل وخاب .

أول من نادى بالنظام الجمهوري :

ويخيل إلي ان اليمن في عهد نشوان وزملائه من دعاة العدل والتوحيد ، كانت تتمخض وتستعد لاقامة حكم صالح يرتكز على العدالة الاجتماعية الاسلامية ، ولا يرتبط بعنصر أو طائفة أو قبيلة وان إرهاصات ثورة الفقهاء من أهل السنة على الاسماعيليين في « التعكر » و « ثورة » علي بن مهدي في « زبيد » وخروج « نشوان » في « الشمال » كان من نتائج ذلك التمخض ، ولـولا التـدخـل الخـارجي وحملة « توران شاه » الايوبي لما تمكن عبد الله بن حمزة من اعلان نفسه إماماً زيدياً يحصر الامامة ذلك الحصر المتشدد الذي كان من نتائجه « مجزرة المطرفية » البشعة ، واعربت عنه « الأرجوزة المرعبة » .

ولـولا الحملة الأيوبية المصرية لما تكـونت الدولة الرسولية ثم الطاهرية وقضي على الحركات الفكرية لفترة من الزمن حتى ثار القاسم بن محمد وكان له أثره في إحياء الحركة العقلية . فهل يمكن القول إذا صح ما أذهب إليه ان القاضـي نشوان كان أول من نادى في شمال اليمن وشرقها بما تطور ونما

حتى سموه : « النظام الجمهوري » ، وأن معاصره « ابن مهدي » كان أول من فكر في ذلك في غرب اليمن وجنوبها ؟ وان ذلك كان يصبو إليه قدماء الزيدية ؟

وهذا التساؤل قد لا يرضي بعض المتعصبين ، ولا أريد به تأييد من تخلبهم مفاخرات نشوان بالقحطانية ، ويغريهم الانفعال بها فيقولون أو يظنون إن نشوان قد أراد بدعوته إلى نفسه استرجاع ملك أجداده التبابعة ، وعرش أبائه الحميريين ، فلقد كان في عصره الكثير من السلاطين القحطانيين وكان غير راض عنهم وينظر إليهم نفس النظرة التي ينظر بها إلى « ورثة النظرية » من اتباع زيد والهادي لكنه كان يطمح في إقامة حكم اسلامي عادل طمع في إقامته قبله زيد والهادي وغيرهما ، وهو ما فكر فيه « ابن مهدي » وناقشه مع تلميذه عمارة الحكمي ، وما اهتدى إليه تلميذ الهادي أبو الحسين الطبري حين فضّل ابن الضحاك .

وقد أخطأ الكثير من الذين تحدثوا عن نشوان حين زعموا إنه قد استطاع « فعلاً أن يستقل بجبل صبر موطنه وقلاعه وحصونه وان يظل ممسكا بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣هـ » [تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف ص ١٣٩ ج - ٥] وهو خطأ بنوه على وهم وقع فيه « ياقوت الحموي » ، والصحيح إنه نشأ في « حوث » من بلاد حاشد كما أشار إلى ذلك نشوان في كتابه شمس العلوم ، ثم انتقل منها إلى بلاد خولان الشام ولعله لم يعرف « صبر تعز » ولا حل بها ، وهناك واد اسمه « صَبَر » بفتح الباء من بلاد « صعدة » ، والذي يقوله « عمارة » : « إن أهل بيحان هم الذين ملكوه ، والأحداث التي تنطق بها رسائل نشوان وأشعاره تدل على إنها قد كانت في شمال وشرق اليمن وقد كانت وفاته بمدينة « حيدان » من مخلاف صعدة ، وقبره معروف مشهور بموضع يسمى الجحفات ولأن الدكتور شوقي ضيف لم يطلع على ما كتبه نشوان بعد مصافاته للامام أحمد بن سليمان فقد سمى ما قاله في « داليته » : « سفاهة وخرق وحماقة وكلمات خبيثة كلها نكد وخزيٌ وبوار » ثم قال : « ولو أن الشاعر وجه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصبية الخرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى » .
[١٤٠ - ج - ٥ -]

شعر نشوان

ولقد سبق الحديث عن مؤلفات نشوان في اللغة والتفسير والنحو وعلم الكلام ، وأشعاره كثيرة ، متداولة مشهورة ، وقد طبع منها طويلته المعروفة بالقصيدة النشوانية مع شرحها ، وبتحقيق العالمين الفاضلين السيد علي بن إسماعيل المؤيد والقاضي اسماعيل الجرافي ومطلعها :

الأمر جدٌّ وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحاً ياصاحِ
كيف البقاء مع اختلاف طبائع ... وكرور ليل دائم وصباح
الدهر أنصح واعظ يعظ الفتى ... ويزيد فوق نصيحة النصاح
انظر بعينيك اليقين ولا تسل ... يا أيها السكران وهو الصاحي

***

وقد سلك فيها مسلك الوعظ والزهد والاعتبار ، وعدّد الأمم التي بادت وجبابرتها وملوكها ، وذكر معظم ملوك التبابعة ، وليس على سبيل التفاخر والتباهي بهم ، بل ليذكر ان مصيرهم كان التلاشي والفناء ومنها :

شغل البرية عن عبادة ربهم ... فتن على دنياهم وتلاحي
ومحبة الدنيا وعاجلها التي ... سلكت مع الأرواح والأشباح

وهي من الشعر التعليمي والقصصي وتقع في حوالي مائة وأربعين بيتاً ولعلها من آخر ما قاله من الشعر فليس فيها ذلك التوثب والاغراق في الفخر بالأجداد ، والتعنصر الذي أزعج حتى العماد الأصفهاني والدكتور شوقي ضيف فشتماه وتحاملا عليه وفي آخرها يقول :

أذواء حمير قد ذوت ، وملوكها ... في الترب ملك ضرائح الضرّاح
أضحوا تراباً يوطئون كمثل ما ... وطئت هوامد تربةٍ وبطاح
ذلت لهم دنياهم ثم انثنت ... ترميهم بالحافر الرماح . . !
مطرت عليهم بعد سحب سعودهم ... سحب النحوس بوابل سحاح
ما هابهم ريب المنون ولا احتموا ... منه بأسياف ولا أرماح
كلا ولا بعساكر ودساكر ، ... وجحافل ومعاقل وسلاح
سكنوا الثرى بعد القصور وهوهم ... بمطاعم ومشارب ونكاح !
أضحت مبعثرة قصورهم التي ... بنيت بأعمدة من الصفاح

وقد سجل في شرحه للقصيدة جل ما يعرف من تاريخ اليمن قبل الاسلام ، وحشاه بالفوائد الجمة وذكر الأساطير الكثيرة عن الاقيال والتبابعة والأذواء وغيرهم من الملوك والأمم .

لا بارك الله فيهم

ولنشوان قصيدة يتوجع فيها من أهل زمنه ويصور فيها مجتمعه الفاسد ولا شك إنه قالها في أزمة نفسية عارمة

مالي وصحبة قوم لا خلاق لهم ... يستحسنون أموراً كلها عللُ
قد حرت فيهم وفي نفسي وعزتها ... فصرت أحير من ضبٍّ وما عقلوا
إن انبسط فيهم أسقط مهابتهم ... إياي ، أو انقبض قالوا : به ثقلُ !
وإن أناقشهم قالوا : به لجج ... وإن أسامحهمُ قالوا : به خبلُ
وإن أجد باذلاً ؛ قالوا : به سرفُ، ... أو أقتصد منفقاً، قالوا: به بخلُ!
أو أستر الفضل قالوا لي: به حسدٌ، ... أو انشر العلم، قالوا لي: به جدلُ!
وإن تغاضيت، قالوا: العجز أقعده، ... وإن سطوتُ لخصم؛ قيل: ذا عجل
وإن تغابيت، قالوا لي: به بلهٌ، ... وحيث دقّقتُ قالوا: ذا به حيل
وإن تقربتُ، قالوا: عنده طمعٌ، ... وإن تباعدت، قالوا: عنده مللُ
وإن أسافر يقولوا: الحرص أشخصه ... وإن أقم بينهم، قالوا: به كسل
وحيث أقدمت قالوا: جاء مجتدياً، ... وإن تسربلت، قالوا: قد زها الرجلُ!
من أين لي خلقٌ أرضي الرجال به ... لا بارك الله فيهم؛ إنهم سفلُ

***

وهي دعوة محروق ؛ قاسى من اليمنيين مالا يُصدّق ما قاله العلامة الأكوع بأنه « صار بيضة البلد والمرجوع إليه » بل كان محارباً منبوذاً .

نجوم تريم

وإذا كان قد قاسى وعانى الأمرين من قومه الأقربين من قحطانيين وعدنانيين حتى أرسل عليهم هذه الغضبة ، فقد لاقى من سادة تريم في حضرموت ونال من اكرام علمائها ومشايخها ما جعله يقول :

رعىَ الله اخواني الذين عهدتهم ... ببطن «تريم» كالنجوم العوائم
علياً حليف النجدة بن محمدٍ ... وابنا أخيه الغُرّ أبناء حاتم ،

ومن في « تريم » من فقيه مهذب وسيد أهل العلم «يحيى بن سالم»
أولئك أهل الفضل في ظل فاضلٍ عظيم من الأملاك عالي الدعائم
أنست بهم من سالف الدهر برهةً فكانت لياليها كأحلام نائم
وفارقتهم كرهاً ونار فراقهم تأجّج ما بين الحشا والحزائم
وهل لزمان الوصل بالوصل عودة وهيهات ليس الصدع كالمتلائم
ألا هل لأيام تقضّين رجعة ، أم ابكي عليها بالدموع السواجم ؟
لئن بعدت أجسامنا ؛ فقلوبنا بها الودّ باق غير واهي العزائم
سلام عليكم من صديق بقلبه جراح فراقٍ ما لها من مراهم

***

وقد بعث إليهم بهذه التحية في رسالة بعد عودته من رحلته إلى مارب وفشل دعوته إلى نفسه وخذلان قومه له .

وإذن فمتى زار « تريم » وحضرموت وقابل السلطان عبد الله ابن راشد وهو لم يجلسٍ على كرسي السلطنة إلا سنة ٥٩٣هـ أي بعد وفاة نشوان بعشرين عاماً ؟ أو انه قد زاره وهو يهدج إلى المئة وحاول أن يدعو إلى نفسه وهو شيخ فان ! وهذا أشبه بالمحال ؛ لأن الامام عبد الله بن حمزة الذي دعى إلى نفسه سنة ٥٨٣هـ كان حينئذ يخوض المعارك الحامية عسكرياً مع الايوبيين والغز والمماليك ، وفكرياً مع فقهاء المطرفية ، وورثة النظرية من أشراف القاسميين وآل حاتم وكان قد ظهر على المسرح أولاد نشوان .

وبعد طول نظر وتأمل ظهر لي ما يلي :

١ ـ إن ولادة نشوان كانت كما قلت حوالي سنة ٥٠٠هـ .

٢ ـ إنه كان باديء بدء من أكبر دعاة وأنصار الامام أحمد بن سليمان ، وأن خلافاته معه كانت لأسباب فقهية وأصولية ، حول الامامة وموقفه المؤيد لخصوم المطرفية ، وان وحشة بينهما سببت المجافاة والملاحاة ، ثم زالت ورجعا إلى الموادعة والمصافاة ، وان لا علاقة لذلك بالمهاجاة الشعرية بين نشوان والقاسميين ، لأنهم لم يكونوا أيضاً على صفاء تام وولاء صادق للامام أحمد بن سليمان الذي كان ينكر دعاواهم وتخريفاتهم بان المهدي الحسين ابن القاسم العياني لم يمت وكان يشنع على هذه الأباطيل ، ويقف منها موقف القاضي نشوان وسائر فرق الزيدية ما عدا « الحسينية » .

٣ ـ إن نشوان في فترة شبابه كان شديد التعصب لقحطانيته وأثناء ذلك أنشأ ما أنشأ من أشعار حماسية وفيها اغراق متبجح ، وتفاخر مغرق ، مثل قصيدته الرائية والتي منها قوله :

لولا صوارم يعرب ورماحها لم تسمع الآذان صوت مكبر
فافخر بقحطان على كل الورى فالناس من صدف وهم من جوهر

٤ ـ إن نشوان لم يدع إلى نفسه إلا بعد وفاة الامام أحمد بن سليمان سنة ٥٦٦هـ وبعد ظهور « ابن مهدي » واجتياحه لمعظم الامارات والسلطنات اليمنية ، وربما إنه بعد أن وقع الامام أحمد بن سليمان في أسر الاشراف القاسميين سنة ٥٦٥هـ كما فصلنا في ترجمته قد فكر في الثورة والخروج وقصد بيحان ثم حضرموت ، وكان ما كان من خيبة أمله وفشله فرجع أدراجه يؤلف وينظم بروح نلمسها في شمس علومه ، ورسالة حور عينه ، وزهديته التي تسمى النشوانية ، وهي تختلف في تواضعها ، وبدائع حكمها عما نلمسه في « داليته » أو « رائيته » من تبختر وتعالٍ وشموخ ، وقد فرغ من تأليف شمس العلوم عام ٥٧٠هـ .

٥ ـ ونستنتج من كل ذلك ان نشوان قد قصد حضرموت لكي يستعين بسلاطينها على ما ينوي القيام به والامام ابن سليمان رهين محبسه وعماه عام ٥٦٥هـ أو بعد وفاته سنة ٥٦٦هـ وهي الفترة التي كان فيها الشاعر عمارة اليمني يؤلف كتابه « المفيد في أخبار صنعاء وزبيد » تلبية لرغبة القاضي الفاضل بمصر ، ولذلك قال وهو يتحدث عن نشوان « وبلغني ان أهل بيحان ملكوه عليهم » ، أي ان أخبار اليمن التي كان يتنسّمها ويتلقاها عن المسافرين قد نقلت إليه خروج نشوان وانه وصل « تريم » وسلطانها راشد ابن شجعنه بن فهد والد السلطان عبد الله والذي نعرف إنه من مواليد عام ٥١٧هـ وتوفي سنة ٥٩٣هـ وظل في السلطنة حوالي ٤٧ عاماً ، وإذا كان ولده الشاب المولود سنة ٥٥٣هـ يافعاً في مقتبل العمر عندما زارهم نشوان : فان مثله في نباهته وتطلعه ، وشغفه بالعلم والأدب لا بد ان يلفت نظر الألمعي القاضي الشاعر اللاجىء . . ولا بد إنه بعد أن عاد إلى وطنه قد لهج بهذا الشاب الذكي الذي لُقب حين تولى السلطنة بالسلطان العادل ؛ ويؤيد هذا بل ويجعله الصواب كل الصواب ، إن نشوان قد قال في ميميته التي بعثها إلى « تريم » بعد رجوعه إلى وطنه .

ومن في « تريم » من فقيه مهذب وسيد أهل العلم يحيى بن سالم

وقد تنبه المؤرخ المحقق الفطن « بلفقيه » إلى ان يحيى بن سالم هذا هو ابن أبي أكدر ، وكان من أفضل علماء « تريم » وأبرزهم تقىً واستقامة ، وقد استشهد صبرا على يد عثمان الزنجبيلي قائد الحملة الأيوبية التي أرسلها السلطان « توران شاه » إلى حضرموت سنة ٥٧٦هـ ، وكان أسر آل راشد وارسالهم إلى عدن . [انظر التفاصيل في أدوار التاريخ الحضرمي ص : ١٧٧ ـ ١٨٨] وقد استعادوا السلطنة بعد ذلك ؛ ولعل ما أوردناه يجيب على ما أبرزناه من علامات الاستفهام ، وتزداد صورة « نشوان » ، ومراحل حياته السياسية والفكرية وضوحا وجلاءًا ، ونطمئن إلى إنه من مواليد سنة ٥٠٠هـ وتوفي عام ٥٧٣هـ وان الاغراق والمبالغة في تفخيم شأن إمامته السياسية ، وسلطنته القبلية ، من أحلام « المشعّبين » ، لأن إمامته الفكرية وسلطان فتوحاتها العقلية ، أعظم وأفخم شأنا وأخلد ذكرا ، ولا تزال أعلامها مرفوعة ، وأحكامها نافذة ، ومهابتها تملؤ القلوب .

وديوان شعره « المسك » لا يزال بين «الموؤدات » إن لم يكن في عداد « المفقودات » .

علامات استفهام في حياة نشوان !

أما وقد أوردنا آراء القادحين والمادحين في « نشوان » ، ولم أجمجم برأيي وقلت إنه كان ألمعياً بل عبقرياً . وحاولت إبراز شخصيته الحقيقية غير متعصب لمذهب ولا متحيز إلى طائفة ؛ فلا بد من الاعتراف بأن ثمة علامات استفهام في حياة نشوان تفتش عمن يجيب عليها إجابات مقنعة . وأن هناك أسئلة كبيرة يصعب العثور علي أجوبتها في كتب التاريخ والتراجم التي تحدثت عن ذلك العالم الألمعي والشاعر اللغوي والمتكلم المعتزلي والفقيه الزيدي .

متى ولد نشوان ؟

ومتى مات ؟

ومتى دعا إلى نفسه ؟

وفي أي عام سافر إلى حضرموت ؟

ولـو كنا نعرف بالتأكيد متى ولد وفي أي عام وأين أمضى فترة طفولته ونشـأته الأولى لعرفنا المزيد عن بيئته ومحيطه الاجتماعي مما قد يكشف لنا بعض الغموض في تصرفاته ، ودوافع ما ينسبه إليه خصومه أو أنصاره من أفعال وأقوال .

ولو كنا نعرف بالتأكيد متى مات وفي أي سنة لعرفنا الأكثر عن دعوته لنفسه ، والأسباب التي من أجلها نشب التلاحي بينه وبين القاسميين ، وهل حقاً إنه « قد امتشق الحسام وتسمى بالسلطان وكان يسير من نصر إلى نصر وجرت له حوادث وقضايا يطول ذكرها » ! كما يقول القاضـي محمد الأكوع دون أن يذكر شيئاً من تلك القضايا ، ودون أن نجد لها ذكراً في كتب التاريخ التي بين أيدينا !؟

ولعرفنا أيضاً متى تصدى للملك أو الخلافة ، وهل كان ذلك قبل وفاة الامـام أحمـد بن سليمان أو بعد وفاته ، وإذا كان قد امتشق الحسام وقاد الجيوش فلماذا لم نسمع لها دوياً حربياً بالسيوف والرماح بينه وبين الامام ابن سليمان ، أو الأمراء الحاتميين ، أو الزريعيين أو آل مهدي أو حتى الاشراف القاسميين والهادويين أو بعد ذلك مع الأيوبيين ؟

وكيف استطاع ان يحتفظ له بمقاطعة في جبال خولان الشام حتى أتاه الأجل المحتوم ـ كما يقول القاضـي محمد الأكوع ـ أو في جبل صبر كما يزعم ياقوت والدكتور شوقي ضيف ، دون أن يثور بينه وبين امارات وسلطنات عصره النزاع والصراع ؟ ولماذا أهمل المؤرخون ذلك ان كان قد كان ؟

وهل المؤرخ « الزحيف » على حق حين قال أن دولته لم تستمر إلا أسبوعاً واحداً ، وقوله ينسجم مع ما سجله نشوان نفسه ، ونقله الزحيف عن خط الفقيه الحملاني حين ذكر وصوله إلى « المشرق » [« مارب » و « بيحان »وما صاقبهما] وان أهلها « كلفوه ان يحمل الذرّ أحمال البعير » ! « وسمحوا بالمين والأيمان وشحوا بالصدق والإيمان »! واعترف بانه طمع ورغب « حتى أدركه الاملاق بمارب » ونطق بفشله وانه قد أتجه بعد ذلك إلى « حضرموت » ولبث فيها ينشد الرزق والحلال الذي يسد الخلة وكأنه « يونس في بطن الحوت يخصف ورق النـدامـة خصفاً » حسب التعبير النشواني الذي يعترف بان السفهاء قد انتهبوا بعض ما له ولم تسلم له إلا كتبه ثم يواسي نفسه قائلا « وما

عند الله خير وأبقى » وينشد :

ومـا أنـا الا من غزيـة إن غوت غويت وان ترشـد غزيـة أرشـد

لو عرفنا متى كان ذلك ، وهو لا شك متأثراً بخيبته ويأسه قد خلد إلى الزهد والتأليف وكتابة موسوعته الكبرى « شمس العلوم » يناجي ربه بمثل ذلك الدعاء الذي ختم به رسالته « الحور العين » .

ولو عرفنا متى ادعى الامامة أو الرئاسة أو السلطنة لعرفنا أيضاً متى سافر إلى « حضرموت » .

ولقد ثارت كل هذه الأسئلة في خاطري وأنا أختار له من بين ما أختار من شعره الأبيات الميمية التي أرسلها إلى أصدقائه الذين أكرموه حين لجأ إليهم في « حضرموت » ، ورجعت إلى تراجم نشوان وأخباره ، علّي أعرف تاريخ رحلته إلى حضرموت فوجدت أولا ان المؤرخ يحيى ابن الحسين بن القاسم قد قال وهو يتحدث عن أحداث عام ٦١٣هـ وفيها قتل السلطان عبد الله بن راشد صاحب حضرموت وكان نبيهاً عادلاً وله مشاركة في علم الحديث وصحب جماعة من أهل العلم والزهد وكان عصره أحسن العصور وهو الذي سار إليه القاضي نشوان بن سعيد الحميري ولبث عنده أياما .
[ص : ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ـ ج ـ ١ ـ غاية الأماني] .

ووجدت ثانياً إن العلامة القاضي محمد الأكوع قد ذكر وهو يترجم لنشوان في هوامشه على تاريخ اليمن : « المفيد » ذلك ، وقال : « ودخل حضرموت وبيحان واتصل بعلمائها وملوكها وكان موضع حفاوتهم وممن اتصل بهم السلطان عبد الله بن راشد الحميري » [ص ٣٠٣ المفيد] وهو لا شك قد استند إلى العلامة يحيى بن الحسين ؛ وكان لا بد من الرجوع إلى كتاب « أدوار التاريخ الحضرمي » للعلامة محمد بن أحمد الشاطري فوجدته قد قال وهو يتحدث عن الدور الراشدي ان السلطان عبد الله بن راشد بن شعفنه الشهير بالسلطان العادل قد ولد سنة ٥٥٣هـ وقتل سنة ٦١٣هـ وقيل عام ٦١٦هـ عن ثلاثة وستين عاماً [ص : ١٧١ ـ و٢١٣ ـ ٢١٤] .

وهنا ثارت الأسئلة ، وتواثبت علامات الاستفهام . إذ لو صدقنا ان نشوان قد زار حضرموت في أيام السلطان عبد الله بن راشد لأنقلب كل ما

نعرفه وقرأناه واستنتجناه عن نشوان رأساً على عقب ويكون كلما كتبه الأولون والآخرون ولخصناه في أدواره الثلاثة عرضة للشك والاضطراب !

فنحن نعلم من أقوال الفقهاء والمؤرخين ان نشوان كان من زملاء وأخدان الامام أحمد بن سليمان المولود سنة ٥٠٠هـ والمتوفي عام ٥٦٦هـ ، ويقول المؤرخون ومنهم القاضي المحقق محمد بن أحمد الحجري في فهرست مكتبة جامع صنعاء وفي مقدمة شمس العلوم ان وفاته عصر يوم الجمعة رابع وعشرين ذي الحجة سنة ٥٧٣هـ وهو ما رجحه أيضاً القاضي محمد بن علي الأكوع .

٤٧ - يحيى بن أحمد بن عبد السلام

كان القاضي أحمد بن أبي يحيى بن عبد السلام الصنعاني عالم الاسماعيلية وحاكمها وخطيبها والذي إليه يصدرون وعلى رأيه يعتمدون كما يقول ابن أبي الرجال نقلاً عن ابن فند الصعدي ، وكان ابنه يحيى شاعرهم ولسانهم ؛ كما كان أخوه القاضي جعفر بن أحمد عالم الزيدية المخترعة وإمامها ، وقد سبق الحديث عنه وعن مدرسته وآثاره .

والشاعر يحيى بن أحمد من قبيلة الأبناء وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً مجيداً ، وقد ذكره عمارة في تاريخه عدة مرات فقال عندما التقى به في مجلس الداعي محمد بن سبأ في « الجنات » ودخل معه في مباراة شعرية : « وهو في الشعراء عند أهل اليمن في طبقة ابن القم » ، كما ذكر انه عندما مدح الداعي في « جبلة » بقصيدةٍ أثابه عليها خمسمائة دينار وخلعة ، وكان لا يكاد يفارقه في حضر أو سفر وعندما تحدث عنه عمارة وهو يتحدث عن مشاهير شعراء اليمن قال :

« ومنها القاضي يحيى بن أحمد بن أبي يحيى بصنعاء ، وان شهروا بالقضاء فعنهم تنفذ الأوامر بالامضاء ، وعزهم يُظل في حرّ الرمضاء ، وليس في أهل الجبال الذين عاصرتهم أشعر من هذا يحيى بن أحمد . ولم أورد له من مختارات شعره شيئا إذ لم أجده ، وإنما أوردتُ منه ما اتفق حضوره ؛ فمن ذلك مطلع قصيدة يمدح بها الداعي محمد بن سبأ صاحب عدن وقد عزم إلى الخروج إلى ذي جبلة ليملك بلاد الأمير منصور بن المفضل وهو قوله :

النصر من قرناء عزمك فاعزمِ ... والدهر من اسراء حكمك فاحكمِ

وله على لسان الداعي محمد بن سبأ

أدركتُ أوتاري من الأعداء ... وملكت من عدن إلى صنعاء
وبلغت بالجرد الجياد وبالقنا ... ما شئتُ من شرف ومن علياء

ومنها يعرض بمواطأة المنصور بن المفضل مع أهل تهامة وهم الحبشة على حربه وغزو بلاده ويذكر ما جرى على بني وائل من أهل « وحاظة » :

وهمُ بأهل تهامة أغروهم ... جهلا بحربي أيّما إغراء
وهمُ بأهل وحاظة فتكوا وهم ... دون البرية كلهم لزمائي
أخذوا معاقلهم وهن معاقلي ، ... وسبوا نساءهم وهن نسائي !

وحدثني من قال : وهَبَ الداعي محمد بن سبأ لابن سليمان وهو من قومه ألف دينار فارتجل ابن أبي يحيى هذا في ذلك المجلس مخاطباً للداعي :

لا فخر الا إذا أقبلت مستلماً ... كفّ المكين ظهير الذين مولانا
فأنها تهب الآلاف وافيةً ... إن كنت غراً فسل عنها ابن سليمانا

فقال الداعي : « يا أبا عبد الله . أما ابن سليمان فهو ابن عمي ولكن تُسأل أنت عنها ثم أمر له بألف دينار في الحال » . ثم قال عمارة : « وبلغني أن أصحاب « ابن مهدي » ذبحوه في حصن « المجمعة » من « مخلاف جعفر » [عمارة ص ٣٢١] .

ونحن نعلم أن الملك عبد النبي بن مهدي غزا مخلاف جعفر وحصر حصن « المجمعة » ثم احتله يوم الاثنين ٢ /ربيع الأول سن ٥٦٢هـ [السلوك ص ١٣٨] .

وجاء بعد عمارة العماد فلم يزد في خريدته شيئاً على ما ذكره عمارة عن الشاعر يحيى بن أبي يحيى وهكذا نجد أنفسنا في رحلتنا مع الشعر والشعراء في اليمن كثيراً ما نقف في أسى نبكي على الموؤد ، ونستبكي على المفقود ، ونندب ما حرقته وغرقته ومزقته التعصبات والتعنصرات العرقية والمذهبية وما أهملته وأعرضت عن روايته أقلام المؤرخين الطائفيين أو المتزمتين ؛ فهذا أكبر شعراء اليمن في عصره ـ كما يقول عمارة نفسه وهو من أفذاذ شعراء العرب عبر العصور ليس بين أيدينا منه إلا هذه الأبيات التي رواها عمارة في تاريخه ونقلها عنه العماد ، وقطعة من قصيدة أوردها الديبع في كتابه « قرة العيون »

قال انه مدح بها الداعي الزريعي عمران بعد وفاة والده الداعي محمد بن سبأ سنة ٥٤٨هـ وأولها :

أيلوم طيفهم على هجرانه ... صبّ تجافى النوم عن أجفانه
سلبوا كراه عنه بخلا منهم ... بالطيف ان يغشاه في غشيانه

ومنها في المديح :

كرم المكرم يذهل المشتاق عن ... أشواقه ، والصب عن أوطانه
كرم إذا أخبرته ، وخبرته ، ... حقرت قدر سماعه لعيانه
ليس البحار ولا السحائب تدعى ... بسماحهن الجري في ميدانه
يممته والدهر قد بلغت به ... أقصى المدى مني مُدى حدثانه
فأجارني من جوره من لا يرى ... أن النجوم أعزّ من جيرانه
لا يطمع المخلاف فيّ وأهله ... لا كنت بعد اليوم من سكانه
قد عاودت شعري الألوف جوائزاً ... يامن يرون البخس من أثمانه

والغريب أن الدكتور الهمداني اعرض عن ذكر الشاعر الاسماعيلي ابن أبي يحيى في كتابه « الصليحيون » ولعل ذلك لأنه « زريعي » الهوى ، « مجيدي » النحلة وكان « الصليحيون » يعتنقون في باطنيتهم النحلة « الطيبية » وإذن فقد حورب شعره من قبل من خالفهم ، حتى وهم أبناء طائفة واحدة كما حاربه أخوه القاضي جعفر ابن أحمد بن عبد السلام إمام الزيدية والمعتزلة وكذلك الفرق الأخرى من أشاعرة وسنة ومطرفية واقتدى بهم من أرخ لهم من أتباعهم وتلاميذ مدارسهم . فضاع شعره والتهمته الآفات .

ولم يذكر أحد سنة ميلاده وأما وفاته قتيلاً فقد كانت سنة ٥٦٢هـ .

٤٨ ـ يحيى الاهنومي

ومن اسمه يحيى واستطرد ذكرهم عمارة وهو يتحدث عن شعراء اليمن دون ان يذكر تاريخ ولادته ولا وفاته الشاعر « الأهنومي » فقال : ومنهم يحيى بن موسى وأظنه الأهنومي وله :

سيكشف بعد عشر سنين تمضي ... غطاء الغيب عن أمر جديد
وسوف تقودها شعث النواصي ... طهارتها التيمّم بالصعيد

أبت ظلَّ المعاقل فاستعاضت به ظل القساطل والبنود
إذا خرجت من الغمرات قالت لها فرسانها الأبطال : عودي
تزور على القطيعة من جفاها وتفني كل جبّار عنيد

***

وقد أورد الأبيات أيضا صاحب الخريدة وهي من شعر الحماسة الذي يُنبي أن وارءه شاعر فحل ، وكأنه من شعراء « الزيدية » ويتوعد الصليحيين بعد أن ظهروا على « الشمال » وتلاشى أمر الأئمة .

شعراء حضرموت في العصر العباسي

سبق الحديث بايجاز عن النشاط « الاباضي » في « حضرموت » وعن أثر الامام المهاجر أحمد بن عيسى وأولاده وأحفاده في اعادة ونشر مذهب السلف وفقه الامام الشافعي وما سببه الدور الاباضي فيها من كوارث وفتن أدت إلى تخريب حضرموت والفتك بأهلها .

ونحن نعلم أن المنصور العباسي جهز جيشاً بقيادة عامله معن ابن زائدة الشيباني سنة ١٤٠هـ لاخضاع حضرموت والقضاء على الخوارج الذين بها ونشبت حروب دامية زادها ضراماً ان الثوار الحضرميين قتلوا أخاً « لمعن » كان قد جعله « عاملاً » بتريم فجهز غزوة انتقام وشن عليهم حرب ابادة وقد قتل منهم خمسة عشر ألفاً . وأمر بطمر الآبار وقطع الأشجار وفرض على الأهالي لبس السواد ، وفي تلك الغزوة الانتقامية يقول مروان ابن أبي حفصة يصف ما صنعه معن بن زائدة بحضرموت :

وطئت خدود الحضرميين وطأة … لها هدّ ركن منهم فتضعضعا

فأقعوا على الأذناب اقعاء معشرٍ … يرون لزوم السلم أبقى وأودعا

فلو مدت الأيدي إلى الحرب كلها … لكفّوا وما مدوا إلى الحرب أصبعا

وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك ووصفنا نهاية معن بن زائدة قتلا بسجستان على يد محمد بن عمرو بن عبد الله الحضرمي وأخيه غيلةً سنة ١٥١هـ وما قيل في ذلك من آشعار [وانظر أدوار التاريخ الحضرمي ج ـ ١ ـ ص ١٤٠ ـ ١٤٣] .

وقد ظلت حضرموت من عام ٢٠٢هـ حتى عام ٤٠٢هـ يتنازع السيادة عليها الدويلات اليمنية كبني زياد واليُعفريين وبعض المشيخات المحلية من

سنيين وأباضيين وشيعة .

ولما استولى على دفة الحكم في اليمن الملك علي محمد الصليحي ودعى للفاطميين ملوك مصر وأفريقية غزا حضرموت سنة ٤٥٥هـ واستولى عليها وما إن قتل عام ٤٥٩هـ حتى استقل « بنو معن العولقيون » بما تحت أيديهم من البلاد ، وكل مشيخة استبدت بما تتزعمه من أرض ومواطنين حتى اكتسح اليمن بجحافله السلطان توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩هـ واحتل عدن وحضرموت بجيش عرمرم بقيادة عثمان الزنجبيلي حوالي سنة ٥٧٥هـ وتفاصيل تلك الأحداث وأسماء الامارات الحضرمية منذ بداية القرن الثالث حتى أواخر القرن السابع مذكورة في أدوار التاريخ للعلامة الشاطري .

ابراهيم بن قيس الحضرمي
[ت ٤٧٠هـ]

ومن أعلام الفكر والشعر والسياسة في الفترة التي نتحدث عنها أبو اسحاق إبراهيم بن قيس بن سليمان الهمداني الذي نازع السلطة على حضرموت الملك علي محمد الصليحي وخلفاءه وقد لمع نجم هذا الأمير في النصف الأول من القرن الخامس وتولى إمامة « الاباضية » بحضرموت .

وقد اشتهر كما يقول « الشاطري » بالعلم والأدب والبسالة والبلاغة ويعد من فحول الشعراء ؛ وكان تابعاً لأئمة عُمان الأباضيين ، ويدين ومن تبعه لهم بالولاء ، وبينه وبينهم صلات وثيقة ، وتعاون ضد أعدائهم ، وأعدائه ، فهم يمدونه بالمال والرجال والذخائر وهو يبدي استعداده لنصرتهم ، وقد قاوم الصليحيين لما غزوا حضرموت كما يدل على ذلك شعره وقد تولى إمامة الاباضية في حضرموت سنة ٤٥٤هـ بدليل قوله من قصيدة له :

بحـول الاهي لا بحـولي وقـوتي ... وتـوفيقـه أظهـرت بالسيف دعـوتي
بتـاريـخ شوال وفي عام أربـع ... وخمسـين تقفـو أربعـا من هنيـدة

ويظهر إنه كان يحاول تأسيس دولة أباضية في حضرموت كتلك التي كانت في عمان غير انه لم يوفق إلى ذلك [١٢٦ ـ ١٢٧ أدوار التاريخ] .

وقد ذكر الدكتور عوض خليفات إن لإبراهيم بن قيس الذي سماه إماماً مؤلفا اسمه « كتاب مختصر الخصال ، فيه بعض المعلومات عن حملة العلم بالاضافة إلى أمور العقيدة » الأباضية [٢٥ : نشأة الحركة الأباضية] .

ديوان إبراهيم بن قيس :

وللامام إبراهيم بن قيس ديوان شعر نشره وقدم له الشيخ سليمان الباروني ولم يحدد سنة ولادته ولعلها في أواخر القرن الرابع أو مستهل القرن الخامس الهجري . وشعره جيد فيه رصانة وجزالة وهو يصوّر حياته ويسجل الأحداث والمعارك التي خاضها ومن قصائده التي يمدح بها إمامه الأباضي في عمان الخليل بن شاذان قصيدة ميمية يذكر فيها نشره للدعوة الأباضية في حضرموت وإنه ما بقي له إلا الصليحي ؛ منها :

سل الخُطَبَا لما دعوا لك جهرةً ... على رغم جهل الجور بعد التصادم
وسل عرب البيداء لما أذقتُهم ... عشية خانوا العهد سُمَّ الأراقم
وأما نواحي حضرموت فانها ... بحول إلاهي طوع أمري كخاتمي
ولم يبق لي إلا الصليحي قائماً ... وها هو أيضا سعده غير قائم
ونحن إليه واردون بجيشنا ... فما هو أدهى من ملوك الديالم !

ولا شك إنه قد أنشأ هذه القصيدة في مطلع العهد الصليحي وأن الملك علي كان قد بعث إلى إبراهيم رسالة تهديد وإنه سيستعين بامامه الفاطمي بمصر ولذلك قال :

يخوفني إن « المعزّ » ملاذه ... بمصر ؛ وما خوفي لأهل المظالم !
إذا وفده ولى إلى مصر رائداً ... مضى وفدنا قصداً لخير المعالم
ليعلم أيّ الحزب أسبق نصرةً ... وأيهما أولى بفعل المكارم !

***

هل فتح الصليحي « حضرموت » ؟

يقول بعض المؤرخين إن الملك علي محمد الصليحي قد هاجم حضرموت عسكرياً لكن مؤرخ الصليحيين الدكتور الهمداني يقول ان ذلك لم يكن ؛ وأن حضرموت دخلت تحت نفوذ الصليحيين العقيدي في عهد الملك المكرم ؛ ويستدل على ذلك بسجل الامام المستنصر إلى الصليحي ردا على

رسالة كان قد بعثها إلى الخليفة الفاطمي يستأذنه في أشياء ؛ منها أن يتوجه إلى حضرموت لنشر الدعوة في أفاقها وان المستنصر قد قال في سجله « أما إزماعك ـ قرن الله الخير بعزماتك ـ ولقّاك النجح في تصرفاتك ـ التوجه إلى حضرموت لفتح اغلاقها ، ونشر دعوتنا في آفاقها ، فالله يمدك بالمعونة وارداً وصادراً ، ويجدد لك من سيف نصرته ما يكون لأعدائك قاهرا » . . وتاريخ هذا السجل شهر ربيع الأول من سنة ٤٥٩هـ ، وقد تهيأ الصليحي بعد ذلك للحج ، وكان قيامه من صنعاء في شهر ذي القعدة من نفس العام ٤٥٩هـ حيث فاجأه النجاحيون وقتلوه في الحادي عشر من ذلك الشهر وحجة الدكتور حسين الهمداني قوية [وانظر الصليحيون ص : ٩٧ و٣٥١] . وهو يسمي شاعرنا الامام الاباضي ابراهيم بن أبي القيس الحضرمي .

الافتخار بالنسب والمذهب :

ويقول إبراهيم بن قيس في نسبه وعقيدته :

فان تسألي عني وعن أهل مذهبي ... ومن أين داري أنت يا أمّ حازم
فاني من همدان أصلي وقدوتي ... فمرداس والأوطان أرض الحضارمِ
أنا الرجل الداعي إلى الحق والذي ... أبت نفسُه شيم الطغاة الأشائم
أنا الرجل الشاري الذي باع نفسه ... وأصبح يرجو الموت عند التصادم

استنجاده بامام عمان :

وله من قصيدة نونية يستنجد بها إمام عمان وفيها ما يدل على انه كان في حالة حرب ولعل ذلك بعد وفاة الصليحي عام ٤٥٩هـ

انصر أخاك فان الحرب قائمة ... والحق يطلب من أهليه أركانا
أجعله أول ما تحيا البلاد به ... انا نؤمل جيشا منك يغشانا
واعلم بأنك قد أثرت مأثرة ... فارفع لها شرفاً فالأمر قد هانا
يا أيها العلم العدل الذي كملت ... له الخصال مروءات وإيمانا
إني أحبك والرحمان يعلمه ... حبّ احتساب إلى ذي الطول قربانا

وله إلى راشد بن سعيد الذي خلف الخليل بن شاذان :

أيا راشدٌ إنا لعمرك نزدهي ... بذكراكم في حضرموت تعاظما
إذا ما عمانيّ ألم بأرضنا ؛ ... أحطنا به نسأله عنكم تزاحما

ومن جيد شعره قوله :

علق الفؤاد بأن أكــون أنـا الـذي ... يُحيي الهـدى بقـواضب ورمـاحِ
وعـلى السيوف يموت كل مكرّمٍ ، ... وعـلى السيـوف قيـاداً كل كفـاحِ
وعـلى السيوف ينال من طلب العلا ... غُرف الجنـان ، وقصـدهنّ كفاحي

ولم يحدّد أحـدٌ وفاته وهي فيما أحسب حوالي سنة ٤٧٠هـ والغريب ان السيد عبد الله السقاف لم يترجم له في كتابه « تاريخ الشعراء الحضرميين » .

شيخ الاسلام بافضل
[ت ٥٨١هـ]

الشيخ سالم بن فضل بن عبد الكريم بافضل من أعلام الحضرميين في الفـترة التي نؤرخ لحياتهـا الفكرية والثقافية وقد ترجمه « الشاطري » ترجمة مستفيضـة في كتـابه وقال إنه « يمتاز بالتوسع في العلوم الشرعية والعقلية والعربية » ثم قال : « والشيخ سالم شاعر فيلسوف وقصيدته الفكرية تدل على إطلاعٍ واسع في التشريع وعلى دقة التفكير وعمقه وهي تنيف على مائة وثلاثين بيتاً مطلعها :

أيـا فاتحـا بابـا عظيـما من الفكـر ... هنيئـا لك الحظ الجـزيل من الأجر

ومنها عن الفلك :

وفي البـدر فكّـر كيف يبـدو هلاله ... وكـيـف تنـاهـى نوره ليلة البـدرِ
ومـن بعــد هذا صار ينـقص ضوؤه ... إلى ان يُرى مثـل القـلامـة للظفـر
ومن أعجب الأشيــاء تحويـل نوره ... إلى ما عليــه كان في أول الـشهـر
وهــذا من الـرحمن لطف بخلقِـه ... ليحصـوا به عد الحسـاب بلا نكـر
وسبحــان من حلى السـماء بزينـةٍ ... وأتقن ما فيهـا من الأنجم الـزهـر
ومنهـا نجــوم للشيــاطـين حصّب ... ومنهـا الـذي يهديك في البر والبحر
ويـولـج في الليـل النهـار ويـولـج النهار على الـليـل الـبهيم الــذي يسري

***

ثم وصف عناصر الطبيعة والانسان ومزاجه ووظائف أعضائه وتوفي بتريم سنة ٥٨١هـ [أدوار التاريخ ص : ١٩٣ ـ ١٩٩] .

وقد ترجمه السقاف في تاريخ الشعراء الحضرميين وقال ان مولده في أجواء سنة ٥٠٥هـ وذكر إنه قتل في جمادي الآخرة سنة ٥٨١هـ عندما اجتاح الغز بقيادة الزنجبلي عامل الايوبيين حضرموت .

[تاريخ الشعراء الحضرميين ج ـ ١ ـ ص : ٥٣ ـ ٥٧] .

محمد بن أبي الحب
[ت ٦١١هـ]

الشاعر الخطيب محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي الحب من أعلام حضرموت في القرن السادس الهجري ويقول الشاطري إن عائلته معروفة بتعدد العلماء والصلحاء وإن أسرته هاجرت من ظفار إلى تريم وهي من الأسر التي تقوم بالقاء الخطب في حضرموت وان آل « أبي الحب » خطباء مقابر لا خطباء منابر ! وكانت خطب محمد في المآتم وعند دفن الموتى مؤثرة جدا وكان وجيهاً فقيهاً زاهداً ورعاً ولما فرضت الضريبة على القطن ـ ويسمى عند اليمنيين « العطب » شكا إليه أرباب المغازل والنساجين وطلبوا منه الشفاعة إلى الوالي لكي يلغي تلك الضريبة فكتب إليه يقول :

مساكين أهل العطب وارحمتي لهم   فقارا عجافا من صرير المعاجل
يرومون أهل العطب ان يلحقوا الغنى   وأين الثريا من يد المتناول ؟

فقبل الوالي شفاعته والغى الضريبة .

وقد أورد الشاطري نماذج من شعره ونثره وقال إنه توفي سنة ٦١١هـ وشعره من شعر العلماء والفقهاء كما ان السقاف ترجم له وبالغ في الثناء عليه وقال إنه ولد في أجواء عام ٥٤٥هـ وسجل بعضاً من رسائله وأشعاره .

[أدوار التاريخ ص : ٢٠٢ ـ ٢٠٥ الشعراء الحضرميين ج ١ ـ ٥٩ ـ ٦٣] .

يحيى بن عبد العظيم
[ت ٥٤٠هـ]

من شعراء علماء وفقهاء تريم الشيخ يحيي بن عبد العظيم الحاتمي ترجمه السقاف وقال إن له مؤلفات ورسائل وأشعارا كثيرة سطت عليها الأيام وذكر

ان ولادته كانت في أجواء عام ٤٨٠هـ ووافته المنية في مدينة تريم في أجواء عام ٥٤٠هـ [تاريخ الشعراء ج ـ ١ ـ ص : ٥٢ ـ ٥٣] .

علي بن محمد الحاتمي
[ت ٦٠٠هـ]

ومن الفقهاء الذين زاولوا النظم وترجمهم السقاف الشيخ علي بن محمد بن حاتم الحاتمي وقال : « هو الفقيه الصوفي اللغوي الأديب » ومولده بمدينة تريم في أجواء ٥٤٠هـ وإنه هو الذي عناه الشاعر نشوان الحميري بقوله

علياً حليف النجدة ابن محمد — وابني أخيه الغرّ من آل حاتم

وقال إن له أشعاراً كثيرة ولكن الدهر عدا عليها وإن وفاته كانت سنة ٦٠٠هـ .

[تاريخ الشعراء ج ـ ١ ـ ص : ٥٨ ـ ٥٩]

علي الحجيشي
[ت ٦٧٥هـ]

ومن علماء حضرموت وفقهاء تريم الذين ذكرهم السقاف بين شعراء حضرموت الشيخ علي بن محمد الحجيشي وقال انه ولد في أجواء سنة ٦١٥هـ وتوفي حوالي عام : ٦٧٥ [ج ـ ١ ـ ص : ٦٣ ـ ٦٤] .

ابن عقبة
[ت ٦٩٥هـ]

العالم الأديب الشاعر الشيخ علي بن عقبة بن أحمد الزيادي الخولاني يقول السقاف أن مولده سنة ٦٣٥هـ بمدينة « الهجرين » وان الجندي قد ترجمه في طبقاته وعنه نقل أخباره « أبو مخرمة » في « ثغر عدن » لمناسبة استيطانه لها ، ووفاته بها .

وذكر إنه بارح حضرموت هارباً من آل جعفر أمراء « الهجرين » ولما وصل الجوف بعث إليهم قصيدة رائية منها :

أصَبرتِ نفسَ السوء أم لم تصبرِ ... بيني ومن تهوين يوم المحشر !؟
إني امرؤ عف الازار عن الخنا ... لم أغشَ منذ نشأت باب المنكر
والله ما صافحت كف بغية ... أبدا ولا نادمت شارب مسكر
ما همتي الا اقتناء مكارمٍ ... قصر الزمان ، وهمتي لم تقصرِ
وقسمت حالاتي ثلاثا دونها ... سعي الهمام المضرحي الشمر
كرماً تدين له العفاة وحالة ... ظهر الجواد ، وحالة للمنبرِ
فكفى بذا فخراً على كل امرىء ... يسعى على اثري ليدرك مفخري
علمي وحلمي والحصان وصارمي ... وندى يميني والعفاف ودفتري

وبعد أن أشاد بأحسابهم ومكارمهم قال معاتباً :

أعددتكم عوناً لكل مكسرٍ ... عرضي ، فكنتم عون كل مكسر
وتخذتكم لي مجراً فكأنما ... ختل العدو مخاتلي من محجري
فلأنفضن الكف يأساً منكم ... نفض الأنامل من تراب المقبر
ولأبعدن وفوق بعدي مثله ... وأقول للنفس الضعيفة اصبري

وقد لجأ إلى عدن ومنها اتصل بالملك المظفر ومدحه فأكرمه وأجرى له مكافأة شهرية ؛ ولعله تدخل في أمور أغضبت عليه المظفر كما غضب عليه من قبل أمراء « الهجَرين » فأمر بسجنه ولم تنفع فيه شفاعة أصدقائه ، ولا توسلاته الشعرية ، إلى أن أرسل إليه وبعد أن أمضى مدة طويلة في سجن قلعة عدن قصيدة يعلن فيها توبته ويستجديه الرأفة ، فوقّع الملك المظفر في ظاهر القصيدة بيت « ابن دريد » المشهور في « مقصورته » .

من لم يقف عند انتهاء حده ... تقاصرت عنه فسيحات الخطى

فلما قرأ الشيخ علي البيت كتب تحته قول ابن دريد من ذات المقصورة

هل أنا بدع من عرانين علا ... جار عليهم صرف دهر فاعتدى

وأعاد الرقعة إلى الملك فلما قرأها أعجب بألمعية الشيخ ، وتذكر أدبه وفضله وأمر باطلاق سراحه ؛ فاستوطن عدن حتى مات بعد حياة بؤس وقلق سنة ٦٩٥هـ .

ومن شعره :

إذا لم يكن للمرء ذي الحلم جاهلٌ ... يدافع عن أعراضه ويناضلُ
خطت قدم الأعدا إليه تعمداً ... ونال سفيه عرضه وهو غافلُ

شعراء العلماء والفقهاء

يقول المتنبي :

ولم أر في عيــوب الـنــاس شيئــاً كنقصِ الـقــادرين على الـتــام

وعنـدمـا تصـدّيت لتأليف مقالة عن « تاريخ الأدب اليمني في العصر العباسي » لجامعة كمبردج البريطانية ، ثم عزمت على شرحها ، وتفصيل ما أجملتـه فيهـا ، وإيراد ما أشرت إليه من شواهدها ، ونصوص أعلامها والتعريف بهم ، واخراج ذلك في كتاب كما ذكرت في المقدمة . وتوكلت على الله معتمـداً على عونـه وتوفيقه ، وعلى حصيلة دراساتي في رحلتي الأدبية خلال أربعـين عامـاً وما كنت أدوّنه أو أحفظه أو اختاره من آداب اليمن وما أقرؤه في كتبها ومؤلفات من تحدّث عنهم مما طبع ومما لا يزال مخطوطا .

ومـا إن توغلت حتى وجـدت نفسي في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج ، وفي محيط زاخر ظلماته بعضها فوق بعض .

أسـماء لامعة لأئمة وأعلام وشعراء وفقهاء أسّسوا دولاً ومذاهب ولكن المعلومـات عنهم لا تخبّرنـا عن بيئتهم ومحيطهم بما يشفي ، وقلّ أن تعنى بتحديد تواريخ الميلاد أو الوفاة ، ونجد أسماء كتبهم ومؤلفاتهم ثم لا نظفر بشيء منها فهي إما مفقودة أو لا تزال موؤدة ! وليس غير الشذرات التي نقلها عنهم تلاميذهم أو رواها أتباعهم ، واحتجّوا بها في مختصراتهم ، وكثيراً ما نقـرأ قول المؤرخ لأحـدهـم : وكـان شاعـراً مجيداً ، أو : وَلَهُ ديوان شعر متـداول ، أو عزيز الـوجود ، ثم لا نعثر على هذا الديوان لا في المكاتب اليمنية ولا في المكاتب العالمية التي تزخر بآلاف الكتب اليمنية . . وحتى

تلك الكتب التي استند اليها واعتمد عليها العلامة القفطي وهو يؤلف كتابيه « المحمدون من الشعراء » و « إنباه الرواة » ، وذكر فيها بعض أعلام شعراء اليمن وعلمائها ، وقال انه استمد المعلومات عنهم من المؤلفات اليمنية التي استنسخها أو اشتراها والده وهو في اليمن ومنها كتب الهمداني وديوان شعره . . حتى هذه الكتب ودواوين الشعراء أصبحت مفقودة ؛ بل إن كتب القفطي نفسه وهي حوالي سبعة وعشرون مؤلفاً ومنها « تاريخ اليمن » لم يصلنا منها غير أربعة كتب منها المبتور الذي ضاعت بعض أوراقه .

وكنت كلّما توقفت بالتنقيب والمثابرة إلى تبديد بعض تلك الظلمات وتفاءلت أفاجأ بسرب آخر من الظلمات ، وتثور أسئلة لا أجد لها أجوبة ، وكلما هممت بالاقتناع بما قد تحصّلت عليه ، والاكتفاء بها لا يطمع أبناء هذا العصر في عالمنا العربي بما هو أكثر منه ، بعد أن نخلت جلّ ما هو معروف من كتب التراث الأدبي في اليمن وعلّلت النفس بأن القصد هو الإماطة لا الاحاطة تذكرت الأثر القائل « رحم الله أمرءاً عمل عملاً فأتقنه » ويصرخ فيّ قول المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كعجز القادرين على التمام !

فأشحذ الهمة ، وأخوض غمار تلك الظلمات من جديد ، وكان من جرّاء تلك الملابسات ، وتجدّد الاستكشافات والاضافات والاستنتاجات ما دعاني إلى تغيير اسم الكتاب عدّة مرات ؛ فقد كان « تاريخ آداب اليمن في العصر العباسي » ، ثم تطوّر إلى « تاريخ اليمن الأدبي » ، ثم فضلّت كلمة « الثقافي » على « الأدبي » ، وبعد أن وجدتني قد توسّعت وتطرقت إلى شتى انواع المعرفة سميته « تاريخ اليمن الفكري » .

ومن أصعب ما واجهته أثناء البحث والتأليف والتبويب تعدّد مواهب الشخصيات التي أريد التعريف بها ، والتاريخ لآثارها إذ قد كنت أجد الامام أو السلطان ، وإذا به في نفس الوقت الفقيه والمفسّر واللغوي وله ديوان شعر ! فلا أدري في أيّ مكان أضعه ، ولا بين أي فئة أذكره ، فأضطر إلى ذكر اسمه مراراً وأتوسّع في الحديث عنه ضمن الفئة التي هو أقرب اليها ، والصق بها ، واثاره وتأثيره فيها أكبر وأكثر ، ومن مواقف الحيرة أيضاً ، موقفي من الفقهاء وعلماء الحديث والتفسير عندما يكونون من

الشعراء ، وتنسب اليهم قصائد جيدة في شتى أبواب القريض ، وبعضهم انما يروى له القطعة أو القطعتان ، والبيت أو البيتان ، مع الاشارة بموهبته الشعرية بل والقول بأن له غير ذلك أو « وله ديوان شعر مشهور » ! .

ونحن نعلم أن كثيراً من علماء الاسلام وائمة المذاهب قد زاولوا الشعر ، وعُرفوا به ، ولبعضهم دواوين كالامام الشافعي . وفي مقدمتهم ابن دريد وابنَ حزم ، والمرتضى والزمخشري ، وقد قال الامام الشافعي :

ولـولا الـشـعـر بالـعلماء يزري لكـنـت الـيـوم أشعـر من لبيـد

كما قرأنا في كتب الأدب ما قاله النقّاد عن فلان أنه كان أعلم الشعراء ، وعن علّان انه كان أشعر العلماء ، وخبر ذينيك العالمين الأديبين اللّذين اجتمعا ، وبعد أن افترقا وسئل كلّ منهما عن صاحبه كيف وجده ؟ فقال : « علمه أكبر من عقله » ؛ ولما سألوا الآخر أجاب : « عقله أكبر من علمه » . ولقد كان الشريف المرتضى شاعراً مفلقاً ولكنه اشتهر بالعلم والتأليف أكثر مما اشتهر بالشعر ، وكان أخوه الشريف الرضي عالماً لغوياً فقيها مفسّراً ، لكنه اشتهر بالشعر أكثر . وفيهما يقول ابو العلاء المعرّي وهو يرثي أباهما :

أبقيتَ فينا كوكبَـيْن ، سناهـمـا في الصبـح والظلماء ليس بخـافِ
متـأنّقـيـن ؛ وفي المكارم أرتعـا ، متـألّـقـين بسـؤددٍ وعفـافِ ،
قدريـن في الإرداء ، بل مطريـن فـي الإجداء ، بل قمرين في الأسدافِ!
رُزقـا العـلاء ؛ فأهـل نجـدٍ كلّما نطقـا الفصاحـة مثـل أهـل ديافِ
ساوى الـرضيُّ المرتضى وتقاسـما خطط العُـلَى بتنـاصف وتصـافِ

***

وما كدت أفرغ من كتابة فصل « الشعر والشعراء » في ما سميناه تجاوزاً « العهد الصليحي » حتى وجدتني أتذكر اني قد ذكرت ممن عرف بالشعر وأجاده في هذه الفترة بين الحكام والسياسيين والسلاطين والبعض بين الفقهاء واللغـويين وعلماء الكـلام ، ووجدت اني قد أهملت العشرات من العلماء والفقهاء الذين روى لهم المؤرخون أبياتاً شعرية أو قالوا انهم كانوا يجيدون نظم الشعـر ، فرأيت ان اهمـال ذكـرهم من العيب الذي أشار اليه بيت « المتنبي » ، وان من واجبي اذا كنت أتحرى الاتقان فاستحقّ الترحّم ، أن أتـدارك الأمـر بعقـد هذا الفصل : « شعراء العلماء والفقهاء » . وألحقه

بفصل « الشعر والشعراء وتراجمهم » التي سلكت في ايرادها مسلكاً معجمياً .

وسأحاول الايجاز جهدي إذ قد أسهبت وأطنبت وأنا أتحدث عن فطاحل وفحول الشعراء ، كما اني لن أتقيّد بالترتيب المعجمي ولا بالتعاقب الزمني شهراً وعاماً ؛ لولادة أو وفاة ، بل كما سأجدهم في كتب الطبقات والتراجم التي عنيتْ بذكرهم ، وعرفت من نبغ منهم أو عرف بالشعر في فترات العصر العباسي التي تحدثت عنها إلى ما قبل الفترة الأخيرة عهد الأيوبيين ومطلع العهد الرسولي أي من عام ١٣٢هـ إلى سنة ٥٦٩هـ لما غزا اليمن توران شاه ابن ايوب . علماً بأني قد استوفيت ذكر جل من عرف منهم في الفترات الثلاث السابقة وجاء ذكرهم في سيرة الهادي وكتب الهمداني وعمارة والقفطي ويحيى بن الحسين وابن أبي الرجال ومحمد زبارة ، وأما الفترة الأخيرة والرابعة فسأتحدث عن تاريخها الفكري وأترجم لأعلامها في السفر الأخير ان شاء الله .

١ ـ أبو السعود بن زيد [حوالي : ٤٨٥هـ]

أبو السعود بن زيد بن الحسن التنعمي الخولاني ترجمه يحيى بن الحسين فقال : « العالم الأديب البليغ اللغوي الشاعر من علماء الهدوية في الفروع ، والمطرفية في الاعتقاد ، وله أرجوزة في الردّ على أرجوزة محمد حميد العالم المشهور الذي رجع عن « التطريف » إلى « الاختراع » ثم قال : « وكان في صدر من عمره منقطعاً إلى الصليحيين ومدح « العبيديين » فأرجف عليه بالميل اليهم ؛ وانقطع في أواخر عمره عن مواصلة الصليحيين وكان مقيماً بجهران » ثم قال انه عرّض في أرجوزته بالسلاطين وقال :

يا رب عجّل فرجاً قريبا … وانصر الهي دينك الغريبا
واخذل ضلالاً مطبقاً مريبا … أضحى الهدى من أجله حريبا

وان « ابن حميد » ما إن وقف على « الارجوزة » حتى دخل بها على سبأ بن أحمد الصليحي فأقامته وأقعدته ، ودسّ له رجلين قتلاه . [المستطاب لوحة : ٨٨] .

ولم يذكر تاريخاً محدّدا لعام استشهاده ، ولكنّا نعلم ان السلطان سبأ ابن أحمد كان عضد الملكة أروى بعد وفاة المكرم سنة ٤٧٧هـ وظل يقدم إليها المساعدة في كل ما يعود على الدولة الصليحية بالخير حتى وافته منيته سنة احدى وتسعين وأربع منه : ٤٩١هـ . فلعل اغتياله في حدود عام ٤٨٥هـ .

وقد تعرض لذكره ابن أبي الرجال وهو يتحدث عن العلامة أبو السعود ابن فتح فقال : « وفي المطرفية من يعرف بأبي السعود جماعة منهم أبو السعود ابن المبارك وهو من أقدم طبقاتهم ، ومنهم أبو السعود بن زيد بن الحسن ابن علي نسبُه في بني مطعم من أهل « تنعم » من مشرق خولان العالية وكان رجل هذه الطائفة بليغا الى الغاية ، له شعر سائر ، ودارت بينه وبين العلامة محمد بن حميد الآتي ذكره مشاعرة ، ولابن حميد ارجوزة في أحوال المطرفية ، وأجابه أبو السعود هذا وأقذع في حقّ محمد بن حميد على جلالة قدره ومنها في ذكر محمد بن حميد :

هل أنت إلّا ابن حميد لا غيرْ فاعرف بذا قدرك واقصد في السَّيرْ
أولا فهملج ممعناً فلا ضَيرْ فالطِّرف لا يبهره جريُ العَيرْ

فيقال ان محمد بن حميد سلط عليه من قتله ؛ وكان ابن حميد اماماً في العلوم وجيهاً مسموع الكلمة ، واشتد غضب السلاطين مع ابن حميد على ابي السعود لقوله في الارجوزة :

يالهف نفسي واضطرام وجدي على القنا السمر وبيض الهندِ !
ومقربات كالسعالي جردِ تهوى بأبطال كمثل الأسدِ
في جحفلٍ ذي لجب جرّار بين يدي مهذب مغوارِ
محمدي ساطع الأنوارِ يثأر للحق بذي الفقار

ويحق للسلاطين الحكام في تلك الفترة من الصليحيين والهمدانيين أن يغضبوا لهذه اللهجة التي تتحسر على غياب الداعية من أهل البيت ، والتي بشرت بقيام الامام أحمد بن سليمان كما سبق تفصيله . ثم قال ابن أبي الرجال :

« فيقال ان السلاطين دسوا عليه من قتله في قرية من قرى جهران وقد خرج لغسل ثيابه على بعض الماء ومن هذه الأرجوزة :

ويـلٌ لمن لم يتـبـعْ لعـقـلِهْ — ويجـتـنـب باب الـردى ويقـلِهْ
ولم يزعـه علمـه عن جهـلِه — ويـعـتـبرْ بمـن مضـى من قبـله !
كم ملك قد كان ذا مالٍ وعـدْ — واستعبـد البلدان بالبـطش الأشدْ
أبـلت يدُ الأيـام ما كان أجـدّ — وافـترسـتـه بشبـا النـاب الأحـدْ !
أيـن ملـوك حـمـيـر وكـهـلان — والفـرس والـروم معـاً ويـونـان ؟
والأولـون من ملوك كنـعـان ، — أضحَـوا رفـاتـاً في رميم الأكفـان !
قد ضيـعـوا ما جمعـوا من مالِ — واصـبـحـوا رهـائـن الأعـمالِ
ليـوم بعـثِ الأعـظُم الـبـوالي — والـعـرض في المـوقـف للسـؤالِ

ومن جملتها :

آمـنـت بـالـله وبـالشريـعَـه — مقـتـديـاً بعـلماء الـشـيـعَـه
الفـرقـة الـسـامعـة المـطيعَـه ، — ارجـو بذاك الـدرج الـرفـيعـه
بالـطيـبـين من بني الـفـواطمِ — بني الـنـبي الأبـطحي الهـاشمي
كمـثـل يحيى والامـام الـقـاسم — والمـرتـضى الـبر الـتـقيّ العـالم

إلى قوله :

ما ضلّ دينُ أبـرمـوا أحكـامَـهُ — عن ربهـم وأحـكمـوا ابـرامَـهُ !

وهي طويلة جداً » .

ثم قال : « ومما كتبه السيد الحافظ محمد بن ابراهيم الوزير صاحب العواصم من شعره :

إبـدأ من العلم بالتـوحيـد مجتهـداً — في علمـه تعـرف الأقـوال والمِلَلا
حتى إذا اطّـرد التـوحيـد منبسـطا — في القلب منك وأجنى غرسه وحَلا
فاعـرف من الفقـه حظاً يستضاء به — وحـاذر العجـز والتفـريط والكسلا
من لم يعـاودْ نِضـالاً ثم ناضـلـه — معـاودٌ ذات يوم جهـرةً نُضِـلا !

***

وفي شعره جزالة وطبع ولا شك ان له الكثير من النظم والنثر وأن جله أو كلّه قد ضاع ضمن ما ضاع من آثار « المطرفية » . ومِن تآمر قريعه وخصمه الهدوي أيضاً ، مع السلاطين الصليحيين عليه نعرف أن الخصومة كانت قبل كل شيء سياسية ـ بين مَن يفرض على الناس سلطانه وطاعته ، ومن

يتطلب العدل وتطبيق الشريعة ، ويأمر بالمعروف والعدل والاحسان ، وقد فتح اغتيال أبي السعود المطرفي الباب للمجزرة الرهيبة التي أباد بها الامام عبد الله بن حمزة المتأخرين منهم والتي سيكون لنا معها حديث طويل .

ولم يذكر ابن أبي الرجال سنة وفاة أبي السعود هذا ولكنا نعلم ان خصمه العلامة محمد بن حميد كان في أيام السيدة بنت أحمد وعاش حتى عرف سلاطين بني « القبيب » بعد عام ٥٣٢هـ حين اضمحلت دولة الصليحيين وأما أبو السعود فاغتيل قبل وفاة الداعي سبأ سنة ٤٩١هـ [مطلع ج ـ ٢ ـ لوحات : ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ـ ٣٠٤] .

ولا شك أن ضيماً أدبياً وتاريخياً قد حل بهذا العالم « المطرفي » والشاعر الذي نلمس من القطع الشعرية التي وردت في « المستطاب » و« المطلع » انَّ نفَسَه كان عالياً ؛ وقول ابن أبي الرجال « انه كان رجل هذه الطائفة ، بليغاً إلى الغاية له شعر سائر » ، وقد صدر عنه تحت ضغط الواقع الذي نظنه أكبر من ان يُجْحَد ؛ لأننا نعرف تحيّز ابن ابي الرجال ضد « المطرفية » ، وتحاشيه ذكر أعلامها في كتابه إلاّ استطراداً إذا تحدّث عن خصومهم .

كان هذا ما خطر لي قبل أن أطلع على ما كتبه مسلّم اللحجي أحد تلاميذ « أبي السعود » والمؤرخ الوحيد لعلماء وأعلام فرقته التي ينتمي اليها من « الزيدية » .

وحين وقعت في يدي مخطوطة الجزء الرابع من طبقات الزيدية للعلامة مسلّم اللحجي اطلعت على أشعار كثيرة لأبي السعود كان يستشهد بها مسلّم وهو يتحدث عن الأعلام الذين عاصرهم أبو السعود ثم خصه بترجمة مسهبة أورد فيها جلّ أرجوزته الطويلة التي ردّ بها على ارجوزة الفقيه محمد بن حميد والتي كانت سبب قتله ومما قاله مسلّم في ترجمته :

« وكان صدراً في الأدب غاية بل آية ، إماماً في الكلام والجدل ، رفيقاً في التعليم ، لطيف المأخذ في النظر ، ذا خط حسن ، وكان في الشعر أعلا طبقة من كثير من أدباء الدول باليمن ، وأفصح لسانا ، وأبرع براعة وأسرع مثلا ونادرة ، وأوجز ألفاظا ، ولقد وقفت من شعره على شيء ما أعلم فيه كلمة يقال لو كان عوضها غيرها كما يقال في كثير من انشاء أهل اليمن ؛

سلس الألفـاظ ، جيد الطبع ، حلو المعاني ، بين الدلالة ، عالماً بالنحو والعروض والقوافي ، إماماً في علم الدين ، قد صنف التصانيف وأجاب الأجـوبـة ، وأجاد الاستخراج على المخالفين والذب عن الموالفين ، بليغ الـوعظ ، موقظ الزجر ، حسن الاستشهاد » [لوحة ١٢٩ ـ ١٣٠ مسلّم]
ومن جيّد شعره مراثيه في الحسن بن زايد . وقد أورد مسلّم منها بائيته التي مطلعها :

على قدر عظم الميت يستعظم الخطبُ ... ويعـظم بعد الهالك الفقد والكرب
فأدنى الأسى ان لا تجفّ جفـونـنـا ... من الدمع اذ ذاق الردى الحسنُ الندبُ

ومنها :

وثـلّت عروش المسلمـين بهلكـه ... وفلّ حسام الشيعة الصارم العضبُ
وهد من الاسلام إذ صار في الثرى ... رميـاً رفـاتـاً طودُه الشامخُ الصعبُ

ومنها :

ومـا كان من أخـلاقه البخل والبذا ... ولا الطعن في الأخيار ، كلّا ولا السَّبُ
ولـكنـه كان امـرءاً من طبـاعـه ... وعـاداتـه الاحسـان والخلق العذبُ
وكـان إذا اشتـدت من الدهر أزمة ... واكـدى بغـاة العـرف منـزله رحبُ
فأودى ، ولم يود الذي بي من الأسى ؛ ... فنار الأسى في الصدر كالنجم لا تخبو
فتـى ترك الـدنيـا وآثـر دينـه ... وصـحّ لأهـل البيت من قلبه الحبّ
ودارس أهـل العلم وقت حيـاتـه ... ولم يك من أخـلاقه الزهو والعجب
وكـان طوال الـدهـر بالكتب مولعاً ... فقـد فقـدَتـه بعـد انس به الكتب
فيـا شيعـة الهـادي عزاءً وحسبـةً ... فسيف المنـايـا لا يكـلّ ولا ينبو

[طبقات مسلّم لوحة ـ ٥٢ ـ]

وقد وقف مسلّم كما قلنا وقفة طويلة مع ارجوزته محللاً شارحاً ، وناقداً ومعجبا ثم قال : « وإذا تتبعت أشعاره وجدتها قد تضمنت محاسن الشعر التي يعرف بها فضل الشاعر من حسن تضمين وتقسيم وتنميم وترديد ونحو ذلك » ثم قال : « وازداد ابو السعود بن زيد على البخل بنفسه على الدنيا وأهلها واكرامها عن صحبة المفسدين في الأرض أن بذلها في نصرة الدين وأهله ، ووهبهـا لله والاسـلام وجـاهد بلسانه حتى سفك دمه واهريقت مهجته في الله وناهيك بها فضيلة في هذه الأعصار ، ولحق بالطبقة الأولى من

الزيدية الذين سفكوا دماءهم في الله سبحانه ، وحبسوا وعذبوا واهينوا في حياطة دين الله ونصرة آل رسوله صلى الله عليه » .

وسوف نعقد فصلاً عن « أراجيز الجدل المذهبي » حين نتحدث عن « نكبة المطرفية » وقصيدة الامام عبد الله بن حمزة في السفر الثالث ونثبت من ارجوزة ابي السعود ما يناسب البحث ان شاء الله .

بين الماربي وأبي السعود

وقد ذكر مسلّم اللحجي ان أبا السعود بن زيد الّف الكثير من الكتب والرسائل ولكن ليس بين أيدينا منها شيء ؛ ولعلها من ضمن مصنفات ومؤلفات وآثار « المطرفية » التي أبيدت واحرقت ، أو لا تزال بين الموؤدات من الكتب اليمنية ، ويقول « مسلّم » : « ومن الدلالة على تقدم ابي السعود بن زيد رحمه الله في الشعر والترسّل ، على « محمد بن زياد الماربي » المجاز بالألوف من الدولة جوابه عليه حين كتب إلى « الزيدية » مُحْدِثا بهم عهداً ، ومرتبطا بحبل ولائهم ، رغم انه في كل وادٍ يهيم ! وعن القول بما لا يفعل ولا يعلم لا يبرح ولا يريم ، فقد بعث أبياتاً يعتذر فيها اليهم من القطيعة لهم ، والانقطاع عنهم ، ويثني عليهم ، ويعترف لهم بالفضل منها قوله :

يا سادة حبهمُ قربةٌ ... وزلفة عظمى لدار النعيم
ومن هم في درجات العلى ... أعلى محلاً من أعالي النجوم
سادات قحطان ولكنهم ... أئمة للمنهج المستقيم
لا تحسبوا اني على بعدكم ... مضيّع ذاك الوداد القديم
اكفر بالله إذاً ؛ حِلفَة ... أبرّها غير كفور أثيم
فلا تصيخوا ان سعى بيننا ... شيطان افكٍ ذو فجور رجيم

***

فأجابه أبو السعود بن زيد قائلاً :

لا درّ درّ البين كم حرقة ... للبين تغلي مثل غلي الحميم
يا ذا الذي طال مدى نأيه ... عن صحبه وهو الولي الحميم
ان الذي تعرف من ودنا ... لكل ذي ودٍ ؛ طباعٌ وخيم
والمكر لا نألف فرسانه ... إذ كان مرعى المكر مرعى وخيم
فافصم عرى البين فكم للنوى ... من مدمع جار وقلب كليم

واعمـر ربـوعـاً للتقى اهلهـا كل تقـيّ أريحـيّ كليـم
لا تنـأ عنـا ، واعـلمـن انـه لا يُتـوصَّـى في صلاح حليـم
من تاجـر الله زكـا ربـحـه ومـن تخطّى ذلـك الـربـح ليـم

***

ولا يخفى ما في الأبيات من الصنعة البيانية والجناس اللفظي « فالحميم » في البيت الأول : الماء الحار ، وهو في الثاني الخلّ القريب والصديق ، ولفظة « خيم » تعني الطبيعة والسجية ، والمرعى « الوخيم » : الردي الوبيء الوبيل ، وقلب « كليم » أي : جريح ، والأريحي « الكليم » : هو الكريم فصيح الكلام جيّده ؛ ولن يفوت الفطن أن يلاحظ حيلته البيانية في المجانسة بين « حليم » و « لِيمَ » أي : استحق العتب واللوم حين ربطها نطقاً بحاء « الربح » وذلك ما لا يجيده إلا عليم باللغة ماهر في معرفة أساليب البيان وهو ما جعل العلامة الناقد مسلم اللحجي يقدّمه ويفضله على محمد المـاربي الـذي كان أيضاً من الأفذاذ وسبقت ترجمته ضمن « المحمدين » من شعراء هذه الفترة .

انموذج من رسائله

يقول مسلّم ان له رسالة كتبها الى مسلّم بن محمد بن أسعد الجنبي وكان قد تاب ، ورغب في طاعة الله سبحانه ، وفارق ما عليه جَنب من التغلّب على جهران وذمار والغصب والظلم لأهلها وغيرهم من الناس .

ومما جاء في الرسالة قوله :

« شكر اللهُ له احسانَه ، وثبت بالقول الثابت قلبه ولسانه ، وجعل حبال اخوّته قويّة ، وأدام سجال مروته رويّة ، وحذف عن دينه ودنياه غوائل الظَلَمةِ والأغنياء ، حذف الواو في الفعل المعتل بين الكسرة والياء ، وأبدله من اخوان العصبية الدنيوية ، اخوان الشريعة الدينية النبوية ، كما تبدل الطاء من التاء اذ تقدمتها في الأفعال حرف الضاد والطاء ! . وانزله من منازل العلو والاشراق ، منزلة حروف الاستعلاء والاطباق » . ثم قال مسلّم معلّقا : « فما ظن الظان بمن يكون من ترسله مثل هذا هل كان ينفق عند الملوك أم لا ؟ على انه يُسمع بأنه قد نفق من هو دونه وغولي في اكتساب مودته ، واستدعاء خدمته ، ثم مع هذا لم يمد عينيه الى ما متعوا به من زهرة

الدنيا ، وربأ بنفسه الى الرتبة من إيثار طاعة الله العليا ، حتى جعل براعته وبلاغته ، ورأيه وروايته ، في الذب عن الاسلام ونصرته ، وسمح في ذلك بمهجته » .

اسلوبه في الدعوة إلى الخير وانكار الشر :

ويمضي « مسلّم » في سرد شمائل ابي السعود بن زيد فيقول :

« وأين يكون من المارين ، وابن الصبَري ، وابن حُميد ، والأبّار ، وابن السميدع البحيري ؟ على انه رحمه الله لم يأل في الرفق بمن كان يرجو أن علاجه ينجع في دائه ، وانه يحسن تركيب دوائه ، كما لم يأل في قدح من يئس من جنابه ، وخشي ان يفرط ويطغى على أصحابه فمن الرفق والتلطف وبذل الجهد في الحيلة في استدراج من يرجو رجوعه الى الحق منهم ما كان منه الى ابن الصَّبري من كتاب وعتاب ، وخُطَب وخطاب ، وما قصر في التلطف من يقول :

ومما هاج تذكاري ووجدي … كما هاجت حُسَى السَّمَر الفؤادا
بكاء حمامتين بلحن شجو … اذا ما رجّعا صوتاً . . أَعادا !
أقاما جاثمين على فُريخ … وذبا عنه كل أذىً ، وذادا
فلما هزّ قادمتيه خلّى … وكورته وعزمها حيادا
فذكرني بكاؤهما عليه … مخافة ان يهان وان يصادا
نفور محمدٍ عن والديه … « ونبذهما معاشاً واعتقادا »!
وكنت عهدته بهما حفيّاً … يقول القائلون لقد أسادا
تقرّ به عيونها سرورا … ولا يعصيهما فيما أرادا ،
أصحّ لداته ديناً قوياً … وأورعهم ، وأوراهم زنادا
واكملهم حمى وتقي وصبراً … على التقوى ، واعلاهم مصادا
ولم أعهده امّعةً غوياً … يظن الحج يلزم في جمادى
ويحسب انه يحسو سويقاً … إذا ما ماث بالماء الرمادا
ويجني كفه عنباً وتمراً … اذا غرس الشُّكاعَي والعرادا !

***

ثم قال في حسن الظن والايناس له :

أظن الكاشحين رووا محالاً لمحتالٍ فنمقه وزادا
فما صدّقت أكثر ما رووه وما عنه به الواشي أشادا
بأن محمداً يعصي أباه ويهدم ما بناه له ، وشادا
معاذ الله ؛ ما رجل لبيبٌ شآ النظراء في التقوى اجتهادا
وربّاه على التقوى ابوه ابو اسحاق يستحلي الفسادا

***

قال مسلم : « فبالغ رحمه الله في الرفق به لو نفع ، ولطف التدبير في علاجه لو نجع » وهو يشير إلى ما اشيع عن محمد الصبري من ميل الى « الحسينية » وما اتهم به من جنوح إلى « الباطنية » وآرائهم ومخالطته لأهل الدعوة الصليحيين وهو بهذا الرفق يحاول ارجاعه الى « الزيدية » اذ انه يرجو رجوعه إلى الحق . وهذا الموقف الرفيق اللطيف يخالف موقفه ممن قد تحقق له انسلاخه عن « الزيدية » ومجاراته للظلمة كما ظهر في ارجوزته ضد ابن حميد والتي يقول فيها :

يا بن حميد راقب الله وتبْ واحذر على نفسك من هذا العجبْ
واهجر لغا أودعته ضمن الكتب تدعو الى تصديق عبادِ النُّصُبْ

ويواصل « مسلّم » وصفه لاسلوبه في الدعوة بالحسنى لمن يرجو صلاحه مدللاً على حسن اخلاقه « وتحنّنه على المؤمنين ، ودفاعه عن الدين ، وتأتّيه واحتياله على تصحيح نيات التائبين » فيورد أبياتاً كأنّها ضمن الرسالة التي أورد شطراً منها كدليل على بلاغته والتي قال انه بعث بها الى مسلّم ابن محمد الجنبي تنشيطا وتألّفا وهي :

بلغ سلامي فتىً طابت ارومته من حيّ جنب كمياً باسلاً بطلا
ضخم الدسيعة ، فياض الشريعة ، لا كزّاً ، ولا ورَعاً زمّيلةً ، وكلا . .
عفّاً تقياً زكيا طاهراً وَرِعاً غمر الرداء أريباً جد أو هزلا
عاف الخطايا وخاف الله خالقه واستشعر الحزن خوف النار والوجلا
وازورّ عن زخرف الدنيا وزينتها واعتاض من أهلها أهل التقى بدلا
لله در فتى لم ترض همته أن يبق باللّهو واللذات مشتغلا
ماضرَّ جَنْباً معاً لو انهم دخلوا في طاعة الله مولاهم كما دخلا !

نماذج من أشعاره

ومما اختاره من أشعاره قوله يرثي أخويه :

آه على عمر وابراهيم ما أحمى أسى ما أورياه وأحمسا
آه على مطرَيْ ندى قمَريْ هدى كانا إذا غلس الظلام اعلنكسا
أخويّ: لن ألْتذّ بعدكما الكرى حتى أرى علم الضلال منكّسا
وأرى سحائب أهل بيت محمدٍ بالمشرفية والاسنة رجسا
مع ثائر من أهل بيت محمد يطأ العدا بالعَدْل وطأً ملطسا

ومنها :

رب انتصر للمسلمين فطالما قالوا لعلّ، وطال ما قالوا عسى !
وأقم معالم دينك العدل الذي اضحت معالمه دواثر درّسا
وارحم أحبّتي الذين رُزيتهم واغفر لهم ، وقِهم جهنم مجلسا

وله من أخرى :

والحمد لله مرجواً وأسأله للخلق دولة حق تبهر الدولا
حتى أرى في نواحي الأرض قاطبةً للعدل طلعة نورٍ طال ما أفلا !

***

وكتب إلى صديقه شريح بن أسعد الشهابي وكان قد أصابه مرض وشفى :

أبا قطنٍ حممت فحم قلبي وكدت أذوب وجداً واكتئابا
فلما أن عدت عنك العوادي جفا طعم الكرى جفني وغابا
وصولي للسلام عليك فرض يبوّءني من الله الثوابا
وحقك لا يقوم به كتاب ولو حبّرت كل غدٍ كتابا
يعز علي ان تضنى سقاما وتفتقد الاحبة والصحابا
وأن المسلمين بكل فج وأرباب الهدى غرثا سغابا
يسامون الدنية والعذابا ويُعتَمدون عَضْهاً واغتيابا
كفى بفراق يوم بلْه شهر فكيف الدهر نأيا واغترابا
ولكن الوداد وان المّت بنا حرق البعاد صفا وطابا
ودادك قربة لي عند ربي فلا غشّا يخاف ولا انقلابا

وحــق لمن زكــا عقــلا وديـنــا كمثلك واحتـوى الحسب اللبـابـا
وبــذ الأكــرمــين ندى وجــوداً وأعــرافــاً واخــلاقــاً عذابــا
وحـامى عن هدى «الهادي» وناوَى مناويــه ، ولم يعْـد الصّــوابـا
وعــدّ الأكــرمــين بني شهــاب له حيّــاً ، وعــدَّ أبــاً شهــابـا
ووسط في ذرى كهــلان بيـتــاً يوازي الـنـجـم عزاً وانـتـصـابـا
حَرٍ من كان مثــلك في علاه وحــيــداً أن يحاط وأن يهابـا
وتـبـتــذل الـنـفــوس له فداءً وتُجعــل دون مهجتــه حجــابـا !
حمدت الله اذ عافــاك مما عراك من الـسقــام ومــا أصــابـا
وإذ أبــقــاك للاســلام حصـنــاً أشــم لأهــله ولمــن أنــابـا
ولــو أني تقــيــك الـسقــم نفسي اذاً لبـذلـتهــا عنــك احتسـابـا
وخــلت وانــت موعــوكٌ بأني أواري أهــل منـزلي الــترابـا
لذلــك لم أعــدك ولا يمــيـنـا ولا اسْـطَعْتُ المجيء ولا الـذهـابـا
فأحــســن فيّ ظنّــكَ كل حين ولا يشـعــرك خاطــرك ارتـيــابـا
بنفسي أنــت من ندسٍ دعــتــه الى التقــوى الشريعــة فاستجابـا
ونــافس في علوم بني علي وشــيــعـــة جدهــم بابــاً فبــابـا
علمتَ كرمت دنت بديـن يحيى وشــايعت الشــريعــة والكتــابـا
علوت ومــا ألــوت النصح قوماً أبــوا الاّ الــوقـيعــة والسبــابـا
فلا عدمــتــك كندة ليث حرب وظــفــراً دون حوزتهــا ونــابـا
تحوط ذمــارهــا وتــذب عنهــا وتـنـصــب للعــلا فيهــا قبــابـا
ولا عدمــتــك شيــعــة آل طهٰ تكــلّف دونها الــكـلف الصعــابـا
ومــضــطغــن عليــك ذوٍ حشَــاهُ من الــبـغـضــاء يلتـهب التهــابـا
رجــاني ان اكــون له ظهــيراً فضــلّ رجــاؤه عنــه وخــابـا
فقــلت له رويــدك لا شريحــاً بفيك الصخــر ذقْ شرْبــاً وصابـا
أأمــذق ودّ ذي التقــوى شريــح واصــفى الــود خبــاً مســترابـا ؟
تنــكــب عن طريــق الحــق لمــاً رأى أعــلامــه اضـحــت خرابـا
وراقــب قلبــه دنــيــا انــاس فآثــرهــا ولم يخش الــعــقــابـا
معــاذ الله لا أنــســى شريحــاً ولا أنــسـى له المنــن الــرغــابـا
ولا أصــفـــي معــاديــهِ ودادأ وإن بذل الــرغــائــب لي ثوابـا
شريــح ناصري وضــيــاء قلبــي ومعــتـمــدي إذا ما الخـطب نابـا
فمــن يُغـضِــب أبــا قطَنٍ يجدني واهــل الحــق كلهــم غضــابـا

ومـن يُحْبِـبـهُ أحـفـظه بحبّي ... وان بعــدت قرابتــه انتســابــا
فثـق مِني أبـا قَطنٍ بهذا ... ولا توحـشـك ريبـة من أرابـا
فان الـبر لي خلقٌ قويّ ... صحبت به الكهـولـة والشبـابـا
وأفـضـل من يجيـب فتى إذا ما ... دعــوت اليـه في البلوى أجـابـا
وان أولـيـتـه حسـنـا رعـاه ... وان يومـا أسـأت به تغـابـى
وان أولاك معـروفـاً كفـاه ، ... وان زل استـقـال رضى وتـابـا
ويهـوى ما هويـت له ويـأبـى ... ويـشـنـى ما تُسـاء به ويـابـا
فذلـك فاتخـذه خليـل صدق ... وألـطِفـه إذا عثـر الـعـتـابـا
وخـذ بالـنصـح احمـد واستفئـهُ ... وخـوفـه من الـله الـعـقـابـا
وذكـره أيـاديـه الـلواتي ... تعـوّدهـا وقـلّدهـا الـرقـابـا
فان الجـرح يبرى بعـد يأس ... وعـلٌ له ولا يدري ايـابـا
أتحـسـب عاقـلاً يخفـى عليـه ... طريـقـة من أقـال ومـن اهـابـا
عمٌ من قال ان الله يؤتي ... ويسـترعي رعـايـاه الـذبـابـا
ودمٌ في هذه الـدنـيـا عزيـزاً ... رفـيـق الـفـوز مجبـوراً مثـابـا

***

وهذه النماذج ؛ مع ارجوزته الطويلة تدلّل على انه كان شاعراً مجيداً ، وقد أشار مسلّم الى انه قد كان في شبابه ممالئاً للصليحيين ثم أناب بل أن أبا السعود نفسه قد ذكر ما كان عليه من عماية ، واثنى على مشايخ الزيدية في عصره وخصّ « مطّرفا » واصحابه في ارجوزته بالاطراء الحسن واعترف بفضلهم عليه وكل ذلك قد ذكره المؤرخ يحيى بن الحسين في كتابه « المستطاب » .

أبو السعود العالم

لقد كان عليّ أن أضم ترجمة ابي السعود بن زيد التنعمي الى تراجم الشعراء الأفذاذ ولكني لم أقف على ترجمته في طبقات « مسلّم » إلّا بعد أن فرغت من ترتيب تلك التراجم ثم ان ما حدّثنا به « مسلّم » عن رسائله ومؤلفاته وتقواه وصلاحه ومناظراته يجعل منزلته العلمية أكبر من منزلته الشعرية ، ولا سيما وقد كان شاعرَ مبدأ وعقيدة ، وسوف نقف في السفر الثالث مع ارجوزته العلمية ونحن نتحدث عن المطرفية وآراءهم في الرئاسة العامة التي تعارض آراء الامام عبد الله بن حمزة وقد أشار مسلّم الى مناظرة

جرت بين « ابي السعود » وبين العالم الاسماعيلي علي بن الحسين بن سمير وغيره من الفلكيين والفلاسفة فقال :

« وأخبرني الشيخ زيد بن أحمد أحد شيوخ الزيدية في العصر بوَقَش قال قدم أبو السعود بن زيد رحمه الله شبام في أيام سليمان بن عامر الزواحي وبها من أهل الدعوة الصليحية من له علم بكتبهم ودعوى في المعرفة بكثير من العلوم وممن له قدر وشرف في الدولة أمثال علي بن الحسين بن أبي الأمان بن سمير المتطبب ، وابراهيم ابن أبي سلمة بن الوليد المتطبب ، والحسين بن أحمد بن ابراهيم المنجم الصنعاني وغيرهم فجرى بينهم كلام ومناظرة وسؤالات وأجوبة في علوم كثيرة ، وسأل علي بن الحسين ابن سمير أبا السعود في علم اللغة فأجاب أبو السعود عن مسائله ، وسأله عن مسائل فلم يجب ابن سمير منها بشيء في نحو ولا غريب ، ولا ما يتعلق بذلك فكلمه في العروض وعلم أوزان الشعر وقوافيه فوجده عالماً بذلك ، وكان ابن سمير المتطبب يرى رأي الباطنية ويعجب بما جاء عن الزنادقة والفلاسفة فربما يحتقر الزيدية فلما رأى أبا السعود متبحراً كلمه في الحساب وعلم النجوم والأفلاك وقال أما هذا فليس منكم يامعشر الزيدية فلما كلمه كان أبو السعود يجيبه في الحساب عما يسأل ويسأله فلا يجيب ؛ فكلمه في الطب فأجاب أبو السعود وأصاب ، فقال ابن سمير : اما القراءة والفقه فلا أكلمك في ذلك لأنه فنكم الذي تدرسون ! » قال : « ثم كلمه في أصول الدين فقال : أنتم تقولون الأشياء على ثلاثة : والأشياء أربعة : الله والجوهر والجسم والعرض . فقال أبو السعود : فهل لهذه الأشياء حقائق تُعرف بها قال : نعم . قال فأخبرني بحقيقة كل واحد منها قال : الله واحد لا يُجزأ ولا يبعض في حس ولا وهم موجود وان عدم ما سواه من النظير والقرين والمثيل ، قال أبو السعود فما حقيقة الجسم ؟ قال : يكون طويلا عريضا عميقا متجها أي متناهيا من جهات ست . قال فما حقيقة العرض ؟ قال ان يكون قائما بغيره معلوما . قال فما حقيقة الجوهر ؟ قال فتحير ولم يحر جوابا وقال : غلبتني من كل جانب ! فقال أبو السعود ان قلت انه واحد فهو الله وان قلت طويل عريض عميق متناهي فهو جسم ؛ وان قلت قائم بغيره بخلاف الجسم فهو عرض . قال فلما لم يجد له حقيقة رابعة انقطع والحقه بقبيل الجسم » [طبقات مسلّم ج ـ ٤ ـ لوحة : ١٦٣ ـ ١٦٤] .

وقد أورد « مسلّم » الكثير من مسائل الجدل والمنطق وأصول الدين التي تعرض لذكرها أبو السعود في أرجوزته وهي توحي بأنه كان من أفذاذ علماء الكلام والمنطق والجدل .

براعته وجودة طبعه

ثم عقد « مسلّم » فصلا تحدث فيه عما ورد في أرجوزته من المحاسن الأدبية فقال « فما جاء به « أبو السعود بن زيد » في هذه الأرجوزة وغيرها من المحاسن الأدبية التي تُعرف بها بلاغته وبراعته وجودة طبعه في الشعر والانشاء وفصاحته مثل قوله :

ومن مشى في مهيع الإرجاءِ　　فقد مشى بالقدم العرجاء
وانساب في مدرجةٍ عوجاء　　جائرة موحشة الأرجاء

وقوله :

أبلت يد الأيام ما كان أجد　　وافترسته بشبا الناب الأحد

وقوله :

وجعفر ومن حذا بحذوهِ　　مغترفاً من بحره بدلوهِ

وقوله :

وأتوخى العوم في وادٍ يبسْ

وقوله :

تلسعني من كل جحرٍ أفعى

وقوله :

فاخضر غرسي بعد يأس ونما　　واهتز روضي مزهراً وابتسما

وقوله :

لا أَمت في منهاجه ولا عِوجْ

وقوله :

كم من أذاةٍ حاكها لسانُه　　مشبوبة ، وسوَسَها شيطانُه
يقتادها جامحةً أرسانُه

وقوله :

أبدى لأنصار الهدى ظهرَ المجنْ

وقوله :

بميسم الخشية والأحزان

ومثل هذا كثير ، والأمثال السائرة بلاغةً وإيجازاً وحكمة وارشاداً مثل قوله :

والحق ما انفك قليلا في الناس

وقوله :

من خاصم الغي عن الرشد فلجْ

وقوله :

ليس بندٍّ كل عودٍ دُكان ولا لعمري كل مرعى سعدان

وقوله :

لا خير للمرء بعلم يُسكرُه ولا بمالٍ مضمحل يُبطِرُه

وقوله :

في جيده للبغي حبلٌ من مسد

وقوله :

وهذه عمدة كل امعه

وقوله :

والرَّفو لا ينفع في الثوب الخلق

وهو فصل طويل ممتع ولولا خشية الاطالة لأوردناه كاملا ؛ ومنه يدرك الدارس ، ويعرف الناقد ، أن أبا السعود بن زيد كان قمةً شامخة علماً وبلاغة وانه طبقة عالية تتقاصر عنها أعناق الأفذاذ ، إلى همة وورع شحيح ، ومصابرة ومثابرة على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بالتي هي أحسن .

وان ما لمحته من اشارات لطيفة عن هذا التنعمي المطرفي الشهيد أبي

السعود بن زيد تخول لي أن اشهد بأنه كان عبقرياً وانه لولا العنصرية البغيضة ، والتعصب الطائفي لكان أحق بالتزكية والتقدير واحرى بالدراسة والعناية ، ونشر أخباره وآثاره شعرا ونثرا ، من كثير من أعلام اليمن بما فيهم عمارة الحكمي وابن يعقوب الهمداني بل ونشوان الحميري والامام عبد الله بن حمزة وهم من هم علماً وفضلاً وأدباً . وهذه العجالة هي أول حديث عن ذلك العالم ولنا إليه عودة إن شاء الله .

٢ ـ أبو السعود الحنبصي

[حوالي ٥٤٥هـ]

هذا عالم مطرفي آخر ذكره « ابن أبي الرجال » بعد ذكر سميه « ابن زيد » فقال : « ومنهم أبو السعود بن المنصور أبي ثور اليهري الحنبصي ، وكان من كبار أهل « التطريف » ؛ ومن شعره إلى عليان بن أسعد رئيس المطرفية :

بلغ الأريحي عليان عني — وجميع الأخوان ممن يليه
اني مصطف من الدين ما كا — ن نبيّ الهدى لنا يصطفيه
مذهبي مذهب الأئمة « زيد بن علي » و« قاسم » ، وبنيه
لستُ إن كنت ذا اعتراض أرى الجبر ولا إختراع ذي التشبيه
عذت بالله من مقال بديع — واعتقاد لديه لا يرضيه

ولم يذكر ابن أبي الرجال كالعادة سنة وفاة « الحنبصي » هذا ؛ ولكننا نعلم ان عليان ابن سعد ؛ أو ابن أسعد كان معاصراً للسلطان حاتم بن أحمد اليامي الذي تولى السلطنة على صنعاء وهمدان عام ٥٣٣هـ وتوفي سنة ٥٥٦هـ ؛ وقد سبق أن ذكرنا في ترجمة نشوان الحميري اجتماعه بالقاضي الرشيد المصري ومحاورته لعلماء اليمن ومنهم عليان بن سعد المطرفي سنة ٥٣٤هـ فهو من اعلام تلك الفترة وعاش بعد سميه التنعمي وربما انه عاش الى ما بعد عام ٥٤٥هـ . ولم يذكره مسلّم في الجزء الرابع من طبقاته ولعله ذكره فيما لايزال مفقوداً من كتبه وطبقاته .

٣ ـ أبو السعود بن محمد العنسي

[حوالي عام ٤٨٠هـ]

ذكره ابن أبي الرجال عرضاً وهو يتحدث عن من اسمه « أبو السعود »

من اعلام « المطرفية » قال « وكان من أكابرهم وله شعر من مشهوره القصيدة الطويلة التي أولها :

بأبي وأمي معشر والــيــتــهــم لله ذي الملكوت والسلطان
لله ؛ لا لهوى النفوس فانها أمارة بالظلم والعدوان

ثم قال : « وهي طويلة جدا لا حاجة إلى ذكرها حاصلها ذكر جماعته والله حسبنا وكفى » [مطلع ج - ٢ - لوحة ٣٠٧] .

هكذا ولم يذكر تاريخ ولادة ولا وفاة ولا احدى الشخصيات المشهورة التي عاصرته ويمكن ان نستنتج لو ذكرها متى عاش هذا العالم الشاعر المطرفي والذي لا شك انه قد أبدع وبالغ في اطراء فرقته أو « جماعته » حسب تعبير ابن أبي الرجال الذي لا شك انه قد ضاق ذرعاً بتلك القصيدة الطويلة ولهذا قال : « لا حاجة إلى ذكرها » تعصباً لجماعته من « مخترعة » الزيدية .

وقد ترجمه مسلّم اللحجي في الجزء الرابع من طبقاته فقال : « هو أبو السعود محمد بن وضاح العنسي كان علماً من الاعلام ظاهر الوقار والعفة والزهد والعبادة والعلم متكلماً شاعراً فصيحاً ؛ وله شعر يرد به على « المخترعة » وأشعار أخرى في سوى ذلك » ثم قال : « وأخبرني زيد بن أحمد حفظه الله قال : لقيت أبا السعود بن محمد رحمه الله في شهر رمضان وكان الناس يجتمعون في المسجد فيقرؤن القرآن فقلت ما لك لا تأتي إلى المسجد فتقرأ معنا فقال : يابُني وددت ذلك وانني لأشتهي ان أجلس معكم فأقرأ القرآن ؛ ولكن معي هنا سَبُعٌ عقور أخافه ! - يعني نفسه - ولي عادة عند قراءة القرآن أن لا أملك نفسي من البكاء فإذا أنا في بيتي بكيت ما شئت ، وإذا أنا بين الناس لا آمن ان يصير ذلك لغير الله تعالى ويخالطني الريا » ومن هذا نعرف ان أبا السعود بن محمد عاش في النصف الأخير من القرن الخامس وقد أدركه أحد زملاء مسلّم اللحجي الذي نعلم انه توفي سنة ٥٤٥هـ وقد أورد مسلم قصيدته النونية التي ضاق بها ذرعاً مؤلف « مطلع البدور » ومنها بعد البيتين الأولين في وصف « جماعته » :

لله ؛ لا طلباً لدنيا إنها وجميع ما فيها قليل فاني
لله ؛ لا لسواه اذ والــيــتــهــم ، لله ، ذي الأفضال والاحسان
العالم الحي القديم القادر الصمد المهيمن والعظيم الشأن

الصادق الوعد الجواد الواحد الأفعال والذات البعيد الداني
وولاء أهل البيت فرض لازم مع بغض أهل الكفر والعصيان
بأبي رجال في « سناع » محلهم بأبى همُ في السر والاعلان
نزلوا بأحسن منزل في روضة ما بين نهر فاض أو بستان
بجوار خير الناس من أبناء ذي يمن كرام النبع والأغصان
الحاملين من الأمور عظيمها والمشترين الحمد بالأثمان
الجائدين بما تجود اكفهم والمنهلين عوالي المران
أبنا « شهاب » الحايطين لجارهم بنفوسهم كرماً عن الحدثان
بأبي رجال ليس يعرف منهم التشبيه والتجوير للرحمان
وكذاك ليس يشوب فعلهم الريا ان الريا من فتنة الشيطان
كلا ولا حسد ولا طمع ولا بخل على الأصحاب والضيفان
لا تُنطَق العوراءُ في ناديهم طهرا من الآفات والأدران
من كل كهل في العبادة أشمطٍ أو ناشىء في العلم ذي أفنان
ما همهم الا اصطفاء غريبةٍ م العِلم بكر غضةٍ ، وعوان
ودراسةٍ في كتب آل محمدٍ سفن النجاة ومعدن الايمان
هم عدتي ووسيلتي وذخيرتي في كل معضلةٍ ، وهم اخواني
وبهم أطول على العدو الكاشح الطاوي سريرته على الشنآن
كم طالب مسترشدٍ قد بصروا وكَم انقذوا من جاهل حيران
ليسوا كقوم مهملين نفوسهم كالسائمات سليبة الأذهان
لا يعرفون الخير من شر ولا العذب الزلال من الحميم الآن
كلا ولا البدر المنير من السهى والشمس من بلع ومن كيوان
إذ أنهم لا يسمعون بها ؛ إذا زعموا يجوز السمع للصمان !
وكذاك ليس وقوعها أبداً على جسم سوى الأصوات والألحان
وعيونهم لا يبصرون بها إذا زعموا يجوز الحس للعميان !
وكذاك ليس وقوعها الاّ على الألوان والهيئات ؛ لا الاعيانِ
واكفهم لا يلمسون بها ؛ إذا زعموا يجوز اللمس للشلاّنِ
وكذاك ليس يحس جسم قط الاّ اللين ، أو كخشونة السعدان
وكذاك حكم الشم فيما عندهم والذوق باللهوات أو بلسان
وقلوبهم لا يعقلون بها اذا زعموا يجوز العقل للثيران
بالله فاستمعوا لها اعجوبة محفوفة بالصدر والعنوان

خمس حواس غير فاسدة ولا معتلة مشفوعة بجنان
لا تدرك الأرض العظيمة والسما المسموكة المحبوكة البنيان !
أبداً ولا ما بث بينهما من المخلوق نامية ومن حيوان
كلاً ولا شمساً ولا قمراً ولا برقاً إذا ما انعقّ في الأعنان
سمعوا بغير مسامع ؛ ومسامع زعموا هناك لهم سوى الآذان !
نظروا بغير عيونهم ؛ وعيونهم غير التي ركبن في العيران
لمسوا بغير أكفهم ؛ وأكفهم ليست بذات أشاجع وبنان
عقلوا بغير قلوبهم ؛ وقلوبهم غير التي خفقت من النزوان
شبعوا بما لم يأكلوا ؛ وكذاك ما أكلوا فليس بمشبع الجيعان !
ورووا بما لم يشربوا وكذاك ما شربوا فليس بنافع ، العطشان
لبسوا بما لم يلبسوا ولباسهم غير العبا والقطن والكتّان
ركبوا الذي لا يسرجون ، وأسرجوا غير الذي ركبوه في الميدان
قتلوا أعاديهم بغير سلاحهم وسلاحهم لم يفن في الأقران
رداً على الله العظيم مقاله يا ويح كل مكابرٍ لعيان
والأرض لا تحيى بماء عندهم كلاً ولا بالوبل ذي الهملان
والله يخبر انه أحيى به ما كان من زرع ومن حيوان
وثمار كل حديقةٍ ملتفّةٍ ونبات كل سهولةٍ ورعان
والتين والزيتون يعصر دهنه والنخل ذي الأكمام والصنوان
والقضب والحب العجيب وأبّه وفواكه الأعناب والرمان
ويقول اخرجنا وانبتنا به من كل ذي نورٍ وقطف داني
فاسمع لقول الله في «قاف» وفي «الاعراف» و «الانعام» و «الفرقان»
ولكم عسى أحصيت مما قاله في وحيه ذي النور والبرهان
وبقَول خير الخلق في استسقائه حين ازلأمَ الجدب في البلدان
وبقول «يحيى بن الحسين» وجده ذي المكرمات مترجم الأديان
والله «يخترع» المعاني عندهم كالطعم والحركات والألوان !
أيكون جسم غير موصوف مدى الأيام ، أم ضدان يجتمعان ؟
والقصد عندهم سوا جايز بالخلق والأفعال في الانسان
والملك في كل الخليقة واحد لذوي التقى والبغي والطغيان
وكذا الحلال وضده من فعلهم ويكون فعل الواحد المنان
فالحق في الاجماع من هذا وما في الحق من وهن ولا نقصان
وكذا الحروف بزعمهم مفعولة للخلق من انس ومن جنّان

أيكون شيء ما يقوم بنفسه   للخلق مفعولاً من الأكوان ؟
وهي القران ومعجز لمحمد   خير البرية كاسر الأوثان
أتكون معجزة النبي محمد   لفظ المغيرة أو ابي سفيان ؟
أم هل يكون الله شاتم نفسه   أو ناطقاً بالزور والبهتان ؟
هذا ومنهم من يجوّز خلقها   قبل الاصول وقبل كل أوان ؛
اتقوم اعراض بغير جواهر   هذا لعمرك غاية البطلان ؟
وكذا القران فلا يقوم بنفسه   في قولهم ويحسّ في الآذان !
ويكون منتقلاً وهذا شرطه   كمقال ذي مسٍ من الشيطان
والله قاسم حادث في قولهم   وكذلك الرحمان قاسم ثاني
وكلاهما خلق ضعيف زايل   وكذا هما في العجز يستويان
فصلاتهم وصيامهم وقيامهم   أبداً لغير الله والرحمان
والله يشهد جلّ ان لا غيره   في محكم التنزيل والفرقان
ويقول علمنا القران بلفظه   في سورة الحسبان والريحان
وكذلك الحسنات للعاصي فهل   لعصاة خلق الله من احسان ؟
أم هل يضاعف ربهم حسناتهم   إذ كان شرطا نية الايقان
لا يفعل الحسنات الا محسن   والسيء إلاّ ظالم متواني
والسم ليس بقاتل ، والرمح لا يفري الترائب يوم كل طعان
وكذاك لا يسطيع ضرباً ضارب   دون استطاعات سوى الاركان
فبها يكون الفعل وهي حوادث   لله ؛ جل الله في الاجنان
فمن الذي قتل الحسين بكربلا   وأباه سيف اللـه في كوفان
وكذا التكرم والسماحة عندهم   فعل الأله وفطرة الأبدان
فنفوا بذاك الفضل عن أربابه   ورضوا بقولهم ذوي الايمان
والله يمدح كل سمح صابر   ويذم كل مبخّل وجبان
وكذاك قالوا في الاصول جميعها   قولا ضعيفاً واهي البنيان
زعموا بان الله يوجد كلها   المعقول والمسموع في الأديان
وهي الصلاة مع الزكاة مع الولا   والبر للآباء والولدان
والعدل والتوحيد والتصديق بالميعاد بالجنّات   والنيران
والصوم والحج الموكد والرضى   للناس ما يرضاه من انسان
أيجوز للاثنين فعل واحدٌ   في الحس أو في العقل والامكان ؟
أم هل يصوم وهل يصلي دونهم   ويحج معتمرا مع الركبان ؟

ويــبر والــده ويــرضــى والــداً ويــرق للأهــلــين والجــيــران
لم يبــق إلاّ المســح للخـفــينّ أو رفــع الــيــديــن وعــكــسهم لأذان
والحب للشيخــين والتقليــد والشــورى مع الــشــارات فـــي عثــمان

***

وهذه المنظومة الطويلة وان كانت من الكلام الموزون المقفّى ولكنها عنيت بموضوع علمي لم يخترع الانسان الشعر من أجله ؛ وخليق بالعلماء حتى وان كان البعض منهم يجيد صناعة الأوزان ، وحبك القوافي التي هي أخصّ خصائص « الشعر العربي » ـ ان لا يخوضوا في المواضيع العلمية الاّ نثراً ؛ فلا يعتسفــون وزنــاً ، ولا يتكلفون قافية ، ولا يربكون القرّاء والدارسين بالغموض والابهام الذي يضطرّ إليه المعتسف والمتكلّف .

غير أني أحمد الظروف التي دفعت هذا العالم الشاعر الزاهد المطرفي الى ان يتكلف وينظم هذه الطويلة لأنه قد سجل بها المسائل الكلامية والمشاكل الخلافية التي كانت مسارح جدل وميادين معارك بين علماء الزيدية خلال القـرنين الخامس والسادس الهجريين حين انقسموا الى فريقين « مخترعة » و « مطرفية » ذلك الصراع المرير الذي انتهى بالمأساة الدامية التي سنتحدث عنها عندما نتحدث عن الامام عبد الله ابن حمزة ان شاء الله .

وقد قدم لها المؤرخ « مسلّم اللحجي » بقوله : « ومن شعره قصيدة يذكر فيها فضل « الزيدية » بسناع وصحبته لهم ، واتصاله بهم ويذكر فيها قبح اعتقاد من صحبه قبل من « المخترعة » ويدل على عواره ويثني على بني شهاب في جوارهم » .

وبعد أن أوردها كما اثبتناها قال :

« وفي هذه القصيدة طول إلاّ أن من له رغبة في معرفة العدل والتوحيد وحقائق الدين يستقصرها لنشاطه في الله ، ورغبته في طلب الخير ، واقبال قلبه ، وتلذّذه بالعلوم ، ويودّ انها اكثر مما هي ، ويستخف منها ما يستثقل الجاهلون ، وفي ايرادي لها وجوه ؛ احداها الدلالة على فضل قائلها وعلمه بمذهبه الذي دخل فيه وقبله ، والمذهب الذي خرج منه ونافره ، وعلى ان التائب من الخطأ والخطيئة اذا لم يكن كذلك فهو لاعب لا تائب ! والثاني ان

فيها أخباراً باعتقاد الزيدية على الحقيقة واعتقاد المخترعة في ذلك الزمان ؛ فقد حدث من هؤلاء وهؤلاء الآن أقوام يقولون ببدع محدثة غير ما كان عليه أسلاف الفريقين . والثالث انه رحمه الله أوضح وبين رجوع المخترعة الى رأي العامة الحشوية ، وما بقي لهم الاّ تقديم أبي بكر وعمر والتقليد في ذلك والطلب بدم عثمان ، ومسح الخفين ، ورفع اليدين في الصلاة وتبديل الأذان كما يبدلون « حيّ على خير العمل » فيجعلون مكان الاذان بذلك « الصلاة خير من النوم » في اذان الصبح » . [لوحات ٢٣٤ ـ ٢٣٩] .

ولم يخبرنا مسلّم بتاريخ وفاة أبي السعود العنسي ولكنه قد أشار إلى انه من مشايخ زملائه فلعله توفّي في أواخر القرن الخامس الهجري .

ومما يلفت النظر أن أبا السعود العنسي قد استعمل ألفاظاً وعبارات لا تزال حتى يومنا شائعة الاستعمال في اللهجة العربية اليمنية كمد المقصور وقصر الممدود و« زعموا يجوز » بدلا عن « زعموا جواز » و « ام » ويريد بها « ال » التي هي آلة التعريف وهذا يؤكد ان الفصحى واللهجة الاقليمية قد تعايشا منذ القدم ؛ وقد نعود إلى هذا الموضوع إذا تحدثنا عن « الشعر الحميني » إن شاء الله .

٤ ـ القاضي شريح بن أسعد الشهابي
[حوالي ٥٠٠هـ]

أحد أقطاب المطرفية في العهد الصليحي وقد دارت بينه وبين الفقيه عبد الله البشاري مراجعات ومساجلات نثراً وشعراً ، ولم يترجم له ابن أبي الرجال لأنه « مطرفي » ولكنه ذكره عرضاً أولا وهو يتحدث عن القاضي شريح ابن المؤيد وثانياً في ترجمته للفقيه عبد الله البشاري وقال إنه كان من العباد ، ومنزله في « بيت سبطان » وله أدب وفصاحة وفقه وزهد معروف وكان لا يزال ينشد :

الدين صعبٌ عسر لحوقُه ... يهمه النذل ولا يطيقُه

وكان كثير الاشتغال بما كلف به معرضاً عما لا يُكلَّفُه ، قائلاً لآداب الله ومن كلامه : « إن الله لم يتعبدنا بالشيء ليزداد به ملكا ، وما يخاف لتركه في ملكه نقصاً ، وإنما طلب لنا النفع بذلك لا له ، ولم يكلفنا إلا على ما سهل

بنا ويخف علينا لتسلم أنفسنا من سرعة الهلكة ، ويتطاول لنا البقاء في الطاعة ، كي نصيب بذلك سعة الأجر وعظيم الفضل وهو يقول : ﴿**يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**﴾ ومن شعره في قصيدة قال ابن أبي الرجال إنها طويلة يذكر فيها اخوانه بسناع وأولها : ألما تبكِ للدار الخلية . ومنها :

أناس خير من ضمت يمان ... وأظهرهم وأطهرهم نقيّه
وأفضل بعد أهل البيت حالاً ... وانزههم عن الدنيا الدنيّه
ديارك من ورع وعلم ... وبذل ندى بواديها نديّه
ومن تنفيس مكضوم ، ونهض ... لمهضوم ، وصقل نهى عميّه

ومنها يحذر « الشهابيين » من « الصليحيين » :

وليس بقادر أبداً عليكم ... سوى خدع يحاولها خفيّه
فان مكنت خدائعه طلاكم ... يمكنها حداد المشرفيّه
وصارت أرضكم نُهبىَ وسيقت ... عقائلكم مذللةً سبيّه
أباحت دولة الأصلوح قهرا ... حمى ما بين صعدة والطريّه

وله من أخرى في ذكر اخوانه أيضاً :

ألا ليت شعري هل أُرى بين أحبابي ... أولي المجد والاحسان والحسب الرابي
ألا ليت شعري هل أُرى بين عصبة ... يُجلون هم المرهق الأَورقِ الكابي

ولعله تشرد خوفاً من الصليحيين الاسماعيليين و « المخترعة » ولم يذكر أحد سنة وفاته ولعلها في حدود عام ٥٠٠هـ قبل وفاة نده البشاري .

وابن أبي الرجال قد استخلص حديثه عن القاضي شريح ابن أسعد الشهابي من طبقات « مسلّم » وقد سبق أن أوردنا قصيدة أبي السعود ابن زيد البائية التي كتبها إلى شريح الشهابي وقلنا إنه كانت تربطهما عرى صداقة وود .

ومما ورد في ترجمته قول « مسلّم » « وشريح أحد شيوخ الزيدية السناعية الموقرين ، وعلمائها المقدمين وله أدب وفصاحة وشعر وفقه وورع وزهد معروف بين اخوانه » ثم قال : « وكان فيما بلغني حسن النظر لنفسه واخوانه ودينه يضع الأشياء في مواضعها لا يتكلف ما أسقطه الله عنه ولا يفرط فيما

ألزمه إياه ، مستقيم الطريقة مجتهداً فيما يجب فيه الاجتهاد » . وأورد على ذلك بعض الأمثلة والحكايات ثم قال : « ولشريح رحمه الله حظ صالح من الأدب ، وشعر جيد فمن ذلك قوله من قصيدة أولها : ألما تبك للدار الخليّه » يذكر أهل « سناع » ويحض « بني شهاب » على رعايتهم وأورد الأبيات التي سبق أن نقلناها عن « مطلع البدور » ولكن « مسلّم » أورد أبياتاً أخرى أهملها ابن أبي الرجال مثل قوله :

فحوطوهم بجهدكم تحاطوا ... فانهم الخيار من البريّة ؛
شهدت بأنهم من بعد آل النبي أصح أهل العصرنيّة
بهم تسقى بلادكم وتحمى ... من النقمات والدهيا الدهيّة
وهم لكم إلى الرحمان مرقى ... وطرق واضحات لا عميّة
بها أولاكم من ذاك عمدا ... والهمكم من السنن السويّة

وتحدث عن شيخ الزيدية في عصره مطرف بن شهاب فقال :

غداة أقام صدر بني شهاب ... « مطرف » صدر دين الفاطميّة
وشاد بها ذرى مجدٍ يفاع ... أناف على قديم اليعربيّة
وكانفه كماة بني شهاب ... ولاة الغزو والهمم الأبيّة
وأشياخ أفاضل قد تولّوا ... وكانوا كالكواكب في الدجيّة
فلاح بهم منار الحق عمدا ... وباح بهم حمى الفرق الغويّة
وباخ بهم أجيج الشافعيّه ... وساخ بهم خليج الناصبيّة
وسالت في بلاد الله منهم ... عيون السلسبيلات الحيية
عيون العلم باهرة المعاني ... شديدات القواعد والبنيّة
فكم أرض بروضهم أراضت ... فأهدت أطيب الريح الزكيّة
وكم متكمهٍ وافى إليهم ... فأضحت عين فكرته جليّة
وكم ذي غلةٍ نقعت صداه ... فوائدهم له تلك الهنية
إلى أن جلحت رسُمُ الرزايا ... على الرسم البليةٍ بالبليّة
وصدعت الحوادث ذات شعب ... لهم وطوتهم كلا لطيّة
فأنآ الكل منهم عن أخيه ... وزم لشحطه كل مطيّة
فلو أبصرت نادى علمهم في ... زمانهم ودارهم الخليّة
ومسجدهم ومعهدهم وحوضاً ... تهدّم بعد أعضادٍ قوية
ودوراً طاهرات كن أبهى ... وأبهج من بها الدرر المضيّة

تحف بها حدائق مغدقات بأنهار وأشجار جنية
فأضحت بعد جدّتها يباباً مدارج للصبا والشمأليّة
إذاً لبكيتهم وعذرتني في تسابق أدمعي درراً رويّة

***

قال « مسلّم » وفي هذه القصيدة أبيات نظر فيها للشهابيين بنور الله تعالى فلم يعملوا بها فاصابهم ما حذرهم من غدر الصليحيين فقتلوا كبارهم « ببيت بوس » ثم أورد الأبيات التي سبق نقلها عن « مطلع البدور » ثم قال : « وقال شريح يذكر مصير الزيدية إلى « وقش » ويتشوقهم ويثني عليهم :

ألا ليت شعري هل أرى بين أحبابي أولي المجد والأحسان والحسب الرابي ؟
ألا ليت شعري هل أرى بين عصبةٍ يجلّون هم المرهق الأورق الكابي ؟
بقيّة أشياخ تولّوا أكارم مساميح سادات مراجيح أنجاب
ومن أرشدوه من سراة سمادع على نهج أهل البيت للخير طلاب
أولئك قوم جنب « قيفان » دارهم مطهرة من كل رجس وتعياب
أناس لهم علم وحلم وعفةٌ وجدٌ وزندٌ في التقى ليس بالخابي
فياليت شعري هل أراهم ودارهم عسى أو لعل الله يذهب أوصابي
عسى أطعم الغمض اللذيذ وأرتوى نميراً وأسلو من سهادي وتلهابي
عسى أتلافى من بقية مدتي نجاة ليومٍ بالزلازل عبّاب

ومنها :

ولم لا وهم أقمار كل دجيّة يزيحون ليل الغي عن كل مرتاب ؟
وهم للغريب النازح الدار غاية وإن لم تصلهم منه عقدة أنساب
وهم علم من بعد آل محمدٍ إلى الهدي جاؤا للصلاح من الباب !
نباريس وضاحون آل شمائل مهذبة زهر نزاه عن العاب
صفت وحلت أخلاقهم فإذا دعوا إلى الروع كانوا كالليوث لدى الغاب
وناديهم نزه عن اللهو والخنا وعن زمر هماز وعن عضهِ مغتاب
بلوناهم ؛ أماهم فمسامح إذا كشرت سود السنين عن الناب

ومنها :

هم أهل علم باهر ورجاحةٍ فما ثمّ من مين ولا نبز ألقاب
قليل هم في الناس والفضل ضيقٌ طريقته عن كل وبشٍ ولعّاب
فيارب لطفاً منك بي وتحننا وروحاً مزيلا ما أراه قد اودى بي
وستراً جميلاً يوم ألقاك أنني إليك منيب تائب غير مرتاب

وقد اختتم مسلّم حديثه عن « شريح » بقوله : « وقد كنت أسمع بعض من أدركت من الزيدية يحكي عن « شريح » إنه كان يقول : « دخلت المجبرة الجبر من الباب ودخلت المخترعة من الكوة » !

ولم يذكر سنة ولادته ولا عام وفاته ولكن يظهر من ثنائه على « مطرف » وقبيلته بني شهاب وتحذيره من « الصليحيين » واشارته إلى تشرد « الزيدية » خوفاً منهم إنه ممن عاصر الملك علي محمد الصليحي [ت ٤٥٩] وانه عاش بعده مدة طويلة وحتى أواخر القرن الخامس وهي الفترة التي عاشها أبو السعود بن زيد ، وأبو السعود بن محمد فترة الفتن والفوضى والمؤامرات التي آذنت بالغزو الأيوبي وقيام العهد الرسولي .

ومن شعره في قصيدة رثى بها العلامة الحسن بن زايد الجنبي :

رمتنا صروف الدهر من كل جانبٍ ونابذتنا فعل العدو المحارب
رمين فما أشوين منا مقاتلا بنبل حداد ماضيات صوائب
فمنا دفين ملحدٌ وضريحه ممر لأذيال الصبا والجنائب
ومنا جريح ذو أنين مطرح لما فعلت فيه أكف النوائب
وآخر مفجوع الفؤاد مروعٌ على تلف رهنٌ لاحدى المعاطب
فحتام لا تبقى لحيّ بشاشةٌ وحتام لا تضحى سماء المصائب ؟
وحتام من رام البقا ليس خالداً وحتام من يمضي فليس بآيب ؟

ومنها :

أفي كل يوم فجعةٌ ورزيةٌ بأنفس اخلاص لدينا حبائب
هو الحسن الموصوف بالحسن التقى وبالطيب في أعراقه والمناسب
فتى مات محمود السجايا مهذباً طويل المدى مستجمعاً للمناقب
فما كان سبّاباً ولاذا نميمةٍ ولاذا اغترارٍ بالظنون الكواذب

ولا بغبيّ جاهل متفيهقٍ ولا جائر عن مهيع الرشد ثالب
ولكنه كان امرءاً ذا تكرمٍ وفكر ذكيٍ ثاقب في العواقب

٥ ـ أبو القاسم الربعي

ترجمه مسلّم اللحجي في طبقاته فقال : « أبو القاسم بن أحمد الربعيٍ أحد شيوخ الزيدية الأفاضل ، وذوي العلم والعبادة والورع وكان شاعراً فصيحا ؛ وآل الربعي من بيوتات العلم والشعر ببلاد همدان ، إلاّ إنه لم يقيد شيطان الشعر بقيد الخشية ، ويزم لسانه بزمام الورع ، ويفثأ حدة نشاطه المعترية للشعراء بخوف الله ، ويقمع وثبات الهوى الفارطة بهم عن حدود الله بمقمعة الذل لله أحدٌ منهم كأبي القاسم بن أحمد » ثم قال :

« قد كان ممن ينسب إلى آل الربعي عدة شعراء لا أدري ما قرابتهم إلى أبي القاسم رحمه الله صحبوا الصليحيين والشهاريين القاسميين ولهم فصاحة وأدب ظاهر اشتروا به ثمناً قليلاً ، وآثروا الفاني على الباقي منهم يحيى بن محمد الربعي وكان مداحاً لعلي محمد الصليحي يظهر في أشعاره صدق ضميره فيه ، وكان كأنه يرى رأيه ، وأشعاره في دواوين مدائح الصليحيين وأخبارهم وهي في طبقة جيدة لا تعاب ؛ ومنهم اسماعيل بن إبراهيم بن محمد الربعي ؛ وبلغني إنه كان أديباً لغوياً شاعراً وانه كان مؤدب بعض أولادهم ، وهو صاحب القصيدة التي نظم فيها الكثير من كتاب الخليل المعروف بكتاب العين وسماها قيد الأوابد في الغريب والتي أولها :

أجيبوا ياذوي التلخيص في الآداب من يسأل
عن العيهق والعوهق والعنجد ، والعيهل

ومفرّح بن أحمد الربعي القاضي الأديب الشاعر وأظنه أخاً لأبي القاسم بن أحمد وكانت صحبته للأشراف والرسيين بشهارة وهو مصنف سيرتهم وله فيها أشعار مما يستحسن ويستجاد . [ج ـ ٤ ـ لوحات : ٢٤٩ ـ ٢٥٠]

وكان مسلّم قد استطرد ذكر أبي القاسم الربعي وهو يتحدث عن الشعراء الذين رثوا الحسن بن زايد فقال :

ومن قصيدة لأبي القاسم الربعي يرثيه :

عفا الله عنك اليوم يابا محمدٍ وكافاك خيراً يا حليف المحامدِ
ويا مفزع الأخوان في كل ناجم ويا كهف ضيفٍ في دجى الليل وافدِ

ويـــا مصـلحـــا لله في كل وجهـةٍ بتـعليم اخــوان شريف الفـــوائـــد
ويـــا مفحم الخصم الألــد إذا أتى بقـــول لقـول الـطاهـرين معـانـدِ
بايـضـــاح حق واحـتجـــاجٍ مبـين لمعـتقـــد واهي القــواعــد فاســدِ
لك الخـــير ما انكى قلوبـــا تركتهـا بأرض شهـــابٍ يا كريـم المـــوالـــدِ
ولم يُخطِ شُوســـاً في أزال الـــذي جرى وصيـــداً سراةً من بكيـل وحـــاشـــدِ
وعـنـســـاً ومن بالمشرقـــين كليهـــا ومســـــور والأخـــوان من آل صايـــد

ولم يذكر سنة ولادته ولا سنة وفاته ولكنا نعلم من مرثاته المذكورة انه عاصر أبا السعود بن زيد في أواخر القرن الخامس .

٦ ـ عبد الله البشاري
[ت حوالي عام ٥١٥هـ]

الفقيه الأصـولي عبـد الله بن أبي القـاسم البشاري من علماء الزيدية المخترعة في عهد الملك علي بن محمد الصليحي وقد عاصر مطرف بن شهاب ونـاظـره وكان يرى اختراع الله للأعراض في الأجسام وقد ترجمه ابن أبي الرجال واثنى عليه وقال : « كان لسان الزيدية في وقته شحاكاً للمطرفية ، وله ولهم مقامات ورَدَ عليهم إلى وقش بعد ان لقى مطرف بن شهاب ؛ ثم ناظـرهم في وقش وتكلم مع مشايخ المطرفية في اختراع الأعراض من الله تعالى في الأجسام التي وجدت مقرونة بأعراض توصف بها وعندما سألهم ما يقـولـون في مثل ذلك ؟ قالوا : تغيّرت الأجسام واستحالت بقدرة الله ومشيئته ؛ فردّ عليهم ساخراً : « لا يستحيل إلاّ الثور »! وقد أراد ـ كما يقول ابن أبي الرجال ـ المعنى الذي يستعمله أهل اليمن في الدابة إذا أعيت فلم تبرح مكـانها إمـا من ضعف أو كبر في عمل أو نحو ذلك ، فيقال حينئذٍ استحالت » وقد روى مؤلف المطلع حكايةً تصور المدى السحيق الذي يبلغ بالمتعصبين ، حتى أن الطبيب يمتنع عن معالجة المريض إذا كان يخالفه في الرأي ولا يدين بعقيدته فقال : « دخل عبد الله بن أبي القاسم البشاري شبـام أيام سليمان بن عامـر الزواحي وبه جربٌ فماطله الطبيب عن الدوا لعلمه بمخالفته لهم في الاحالة والاستحالة ، ولم يرض أن يداويه حتى يقر بمذهبهم فترك التداوي وانصرف » .

وقد جرت بينه وبين العلامة المطرفي شريح بن أسعد الشهابي مراجعات

وله قصيدة أجاب بها شريحاً أولها :

أمـا والـذي أرجـوه لازلـت منكـرا ... على من بغى في الدين واغتاب وافترى
وحسبـي الهي منصفـاً لي وحـاكـما ... عليّ ولي ؛ في كل ما بيـنـنـا جرى

وهي طويلة منها :

الستم ترون الفضـل للفعـل لاحقاً ... جزاءاً لأهـل الفضـل في البيع والشرا
ونحن نرى التفضيـل للفعـل سابقا ... فقيـسـوا بمن شئتم عليـاً وجعفـرا

ولم يذكر ابن أبي الرجال سنة ميلاده أو عام وفاته لكنا نعلم ان السلطان سليمان بن عامر الزواحي كان أخاً للملكة السيدة بنت أحمد الصليحية من أمها وانه قتل في وقعة نشبت بين ثلا وكوكبان سنة ٥١١هـ وقد بدأت الدولة الصليحية في التدهور والتلاشي ولعل البشاري لم يعش طويلا بعد ذلك وإنه توفي في حدود سنة ٥١٥هـ . [مطلع جـ - ٣ - لوحة - ٦٢ -]

٧ - محمد بن حميد الزيدي
[حوالي ٥٢٠هـ]

الفقيه العالم الشاعر الذي أثار فتنة « الأراجيز » بين شعراء وفقهاء عصره لما عارض بارجوزةٍ له أرجوزة العلامة اسماعيل بن علا وجاراه في نقد مبادىء « المطرفية » فتصدى للرد عليه « أبو السعود التنعمي » كما ذكرنا في ترجمته .

وقد ترجمه ابن الحسين في « المستطاب » بايجاز فقال :

« محمد بن حميد العالم المشهور الذي قيل فيه لو صلحت الامامة في العامة لصلحت فيه ، وكان على مذهب « المطرفية » ثم رجع إلى مذهب « المخترعة » وله أرجوزة رد بها على « المطرفية » ولما وقف عليها أبو السعود المقدم ذكره من علماء المطرفية رد عليها بأرجوزة ، ثم لما وقف عليها ابن حميد هذا رفعها إلى سبأ ابن أحمد الصليحي فدس على أبي السعود من قتله ذكره في الفضائل والله اعلم » « المستطاب لوحة : ١١٥ » .

وأما المؤرخ ابن أبي الرجال الذي يناصب المطرفية العداء ويؤازر في مطلع بدوره أقوال « المخترعة » من الزيدية فقد بالغ في الثناء على العالم ابن حميد

فقال : « شحاك الملحدين ، وواحد الموحدين ، ولسان المتكلمين ، محمد بن حميد الزيدي رحمه الله : هو العالم الكبير ، والخضم الزاخر الغزير ، كان بحراً من البحار ، مطلعاً على العلوم ، مستقيم الطريقة مع اعوجاج أهل زمنه بالتطريف ، فكان شجى في حلوقهم ، وكانت له الغلبة ، فمازالت المطرفية تفتري عليه وتقلل كثير مدحه ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ، وأعظم ما قالوا فيه انه يُصدر في المجالس ، ويُقدم في الكلام ، وتعظمه السلاطين من الصليحيين وآل القُبيب وأنه كتب بخطه علوماً من علوم الأوائل » .

هكذا قال ولعله لم يورد أقوال ناقدي ابن حميد بوضوح وانهم قد قالوا إنه قد أعان السلاطين الظلمة وخالطهم وجاراهم ، وعمل لهم مع علمه بجورهم وذلك ما لا يقره أبرار الزيدية ، وليس أدل على صدق ما قالوه فيه من موقفه مع نظيره الزيدي المطرفي أبي السعود التنعمي فقد اغرى به السلطان سبأ بن أحمد الصليحي لما رد على أرجوزته ، وتآمر معه على اغتياله كما قال « ابن الحسين » في « المستطاب » !

ولقد حاول ابن أبي الرجال الدفاع عن العلامة ابن حميد متغاضياً عن اشتراكه في قتل « أبي السعود » فقال :

« وقد علمت ان الذي ذكروه من خلطة السلاطين له وجوه ، وربما وجب ذلك ، والمسألة مسألة خلاف بين العلماء رحمهم الله يعني مع عدم المقتضى فأجازها أقوام من العترة ، ومنعها « الرسيّون » عليهم السلام كما حقق ذلك الأمير الحسين في « المسائل » ، وأما مع ظهور المصلحة ورجاء النفع فيجب على العلماء ذلك ، والأعمال بالنيات » . والقاضي أحمد بن صالح ابن أبي الرجال على جلالة قدره وعظيم فضله انما يدافع بهذا عن نفسه فقد كان من أعيان دولة عصره في القرن الحادي عشر الهجري ؛ ويبقى علينا ان نتساءل : وهل من المصلحة ورجاء النفع اغراء السلطان بالعالم أو الشاعر إذا قال ما لا يرضاه السلطان لكي يدس عليه من يقتله ؟ سؤال كبير جدا !

ثم قال القاضي : « وأما ما كتبه بخطه فالذين عابوه به لم يعينوا أي شيء هو ، وقد زعموا أن مذهب البهشمية والجبّائيّة من علوم الفلاسفة ، وسطروا ذلك في أوراقهم »! ولا ندري من الذي عاب ابن حميد على كتابه المسائل الفلسفية بخطه ؟ هل هم المطرفية أم « المخترعة » من رجال الزيدية

وفقهائهم ؟!

وبعد ذلك قال : « ولمحمد بن حميد أرجوزة في ثلب التطريف فيها ذم رجال المطرفية ، وتكذيبهم في التقول عليه ، وكان من المتقولين الآفكين عليه رجلان بمدينة شبام جدلّيان متكلّمان يقال لأحدهما مبارك الدربان والآخر حسين السراج ، وكان منهم شيخ القوم محمد بن ابراهيم بن الهيثم فعرض ابن حميد بصاحبي شبام بقوله :

ومرجف يرجف في شبام يقول للأوباش والطغام
ابن حميد عندنا « إمامي » !

وضمن الأرجوزة قول المؤيد أبي نصر هبة الله بن موسى الرازي وكان على عهد المنتصر بالله :

يا قوم إنا منهمُ براءُ هم واليهود عندنا سواءُ

وعرض بابن أبي الهيثم وقد كان يومئذ نزل بمدَر من أعمال المشرق بعد خروجه من سناع وهو وجماعته وقبل عمارة « وَقَش » فقال :

ومرجف يرجف في سوق مدرْ ما بين ذيبان وما بين عذرْ
حجته مُخْلاته إذا افتخر !

ثم قال : « وهذه الأرجوزة فائقة ، وقد أجابها من المطرفية أبو السعود وهو بليغ في الغاية ، ثم قامت الزيدية - يقصد المخترعة منهم - بعد ذلك مجيبة على أبي السعود وتكلموا بما ينتصر به ابن حميد » ، وقد وهم ابن أبي الرجال فجعل اسماعيل بن علا ممن انتصر بأرجوزته لابن حميد مع ان ابن علا كان من شعراء الامام القاسم العياني المتوفى سنة ٣٩٣هـ وعاصر مطرف الشهابي ، وابن حميد كان من أعوان الداعي سبأ بن أحمد المتوفي عام ٤٩٢هـ وعاش وخالط سلاطين آل القُبيب في مطلع القرن السادس . إلا إذا كان يعني إبن علا آخر .

وبعد أن ساق أبياتا من أرجوزة اسماعيل بن علا قال عن ابن حميد « وكان انساناً كاملاً مطلعاً نبيهاً آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر متكلما على أعداء الله بالحجج النيرات ، واستقر آخر أمره بمشرق حاشد على العبادة والنسك

وكان يقال : لو صلح أحد للامامة من غير أبناء فاطمة الزهراء لصلح لها محمد بن حميد وكان ينشد كثيرا :

ولـلـفـتـى في نفسـه إذا عقـل شغـل بها عن غيرهـا إذا اشتغـل
في الاعتقاد والمعاش والعمل

ولم يذكر له ـ كزميله ابن الحسين ـ سنة ميلاد ولا وفاة ، ولكننا نعلم من مخالـطتـه سلاطين آل القبيب الذين انتهت سلطنتهم عام ٥٣٣هـ إنه قد عاش حتى عام ٥٢٠هـ أو قبل ذلك بقليل [مطلع لوحة ٣٥٣ ـ ج ٣] .

وقـد أورد له مسلّم اللحجي أبياتاً من قصيدة قال انه رثى بها الحسن بن زايد الجنبي وهي :

الآن جدتُ بدمـعـي المسـفـوح وثـوى الجـوى في قلبي المجـروح
لوفـاة أروع من ذؤابـة مذحـجٍ حلو المـذاقـة في الـوداد نصيـح
سمـح الـيـديـن بها له وبـنفسـه وبـديـنـه جعـد البنـان شحيـح
نزه الجـوارح أن يقـارب ريـبـة في الجـد والـتـلويـح والتصريـح

[ج ٤ ـ لوحة ٥٢ مسلم] .

٨ ـ مسلّم اللحجي شاعراً وكاتباً

سبق أن تحدثت بايجـاز عن مسلّم بن محمـد اللحجي المؤرخ وأكثرت النقولات عن كتابه « طبقات الزيدية » الذي وقع في يدي منه الجزء الرابع ومـا قالـه عن « المـطرفية » ونقله عنـه المؤرخـان العالمان يحيى بن الحسين بن القاسم وأحمد بن صالح بن أبي الرجال .

ومسلّم أديب مؤرخ حافظ وأظنــه أول من ألّف عن أعـلام الـزيدية وجعلهم طبقات ؛ واهتم بالتعريف بأهل مذهبه من « المطرفية » وفي كتابنا هذا بعض ذلك ولولاه لضاعت أخبارهم وانقرضت آثارهم .

ومسلّم كاتب مترسل وقد قال يحيى بن الحسين انه كان ممن يعد فقهياً وعلماً في درجة القاضـي جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، وانه كان جامعاً لفنون العلم لم يفته شيء » وله كتاب « الأترجة » في شعراء اليمن .

وفي كتابه الطبقات أورد شيئا من شعره ومن ذلك ما ورد وهو يتحدث عن الشيخ يونس بن محمد الأهنومي اذ قد قال : « وكنت قد رأيت يونس رحمه الله أيام قيام علي بن زيد بن المليح الحسني بدرب « يَرْسُم » من حقل صعدة في جماعة اقبلوا معه حين انصرف من غزوة السواد فأنكرت ذلك من يونس ؛ فانصرفت قافلاً إلى « شُطب » وأنشأت إليه أبياتاً منها :

ندمتُ على ما منه كانت ندامتي فقمت لشيء نحن عنه قعودُ
تلبّث يسيراً ريثما يبلغ المدى لترجع عن قرب وأنت حميد
توسطت بحراً لست تملك عبره ولا تستطيع العود حين تعود
فلا تحسب الدنيا مع الدين تقتني لئن رمت هذا انه لبعيد
وإنك إن يسلم لك الدين خالصاً على ما أرى يوما لأنت سعيد

ثم قال : « فلما بلغتني الأخبار عن البلاد والأحوال بها ظهر لي عذره وعلمت ان الضرورات تبيح المحظورات » [لوحة : ٣٢٧ ج ـ ٤ ـ] .

والشيخ مسلّم قد أكثر الحديث عن نفسه في مواضع شتى وبأسلوب فريد لا نجده أو القليل منه إلا نادراً في كتب المؤرخين وقد سجل لنا بتلك الأحاديث صوراً عن الحياة الاجتماعية في عصره النصف الأول من القرن الخامس الهجري ومن ذلك ما كتبه عن نشأته الأولى لما قال : « كنت حين خرجت من « المكتب » وفرغت من تعلم القرآن قد رمت المضيّ على طاعة الله فتعلمت الصلاة وأنا لم أدرك حينئذٍ فكان من توفيق الله لي في ولاية آل رسول الله ﷺ وحب الحق وأهله . أشياء ؛ أحدها ان أبي لم أعرفه إلا رجلاً كهلا يتولى آل سول الله ﷺ ويتعلق بمذهب الزيدية ، والثاني انه اتفق لي « مكتّب » ـ أي أستاذ ـ يدين بمثل ذلك . والثالث ان أبي أكتسب كتبا لم يكن فيها كتاب أقرب إلى الاستخراج من المتعلم وأسلس للقراءة لسهولة خطه من الجزء الأول من الاحكام من كتب الامام الهادي عليه السلام . والرابع هبة الصحة من الله سبحانه فاني لا أعرف منّى وأنا فيما بين السبع والعشر من السنين أو نحو ذلك التفكر فيما يزل عن الكهول التفكر فيه وذلك أوان فراغي من تعلم القرآن كما ذكرت أولا ، فكنت أحاول إيجاد شيء محسوس ثابت بالقدرة مني فلا أجده ولقد أتيت مرةً إلى بركة كان فيها ماء ثم فنى وبقى فيها طين رطب فأخذت منه قطعة ثم صورتها بصورة مختلفة وقلت

لنفسي قد أوجدت هذه فأجد شيئاً في نفسي يقول : لا انما وجود الطين من قبلك وجمعه هاهنا بالسيل ليس من صنعك ! فأعمد إلى الهواء لعلي اقبض منه على شيء فلا يمكنني ذلك ؛ ثم يقول القائل في من نفسي : ولو قبضت على شيءٍ منه لم يكن قد أوجدته لأن الايجاد لا من شيء ! ثم أثب في الهواء إلى فوق لعلي استقر فيه فلا يمكنني ذلك فأرجع إلى نفسي وقد اعترفت بان لا قدرة لها على ايجاد الأجسام ولا على الخروج عن عادة البشر فأتيقّن اني مصنوع وأن لي صانعاً يقدر على ما لم أقدر عليه ، وأجد في نفسي معرفة ما قدرت عليه وانه تغيير الطينة من صورة إلى صورة ، وان الطينة غير ذلك واني لا أقدر على شيء وانما هو الحركة ولا أدري باسم شيء من ذلك بل اتوهمه شيئا بخلاف التراب والهواء وخلافي ولا أدري انه يسمى عرضا فكانت هذه الاشياء وأمثالها تعرض في فكري » .

إلى أن قال : « وكنت فروقـةً من المـوت والنار فلا أسلو من همهما إلا بالتشاغل بالحديث واللعب مع لداتي والتغافل عن ذلك ؛ ثم انتقلت إلى قراءة دواوين الشعـراء وأخبـار النـاس وأيام العـرب وحـروبها نحو حرب البسـوس وحـرب هوازن ، وغـطفـان والأوس والخـزرج وطلب الانساب والتواريخ فلهوت بذلك حتى انساني ما نشأت عليه من طلب أمور الآخرة وعلوم الـدين إلا اني إذا افقت عاودت التـوبة ولزمت الصلاة وكنت كثير الشوق إلى قراءة الكتب من كل فن ؛ وكان والدي رحمه الله لي مسعدا فيما طلبت من المعونة على ذلك وايواء من يقرأ ويكتب إلى مسجده والصدقة على من يطلب ذلك منهم وقرى المستضيف ، وصحبة أهل العلم من أي فرقة وعلى أي مذهب كانوا ؛ وكنت بحاثاً سؤولا عبثا في الكلام مع كل مدعي مقالة مما أقبل وما لا أقبل » [لوحة رقم : ١٧٩ ـ ١٨٠] .

وهذا الوصف الذي لا تقعر به ولا تكلف لنشأته الأولى والبيئة التي عاش في محيطهـا ، وتحـديده بعمق للأسبـاب والمسببات من فطرةٍ ، ومكتب ، ومعلم ، وبيت ، وما كان يعانيه من حيرةٍ ورغبة في معرفة الحقيقة ، وشغفه بالقراءة والكتب والعلماء والسؤال والنقاش والانفتاح ومعاشرة كل طالب علم أو ذي مقالة مهما كان مذهبه ؛ ثم اعترافه بأنه كان يشرد ويلهو ويأتي من أمور الناس ما يأتيه أمثاله من شباب العلماء والشعراء وذوي الطموح ثم سرعة رجوعه وتوبته كل ذلك يدل على ان مسلّم اللحجي قد نشأ في بيئة سليمة

حر الفكر والارادة بعيداً عن أي تقوقع مذهبي ، أو تعصب طائفي وان ذلك الجو العلمي والديني السليم الصحيح الحر كان المحيط الذي يكتنف البلدة التي ولـد ونشأ بين أحضانها وأوجدت منه الأديب الناقد ، والعالم المتبحر والمؤرخ المجدد « الذي لا يفوته شيء » ولا ريب ان لوالده فضل عظيم في كل ذلك .

حديثه عن نفسه

وقـد تعـرض « مسلّم » للحـديث عن نفسه وبأسلوبه الفريد الذي لم نعهده من قبله عند أي مؤرخ يمني والذي يشبه ما توصل إليه المحدثون عنـدمـا يؤرخـون لأنفسهـم ويسمونه « السيرة الذاتية » تعرض لذلك وهو يترجم لأحد أساتذته الشيخ ابراهيم بن علي الضّامي ، والذي قال انه أدركه شيخاً كبيرا « سليم العقل والحواس وصحبه نحوا من ثمان سنين » وانه ولد سنة ٤٢٣هـ وتوفي عام ٥١٦هـ وقد كف بصره وجاوز التسعين .

وكـان قد قال عن مشايخه ومن عرفهم من علماء بلده في مطلع القرن الخامس ما يلي : « وسأحكي من عظيم ما منّ الله به على أهل بلادنا من جبـل « شطب » وما يليه من مغرب بلاد همدان خاصة ما يستدل به على فضل من أدركنا من الشيعة الزيدية ، وعلى انهم يكادون يكونون في مقامات أئمتهم عليهم السلام ، وأنا قد أدركنا منهم مشاهدة عيانا عندنا من هو كما قال الامـام القـاسم بنِ ابـراهيم « وانـه ليجب على المؤمن في أزمنـة دول الجبارين ان يكون حجةً لله قوية وأن تكون ساحته من معاونتهم على ظلمهم برية » .

ثم واصـل الحديث عن نشأته الأولى واتصاله بشيخه ابراهيم الضامي فقال : « وكان منزل هذا الشيخ ابراهيم بن علي رحمه الله منتحيا عن منزلي بقدر ما يمنعني بعده عن القصد له ، ولم أكن أعرفه بما يستحقه من القدر وانما أسمع من يدعوه « الشيعي » فقط ؛ فاذا غلب علي الهوى ، وما يغلب على الأحداث والمغرورين تشاغلت بالشعر والشعراء ، وأخبار المضحكين منهم ، وأهـل الفخـر والاعتـداد لا سيما بالقحـطانية لغلبة العصبية على العادة ؛ وإذا انتبهت تنبّهت إلى التوبة ، وتشوقت إلى علوم الدين فأذكر هذا الشيخ ، واذكـر هذه الهجرة بوقش حماها الله ومن بها على السماع الحسن

عنهم واهم بزيارته وقصد هذه الهجرة ؛ فيغلبني كسل الصبيان والأحداث وعجزهم . وكنت أرى هذا الشيخ رحمه الله في سوق البلد وربما يمر بوالدي في تطرقاته إلى المواضع ويطلب منه الحاجة ، ويمنعني من الصحبة له هيبته للسن والدين مع ما كنت فيه من البلدة التي لا آتي على صفتها من البعد عن الله تعالى وعن الخير وأهله » [لوحات : ١٧٧ ـ ١٧٩ ـ ١٨٠] .

نماذج من ترسله ونثره الفني

والشيخ مسلّم أنيق التعبير سلس الألفاظ دقيق الوصف ومن أمثلة ما برع فيه من وصف نشأته وبيئته وتطور نموه العلمي والاجتماعي ما سبق ايراده وقوله في وصف الجهال في بلدته والنواحي التي تحيط بها :

١ ـ « هي بخلاف سائر بلاد اليمن لأنها تجمع ما تفرق في غيرها من النقائض ؛ وذلك أن أهلها أبصر خلق الله بكسب دنيا وخصومة فيها ، ومكايدة عدوٍ عليها ، ولطف حيلة في استخراج شيء منها ، وشدة حرص ، وقوة منع لما يصيبون منها ، وافراط ايثار لها على الدين ؛ ثم صاروا الآن يؤثرونها على الحسب مع الدين ، وكانوا بخلاف ذلك ؛ اذ كان انما سكنت معهم على خصلتين : أداء الأمانة ، والتعفف عن أموال الناس فقط ؛ فهم لها يعملون ، وإياها يعيذون ، وعليها يتهارشون وفيها ومن أجلها يتوالون ويتعاونون . فهي غرضهم المقصود ، والههم المعبود ، إلا من عصم الله من الواحد بعد الواحد وقليلا ما يوجدون . لا سيما في زمان نشوئي وحداثتي ؛ فهم مع فطنتهم التي هي في أبعد غاية كما ذكرت أجهل خلق الله تعالى بما يقرأ ويكتب ، ولقد بلغني في الوقت القريب ان الأمر قد جمل كثيراً منذ أَمِنَتْ بها « الزيدية » » [لوحة : ١٨١] .

فأنت ترى كيف يسرد الجمل آخذة برقاب بعضها بلا تكلف ولا تقعر مع تحليل دقيق وسخرية لاذعة ويسترسل فيقول : « لقد كنت أراهم يمقتون من طلب العلم ويسخرون ممن رغب في الدين ، ويشتد عجبهم منه وتعجبهم ، ويطول هزؤهم به وعيبهم له ؛ وربما دخل بلدهم الغريب من أهل العلم والدين فلا يكون شيء أحب إليه من المبادرة بالخروج عنها ، والهرب منها ؛ وكانت فيها قرى وأسواق الغالب على أهلها التظاهر بالفسق والفجور وشرب الخمور ، والزمر والغنا من فوق سطوح الدور ، ورؤوس

الجبال بأغاني لهم هي أبعد شيءٍ مما يستحسنه اللاهون والملهون في الآفاق ؛ قد اختصوا بها لتكون كالشهادة على منافرة طباعهم لطباع الناس وباقي ذلك فيها ظاهر إلى الآن » [لوحة : ١٨٢] .

عاش معذبا في شبابه

وبعد أن ذكر انتشار المذهب الأباضي ، إلى ذلك الجهل بين العامة وما كان يعاني من خصومه مع رجال وناشئة البلدة وأحداثها وان كل ما كان يمنعه عنهم ويحفظه من إيذائهم انما هو احترامهم لوالده الذي كان ذا سعة ومال وكرم ثم احتقارهم لأمره وصغر سنه ثم قال :

« فلم يزل ذلك حتى ذهب ذلك القرن من شيوخهم ورجالهم . فلما أدركتُ كنت معذباً بأنواع العذاب من نفسي ومن خارج ؛ فأما من نفسي فلتجاذب الخواطر والآراء ، ومغالبة الهوى ، والتردد بين الجنة والنار ، وأما من خارج فلقلة الناصر على ما داخل النفس وكثرة أنصارها على العقل من جند الشيطان ، من شباب في سني يدعونني إلى سنة البلد في الضلالة عن الله ، وركوب ما حرم ، من شرب خمر ، وركوب فرج محرم ، ولا يمنعني من مساعدته الا التبغض بذكر الوعيد والحياء من الوالدين رحمهما الله ، والتجمل قبالة العدو والحاسد خوف الشماتة بالوالد ؛ وكم من كهلٍ ، وذي سن يدعونني إلى اعتقاد ضلاله ، وتقليد مقاله ، استنكرها على الجملة ، ولا أعرف فسادها على التفصيل ولا بالحجة ؛ منهم داعٍ إلى رأي الحشوية ، وآخر إلى دين الأباضية ، وثالث إلى مقالة الباطنية ، ورابعٌ إلى شواذ اغلاط طوائف من الزيدية فأقدم ثم احجم ، وأنطق ثم أجمجم ، وأثبت ثم انكص » [لوحة : ١٨٥] .

وهذا وصف بليغ لما عاناه مسلّم الشاب الذكي الألمعي ابن الرجل الصالح وتلميذ المعلم الصالح من عذاب واضطراب وهو في نفس الوقت وصف دقيق للحياة الفكرية المضطربة التي كانت تكتنف اليمن في القرن الخامس الهجري ؛ وهو أيضاً مثل جيد لجودة أسلوب مسلّم الكاتب ، وفصاحته وصفاء ذهنه ومقدرته البيانية وكل ذلك يزيدنا تطلعاً إلى التنقيب عن كتبه ومؤلفاته وآثاره نثراً وشعراً .

اتصاله بالشيخ ابراهيم الضامي

وبعد أن وصف « مسلّم » صدفة لقائه في بلدته « المنقطعة عن السالكين الصعبة على المتطرقين المنعزلة عن قرى اليمن الكبار وجوادّها المحجوجة للأسفار » برجل باطنيّ صوفيّ كان يرى رأي الشبل وأصحابه وكان قد نزل بالمسجد الذي يصلي ويدرس فيه وكيف تعرف به وانبهر بفصاحته وزهده وتعبده وسحر عبارته وما حصل بينهما من المودة وما كان يلقى عليه من دروس في الفلسفة ، وصنعة الكيمياء وما كان يحدثه به من روايات غريبة عن الأولياء وكرامات أقطاب التصوف ومسيرهم على الماء ، ووثوبهم في الهواء ، واختراقهم للأسوار ونحو ذلك قال انه تحير وشك وخامره أمر عظيم لكثره ما سمع منه من التمويه والتلبيس ، وغريب ما سمع منه في « الوجدانية » و « البساطة » ، والعقل ، والنفس والصانع وما حدثه به عن العلوم الثلاثة علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، وعلم « الأسماء كلها » والفلكيات ، والأركان ، و « علم ادريس » الذي هو المثلث الحكمة والنجامة والهندسة ، وانه قد انفعل وتأثر بكل تلك الدروس وداخله الشوق إلى العلم بصحة أقوال هذا الباطني المتصوف أو فسادها ولم يجد عند والده الخبر اليقين فأكثر من ملازمة هذا الأستاذ وانقطع إليه ، وقد أورد « مسلّم » ما أوجزناه بأسلوب شيق مع ضرب الأمثال الغريبة ثم ذكر ان الرجل الباطني استولى على مشاعره وسيطر على أعصابه حتى أنه كان يأخذه بالتحريض والتبكيت إذا غفل عن النظر فلا يجد مهرباً الا بالبكاء هلعاً واسفا ! ثم قال « وبلطف من الله رحل الرجل » ووجد نفسه في لجة من الحيرة فقرر زيارة الشيخ ابراهيم الضامي والتقى بالصالحين في مجلسه ففتح الله عليه وانقذه من تلك الشعوذات . ولا شك ان معارفه قد توسعت وان مداركه قد تفتحت بانقطاعه مدة إلى ذلك الصوفي وعلم ما لم يكن يعلم عن المسائل الفلسفية ، والفلك والطب والحساب والهندسة . [لوحة : ١٨٦ ـ ١٨٧] .

اتصاله بالشيخ أسعد العبيدي :

وفي مجلس الشيخ ابراهيم عرف الشيخ أسعد العبيدي قال : « فناطَ الله به رباطي حتى زرت في صحبته « وقش » وعرفت طائفة من الصالحين وكثيراً من بقايا شيوخ الزيدية الذين لا أعرف صفاتهم الا في الحواريين ، أو المهاجرين والأنصار وأعلام التابعين ، وانطلقت رجلي في زيارة الصالحين

وأنست إلى ذلك » ثم قال : « وكان أسعد على ما لم أحص من صفته ، ولم أوف من ذكر فضله حسنة من حسنات الشيخ ابراهيم وكل شيء كان من تشيع في هذه الديار عندنا يحمد عند الله وعند الناس ، ويجمل ذكره أو ترجى بركته فانما هو بسببه ومن أجله وبهمته وسعادته فأحسن الله جزاه وأكرم لديه مثواه » [لوحة : ١٨٩] .

لقد كان الشيخ مسلّم اللحجي عالماً متبحراً حر التفكير واسع الأفق ، وقد خدم طائفته والزيدية عموماً خدمة جليلة وكل من جاء بعده عالة عليه في معرفة ما يتعلق بالمسائل الكلامية والخلافات الأصولية والفقهية والكثير من أخبار وآثار وآداب اليمن في القرون الثلاثة الثالث والرابع والخامس للهجرة الشريفة .

٩ ـ محمد بن عبدوَيْه الكمراني
[٤٣٧ ـ ٥٢٥هـ]

الشيخ أبو عبد الله الفقيه التاجر ، الزاهد الورع العالم ، ترجمه ابن سمرة في طبقاته وقال إنه كان أحد أبناء التجار الذين يشتغلون بسفنهم في التجارة ما بين اليمن والهند وتفقه بالامام اسحاق الشيرازي في الأصول والمنطق وسكن عدن مدة ثم انتقل بأمواله وتجارته وكانت واسعة إلى زبيد وملوكها الحبشة يومئذٍ ، ولما غزا زبيد الأمير المفضل بن أبي البركات الصليحي في الوقعة الأولى سنة ٤٩٧هـ بالعسكر العرب انتهبت أمواله فرحل إلى « كمران » وسافر عبيده وجلا به إلى الحبشة ومكة والهند وعدن ثم اخلف الله عليه أموالاً كثيرة فكان ينفق على طلبة العلم ويكرمهم .

وقد ترجم له الشرجي وبامخرمة ، وصاحب النور السافر والجندي وكلهم يثنون على علمه وفضله ونزاهته وكرمه وعنايته بالتدريس وطلبة الفقه والمعرفة والانفاق عليهم بسخاء وانه كان كريم النفس يرتحل إليه الناس وكبار فقهاء اليمن لغزارة علمه وجودة اتقانه وفهمه ، وسماحته وكرمه .

وقال ابن سمرة « وكان كثير المال والزهد والورع متحرياً في المطعم ، ظاهر التقوى موالفا للمسلمين من كل أفق وله تصنيف مليح في أصول الفقه سماه « الارشاد » وكان له ولد عالم بعلم الأصول والكلام مع تبريزه في الفقه

يسمى عبد الله مات قبله في كمران سنة ٥٢٣هـ وأما الشيخ محمد فتوفي سنة ٥٢٥هـ وله ثمان وثمانون سنة وقبراهما هنالك تحت المسجد يزورهما الصالحون ، ويتبرك بقبريهما » ثم قال ابن سمرة انه لما سافر للحج سنة ٥٧٤هـ مرت سفينته بجزيرة كمران ذهاباً وايابا فتبرك بزيارة القبرين والمسجد ووجد له ذرية فقراء ولكنهم ذوو مروءة ودين .

وذكر انه ابتلى بالعمى فقال مخاطبا نفسه :

وقالوا : قد دهى عينيك سوء ... فلو عالجته بالقدحِ زالا !
فقلتُ : الرب مختبري بهذا ... فان أصبر أنل منه الجلالا ؛
وإن أجزع حرمت الأجر منه ... وكان خصيصتي منه الوبالا
واني صابرٌ راض شكورٌ ... ولستُ مغيراً ما قد أنالا
صنيع مليكنا حسنٌ جميلٌ ... وليس لصنعه شيء مثالا
وربي غير متصف بحيفٍ ... تعالى ربنا عن ذا .. تعالى
فصبراً معشر العميان صبراً ... فليس الأجر موعدكم محالا

***

وقد ذكر الجندي والشرجي وصاحب النور السافر حكاية هذا الفقيه العالم الكريم وكيف رد إليه بصره بعد ان استدعى الطبيب لعلاجه ، فلما قال الشعر المذكور رد الله إليه بصره بدون حاجة إلى الطبيب .

والأبيات وان لم تكن من الشعر الفني الذي لا يعتبر بعض النقاد والأدباء المحدثين شعراً سواه لكنه يصور احساس ذلك الشيخ الفقيه التاجر البحار الذي جمع بين الثروة والايمان الراسخ وحب الخير والذي ابتلى بانتهاب ثروته وتمزيق شمله من قبل الجنود الصليحيين لما اكتسحوا زبيد بقيادة المفضل ابن ابي البركات واضطر إلى النزوح الى « كمران » ، واشتغل وكد وبدأ من جديد حتى اخلف الله عليه الأموال الكثيرة ولا شك انه قد قاسى من الايذاء والكد والأسى ما سبب له العمىٍ لكن فطرته الخيرة ، وكرم نفسه ، لم يدفعاه إلى الكراهية والحقد بل ازداد محبة للناس ، وورعاً وخشوعاً . وهو لذلك كله يستحق اهتمامنا بشعره وذكر فضائله وفواضله ، ثم ها هو يتحدث عن « جمال العمى » وينادي « معشر العميان » بالرضى والاطمئنان والصبر قبل ان يكتب الدكتور المصري كتابه « جمال العمى » بحوالي ألف عام .

وأورد ابن سمرة قصيدة للشيخ ابن عبدوية في المناجاة منها :

ليتني متّ قبل ذنبي فاني ... كلما قلت قد قربت بعدتُ !
ليتني عندما عصيتك ربي ... لهواني على الرماد ذبحت !
ليتني عندما هممت بذنب ... بوقود الحصى حرقت ففت
يارحيم العباد طراً أجرني ... واغثني فقد هلكتُ . . هلكتُ !
يارحيم العباد إن لم تجرني ... فلنفسي إذن خسرت خسرت !

ولما عزّاه في ولده عبد الله تلميذه الفقيه عمر بن علي السلالي بقصيدته التي يقول فيها :

أمن بعد عبد الله نجل محمد ... يصون دموع العين من كان مسلما

قضى دينه وأكرمه بألف دينار . . وقد توفي بكمران سنة ٥٢٥هـ . كما قال ابن سمرة [طبقات : ١٤٤ - ١٤٧] .

١٠ - عمر بن علي السلالي
[ت ٥٥٠هـ]

فقيه أديب كان يشتغل بالتجارة كوكيل و « جلاّب » للفقيه العالم الورع محمد بن عبدويه الكمراني [ت ٥٢٥هـ] ولما توفي ابنه عبد الله رثاه الفقيه عمر بقصيدة طويلة أورد شطرا منها ابن سمرة في طبقاته ومنها :

أمن بعد عبد الله نجل محمدٍ ... يصون دموع العين من كان مسلما
وقد غاض بحر العلم مذ غاب شخصه ... ولكن بحر الوجد من بعده طما !
تضعضع بنيان العلوم لفقده ... وأصبح وجه الدرس أربد اقتما

ومنها يخاطب الشيخ بن عبدويه :

فيا أيها الشيخ الامام تصبّراً ... وإن كنت أهدى من سواك وأحلما
هو الدهر لا يبقى على حاله معا ؛ ... يدير على أهليه بؤسا وأنعما
فحينا تراه باسر الوجه عابسا ، ... وحينا تراه ضاحكا متبسما
وما أبقت الدنيا مطاعاً مسوداً ... ولا ملكا في السالفين مكرماً
فأين جديس ؟ أين طسم وجرهمُ ؟ ... ومن بعدها من ذا من القدر احتمى

قال ابن سمرة : « ويقال انه كان على الفقيه الفتى [عمر السلالي] ألف

دينار فقضاها عنه الشيخ ابن عبدوية » وقد استطرد ابن سمرة ذكر السلالي وهو يتحدث عن مكارم الشيخ الكمراني ولم يفرد له ترجمة ولا ذكر سنة وفاته لكنه قال وهو يتحدث عن الفقيه أحمد بن عمر بن علي السلالي انه ولد سنة ٥٤٠هـ وهذا يعني ان والده عمر عاش إلى ما بعد ٥٥٠هـ [طبقات ابن سمرة ١٤٨ ـ ١٤٩ ـ ٢١٧] .

١١ ـ محمد بن طاهر الحارثي
[ت ٥٨٤هـ]

هو الشيخ « المأذون » الاسماعيلي ، كان من أكبر أعوان الداعي ابراهيم بن الحسين الحامدي المتوفي سنة ٥٥٧هـ وله عدّة كتب ورسائل منها « حقائق الألباب » و« الرسالة الحاتمية » وكتاب « مجموع التربية » يقول الدكتور الهمداني انه أورد فيه مقالاته ورسائله وبحوثه ، ورسائل بعض علماء الاسماعيلية ، ومقتبسات من كتبهم ، وله في مدح الشيخ علي بن حسين القرشي قصيدة جاء فيها :

أبا حسن انقذت بالعلم أنفساً ... وأمنتها من طارق الحدثان
وجوزيت بالحسنى ، وكوفيت بالمنى ، ... ودمت سعيداً في أعزّ مكان
عمرت بصنعا دعوة « طيبيّة » ... جعلت لها أساً ، وشدت مباني

***

وتوفى سنة ٥٨٤هـ وكتبه وآثاره في « المكتبة المحمدية الهمدانية » كما يقول الدكتور الهمداني [الصليحيون ص ٢٦٦ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٢ ـ ٣٥٣] .

١٢ ـ علي بن سالم العَبِيدي
[٥٨٠هـ]

العالم الزّاهد الشاعر الكاتب ؛ علي بن سالم بن غياث العَبيدي تعرض لذكره المؤرخ ابن أبي الرجال في الجزء الثاني من مطلع البدور وهو يتحدّث عن « العليف » وعن « الزيدية » ومن مال إلى تفضيل أئمتها من فقهاء وعلماء الشافعية ، وقال انه « كان فاضلاً عالماً غلب عليه الصلاح وأدركه اليُمن والفلاح » ، ولم يذكر سنة ولادته ولا عام وفاته ، ولكنه قال : « ويقال

ان موته آخر المائة السّادسة » ، ثم ذكر انه لمّا شاع ميله إلى مذهب العترة ، كاتبــه أهـل الأمصـار ، وممن كاتبـه قاضـي مكـة ، القـاضـي الأحنف مستغرباً ، وناصحاً له بأن يعتنق احدى المذاهب الثلاثة المشهورة : المذهب الشافعي ، أو الحنفي ، أو المالكي ، لأنها هي المثلى وما سواها بدعة ! ، وأجاب عليه الشيخ العبيدي بجواب طويل ، دبّجه بالشعر الحسن ، وهو كتاب يدلّ على علوّ قدره ، وسعة معارفه ، وتبحّره وسعة أفقه ، ولأن مطلع البدور هو الكتاب الذي تفرّدَ حين أشار الى هذه الرسالة ، واثبتها مع أصلها فيما أعلم ؛ ولأن الكتاب لا يزال مخطوطا ونادر الوجود ، فقد رأيت اثبات الـرسالتين لتعمّ الفائدة ؛ وهُما يضربان المثل الكامل للمناقشة العلمية ، والحـوار السليم ، الـذي يتبعـه أهل الانصاف ، والمجتهدون في النصح والارشاد ، ودونها لدَدٍ أو ملاحاة ، أو مهاترة أو مداجاة .

يقول ابن ابي الرجال : « ولما شاع رجوعه الى مذهب العترة كاتَبَهُ أهل الامصار ، وممن كاتبه قاضـي مكّة ؛ القاضـي الأحنف وهذه صورة كتابه :

سلامٌ على تلك الخـلائـق إنها ... هي الثمـرات الـطيبات إذا تُجْنَى ؛
ولا فض صرف الدهر حرف فِنائها ، ... ولا صحبت إلّا السعـادة واليُمنَـا

خصّ الله تعالى حضرة القاضـي الأجل وحرس عليه دين الاسلام حراسة كتابه العزيز من النقص والمزيد ، تنزيل من حكيم حميد ، وختم لنا وله بالخير في عفـوٍ وعـافية . ولقـد انتهى الينا أنّه سيّد البلاد عندهم ، وأنّه عالمها ، وأنه متبوعٌ غير تابع ، وإذا كان كذلك فالواجب عليه أن يكون على السّنة البيضاء ، والطريقة المثلى ، إما شافعي ، وإما حنفي ، وإما مالكي ! فانهم أئمة الهدى ، ومصابيح الدجى ، ولا يلتفت الى من يزخرف له القول في العلم ، فان العلم هو الأخذ بالكتاب والسنة والاجماع من الأمّة والقياس الجليّ ، و « الزيدية » لا يقولون بأخبار الآحاد من السنة وقد اجتمع على الأخذ بها الشافعي وأبو حنيفة وعلماء السنة ، وقد قال لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه في الجنة : « لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك من حمر النعم تنحـرها في سبيل الله تعالى » ؛ فان شككت في شيء سترته عليك كاتبتنا وكاشفتنا ؛ فوالله ما نكره أن تنتفع وينتفع بك المسلمون والسلام » .

ولعلّ الشيخ ابن الغياث العَبيدي قد استشفّ من لهجة الخطاب ان « قاضي مكة » قد زُوِّدَ بمعلومات خاطئة عن الفِقْه الزيدي أصولاً وفروعاً ، كما أنه أيضاً قد اعرض عن ذكر مذهب الامام أحمد بن حنبل وهو مذهب الفحول من علماء الاسلام الذين لا يُغْرقون في تقليد آراء فقهائهم . ولذلك فقد سلك في جوابه على القاضي لاَ منهج الدفاع عن « المذهب الزيدي » فحسب ، بل ولفت نظره الى ما بين المذاهب الثلاثة من تناقض ؛ وأثار له مسائل لا يهتدي اليها الّا العلماء الفطاحل ، والمجتهدون الأماثل ، مع أدب جمّ واشادة وإطراء وحسن ثناء ؛ والرسالة واسلوبها الأدبي تدلّ على ان القاضي العَبيدي كان ذا ملكة بيانية ، وقدرة انشائية ، شعراً ونثرا ، تجعلانه في صفّ كبار أدباء القرن السادس الهجري .

ولا شك ان شخصاً مثله يهتم به علماء العالم الاسلامي فيراسلونه ويهابون ترجيحه لمذهب على آخر كان قد ذاع صيته وذهب في الآفاق ، وان له رسائل وآثاراً علمية وأدبيّة ، قضى عليها الزمن بفتنة ، وصراعات الخلاف مذهبياً وطائفيا وقبلياً بين طبقاته .

وهذا نص جواب القاضي العَبِيدي ، على القاضي الأحنف وقد استهله بقصيدة فقال :

دعوتَ مُلبيّاً ؛ يا خيرَ داعي ... وأسمعت النصيحةَ أذن واعي
وأودعتَ الأمانة قلب من لا ... يُفارق دينه لِهوىً مطاع !
يرى تفضيل أهل البيت فرضاً ... كتفضيل العيان على السَّماع ؛
فيالك منّة يعلو سناها ... اذا ادُّكِرتْ سنى الشكر المذاع ،
أتتْ في رقعةٍ وردت بها عن ... لسانٍ معرب ، ويَدٍ صناع ،
تقهقر عن بلوغ بديع سامي ... بلاغتها « عديُّ بن الرقاع »
ولا عجب ؛ لأنك فذّ عصرٍ ... يشير بذا إليه بلا دفاع
وانك عند مختلف المعاني ... تمدّ الى البيان أتمّ باع
سعَيِ ـ وسعيتَ ـ غيرك للمعالي ... ففزتَ بها ، وقصّر كل ساعي
وقمتَ بحرمة الاسلام نصحاً ... وتهذيباً لمرعيٍّ وراعي ،
وما ميمون نصحك حين وافى ... بمطّرح لديَّ ، ولا مضاع ،
وقل فيه : هديّة ذي ودادٍ ... أتتك بما تريد وما تراعي

ولكنّي رأيت مقال ما قد أشرتَ به شديد الامتناع !
وكيف يصحّ تقليدي أناساً وبينهم التنازع والتداعي ؟!
وهذا يدّعي تغليط هذا ، وابطال المواقف والمساعي !
وفي تحليل ذا تحريم هذا وكلّ يدّعي ، وإليه داعي !
فارشادي إلى طرق ثلاثٍ يشق على التطبّع والطباع
فان قلدت بعضهم اعتقادي فصاحبه لصرعته مراعي ؛
وإن قلدتُ كلهم فهذا لعمر ابيك ليس بمستطاع ؛
وإن قلنا : جميعهم مصيبٌ ولم يرضوا ؛ فذا فعل الرعاع !
فان كان الخلاف لهم مباحاً ؛ تكايلنا به صاعاً بصاع ؛
ولم يثبت طريق الدين نقلاً ولا عقلاً ؛ ولكن بالصراع
وهذا لا يقول به تقيّ يعفّ عن اختراع وابتداع
أبن لي كيف اصنع في اعتقادي وفي عملي رعاك عليه راعي !؟
فوجه الحقّ لا يخفى على من يعفّ ولا يميل الى الخداع
وقد قال النبيّ ؛ وكل قولٍ سوى ما قاله : آلٌ بقاع ؛
ستفترق الجماعة قال نيفاً على السبعين في الخبر المشاع
فتنجو فرقة وعلى سواها العذاب ، كعبد ودٍّ ، أو سواع
أبن لي يا فقيه العصر قولاً يصحّ به اعتقادي وانتفاعي ،
من الهاوين آل محمد أم من الناجين في الغرف الرفاع ؟
فاني لم أقلدّ غيرهم في الحديث فاصغ سمعك لاستماعي
هم الأعلون ، والزّاري عليهم إذا أنصفت من سقط المتاع !
وهم سفن النجاة لمبتغيها وأهل الفضل والشرف الوساع
اذا افتخروا علوْا ودَنا سواهم ، فبات الفخر في أعلا البقاع
وحسبك منصباً لهم عليّ وأحمد خير مبعوثٍ وداعي
روى عنهم ثقاة كان منهم شيوخ كالكواكب في الشعاع
يراعون المهيمن حين يُرْوَى الحديث ، ورب راوٍ لا يراعي
فلا تسمع فديتك قول قومٍ لهم شيم البهائم والسباع
يقولون المحال بلا دليلٍ ، ويأتون الضلال بلا ارتداع ،
فما الليل البهيم كنور صبح ينير ، ولا الكراع الى الذراع !
وأما ما ذكرت من التداني إلى بعض الجهات أو البقاع
فاسأل خالقَ الثقلين مَنّاً على عجل بقرب واجتماع !

ويـشـفـي غلّةً ، ويــريــح مِنّــا رُؤوســاً قد سئمن من الصّــداع ،
وينـقـطع التنــازع والتــداعي ، وتـتّـضـح المســالــك والمســاعي

وصلت النصيحة ، المفيدة الصحيحة ، الدالة لذي القلب السليم الى السراط المستقيم ، المنبهة لطالب السلامة ، على ما فيه النجاة يوم القيامة ، مع ما أصحبها ـ أدام الله سلامتـه من شريف سلامـه ، ولـطيف تفقّده وإلمامه ، على غيرِ معرفة سابقة ، ولا تعرض ليدٍ لاحقة ، بل ابتداءاً منه وتفضلا ، وامتناناً وتطوّلا ،

كالمســك دلّ بعرفــه وذكــيّ نـفـحـتــه عليــه
والـروض حيــن دعــا الــعــيــون بحــســن نضرتــه اليــه !

ولهــذا استُــدِلّ بحسن الأخــلاق ، على طيب الأعـراق ، ومهـذب المذاهب ، على شرف المناصب ، فالله سبحانه وتعالى يخص نفسه النفيسة ، وعقـوتـه الانيسة ، بسلام تام ، واكرام عام ، ويُحسن عن مملوكه جزاه ، ويتولّ كُفَاهْ ، سالكاً بذلك مسلك الاحتساب ، وكاشفا به كما ذكر الشك من الارتياب ، إذ أمر مملوك انعامه بالتزام السنة البيضاء ، والطريقة المثلى ، إمـا شافعياً ، وإمـا مالكيّاً ، وإمـا حنفيا ، وحكى عن هؤلاء انهم أئمـة الهدى ، ومصابيح الدجى ، وقد علم الله ان مملوك انعامه قد شكر له شكراً جزيلا ، وأثنى عليه ثناءً عريضاً طويلا :

وكيف لا ويــد الاحســان موجبة للشكــر لا سيـما إن لم يكن سببُ
وقــد مننت ابتــداءً بالكتــاب ولم ترد إليــك لنــا رســل ولا كتبُ !
أنت المهذب في العلم الذي شهدت بفضله العجم في ذا العصر والعرب

إلا أن مملوك انعامه تأمل مقالته تأمل مجتهد لا منتقد ، واستعرضها ، استعراض قابل لا مقابل ، ونظر فيها نظرة ناظر لا مناظر ، فنظر ان الطرق الثلاث التي بتصويبها أفتى ، تشتمل على طرق شتى ، أما الشافعي وهو درة تاجهم ، ومصباح منهاجهم ، فلم يخف على حضرته اختلاف الأشعري والحنبلي في أصول الدين ، وهما من عِلْية أصحابه المجتهدين ، حتى سمى كل واحدٍ منهم اعتقاد صاحبه ضلالة ، يدل على ذلك قول بعض الحنبليّة في الأشعرية :

يا أشعــريــة يا زنــاديق الــورى يا راس كل منــافــق شيــطان !

وللشافعي أقوال ينقض بعضها بعضا ، وأما أبو حنيفة ومالك فلهما مثل ما له ، اذ المنازعة بينهم قائمه ، والى يوم القيامة دائمة ، وصحة مثل هذا ممتنعة ، والطريق اليه منقطعة ، وقد أمر الله بالتعاون والأيتلاف ، ونهى عن التفرق والاختلاف ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**﴾ . واتفاق الافعال ، لا يصح مع اختلاف الأقوال ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿**ألا لله الدينُ الخالص**﴾ ، والخالص ما لا اختلاف فيه ، وأخبر جل وعلا ان الخلاف صفة ناقصة فقال : ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيرا**﴾ وإذا لم يجز الخلاف في الكتاب لم يجز في السنة ، إذ عنه صدرت ، وبغوامضه خبّرت ، وفصل الخطاب في حصر الاختلاف ، والحضّ على الأيتلاف قوله تعالى : ﴿**وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتّبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿**ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء**﴾ ، ! فوقف مملوك انعامه وقوف متحير ، إذ عن الخلاف نهاني ، واليه دعاني ، وبالوفاق أمرني ، وعن أصله وأهله أصدرني :

أترك آل النبي عمداً | وابتغي سائر الرواتِ ؟
كطالب الريّ من قليب | وعنده زاخر الفرات !
أو يبتغي التمر من اراك | وعنده النخل باسقات !
لم يحظ آل النبي إلاّ | بالقتل والسَّبي والشتات !
وقد دعوا بعدهم إماماً | كل ظلوم ، وكل عاتي ؛
وكل من قد أجاز عمداً | كشف ستور المحرّمات
فليت شعري إذا استجابوا | للحشر من منزل الرفات
ما عذرهم عند جدّهم في | قتل بنيه وفي التّرات
يا ربنا احكم فأنت أدرى | بكل ماض وكلّ آتي

والعجب من تسمية من نقل عن أهل البيت القول مُزَخْرفا ، وحكى ان « الزيدية » لا نصيب لهم في العلم ، ولا يد لهم في فصل الحكم ، وأي نصيب أشرف من نصيبهم ؟ وهل يوجد للخير سبب أبلغ من سببهم ، وقد أمر الله سبحانه بتشريف أئمتهم وسؤالهم فقال عزّ من قائل كريم ، ﴿**فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون**﴾ فلما أمر بسؤالهم ، دل على الاقتداء بأفعالهم وأقوالهم ، ولعل قائلاً يقول : إن أهل الذكر المأمور

بسؤالهم هم أهل الكتاب ، ويحتج بقوله تعالى : **﴿فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك﴾** وهذا لا يصح ؛ لأنه لو صح وجب السؤال عن جميع العبادات ، وهذا ابطال لنبوته عليه الصلاة والسلام ، وإبطال للقرآن المجيد ، وتكذيب للمعجزات ، وهو الكفر الصراح . وليس أدام الله علوه لحقّهم بجاهل ، ولا عنه بمتجاهل ، ولكن لأمرٍ ما جدع قصير أنفه ! هذا مع ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد دل على ان الحق معهم بقوله : « خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا الى يوم القيامة كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين » ! وهو أدام الله علوّه بهذا القول أدرى ، وبالعمل به أولى وأحرى ، وكل هذا دليل قاطع على ان الخلاف والاختلاف لا يجوز لا عقلاً ولا نقلا ؛ أما النقل فلما تقدّم من الادلة ، وأما العقل فمعلوم ان كل ذي عقل لبيب اذا رأى شخصين مختلفين في قول أو فعل لا يقضي لكليهما بالصواب ؛ مثال ذلك ان يمر رجلان بمجلس سلطان ؛ فيقول أحدهما : رأيت زيداً كساه السلطان يوم الجمعة عند طلوع الشمس حُلّة ، ويقول الآخر : بل صلَبه في ذلك اليوم والوقت بعينه ؛ أفيجوز أن يصّدقا على زيد أو على السلطان ؟ فان قيل : كل مجتهد مصيب ؛ قلنا : هذا حديث نتلقاه بالقبول ؛ انّ كل مجتهد بالصواب مصيب ، ولا يخرج عن أحد أمرين إما يعلم الحق فيجتهد في العمل به ، وإما أن يجهل الحق فيجتهد في طلبه ، واما الاجتهاد فيما يخالف الكتاب والسنة واجماع الأمة فلا يسمى صوابا ، بل خطأ محض .

وأما ما دعا اليه من المشافهة للمحادثة والمباحثة لترتفع الشكوك ويتبيّن النهج المسلوك فأقول :

أشهى المنى عند ذي أوام ... ورود ماء بلا زحام ،
وصحبة الطيّبين أطرى ... من لذة الماء والطعام ،
وكيف لي أن أراك يوماً ... في مجلس ثابت النظام
بين رجالٍ لهم حلومٌ .. ... أرجح من ذروتيْ شمام
لا يعرفون المراء إن هم ... قالوا ، ولا الهجْن في الكلام ؛
شعارهم حبّ آل طه .. ... عليهمُ أفضل السلام
ويحفظون الحقوق فيهم ... وفي سواهم من الأنام
وسوحهم للوفود رحبٌ ... وهذه عادة الكرام
وماهم بعد كل هذا ... في هذه الدار من مُسامي !

فان تفضّل حضرة الفقيه الأجل ، سامي القدر والمحل ، لافتقاد الدين ، واصلاح الاسلام والمسلمين ؛ فالدين واحد ، والسبيل قاصد ، والحق واضح لمن طلبه ، والكبر فاضحٌ لمن صحبه ، ومملوك إنعامه أَتْبَعُ للحق اذا رآه من الظل ، وأطوع لأهله من النعل ، وبعد ذلك إن لم يكن اجماع ، ولم يتفق عليه اجتماع ، فقد وجبت النصيحة له كما وجبت عليه ، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « المسلم مرآة أخيه المسلم » ، وهو أدام الله علوه ممن كبر في هذه الدار اسمه ، وكثر في الأتباع والاتساع قسمه ، وهذه غاية حسنة ، وسنة مستحسنة ، لانه يعلم ان الأتباع خصماء المتبوع يوم القيامة فان نظر إنعام النظر في التماس السلامة ، وركوب سفينة النجاة ، أنـزل أهل البيت منزلتهم التي أنـزلهم الله بها ، والاعتراف بحقهم ، والتمسك بحبلهم ، وكان من أتباعهم وأشياعهم ، وممن حفظ حقوقهم ، ويجتنب عقوقهم ، فلعل في ذلك فوز الحظّ نفسه ، وانتفاعاً بعلمه ودرسه ، ولعلّي لا أخلص كما قيل من غمر جاهل ، وذي عمى متجاهل ، سلك في هذا القول مسلك المقايضة ، وسبكه في قالب المفاوضة ، ولله در القائل :

محضتك نصحي إن قبلت فنفعه اليك ، وإن تكره فأنت المخيّر

فان قبلت النصيحة ، فالله يعلم انها صحيحة ، وان كانت الأخرى ، فكلّ بما عنده أدرى ؛ قيل لسقراط : « الكلام الذي كلّمت به أهل المدينة لم يقبلوه ؛ قال : ليس ذلك يضرني ، انما يضرني اذا كان خطأً » والسلام » .

هذا ما أورده ابن ابي الرجال في الجزء الثاني من مطلع البدور [لوحات ١٠٧ إلى ١١٥] ، وقد كان الفقيه العبيدي بارعاً لطيفاً وتدرّج تدرجاً بيانياً ، حتى أصبح هو الناصح للقاضي الأحنف دونما لجج ولا مماحكة أو مراء ، وهو أسلوب لا يجيده إلّا الألباء والأذكياء .

ولأن ابن ابي الرجال قال ان وفاته في آخر المائة السادسة افترضت له عام وفاة وقلت إنها حوالي سنة ٥٨٠هـ وحشرته بين شعراء وفقهاء وعلماء الفترة التي أتحدث عنها ، ولو عرفنا الفترة التاريخية التي كان فيها « الأحنف » قاضياً لمكة المكرّمة لحددنا تاريخ المراسلة بين الفقيهين العالمين ، ولكني لا أعرف شيئاً عن ذلك القاضي وليس في متناول يدي الآن أيّ مصدر يمكن

الرجوع اليه للبحث والتنقيب فاذا ظهر فيها بعد ان عهده متأخّر عن الفترة التي نؤرخ لها فهذا عذري ، على اني حين رجعت الى « المستطاب » الذي أرخ فيه العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم لأعلام الزيدية وجدته قد ذكر « الفقيه العبيدي » بايجاز ولم يثبت حتى اسمه كاملاً بل قال : « الفقيه العلامة العبيدي اليمني كان هذا المذكور أولاً شافعياً ثم انتقل الى مذهب الهدوية ولما بلغ ذلك القاضي الأحنف قاضي مكة المشرفة كتب الى المذكور كتاباً » ثم أورد كتاب « الأحنف » وذكر ان العبيدي أجاب عليه برسالة ولم يورد نصها كاملة بل أورد منها بضعة أسطر ، ولم يؤرخ لميلاده ولا وفاته ، ولأنه ذكره بين من ترجم لهم من رجال أواخر القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن الهجري فقد تشككت في أن يكون من أعلام فترتنا التي نتحدث عنها . وعلى كل حال فان رسالته شعراً ونثرا خليقة بالاهتمام فالى جانب تصويرها لناحية من نواحي النشاط الفكري والحياة الثقافية ، والارتباط الأدبي بين فقهاء وعلماء المسلمين واهتماماتهم الدينية والمذهبية في القرنين السابع والثامن فانها أيضاً تمثل الأسلوب الأدبي والبياني الذي كان ينتهجه الاعلام منهم .

١٣ ـ عبد الله الخولاني

العلامة عبد الله بن غانم الخولاني الزيدي كان أديباً شاعراً من فقهاء القرن السادس الهجري ومن شعره :

ما صيّر الحبّ سلطاناً على جلدي ... حتى غسلت من الصبر الجميل يدي
قد جلّ ما بي فجل العذل عن أذني ، ... ورقّ صبري فراق الحزن في خلدي
وأعين البيض بيض غير مغمدةٍ ... سود من السحر نفاثات في العقدِ
القت على القلب ثقل الهجر تاركة ... ضعف الجفون ، وضعف الخصر في جسدي
إن بتّ في عمر من بعدها خلق ... فالقلب في حرق من بعدها جددِ
لا ترثَ للعين إن جادت بعبرتها ... فالعين لولا أليم البين لم تجدِ

[مطلع : ج ٣ ـ لوحة ـ ٥٣ ـ]

شعر المعاياة الفقهية

وشاع في أواخر القرن الخامس نوع من النظم في الألغاز ومعاياة الفقه وقد أشار إلى ذلك العلامة مسلّم اللحجي في طبقاته وهو يتحدث عن ثعلب

بن أحمد القاعي وقال انه كان مشهورا في عصره بشيء من العلم وممن له دين ظاهر ويسأل ويُسأل ثم قال : « ورأيت مسائل في معاياة الفقه بين رجال أهل ذلك الزمان بالبون والمعروف منها ما هو منظوم في أبيات جيدة ومنها فيما يستضعف فمن أولئك من أهل البون ثعلب ابن أحمد ، ومحمد بن الحسين بن أبي حذيفة وكان يتهم برأي الباطنية » ومن أهل هذه المسائل عامر بن عبد الله الظليمي وكان أباضي الرأي ثم صار إلى رأي الزيدية ، ثم صار إلى رأي الباطنية وقد وثب عليه قومه فقتلوه وأخذ بثأره علي محمد الصليحي . ومن أهل هذه المسائل محمد بن عبد الله المدري الحميري الشاعر وكان يرى رأي العامة وهو من أقران الشقاري الشاعر الذي كان يهجو الصليحي وهو في « مسار » ودارت بينهما نقائض شعرية فيها ما هو ضعيف الطبقة ردىء اللغة وفيها الجيد ، ولما تملك الصليحي قتله » .

ثم قال : « وكان من أهل هذه المسائل اسماعيل بن أحمد والحسن ابن معاوية ، ومحمد بن عدوة ، وهي مسائل قد دونت عند أهل البلاد في كتب ومثال ذلك قول اسماعيل بن أحمد :

ثلاثة أخوةٍ لأب وأم ... وهم طاوٍ ، ومحتاجٌ فقيرُ
أتتهم ارثة فتقسموها ... وكلّهم بعدلٍ لا يجور
فحاز الأكبران الثلث منها ... وباقي المال أحرزه الصغيرُ !

وقد أجابه عامر بن عبد الله الظليمي فقال :

هي ابنة عمهم لا شك فيها ... حليلة بعضهم وهو الصغير
فكان له بفرض الزوج نصف ... وبالتعصيب يجتمع الكثير
إذا اقتسموا البقية صار عندي ... له الثلثان لا الثلث الحقير

وقال محمد بن أحمد اللحجي :

أتعرف خالاً أحرز المال كله ... وفاز به من دون عم وما غصب
وما الخال عم الميت حين يقصه ... ولكنه أدنى وأولى إذا انتسب

وقد أجابه عامر الظليمي فقال :

إذا ما أخي يوماً تزوج جدتي ... وجاءت بابن فهو خالي من النسب
فان متّ كان الخال أولى بمالنا ... وأدنى من الاعمام في جملة الرتب
هو ابن أخي خالي وما العم عندنا ... يكون له حق مع ابن أخ كأب

ومن شعراء المسائل والفقه حماد الحجبري من أهل ميتك وكان من رجال الزيدية ذوي العلم والديانة والورع والصيانة ، وكان ممن نابذ الصليحي وحاربه بلسانه وهو بمسار ثم نابذه هو وقومه حتى غدر به بعضهم وكان له شعر صالح ومنه قصيدة لامية فيها طول يوصي فيها أولاده قد اشتملت على محاسن من الأدب والحكمة وأولها :

بني اصبروا للدهر عند الزلازل　　　ولا تجزعوا عند الخطوب النوازل

[لوحات ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ طبقات مسلم ج ـ ٤]

شعراء علماء بلا تراجم

وهناك عدد كبير من علماء اليمن في العهد الصليحي وقبله وبعده اشتهروا بنظم القريض ، وذكروا في كتب الطبقات والتاريخ ولكن أحداً لم يعن بالترجمة لهم ، والتعريف بهم . وممن استطرد مسلّم اللحجي ذكره في الجزء الرابع من طبقاته :

١ ـ محمد العكلي شاعر عاصر أبا السعود بن زيد ولم يترجم له ولا أورد شيئاً من أشعاره ولكنه وصفه بالعلم والأدب وجودة الشعر .

٢ ـ صالح بن الحسن البصير كان أيضاً من شعراء المطرفية في عهد أبي السعود التنعمي .

٣ ـ يحيى بن موسى بن رزين شاعر مطرفي عاصر أبا السعود بن زيد .

٤ ـ الشاعر جوال بن مصعب الحسيني من معاصري أبي السعود أيضاً .

٥ ـ عطاف بن سبأ البكيلي شاعر عالم عاصر أبا السعود بن زيد .

٦ ـ السلطان ابراهيم بن أبي الغوازي

وكل هؤلاء قد ذكرهم مسلّم اللحجي عرضاً وهو يتحدث عن الحسن بن زايد الجنبي ومن رثّاه من الشعراء وعلماء المطرفية [ج ـ ٤ ـ لوحة ٥٢ ـ ٥٣] ومن شعر صالح البصير من قصيدة يرثي الحسن بن زايد

رمت حسناً أسنا الرجال مذاهبا　　　وأحسنهم صبراً على كل مقلق
وأبذلهم للعرف مما تحوزه　　　يداه، وأوفاهم بعهد وموثقِ
وأصدقهم وعداً وأرفع محتدا ،　　　وأزكاهم ما بين غرب ومشرقِ
مضى طاهر الأثواب من كل ريبة　　　على مذهب الهادي الأمين المصدق

وقال من أخرى يرثيه

وكنت لنا أنساً ومصباح ظلمةٍ إذا استبهمت جليتها ولك الشكرُ
مضى الحسن المفقود براً مطهراً من الرجس لا فحش عراه ولا نكر !
عفيفاً شريفاً ماجداً متكرماً سبوقاً إلى الخيرات يسمو به القدرُ
حليما إذا ما الصيد حلت لها الحُبا رأيت أبا المفضال فيها له الفخر
سكوتاً عن الأعداء لا ينطق الخنا إذا طاشت الأحلام وارتفع الهذر
فيا حسنا أوحشت محراب ذكرنا ومدرس بيت العلم عن عهده صفر

ومن قصيدة لعطاف بن سبأ البكيلي يرثي الحسن بن زايد أيضاً

فيا حسن الأفعال ، ياحسن الثنا ويا حسن الضرى ويا حسن السرى
لقد عظمت فيك الرزايا فأحرقت بنار الأسى قلبي وشبّبتِ الجمرا
غداة سكنت القبر في أرض غربةٍ فسقياً لها أرضاً وسقيا له قبرا !
رضيت به حتى القيامة مسكناً وروحك تلقاها الملائك بالبشرى
فأخليت بيتاً كان قرب أحبةٍ فأقوى واضحى عاطلاً موحشا صفرا
وكنت به تؤي الضيوف إذا أتوا وتفرشهم عرفاً وتلحقهم برا !
وتقريهم قبل القرى أعذب اللقا وذاك لعمر الله أعذب ما يُقرى
وتتبعه بالأكل والشرب والحبا تدين طوال الدهر مذ كنت بالأثرا
بما ملكت كفّاك لو كان درهماً لجادت به اليمنى ولم تبخل اليسرى

٧ ـ ومن شعر سليمان بن علي من قصيدة يرثي بها الحسن بن زايد :

فيا راكبا بلغ « سناعاً » نعاءه وناد بصوت في اليمانين هاتف
وقل لهم : مات الكريم ابن زايدٍ عظيم المقاري ذو الخصال الشرايف
وعز لأهل الدين في كل بلدةٍ بأروع زيدي المقالة عارف

[مسلم ج ـ ٤ ـ لوحات ٥٢ ـ ٥٤] .

٨ ـ ابراهيم بن يحيى بن زربون الصنعاني ذكره مسلّم اللحجي وقال ان مهاجاة وملاحاة شعرية حدثت بينه وبين الشاعر محمد بن زياد الماربي [لوحة : ١٢٠] .

٩ ـ إسماعيل بن علي بن عبد الله الأبار ؛ يقول « مسلّم » انه « صار إلى سناع وحده ولزم نواحي « الزيدية » وتعبد معهم وتزهد مده وكان له أدب وفصاحة وخط جيد وشعر حسن ؛ ثم صار إلى مدح الصليحيين

والـزواحيين وابن وائـل الكـلاعي وسلاطين الجند وغيرهم وتظاهر بشرب الخمور ، ومباشرة المحظور ، واعترف به على نفسه ، وله أخبار ونوادر ، وكان سريع البادرة وحيّ النادرة » [لوحة : ١٢١ ـ ١٢٢] .

١٠ ـ أحمد الفحّاش الصريمي الخمري

كان شاعراً ساخراً من شعراء القرن الخامس وقد ذكره مسلّم وأورد له أبياتـاً قال انه خاطب بها الشريف يحيى بن عباس ووزيره غدير ؛ وكانوا يرجفون بعودة المهدي الحسيني العياني ؛ وضربوا أجلا لظهوره بياض « المطو » أي عذق الذرة وهو سنبلتها ؛ وبعلّان ؛ و « علان » عند أهل اليمَن آخر الصيف .

فقال الفحاش يخاطبهم ساخراً

من مبلغ عني الســلام الكـثـير … يحيى بن عيسى والمـرجّى غديـر
ثم ابـن همدان حليـف الـنـدى … سفـير مولانـا ونعـم السفـير !
قد وعـدونـا موعـداً صادقـاً … فَصَرُبَ « المـطو » وراح الشعير !

وصرب بمعنى صرم وقـال مسلم : وأهـل اليمن يبـدلون الميم باء ؛ ويقولون في الصرام الصراب :

وكتب الفحاش إلى « ابن عباس » وأصحابه

أبـلغ ذوي الجـود والـبراعـه … ومـن بهم ترتجى الـشـفـاعـه
وأبـلغ حسـيـنـاً وصـاحـبيـه … وأقـرى سلامـي على الجـماعـه
أقـرى سلامـي على رجـال … حقـوقـهـم عنـدنـا مضـاعَـه
قالـوا حسـين وصـاحـبـاه … عنـد أبن عبـاس في « بتـاعـه »

ثم قال :

ان يدن هذا فقـد طلعـنـا … معـاً فويـق المـلا بسـاعـه
وان تكـن محنـة صبرنـا … وكـان نقـصاً على الجـماعـه
وسـقـطة المـرء يا خليـلي … تأتي على قدر الارتـفـاعـه
يارب خبٍّ له جزيـع … صغـيّر قد مضـى فبـاعَـه
بأعـنـز فوقـهـا قرون … أصـغـرهـا بالـغ ذراعـه

وقال مسلم شارحاً الغرض من هذه الأبيات الساخرة : « يريد إنهم كانوا يأمرون من هاجر إليهم ببيع ماله وشرا المعز لأنهم كانوا في ناحية من أسافل بلاد وادعة الموالية لبلاد حجور ؛ وظليمة كثيرة الشجر وعرة تصلح للمعز ؛ وقوله « جزيع » تصغير جزع ويراد بها القطعة من الأرض المزدرعة ، وقد يسمى إذا عظمت عندهم « جربة » وجزعا ولا تسمى جربة إذا صغرت و « تباعة » موضع . فسار شعر الفحاش وصار أمثالا تضرب هتك بها ستر القوم لا سيما قوله :

وسقطة المرء يا خليلي تأتي على قدر الارتفاعة

[لوحة : ٢٦١ ـ ٢٦٢] .

ويلاحظ ان الفحاش يستعمل الأوزان التي عادة يتغنى بها أهل اليمن سواء بالشعر « الحكمي » الفصيح المعرب أم بالشعر الحميني الملحون الذي لا يتقيد بحركات الاعراب بل ويستعمل العبارات العامية و « الصغيّر » الصغير وهي المستعملة في السنة أهل اليمن وفي « صنعاء » يقلبون الصاد زاياً فيقولون « زُغيّر » .

١١ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الطائي المعروف بالحكمي من معاصري مسلّم اللحجي روى عنه أخباراً في طبقاته وقال : « وكان أحد شعراء اليمن المجيدين ومترسليهم وذوي الأدب والفصاحة » [لوحة : ٣٣٩] .

فهرست السفر الثاني من كتاب
« تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي »

رقم الصفحة	العنـــــوان
٥	مقدمة .
٧	الشعر والشعراء .
٨	تأثر الأدب اليمني بالتيارات الوافدة .
٩	أعلام شعراء الفترة الثالثة .
١٠	تعدّد المواهب .
١١	١ ـ ابن مكرمان .
١٤	٢ ـ ابن الهُبَيْني .
١٥	٣ ـ أحمد بن علي التهامي .
١٦	٤ ـ أحمد العثماني . قصته مع نصراني نجران .
١٧	شعره في الصليحي ونهايته .
١٩	نماذج من شعره .
٢١	سنة هلاكه .
٢١	٥ ـ ابن مرزوق .
٢٢	٦ ـ ابن نحازة ـ ٧ ـ ابن النوقا .
٢٣	٨ ـ اسماعيل بن علا .
٢٤	٩ ـ أبو بكر العندي .
٢٥	مولده ونشأته ،
٢٨	العندي وشاعرية عمارة .
٣١	إحسانه الى عمارة .
٣٢	اعتذاره لسرقة شعرية .
٣٣	عماه وحزن عمارة .
٣٤	سرعة بديهته .
٣٥	شعره .
٣٨	معارضة هائية الهُبَيْني .
٤٠	عدن وداعيها عمران .
٤١	حنين الى العتبات المقدسة .
٤٤	حجازيات .
٤٥	أغرب جائزة في تاريخ الشعر .

رقم الصفحة	العنـــوان
٤٧	العندي والدعوة الاسماعيلية .
٥٢	شعر المديح
٥٥	الأديب وغريب اللغة
٥٨	استراحة المحارب
٦٠	آخر قصائده في الداعي
٦٥	شعر الغربة والحنين
٦٦	حمام البان
٦٨	حجازي من اليمن
٦٩	نكبة العندي وانتهاب ماله ودفاتره
٧٠	١٠ ـ أبو بكر اليافعي
٧١	اختلاف نسخ تاريخ عمارة
٧٢	نماذج من شعر اليافعي
٧٢	كان سنيّ العقيدة والمذاهب
٧٤	غيل خنوه
٧٥	قصيدة أسماء سور القرآن ـ اليافعي الفقيه
٧٦	لهفة الوداع
٧٧	سمّية النحوي ـ النعماني والرشيد بن الزبير
٧٩	نمط من نثر اليافعي
٨٠	١١ ـ أبو بكر المحرقي
٨٠	١٢ ـ جشيم البحيري
٨٤	١٣ ـ الحسن بن أبي عقامة
٨٦	سبب قتله ـ القصيدة النونية ومؤلفاته
٨٧	بينه وبين المعري
٨٨	قصيدته في المكرم
٨٩	١٤ ـ الحسين القمي
٩٠	قصة الملك جياش
٩٣	مولد القمي ونشأته
٩٦	مع جياش بن نجاح

رقم الصفحة	العنـــــوان
٩٨	منزلته الشعرية
٩٩	بين ابن القم والخفاجي وديوان شعره
١٠١	نماذج من شعره
١٠٨	مقطعات
١٠٩	في الرثاء
١١٠	في الهجاء
١١٢	في المديح
١١٣	في النسيب
١١٤	وفاته
١١٥	مسك الختام
١١٦	١٥ ـ حسين اليامي
١١٧	١٦ ـ خلف بن أبي الطاهر
١١٩	تعقيب تاريخي
١٢٣	عود الى الشاعر
١٢٦	١٧ ـ السلطان زكري البحري
١٢٧	شاعر غزل ولهو
١٢٨	لماذا لجأ إلى زبيد ؟
١٣٠	هل فرّ من أبيه
١٣١	احشاء التاريخ ، اندماجه مع المجتمع النجاحي
١٣٢	١٨ ـ سليمان المفضل
١٣٤	١٩ ـ سليمان بن شافع الحارثي ٢٠ ـ السّليف الحكمي
١٣٥	٢١ ـ عبد الله الحرازي
١٣٦	٢٢ ـ عبد الله بن علي بن أبي عقامة
١٣٧	٢٣ ـ عثمان بن أبي الفتوح
١٣٩	٢٤ ـ علي بن أبي الحسين الحكمي والأسرة الشاعرة
١٤٠	٢٥ ـ علي بن محمد الماربي
١٤١	٢٦ ـ عمارة الحكمي
١٤٢	حياة قصيرة لكنها عريضة . رائد المؤرخين اليمنيين

رقم الصفحة	العنـــوان
١٤٣	مذهب عمارة
١٤٧	موقف ابن خلكان
١٤٩	كان محبا للآل كامامه الشافعي
١٥٢	أسباب اعدام عمارة
١٥٤	شكاية المتظلم
١٥٥	١ ـ المقطع الأول
١٥٨	٢ ـ المقطع الثاني
١٦١	٣ ـ المقطع الثالث
١٦٣	٤ ـ المقطع الرابع
١٦٥	فضل مصر على عمارة المؤرخ والشاعر !
١٦٦	حياته في مصر
١٦٨	ولاحقته المكارم إلى عدن
١٦٩	العودة وقرار الهجرة ـ وشايات الحساد وموت الصالح
١٧٢	مع الوزير شاور وابنه الكامل
١٧٥	شعر عمارة في الايوبيين
١٧٧	عمارة المصور الفنان
١٧٩	حياته : عناصر مسرحية رائعة
١٨٠	٢٧ ـ السلطان عمر المناخي
١٨١	٢٨ ـ عمرو بن يحيى الهيثمي
١٨٣	نماذج من شعره
١٨٤	بين شريف مكة والصليحي
١٨٦	مرثاته للأعز الصليحي
١٨٧	على قبر الصليحي ـ تعقيب
١٨٨	٢٩ ـ الغرنوق
١٨٩	المحمدون ١ ـ محمد بن ابان ٢ ـ محمد بن مناذر ٣ ـ محمد بن عبد الله العزرمي ٤ ـ محمد بن زياد الحارثي ٥ ـ محمد بن يسير الرياشي ٦ ـ محمد بن وهيب الحميري ٧ ـ المرتضى محمد بن الهادي ٨ ـ محمد بن ابراهيم الصنعاني

رقم الصفحة	العنـــوان
	٩ ـ محمد العوسجي ١٠ ـ محمد بن افنونة ١١ ـ محمد الأوساني
١٩٠	١٢ ـ محمد بن الحسن الكلاعي ١٣ ـ محمد بن الوقار
	١٤ ـ محمد الخطاب العدوي ١٥ ـ محمد بن عبيد الصنعاني
	١٦ ـ محمد بن دانة ١٧ ـ محمد بن عبد الله الحميري
	١٨ ـ محمد بن عمر العمراني
	٣٠ ـ محمد الأعرج الحكمي
١٩١	٣١ ـ محمد بن زياد الماربي
١٩٢	نماذج من شعره
١٩٥	وفاته . قصة الغز . .
١٩٦	هل كان مطرفياً ؟
١٩٧	فوائد الاستطراد
٢٠١	٣٢ ـ محمد الحفائلي
٢٠٣	٣٣ ـ محمد بن عيسى الريمي
٢٠٤	٣٤ ـ محمد بن علي بن هندي
٢٠٦	٣٥ ـ محمد بن عيسى اليماني
٢٠٧	٣٦ ـ محمد بن المبارك ـ ٣٧ ـ محمد بن الحسن البكري
٢٠٨	٣٨ ـ محمد الطشي
٢٠٩	٣٩ ـ محمد بن أبارين
٢١٠	٤٠ ـ محمد العشمي
٢١١	٤١ ـ محمد بن أحمد اليامي
٢١٣	٤٢ ـ محمد بن أحمد القاضي
٢١٤	٤٣ ـ محمد بن ابراهيم البحيري ـ ٤٤ ـ محمد الطثير الحضوري
٢١٥	٤٥ ـ محمد بن العبيد الحكمي
٢١٥	٤٦ ـ نشوان الحميري
٢١٦	قصة نقائض نشوان مع الأشراف
٢٢١	مواقف الحساد والمتعصبين
٢٢٧	مصافاته للامام « ابن سليمان »
٢٢٨	أدوار حياة نشوان

رقم الصفحة	العنـــوان
٢٤٢	كان ألمعياً . . بل عبقرياً !
٢٤٥	أول من نادى بالنظام الجمهوري في اليمن
٢٤٧	شعر نشوان
٢٤٨	لا بارك الله فيهم ـ نجوم تريم
٢٥١	علامات استفهام في حياة نشوان
٢٥٤	٤٧ ـ يحيى بن أحمد عبد السلام
٢٥٦	٤٨ ـ يحيى الأهنومي
٢٥٩	شعراء حضرموت في العصر العباسي
٢٦٠	ابراهيم بن قيس الحضرمي
٢٦١	ديوان ابراهيم بن قيس
٢٦١	هل فتح الصليحي حضرموت ؟
٢٦٢	الافتخار بالنسب والمذهب ـ استنجاده بامام عمان
٢٦٣	شيخ الاسلام بافضل
٢٦٤	محمد بن أبي الحب ـ يحيى بن عبد العظيم
٢٦٥	علي بن محمد الحاتمي ـ علي الحجيشي ـ ابن عقبة
٢٦٧	شعراء العلماء والفقهاء :
٢٧٠	١ ـ أبو السعود بن زيد
٢٧٥	بين الماربي وأبي السعود
٢٧٦	انموذج من رسائله
٢٧٧	أسلوبه في الدعوة والانكار
٢٧٩	نماذج من أشعاره
٢٨٣	براعته وجودة طبعه
٢٨٥	٢ ـ أبو السعود الخنبصي
٢٨٥	٣ ـ أبو السعود العنسي
٢٩١	٤ ـ القاضي شريح الشهابي
٢٩٦	٥ ـ أبو القاسم الربعي
٢٩٧	٦ ـ عبد الله البشاري
٢٩٨	٧ ـ محمد حميد الزيدي

العنـــوان	رقم الصفحة
٨ ـ مسلم اللحجي شاعراً وكاتباً	٣٠١
حديثه عن نفسه	٣٠٤
نماذج من ترسله ونثره الفني	٣٠٥
عاش معذباً في شبابه	٣٠٦
اتصاله بالشيخ ابراهيم الضامي	٣٠٧
اتصاله بالشيخ أسعد العبيدي	٣٠٧
٩ ـ محمد بن عبدويه الكمراني	٣٠٨
١٠ ـ عمر بن علي السلالي	٣١٠
١١ ـ محمد بن طاهر الحارثي	٣١١
١٢ ـ علي بن سالم العبيدي	٣١١
١٣ ـ عبد الله الخولاني	٣١٩
شعر المعايات الفقهية	٣١٩
شعراء علماء بلا تراجم ١ ـ محمد العكلي ـ ٢ ـ صالح البصير	٣٢١
٣ ـ يحيى بن موسى بن رزين ـ ٤ ـ جوال بن مصعب الحسيني	٣٢١
٥ ـ عطاف بن سبأ البكيلي ـ ٦ ـ ابراهيم بن أبي الغوازي	٣٢١
٧ ـ سليمان بن علي	٣٢٢
٨ ـ ابراهيم بن يحيى بن زربون ـ ٩ ـ اسماعيل بن علي الأبار	٣٢٢
١٠ ـ أحمد الفحاش	٣٢٣
١١ ـ عبد الرحمن الطائي	٣٢٤
الفهرست	٣٢٥

وللمؤلف أيضاً

١ ـ مِنَ اليَمن ..	ديوان شعر
٢ ـ عُلاَلَةُ المغترب ،	ديوان شعر
٣ ـ أَلحانُ الشَّوقِ ،	ديوان شعر
٤ ـ حَصادُ العُمْر ،	ديوان شعر
٥ ـ إلياذَة مِنْ صَنعآء ،	ديوان شعر
٦ ـ المَوْؤُدات ،	ديوان شعر
٧ ـ ألف بآء اللُّزُومِيَات ،	ديوان شعر
٨ ـ بَنَاتُ الخَمسين ،	ديوان شعر
٩ ـ لزوميّات الشعْرِ الجديد ،	ديوان شعر
١٠ ـ قِصَّةُ الأَدب في اليمن ،	دراسات وتاريخ
١١ ـ مِنَ الأدب اليَمني ،	نقد وتاريخ
١٢ ـ مع الشّعْرِ المعاصر في اليمن	نقد وتاريخ
١٣ ـ معَ الأدب في اليمن ؛	نقد وتاريخ
١٤ ـ عَشَرةُ في حياتي ،	نقد وتاريخ
١٥ ـ رسائلُ الشّامي ،	نقد وتاريخ
١٦ ـ ديوانُ الهَبَل ،	نقد وتأريخ
١٧ ـ « يقول علي بن زايد »	نقد وتاريخ